وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

ويطول اليوم أكثر من قرن

أو نقطة « أم العواصف »

تأليف: جنكيز أيتماتوف
ترجمة: عاطف أبو جمرة

روايات عالمية (٢١)

ويطول اليوم
أكثر من قرن

أو نقطة «أم العواصف»

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

ويطول اليوم أكثر من قرن

أو نقطة «أم العواصف»

تأليف : جنكيز أيتماتوف
ترجمة: عاطف أبو جمرة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

ЧИНГИЗй

АЙТМАТОВ

И дольше века

Длится день…

Буранный

полустанок

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٨٨

منشورات وزارة الثقافة

تحت سلسلة روايات عالمية (٢١)

ويطول اليوم أكثر من قرن، أو، نقطة أم العواصف / تأليف جنكيز أيتماتوف؛ ترجمة عاطف أبو جمرة . ط ٢ .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٤٠٠ ص ؛ ٢٤ سم.

(رويات عالمية؛ ٢١)

١ - ٤٠٨,٠٢ ب ا س د ٢- العنوان ٣- باسنت

٤ - عبد المطلب

مكتبة الأسد

В связи с выходом моих произведений на арабском языке, я считаю своим долгом сказать несколько слом, обращаясь к современным арабским читателям. Мы хорошо понимаем какие испытания века берут на себя арабские народы в борьбе за подлинную независимость и общий прогресс. Именно в этик условиях еще больше возрастает значимость культурных ценностей арабского мира, входящих в обшую сокровищницу духовного развития человечеста. Но всякая культура развивается полноценно, когда она имеет контакты, взаимодействия с другими культурами.

Я надеюсь, советская литература, в том числе мои книги, могут представлять определенный интерес с точки зрения нового социалистического опыта художественнго познания действительности.

Ч. Айтматов

عندما علم المؤلف بأن روايته هذه تترجم إلى اللغة العربية، أرسل إلى المترجم هذه الأسطر التي يتوجه بها إلى القارئ العربي.

نظراً لصدور بعض أعمالي باللغة العربية، أرى من واجبي أن أتوجه ببعض كلمات إلى القارئ العربي المعاصر. نحن نعلم امتحان الزمان الصعب الذي تمر خلاله الشعوب العربية في نضالها من أجل الاستقلال الحقيقي والتقدم الشامل. في هذه الظروف بالذات تزداد أهمية قيم العالم العربي الثقافية أكثر وأكثر، وهي التي تنتمي إلى كنز التطور الروحي الإنساني العام. لكن أية ثقافة كانت لا تتطور تطوراً متكاملاً إلا إذا كانت على احتكاك وتفاعل مع الثقافات الأخرى.

وأنا آمل أن يثير الأدب السوفييتي، بما فيه مؤلفاتي، اهتماماً ما، من زاوية كونه التجربة الاشتراكية الجديدة في ميدان إدراك الواقع.

تشينغيز أيتماتوف

كلمة المؤلف

من المعروف أن حب العمل هو أحد المعايير الرئيسية لكرامة الإنسان.

ومن هذا الفهم يعتبر بديغاي جانغيلدين أو يديغاي العاصف – كما يسميه من يعرفه من الناس – كادحاً حقيقياً فعلاً. إنه واحد من أولئك الذين ترتكز الأرض على أكتافهم، كما يقولون. ويرتبط بعصره – كما أتصور أنا – بأوثق الروابط، وفي هذا يكمن جوهره – إنَّه ابن عصره.

لهذا بالذات كان من المهم بالنسبة لي، وأنا أتطرق لتلك المشاكل التي تعالجها الرواية، أن أرى العالم من خلال حياته – حياة المحارب على الجبهة وعامل السكك الحديدية. وقد حاولت أن أقوم بذلك بقدر ما تيسر لي الأمر. شخصية يديغاي العاصف موقفي من المبدأ الجذري للواقعية الاشتراكية التي كان الإنسان العامل وما يزال الموضوع الرئيسي لدراستها.

بيد أني بعيد عن إعطاء مفهوم «الإنسان الكادح» صفة الإطلاق، لمجرد أنه «إنسان بسيط وطبيعي» يحرث الأرض بدأب أو يرعى الماشية. فبقدر ما يكون الإنسان الكادح ذاتاً متميزة، وبقدر ما تكون عظيمة اهتماماته الروحية، وبقدر ما يتكشف زمنه فيه، يكون هذا الإنسان مهماً مقيماً في الصدام بين الأبدي والآني في الحياة. ولذا حاولت أن أضع يديغاي في مركز العالم المعاصر لي وفي وسط المشاكل التي تقلقني.

يديغاي العاصف ليس مجرد كادح بطبيعته ونوعية عمله. إنه إنسان محب للعمل. والإنسان ذو النفسية المحبة للعمل سوف يطرح على نفسه الأسئلة التي تكون الأجوبة عليها جاهزة دائماً لدى الآخرين، الذين يقومون بهذا العمل أو ذاك متكاسلين، حتى لو أتقنوه، وهم لذلك يعيشون مستهلكين.

يبدو أن هناك علاقة تآخ بين الناس ذوي النفسيات المحبة للعمل فهم قادرون دائماً أن يميز ويفهم أحدهم الآخر، وإن لم يقدروا على الفهم فهم قادرون على التفكير والتأمل. فزمننا يعطيهم من الزاد من أجل التفكير والتأمل ما لم يعطهم أي زمن آخر أبداً. إن سلسلة الذاكرة الإنسانية تمتد من الأرض إلى الفضاء.

ويبدو أن أكثر التناقضات مأساوية في نهاية القرن العشرين تتلخص في لا محدودية العبقرية الإنسانية وفي عدم إمكانية تجسيدها بسبب العوائق السياسية والأيديولوجية والعنصرية التي تقيمها الإمبريالية.

في الظروف السائدة في أيامنا هذه التي لا تتوفر فيها فقط الإمكانية التقنية للانطلاق دائماً إلى الفضاء، بل وتبرز فيها الحاجة الإنسانية والاقتصادية والإيديولوجية الملحة إلى تحقيق هذه الإمكانية، في هذه الظروف يصبح تأجيج الفرقة بين الشعوب وهدر الثروات المادية والطاقات العقلية في سباق التسلح، من أكثر الجرائم شناعة ضد الإنسانية.

إن السعي إلى انفراج التوتر الدولي هو الوحيد الذي يمكن اعتباره سياسة تقدمية في هذه الأيام.

وإذا لم تتعلم البشرية كيف تعيش بسلام فإنها ستموت. إذ أن جو انعدام الثقة المتبادلة والتخوف والمجابهة هو واحد من أخطر التهديدات الموجهة إلى حياة البشرية الهادئة والهانئة.

قد يسامح الناس بعضهم بعضاً، لكنهم لا يستطيعون أن يوحدوا نمط تفكيرهم ويظلوا – مع ذلك – بشراً ومحافظين على مزاياهم الإنسانية. لقد ترافقت أطماع السيطرة والإمبريالية والإمبراطورية منذ القدم وحتى يومنا هذا بالرغبة في تجريد الإنسان من خصوصيته.

إن الإنسان، إذا نسي ماضيه، يجد نفسه أمام ضرورة تحديد موقعه في العالم من نقطة البداية. فالإنسان المنقطع عن تجربة شعبه التاريخية وتجربة بقية الشعوب يجد نفسه خارج الأفق التاريخي ولا يستطيع أن يعيش إلا ليومه.

ويكفينا هنا أن نتذكر «الثورة الثقافية» في الصين، وأن نتذكر التحكم بوعي الشعب، هذا التحكم الذي مسخ ديالكتيكية تعقيدات الحياة إلى مستوى كلام ما يسمى «كتاب ماو الأحمر»، يكفي أن نتذكر مصير الشعب الذي يملك تقاليد عريقة في القدم، على أرضية سياسة الهيمنة التي تتبعها القيادة الصينية اليوم، لكي نتأكد من تلازم هذه الظواهر. ومهما بدا حجم المفارقة هنا كبيراً، فإن هناك أشياء أخرى متلازمة: رفض أو تشويه الماضي، الشوفينية المتغطرسة التي لا ترضي إلا أصحابها فتضطر إلى إحاطة نفسها بسور كسور الصين، إذ لن تستطيع خرافة تفوق شعب على بقية الشعوب أن تعيش وتصمد إلا مختبئة وراء مثل هذا السور.

وكما هو الحال في أعمالي السابقة، اعتمدت في هذا العمل أيضاً على الأساطير والخرافات وعلى الحكايا المتوارثة، باعتبارها تجربة تركتها الأجيال الماضية وخلفتها خصيصاً لنا. إلى جانب ذلك لجأت، ولأول مرة خلال نشاطي الأدبي كله، إلى استخدام موضوع الخيال العلمي. إلا أن هذا وذاك لا يعتبران هدفاً بحد ذاتهما، بل مجرد طريقة للتفكير وأحد أساليب إدراك وتفسير الواقع.

من الطبيعي أن الأحداث المتعلقة بوصف الصلات مع الحضارة اللاأرضية وكل ما يحدث بسبب هذا لا يستند مطلقاً إلى أية أرضية حقيقية. فلا وجود واقعي في الدنيا للمطارات الكونية في صاري – اوزيكي ونيفادا مطلقاً. وكل القصة «الفضائية» من بدع خيالي وتهدف إلى شيء واحد هو الزيادة من حدة الموقف المفعم بالمخاطر الكامنة على الناس والأرض من خلال شكل فيه مفارقة ومبالغة.

المفارقة الرهيبة في هذا العالم هي أن الحروب كانت تتوقف في اليونان القديمة أثناء الألعاب الأولمبية، أما اليوم فقد أصبحت الدورة الأولمبية بالنسبة لبعض الدول حجة من أجل الحرب الباردة.

أما بشأن دور الفكرة الخيالية، فإن دوستويفسكي قد كتب في حينه: «الخيالي في الفن له حدود وقواعد. يجب أن يكون الخيالي على تماس مع الواقعي، لدرجة تجعلكم تكادون تصدقونه». وبهذا وضع دوستويفسكي صيغة دقيقة لقانون الخيالي. وبالفعل، فإن أساطير القدماء والواقعية الخيالية عند غوغول أو بولغاكوف أو ماركيز أو في الخيال العلمي تبدو بالرغم من كل التباين فيما بينها مقنعة بفضل قوة تماسكها مع الواقع. فالخيالي يمتن بعض جوانب الواقعي، ويبرز «قواعد اللعبة» بعد أن يحددها بشكل فلسفي تعميمي، محاولاً – إلى أقصى الدرجات – كشف القوة الممكنة لتطور السمات التي اختارها.

الخيالي هو المجازية في الحياة، المجازية التي تسمح برؤية الحياة من زاوية نظر جديدة غير متوقعة. المجازية أصبحت ضرورية جداً في عصرنا، ليس فقط بسبب دخول الإنجازات العلمية التقنية إلى الميدان الذي كان بالأمس خيالاً، بل، وعلى الأغلب، لأن العالم الذي نعيش فيه عالم خيالي تمزقه التناقضات الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية والعنصرية.

وهكذا أريد أن أتذكَّر مجازية صاري – اوزيكي، في روايتي، الإنسان العامل، من جديد، بمسؤوليته عن مصير أرضنا...

- ١ -

وهذا الكتاب عوضاً عن جسدي وهذه الكلمات عوضاً عن روحي.

غريغور ناريكاتسي

«كتاب الأحزان»

القرن العاشر

كان البحث عن الفريسة بين الأعشاب اليابسة وفي الوهاد الجرداء يحتاج إلى جلد كبير. وكانت ثعلبة جائعة تتصيد فئران الحقل تقترب ببطء وإصرار من خط السكة الحديدية آتية من مكان بعيد باتجاه المرتفع القاتم الممتد باستقامة في السهب، هذا المرتفع الذي يجتذبها ويخيفها في آن واحد، والذي كانت القطارات الهادرة تجري عليه تارة في هذا الاتجاه وتارة في ذلك وهي ترج الأرض تحتها مخلية وراءها دخاناً ورائحة حريق قوية مخرشة تحملها الرياح معها أينما اتجهت. – كانت الثعلبة تقترب من الخط الحديدي ملاحقة تارة جري المخلوقات الصغيرة التي تحفر الأرض وتدوخ رأس من يلاحقها، وتارة أخرى ناكشة بعصبية في جحور الجرذان، وتارة ثالثة متربصة منتظرة فأر حقل هزيل مختبئ في جيب مجرى ماء قديم، إلى أن يقفز إلى مكان مكشوف فيصبح من الممكن البطش به.

عند المساء استلقت الثعلبة إلى جانب خط أسلاك البرق، في قاع حفرة وسط جزيرة من عشب الحماض الكثيف اليابس باسق الطول، وتكورت في

كتلة صهباء اللون بين هذه السوق النباتية ذات اللون الأحمر الداكن التي ناءت بحملها من البذور المتراصة، تكورت منتظرة بصبر حلول الظلام وهي تهز بعصبية أذنيها منصتة إلى صفير الرياح الحاد بين الأعشاب الميتة ذات الحفيف الجاف.

أعمدة البرق كانت هي الأخرى تصفر بشكل مضني. – إلا أن الثعلبة لم تكن تخافها، فالأعمدة تظل في مكانها ولا تستطيع ملاحقتها.

لكن الضجيج الذي يصم الآذان، المنبعث عن القطارات المتلاحقة كان يضطرها في كل مرة إلى الارتعاش والتوتر والانكماش والتكتل أكثر وأكثر. كانت تحس هدير الأرض بكل جسمها النحيل وأضلاعها، كانت تحس القوة العجيبة لهذا الثقل الذي ترتج تحته الأرض، ولسرعة حركة القطارات الخاطفة. ومع ذلك لم تغادر حفرتها مكابرة الخوف والتقزز من الروائح الغريبة، وظلت تنتظر ساعتها الموعودة، حين يسود الهدوء نسبياً على الدروب بعد حلول الظلام.

لم تكن الثعالب تأتي إلى هنا إلا في حالات نادرة جداً. فقط في حالات الجوع الشديد.

في الفترات الفاصلة بين مرور القطارات كان يسود في السهب هدوء مفاجئ، وكأنه هدوء ما بعد الانهيار. في هذا الهدوء المطلق كانت الثعلبة تلتقط من الهواء صوتاً غامضاً، آتٍ من الأعلى، يجتاح السهب وقت الغسق، صوتٌ مجهول المصدر يكاد لا يسمع. ربما كان لعبة تيارات الهواء، وربما كان نذير تحول سريع في الطقس. لقد أحس هذا الحيوان الصغير غريزياً بهذا فتسمر بمرارة وتجمد ساكناً. كان يود لو يصيح بكل صوته من هذا البلاء الشامل الغامض الذي أحس باقترابه. لكن الجوع خنق حتى إنذار الطبيعة هذا. وخلال لحسها لبطون قوائمها التي أضناها الجري كانت الثعلبة تكتفي بالعواء بهدوء.

في تلك الأيام كان الطقس يميل إلى البرودة في المساء، فالخريف كان يقترب. وفي الليل كانت تبرد التربة، أما عند الفجر فقد كان رذاذ الندى المتجمد يغطي السهب بالبياض، فيبدو وكأنه سهل من الملح. لقد اقترب الفصل البائس الحزين بالنسبة لحيوان السهوب هذا، واختفت تلك الفريسة النادرة التي كانت تتواجد في هذه المناطق صيفاً: بعضها رحل إلى المناطق الدافئة وبعضها الآخر آوى إلى الجحور والباقي قرر قضاء الشتاء في الرمال. كل ثعلبة تحلم الآن برزقها وهي تجوس السهوب في وحدة تامة، وكأن نسل الثعالب قد تلاشى عن سطح المعمورة. مواليد تلك السنة كبروا وتفرقوا في كل الجهات، ولم يأت بعد موسم الحب، حيث تبدأ الثعالب بالتوارد شتاء من كل مكان بحثاً عن لقاءات جديدة، إذ يشتبك الذكور في عراكات عنيفة لها نفس عنف الحياة منذ خلقت الحياة...

مع حلول الظلام خرجت الثعلبة من الحفرة، وانتظرت وأنصتت ثم جرت بخطى قصيرة إلى الخط الحديدي قافزة بلا ضجيج من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر. كانت بهذا تبحث عن الطعام الذي يلقي به المسافرون من نوافذ العربات.

ركضت طويلاً على المنحدرات الموجودة على جانبي الطريق الحديدية وهي تشم كل تلك الأجسام التي كانت تنبعث منها روائح مقرفة حتى عثرت على شيء ما نافع، لكنه صغير صغير. كانت الأوراق والجرائد المكتلة المكورة والقوارير المكسرة وأعقاب السكائر وعلب المحفوظات المهشمة وغير ذلك من الأوساخ التي لا فائدة منها تتناثر على طول خط سير القطار. أكره الروائح كانت تلك المنبعثة من فوهات بعض القوارير التي لم تنكسر، والتي تفوح منها رائحة مخدرة. لكن الثعلبة صارت تتحاشى استنشاق الهواء الكحولي بعد أن أصيبت بالدوار أكثر من مرة، فصارت إذا صادفته تنخر وتبتعد هاربة.

أما ما كانت بحاجة إليه، ما منت نفسها به طويلاً مكابرة خوفها، فلم يكن موجوداً، نكاية بها.

وظلت الثعلبة تجري بلا كلل على طول الطريق الحديدية قافزة من جانب إلى جانب يحدوها الأمل بإيجاد ما تقتات به.

وفجأة تسمرت في مكانها ورفعت قائمتها الأمامية، كأنَّ شيئاً ما انتابها فجأة. وقفت بين السكتين ذائبة في ذلك النور الشاحب المنبعث من القمر العالي الموشح بالضباب، وقفت بين السكتين بلا حراك كالشبح. فالدوي البعيد الذي استنفر حواسها يتلاشى، لكنه مازال بعيداً جداً. ومع ذلك بدلت وضعية قائمتيها الأماميتين دون تصميم وهي متوثبة متحفزة للابتعاد عن الطريق. لكنها عوضاً عن ذلك انطلقت فجأة تعدو مسرعة على جانبي الطريق الحديدية المنحدرين، وهي ما تزال تأمل في العثور على شيء ما يمكن أكله. كانت تحس أنها ستجد شيئاً، بالرغم من أن قعقعة الحديد وأصوات مئات العجلات كانت تقترب بصوت رهيب متعال بإصرار. تمهلت الثعلبة لجزء من الدقيقة، وكان هذا كافياً لكي تنطلق في ركض أهوج، كفراشة صغيرة فقدت صوابها، إذ صدمتها فجأة من المنعطف تلك الأنوار القريبة والبعيدة المقطورة أزواجاً والصادرة عن عربات القطار. عند ذلك أنارت المصابيح القوية المبهرة كل شيء أمامها، فلونت السهب للحظة بلون أبيض وعرت بلا شفقة جوهرة الميت. أما القطار فكان ينزلق بسرعة خاطفة على القضبان الحديدية. وانتشرت في الجو رائحة حريق مخرشة حادة ورائحة غبار ثم عصفت الريح.

واندفعت الثعلبة بسرعة كبيرة بعيداً عن الطريق، وهي تنظر خلفها وتتعثر في جريها بالأرض لشدة الخوف وهذا التنين ذو الأنوار الراكضة ما يزال يهدر ويجري ويقعقع بعجلاته طويلاً، فقفزت الثعلبة من جديد وعادت لتطلق سيقانها للريح.

بعد هذا وقفت لتلتقط أنفاسها، ثم عادت إلى الطريق الحديدية، حيث كان بإمكانها أن تسد جوعها. لكن الأضواء عادت لتظهر ثانية على هذا الخط ومن جديد كان زوج من القاطرات يجر قطاراً محملاً طويلاً.

عندها هربت الثعلبة لتلتف حول السهب ظانة أنها ستعود إلى الطريق الحديدية في مكان لا تسير عليه القطارات...

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق...

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صارى اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

وفي هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

في منتصف الليل كان شخص ما يقترب بخطى حثيثة نحو غرفة مراقب السكة الحديدية. في البداية سار نحوها بخط مستقيم على عوارض الخط الحديدي، لكنه هبط على المنحدر عندما ظهر القطار القادم نحوه، وصار يسير بصعوبة وكأنه يخترق عاصفة ثلجية محاولاً بيديه صد الريح والغبار الذي يثيره هبوب الريح من تحت القطار المندفع. (كان هذا القطار ذا مهمة خاصة تفتح له كل الشارات الخضراء، وكان يسير بعد ذلك على طريق فرعية خاصة إلى منطقة مغلقة تسمى «صاري – اوزيك - ١». على ذلك الخط الفرعي يوجد جهاز الخدمات الخاص به – هذا القطار يذهب إلى المطار الكوني. وباختصار: هذا هو السبب الذي جعل القطار يسير وهو مغطى بالقماش المشمع وبحراسة عسكرية على جانبيه). أدرك يديغاي مباشرة أن القادم هو زوجته، وأنها لا تسرع عبثاً، بل أن هناك سبباً هاماً جداً

لإسراعها. وهذا ما ثبت فعلاً فيما بعد. لكن يديغاي لم يستطع – بحكم عمله – أن يغادر مكانه إلا بعد أن مرت أمامه العربة الأخيرة والمراقب يقف على شرفتها المكشوفة، فأشارا لبعضهما بالمصابيح، دلالة على أن كل شيء في الطريق على ما يرام. عندها فقط اتجه يديغاي، الذي صم ضجيج القطار الشديد أذنيه، إلى زوجته التي كانت قد وصلت في الوقت المناسب.

- ماذا بك؟

نظرت إليه بقلق وحركت شفتيها. لم يسمع يديغاي، لكنه فهم – هذا ما قدره.

- تعالي إلى هنا من الريح.

وقادها إلى الغرفة.

لكنه وفي تلك اللحظة بالذات، وقبل أن يسمع منها ما كان قد حرره، دهش لشيء آخر تماماً. فبالرغم من أنه كان يلاحظ في السابق أن السن يتجه بها نحو الشيخوخة، إلا أنه في هذه المرة حزن عليها عندما رأى كيف تلهث بعد السير السريع وكيف يخر صدرها ويبح ثقيلاً، وكيف يعلو كتفاها النحيلان في هذه الأثناء بشكل غير طبيعي. وكشف الضوء الكهربائي القوي في غرفة مراقبة السكة الحديدية المطلية كلها بلون أبيض ناصع، كشف بفظاظة تلك التجاعيد التي لا يمكن إزالتها عن الخدين القاتمين المزرقين لدى اوقوبالا (وقد كانت اوقوبالا فولاذية سمراء بلون الحنطة، وكانت عيناها تتلألأن دائماً بلمعان أسود)، كشف الضوء كذلك هذا الضمور في فمها الذي يؤكد من جديد أن المرأة لا يجوز أن تظل بلا أسنان حتى لو كانت قد عاشت عمرها كله. (كان يجب منذ زمن طويل أخذها إلى المحطة لتركيب أسنان معدنية. فالجميع الآن يستخدمون هذه الأسنان – الصغار والكبار) وفوق كل هذا حزت في قلبه خصل الشعر الأشيب البيضاء التي تبعثرت على وجهها من تحت المنديل الذي انحسر عن رأسها. وتأسف لحالها في سريرته مع إحساس مكتوم

بالذنب: «أي... كيف هرمت عندي». وامتلأ صدره أكثر وأكثر بالامتنان الصامت لها على كل شيء، دفعة واحدة على كل ما قاسته معه، على السنوات الطويلة، وبشكل خاص على أنها جاءت الآن وقطعت الطرقات في منتصف الليل إلى أبعد نقطة في الموقع بدافع من الاحترام والواجب، ولأنها كانت تعرف أهمية هذا الأمر بالنسبة ليديغاي. جاءت لتخبره بموت العجوز البائس قازانغاب، وهو شيخ وحيد، مات في غرفة طينية خابية، لأنها كانت تفهم أن يديغاي هو الوحيد على وجه الأرض الذي سيتأثر من صميم قلبه بموت هذا الإنسان بعد أن هجره الجميع، رغم أن الراحل لم يكن بالنسبة لزوجها، لا قريباً ولا نسيباً.

قال يديغاي عندما دخلا إلى الغرفة:

- اجلسي والتقطي أنفاسك.

فقالت هي لزوجها:

- واجلس أنت أيضاً.

وجلسا.

- ماذا حدث؟

- مات قازانغاب.

- متى؟

- مررت عليه لتوي كي اطمئن عليه. فكرت أنه قد يحتاج لشيء ما. دخلت: المصباح مضيء وهو في مكانه. لم أر سوى لحيته منتصبة إلى الأعلى. اقتربت منه وناديته: قازاكية، قازاكية، هل أقدم لك شاياً ساخناً؟ أما هو فقد كان...

وغاب صوتها وبزغت الدموع من تحت جفونها المحمرة، وأجهشت اوقوبالا بالبكاء، إذ لم تستطع أن تضبط نفسها. وتابعت:

- هكذا كانت النهاية. كان إنساناً وأي إنسان. ومات دون أن يجد من يطبق له جفنيه – وتأسفت باكية – من كان يتوقع هذا؟ لقد فطس هذا الإنسان...

كانت تنوي أن تتابع وتقول:... ككلب على درب، لكنها صمتت. فلا حاجة للتأكيد لأن الأمر واضح دون ذلك.

كان يديغاي العاصف – هكذا كانوا يلقبونه في الناحية منذ بدأ يعمل في نقطة مرور القطارات «أم العواصف» بعد عودته من الحرب – كان يجلس على المصطبة المتنقلة وقد ألقى بيديه الثقيلتين كجذامير الأشجار على ركبتيه. وكانت تظلل عينيه واقية قبعة مهترئة شديدة الاتساخ، كالتي يرتديها عمال السكك الحديدية.

بماذا كان يفكر؟

تمتمت زوجته:

- ماذا سنعمل الآن؟

رفع يديغاي رأسه ونظر إليها بابتسامة سخرية مرة:

- ماذا سنعمل؟ وماذا يعملون في مثل هذه الحالات. سندفنه... ونهض من مكانه كمن اتخذ قراره، وتابع

- إذن، هكذا يا امرأة عودي بسرعة. ولكن اسمعيني جيداً الآن.

- إني مصغية.

- أيقظي أوسبان. لا تقولي: رئيس المحطة. هذا لا يهم. أمام الموت الكل متساوون. قولي له أن قازانغاب قد مات. إنسان عمل أربعاً وأربعين سنة في مكان واحد. ربما لا يكون أوسبان قد ولد بعد عندما بدأ قازانغاب هنا، في حين كانت الكلاب ترفض المجيء إلى صاروزيكي مهما دفع لها. كم من القطارات مرت من هنا في عهده – أكثر من شعر الرأس... فليفكر. هكذا قولي له. وأيضاً اسمعي...

- قل! أنا مصغية.

- أيقظي الجميع، واحداً واحداً. اِقرعي النوافذ. كلنا هنا ثمانية بيوت. يمكن عدها على أصابع اليد... انهضي الجميع على أقدامهم. لا يجوز لأحد أن ينام اليوم، يوم وفاة هذا الإنسان. أنهِضي الجميع.

- وإذا بدؤوا يشتمون؟

- واجبنا أن نخبر الجميع. أما هم فليشتموا. قولي إني أنا الذي أمرتك بإيقاظهم. يجب أن تكون لديهم ضمائر. انتظري!

- ماذا أيضاً؟

- عرجي في البداية على المناوب المنظم. اليوم هو شايميردين. أخبريه بما حدث وكيف، وقولي له أن يفكر كيف يجب أن يتصرف. ربما يجد بديلاً لي اليوم. وإذا قرر شيئاً فليعلمني. فهمت؟ قولي له هذا.

- سأقول، سأقول...

توقفت، وكأنها تذكرت فجأة أهم شيء. كأنها تذكرت شيئاً لا يجوز نسيانه:

- وأبناؤه... هنا المشكلة. يجب إرسال خبر إليهم قبل كل شيء وإلا فكيف؟ والدهم يموت...

تجهم وجه يديغاي مستهجناً وازداد قَسوة عند سماعه هذه الكلمات ولم يجب زوجته، فتابعت اوقوبالا بلهجة تبريرية وقد أدركت أن يديغاي لا يروقه سماع هذا.

- فالأبناء، أياً كانوا، يظلون أبناء.

- أعرف – قال هذا وحرك يده مسلماً بالأمر – أتظنينني لا أقدر أبداً؟ المشكلة أنه كيف يمكن أن يتم ذلك في غيابهم، مع أنه لو كان الأمر لي لما سمحت لهم بالاقتراب منه.

- يديغاي، ليس هذا شأننا. فليحضروا وليدفنوه بأنفسهم. وإلا فستدور الأقاويل التي لن تَنْجُ منها طوال العمر.

- وهل أمنعهم؟ فيلحضروا.

- أيستطيع ابنه أن يحضر من المدينة في الوقت المناسب؟

- يستطيع إذا أراد. أول أمس، عندما كنت في المحطة أرسلت له برقية بنفسي. قلت له الأمر كذا وكذا وأبوك على عتبة الموت. ماذا نفعل أكثر من هذا؟ هو يعتبر نفسه ذكياً، لذلك عليه أن يدرك إلى أين ستصل الأمور.

- إذا كان الأمر كذلك – لا بأس.

استسلمت الزوجة بشكل غير واضح لتحليلات يديغاي، وظلت تفكر بشيء ما يقلقها، ثم تابعت:

- ليته يحضر مع زوجته. رغم كل شيء فهذا الذي ستدفنه هو حموها، وليس إنسان غريباً.

- هم أنفسهم يقررون هذا. لا يحتاجون إلى من يعلمهم، فهم ليسوا أطفالاً صغاراً.

- طبعاً، هذا صحيح.

وافقت اوقوبالا وهي ما تزال تشك. وصمت الاثنان.

قال يديغاي منبهاً زوجته:

- هيا اذهبي. لا تتأخري.

ولكن كان لدى زوجته ما تقوله:

- وابنته آيزادا المسكينة، في المحطة مع زوجها السكير وأطفالها... يجب أن تلحق الدفن أيضاً.

ابتسم يديغاي بغير إرادة منه وربت على كتف زوجته.

- ستَبدئين الآن بحَمل هموم الجميع... ايزادا على مرمى حجر منا، ليقفز أحدهم صباحاً إلى المحطة ويخبرها. طبعاً ستحضر. أفهمي يا زوجتي شيئاً واحداً: لا فائدة من آيزادا ولا من سابيتجان، مع أنه ابنه ورجل. سترين. سيأتون حتماً – إلى أين سيهربون. ولكنهم سيقفون كالضيوف الغرباء، ونحن الذين سندفنه. هذا ما سيحدث... اذهبي وافعلي ما قلته لك.

انطلقت الزوجة، ثم توقفت بتردد، ثم انطلقت ثانية. هنا صرخ يديغاي في أثرها:

- لا تنسي. أولاً إلى المناوب، إلى شايميردين. فليرسل لي شخصاً ما ليحل محلي. وأنا سأعوض هذا فيما بعد. المرحوم متروك في بيت خاو، ولا أحد بقربه. أيجوز هذا... هكذا قولي له...

- ومضت زوجته وهي تهز رأسها بالموافقة. في هذه الأثناء لمع المؤشر على لوحة المراقبة بضوء أحمر وآخر أصفر – قطار جديد يقترب من نقطة المراقبة – أم العواطف. كان يجب بناء على توجيهات المناوب استقباله على الخط الاحتياطي ريثما يمر القطار القادم من الجهة المعاكسة والموجود في مدخل النقطة المقابل، عند السهم. إنها مناورة عادية. وبينما كانت القطارات تتحرك على السكك كان يديغاي يلقي نظرات خاطفة بين حين وآخر إلى اوقوبالا المبتعدة عند نهاية الخط وكأنه نسي أن يقول لها شيئاً ما. كان لديه ما يقوله طبعاً. أقليلة هي الأمور التي يجب إنجازها قبل الدفن؟... لن يتذكر كل شيء دفعه واحدة. لكنه كان يلتفت إليها لسبب آخر. أدرك الآن، والآن بالذات وبحزن عميق، أن زوجته قد هرمت وتحدب ظهرها في الفترة الأخيرة. لقد كان هذا واضحاً من خلال غمامة أنوار الطريق الصفراء الشاحبة.

وفكر يديغاي: ها هي ذي الشيخوخة تمتطي أكتافنا إذن لقد وصلنا إليها «عجوز وعجوزة» وبالرغم من أن الله لم يُسِئ إليه في صحته – إذ أنه ما

يزال قوياً – فإن تعداد السنين يجري سريعاً. إنها ستون، لا بل وسنة أخرى – إحدى وستون. وقال يديغاي لنفسه بشكل لا يخلو من السخرية: «أغمض عينك وافتَحهُما فتمر سنتان، وقد يحيلونك على التقاعد». لكنه كان يعرف أنه لن يحال على التقاعد قريباً، وليس من السهل، في هذه الأماكن إيجاد بديل عنه – عامل صيانة خطوط وعامل إصلاح وفي بعض الأحيان مراقب نقطة التحويل، وذلك عندما كان يمرض بعضهم أو يذهب في إجازة. من سيأتي إلى هذا المكان النائي القاحل، حتى لو دفعوا له أجراً إضافياً؟.. غير معقول.

لكي تعيش في نقطة مراقبة في صاروزيكي يجب أن تكون ذا شكيمة قوية وإلا تعفنت. فالسهب هائل والإنسان صغير. السهب لا يكترث، وسيان لديه أكانت الأمور جيدة بالنسبة لك أم سيئة. أقبلها كما هي. أما الإنسان، فليس سواء لديه كل ما يحدث في هذه الدنيا، الإنسان يتعذب ويعاني ويتصور أنه لو كان في مكان آخر وبين بشر آخرين لكان حظه أحسن، أما وجوده هنا فهو خطيئة القدر... لذا فهو يفقد نفسه في مواجهة هذا السهب العظيم الذي لا يرحم وتفرغ همته كبطارية دراجة شايميردين النارية ذات العجلات الثلاث، التي يحافظ عليها دائماً والتي لا تسير ولا تسمح للآخرين بالسير. هذه الآلة تقف بلا عمل، وعندما يحتاجون إليها ترفض الدوران وتنضب قوة التشغيل فيها. هذا هو حال الإنسان في صاروزيكي: إذا لم يعمل أو لم يضرب جذوره في هذا السهب يصبح من الصعب عليه أن يقاوم. لكن الآخرين، فإنهم إذا نظروا بشكل عابر من نوافذ العربات يمسكون رؤوسهم بأيديهم: يا إلهي، كيف يستطيع الناس أن يعيشوا هنا؟ لا شيء سوى السهب والجمال! إنهم يعيشون هكذا، بقدر ما يكفيهم الصبر والاحتمال. يكفي أن يصمد المرء هنا ثلاث أو أربع سنوات في أقصى الحالات حتى يبلغ الأمر التمام[١]، فيصفي حسابه ويهرب إلى أبعد ما يستطيع...

---

(١) كلمة تمام يستخدمها أهل كازاخستان بمعنى النهاية وهي هنا تحمل هذا المعنى.

اثنان فقط ضربا جذورهما هنا في أم العواصف ولمدى الحياة: قازانغاب ويديغاي العاصف، رغم كثرة أولئك الذين جاؤوا ورحلوا. صعب الآن على يديغاي أن يحكم على نفسه، أما قازانغاب فقد عمل هنا أربعاً وأربعين سنة، وليس هذا لأنه كان أكثر حماقة من الآخرين. فيديغاي لا يستبدل قازانغاب بعشرة من هؤلاء الرجال الحاليين... لكن قازانغاب لم يعد موجوداً. لقد رحل قازانغاب...

وافترق القطاران. أحدهما ذهب إلى الشرق والثاني ذهب إلى الغرب، وخلت الطريق الحديدية في – أم العواصف لمدة قصيرة، وتعرى كل شيء دفعة واحدة. النجوم في السماء القاتمة صارت تلمع بشكل أقوى وأوضح والريح صارت تجول أسرع بين الأعشاب وفوق العوارض الخشبية والحصى والمفروش بين السكتين الحديديتين، اللتين كانتا تصدران من حين إلى آخر أصوات رنين خفيف.

لم يدخل يديغاي إلى الغرفة. اتكأ على العمود وصار يفكر. كان يميز في البعيد، فيما وراء الطريق الحديدية ملامح الجمال التي ترعى في السهب. كانت تقف في ضوء القمر جامدة بلا حراك منتظرة انقضاء الليل. بين تلك الجمال استطاع يديغاي أن يميز جمله «نار» ذا السنامين والرأس الكبير. كان أقوى وأسرع جمل في صاروزيكي، وكان يدعى، كصاحبه، قارانار العاصف. كان يديغاي يفاخر بقوة جمله النادرة، بالرغم من أنه كان صعب القياد، إذ أنه ظل فحلاً لأن يديغاي لم يخصه في صغره ومن ثم لم يعد يحاول ذلك.

تذكر يديغاي وحفظ في ذاكرته أنه يجب – من بين أعمال الغد – أن يأخذ قارانار صباحاً باكراً إلى البيت وأن يجهزه، فهو سيلزم في موكب الدفن، وخطرت إلى ذهنه عدا ذلك أعمال كثيرة...

كان الناس في النقطة ما يزالون نائمين بهدوء. إلى جانب أبنية خدمات المحطة المقامة على أحد طرفي الطريق الحديدية وإلى جانب البيوت ذات

السطوح القرميدية الهرمية المتشابهة وعددها ستة بيوت مسبقة الصنع أنشأتها إدارة السكك الحديدية، كان يقوم بيت يديغاي الذي بناه بنفسه وبيت المرحوم قازانغاب الطيني وبعض المواقد القابعة في الأفنية، والحظائر المسيجة بعيدان القصب من أجل الماشية، وبعض المرافق الأخرى، وفي الوسط تنتصب المروحة الهوائية التي هي في نفس الوقت مولد كهربائي عام، وأحياناً مضخة ماء يدوية، وهذه المروحة نصبت هنا في السنوات الأخيرة – هذه هي كلها قرية أم العواصف.

هذه القرية، كما هي، قرب الطريق الحديدية العظيمة، في سهوب صاري – أوزيكي العظيمة، تعتبر عقدة ربط صغير في سبكة متفرقة، كما تتفرع الأوعية الدموية، من النقاط والمحطات والعقد والمدن... هذه القرية، كما هي، تشرع صدرها لكل رياح الدنيا وخاصة للرياح الشتوية، التي تغمر البيوت حتى نوافذها بهضاب من الثلج وتدفن السكة الحديدية بتلاله المتجمدة عندما تثور عواصف صاروزيكي. لذا سمي هذا الموقع في السهب أم العواصف، وكتبت لوحة باللغتين الكازاخية والروسية «أم العواصف»...

وتذكر يديغاي أنه قبل أن تظهر على هذه القطعة من الطريق الحديدية مختلف أنواع جرافات الثلج، تلك التي تقذفه قذفاً وتلك التي تزيحه على جانبي الطريق بشفراتها الدوارة وغيرها، كان هو وقازانغاب يتصارعان مع تلال الثلوج على هذه السكة الحديدية، مستميتين، إذا صح القول، وكان هذا كان منذ زمن غير بعيد،. رغم أنه كان في عام واحد وخمسين واثنين وخمسين. ما أقسى ما كان عليه الشتاء إذ ذاك. وهل يعقل إلا يحدث هذا إلا في الجبهة – عندما تشعر أنك تستخدم حياتك للمرة الأخيرة وفي عمل لن يتكرر – في هجوم واحد، في رمي قنبلة تحت دبابة لمرة واحدة؟... هكذا كان الأمر هنا. ربما لم يكن يريد أحد قتلك، ولكنك كنت تموت. كم من تلال الثلج أزحناها بأيدينا وجرفناها بالرفوش، بل حملناها بالأكياس إلى الأعلى. كان هذا عند

الكيلو متر السابع، حيث الطريق هناك منخفضة لأنها شقت عبر هضبة عالية. في كل مرة كان يبدو لنا أن هذه هي آخر معركة لنا مع الزوابع الثلجية، وأننا نمنح حياتنا للشيطان دون تفكير من أجل ألا نعود إلى سماع زعيق القاطرات في السهب – فلنفتح لها الطريق.

لكن تلك الثلوج قد ذابت ومرت تلك القطارات ومضت تلك السنون... ولم يعد هذا الأمر يهم أحداً الآن أحدث أم لم يحدث. مهندسو السكك الحديدية الحاليون الذين لا يجيدون إلاّ الكلام والضجيج يأتون إلى هنا مصادفة، ضمن فرق المراقبة والإصلاح. هؤلاء – عدا عن أنهم لا يصدقون فإنهم لا يفهمون ولا تستوعب عقولهم كيف يمكن أن يكون هذا: عواصف صاري – أوزيكي يقاومها بضعة رجال برفوشهم. معجزة. حتى أن بعضهم يضحك الآن صراحة: وما ضرورة ذلك؟ ما ضرورة هذا العذاب، وما هو الداعي والمناسبة لأن تدفنوا أنفسكم؟ نحن ما كنا لنفعل ذلك مهما كلف الأمر! اذهبوا إلى جدة الشيطان. كان يجب أن تنهضوا وتذهبوا إلى مكان آخر، إلى آخر الدنيا، إلى ورشة جيدة أو إلى مكان آخر تكون فيه الأمور على ما يرام. الدفع بقدر العمل. وفي حال وجود عمل إضافي هيا ادفعوا أجراً إضافياً. «كانوا يركبونكم لأنكم مجانين، أيها العجائز، وستموتون مجانيناً...!»

عندما كان مثل هؤلاء «المقيِّمين» يأتون إلينا لم يكن قازانغاب يعيرهم انتباهاً وكان هذا لم يكن يعنيه. كان يكتفي بالضحك سخرية إذ أنه يعرف عن نفسه أشياء كثيرة لا يدركونها هم. لكن يديغاي لم يكن يحتمل، كان يتفجر وأحياناً يجادل، فلا يجني إلا أن يعكر دمه.

لقد سبق ودارت بينه وبين قازانغاب أحاديث كثيرة حول ما يثير الآن سخرية هذه النماذج التي تأتيهم في عربات المراقبة والتصليح الخاصة وعن أمور كثيرة أخرى، جرت في السنين الماضية عندما كان هؤلاء الأذكياء يركضون، ربما بلا سراويل. لقد خططا للحياة بالقدر الذي وفره لهما

ذكاؤهما، ولكن مر زمن طويل منذ تلك الأيام – منذ عام الخامسة والأربعين. وصارت الأمور تسوء بعض الشيء، خاصة بعد أن أحيل قازانغاب إلى التقاعد: سافر قازانغاب ليعيش عند ابنه في المدينة ثم عاد بعد قرابة ثلاثة أشهر. عندها بحثا أموراً كثيرة – ما هي وكيف هي الدنيا. كان قازانغاب رجلاً عاقلاً. نعم، لدينا الكثير مما يجدر تذكره... وفجأة أدرك يديغاي بوضوح كامل وبنوبة حادة من المرارة الطاغية، أدرك أنه لم تَبقَ بعد الآن إلا الذكريات...

أسرع يديغاي إلى الغرفة إذ سمع خشخشة سماعة الهاتف. ثم بدت هذه الآلة المجنونة تئز وتعن وتئن وكأن بها عاصفة، وذلك قبل أن يسمع الصوت الصادر عنها.

- يديكيه، ألو، يديكيه – تكلم شايميردين المناوب في النقطة بصوت مبحوح متهدج – هل تسمعني؟ أجب.

- أنا مصغ إليك، أسمعك.

- تسمعني؟

- أسمعك، أسمعك.

- كيف تسمعني.

- كأنك تتكلم من العالم الآخر.

- لماذا من العالم الآخر؟

- هكذا.

- آ آ... إذن العجوز قازانغاب، ما اسمه هذا...

- ماذا ما اسمه هذا؟

- أعني مات – كان شايميردين يحاول إيجاد كلمة أكثر ملاءمة للمناسبة – كيف أقول؟ إذن أنهى، ما اسمه هذا... مشواره.

نعم – أجابه يديغاي باقتضاب.

وفكر يديغاي: «يا له من حيوان بلا مخ. حتى عن الموت لا يستطيع أن يتكلم كالبشر».

صمت شايميردين لحظة والسماعة تصدر أنينها وأزيزها والضجيج يقوى فيها أكثر وأكثر ممتزجاً بصوت الأنفاس. بعد ذلك قال شايميردين بصوت أجش.

- يديكه، عزيزي، ما اسمه... لا تدوخ لي رأسي. وإن مات. فماذا؟... ليس لدي أحد ثم ما حاجتك بالبقاء بقربه، فالمرحوم لن... ما اسمه... لن يفيق إذا جلست عنده، كما أظن...

- وأنا أظن أنك لا تفهم شيئاً – أجابه يديغاي باستياء – ماذا تقصد بـ «لا تدوخ لي رأسي»؟ بالنسبة لك، هذه سنتك الثانية هنا، أما نحن فقد عملنا معاً ثلاثين سنة. فكر أنت بذلك. لقد توفي بيننا إنسان، فلا يجوز ولا أحد يقبل أن نترك المرحوم وحيداً في بيتٍ خالٍ.

- ومن أين له أن يعرف.. ما اسمه.. أهو وحيد أم غير وحيد.

- لكننا نعرف.

- حسناً، لا تصرخ... ما اسمه... لا تصرخ أيها العجوز.

- أنا أشرح لك.

- ماذا تريد؟ ليس عندي أحد. ماذا ستفعل هناك، والدنيا ليل على كل حال.

- سأصلي. سأزين الميت. سأقدم الابتهالات.

- أنت، يديغاي العاصف، ستصلي؟

- نعم أنا. أنا أعرف كيف يصلون.

- طريف. ستون عاماً على... ما اسمه... السلطة السوفييتية...

- كفى. ما شأن السلطة السوفييتية هنا. الناس يصلون على الموتى منذ أقدم العصور. فالذي مات إنسانٌ وليس حيواناً!

- طيب، طيب، صلي... ما اسمه... إنما لا تصرخ. سأرسل وراء ادلباي. فإن وافق سيحضر... ما اسمه... وسيجلس مكانك... والآن... هيا القطار رقم مئة وسبعة عشر يقترب. هيئ الخط الاحتياطي الثاني...

وبهذا انتهى شايميردين وَطنَّ زرٌّ فصل الهاتف وأسرع يديغاي إلى المحول وأخذ يفكر أثناء قيامه بعمله: هل سيوافق ادلباي ويحضر؟... وعندما شاهد أن النوافذ صارت تضاء في بعض البيوت وعندما بدأت الكلاب بالنباح شعر أن أمله بوجود ضمائر حية عند الناس لم يكن عبثاً. هذا يعني أن زوجته توقظهم وتخطرهم.

خلال هذه الفترة كان القطار رقم مئة وسبعة عشر قد دخل الخط الاحتياطي، ومن الجانب الآخر اقترب قطار التزويد بالنفط – صهاريج تتلوها صهاريج. وافترق القطاران – أحدهما إلى الشرق والثاني إلى الغرب...

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. والنجوم تزداد لمعاناً في السماء. كل واحدة منها تبدو متميزة عن الأخرى. والقمر يضيء سهوب صاروزيكي بشكل أكثر سطوعاً، متزوداً بقوة إنارة متعاظمة تدريجياً. وهناك تحت تلك السماء المرصعة بالنجوم كانت تمتد إلى ما لا نهاية سهوب صاروزيكي، لا يرى فيها سوى أشباح الجمال، وبينها قارانار العاصف العملاق، لا بل تشاهد أيضاً حدود الكثبان القريبة الغامضة، أما الأشياء الأخرى على جانبي الطريق الحديدية فقد كانت غارقة في أعماق الليل، بينما الريح لم تقف، بل ظلت تصفر وتثير حفيف الأعشاب اليابسة.

صار يديغاي ينتقل بين الغرفة وخارجها وهو ينظر – ربما يظهر ادلباي على أحد الدروب. وفجأة لاحظ حيواناً صغيراً. إنه تلك الثعلبة. كانت عيونها تبرق بوميض أخضر متقلب وهي تقف يائسة تحت عمود البرق مترددة بين الاقتراب والهروب.

- ما بالك؟

نعم يديغاي مهدداً بإصبعه ومازحاً في الوقت نفسه:

- أنا سأريك...

وخبط الأرض برجله. لكن الثعلبة لم تخف.

قفزت مبتعدة عنه ثم رقدت متجهة نحوه، وظلت تنظر بحزن وإصرار تارة إليه وتارة إلى شيء ما بقربه دون أن تشيح بنظرها عن هاتين النقطتين. ما هذا الذي يمكن أن يثير اهتمامها؟ وما سبب ظهورها هنا؟ هل اجتذبتها الأنوار الكهربائية، أم أن الجوع هو الذي قادها إلى هنا؟ كان ظهور الثعلبة أمراً غريباً بالنسبة ليديغاي. لم لا يرميها بحجر ما دام الأمر كذلك وما دامت الفريسة نفسها تأتي إليه؟ وانتقى يديغاي من الأرض حجراً كبيراً. لكنه عاد إلى طبيعته المسالمة، فبعد أن هم برميها أسبل يده وترك الحجر ليسقط عند قدميه، وبزغت على وجهه بعض ذرات من العرق. يا للإنسان... كم يخطر على باله من الخواطر. يا للسخافة. عندما كان يهم بضرب الثعلبة تذكر فجأة ما حدثه به أحدهم – واحد من تلك النماذج التي تأتي إليه، أو ربما المصور الذي تناقش معه حول الله، أو ربما شخص آخر، لا، إنما هو سابيتجان، هو الذي روى له ذلك وكأنه إنسان غير طبيعي. فدائماً تحدث معه مختلف المعجزات. المهم بالنسبة له أن يكون موضع اهتمام ومثار دهشة الآخرين. سابيتجان هذا، ابن قازانغاب حدثه مرة عن انتقال الأرواح بعد الموت.

ثرثار بلا فائدة، كل ما علموه إياه كان لشقائه من علمه... تنظر إليه للوهلة الأولى فتظنه إنسانٌ لا بأس به – يعرف كل شيء وسمع بكل شيء، ولكن لا خير في كل هذا. علموه في المدارس الداخلية وفي المعاهد العليا فخرج منه إنسان ليس كما يجب. إنسان يحب المباهاة والشرب، متحدث جيد في الأنخاب ولكن بلا فعل. بكلمة واحدة – فارغ. ولهذا فهو مائع على العكس

من قازانغاب، مع أنه يتباهى بشهادته. لا... ليس ناجحاً، فهذا الابن لا يشبه أباه. ولكن، الله يكون معه، أياً كان هذا الرجل، ليس باليد حيلة.

على كل حال، روى مرة أنهم في الهند يؤمنون بتعاليم تقول أنه إذا مات الإنسان فإن روحه تنتقل إلى مخلوق حي آخر، إلى أي مخلوق، ربما إلى نملة. ويعتبرون أن أي إنسان كان – قبل ولادته – إما طيراً أو حيواناً أو حشرة. ولذلك يعتبرون قتل أي حيوان، حتى الأفعى، أو الكوبرا، إذا صادفوه في طريقهم، خطيئة، ويكتفون بالانحناء له والتنحي عن طريقه.

يا لعجائب الدنيا. لكن مدى صحة هذا القول... من يعلم؟ العالم عظيم وليس مقدراً للإنسان أن يعرف كل شيء. عندما أراد رمي الثعلبة بالحجر فكر في نفسه: وماذا لو كانت روح قازانغاب قابعة فيها الآن؟ ماذا لو كان قازانغاب الذي انتقل ليسكن جسم الثعلبة قادماً الآن إلى أفضل أصدقائه، لأن بيته الطيني أصبح خاوياً ومحزناً بعد موته؟... «إنني أجن حتماً» أنب يديغاي نفسه خجلاً، «كيف يمكن أن أفكر في هذا؟، تفو... إنك تجن في آخر أيامك».

ومع ذلك صار يكلم الثعلبة وهو يقترب منها بحذر، وكأنها كانت قادرة على فهم حديثه:

- اذهبي، فلا مكان لك هنا. اذهبي إلى السهب. أتسمعين؟! اذهبي، اذهبي. ولكن لا تذهبي إلى هناك – هناك توجد كلاب. اذهبي، الله معك، اذهبي إلى السهب. فاستدارت الثعلبة وولت هاربة. واختفت في الظلام بعد أن ألقت بنظرة أو نظرتين إلى الوراء وهي تعدو.

في هذه الأثناء دخل قطار جديد إلى النقطة. خفف القطار من سرعته وهو يهدر حاملاً معه وميض الحركة المتقطع والغبار المتطاير فوق سطوح العربات. وعندما توقف مد سائق القاطرة التي كانت محركاتها تهدر وتدور عبثاً، مد رأسه من النافذة:

- إي، السلام عليكم، يديكيه العاصف.

- وعليكم السلام.

رفع يديغاي رأسه ليرى أفضل هذا الذي يكلمه. الجميع على هذا الخط كانوا يعرفون بعضهم. كان الشاب من جماعة يديغاي، فطلب إخبار آيزادا التي تعيش في محطة قومبيل بموت أبيها. ووافق السائق بحماس على تنفيذ هذا الطلب إكراماً لذكرى قازانغاب، خاصة وأن تبديل طواقم القيادة يتم في قومبيل. ووعده كذلك أن يحضر معه آيزادا وأسرتها في طريق العودة إذا استطاعت أن تجهز نفسها حتى ذلك الوقت.

كان هذا الشاب موضعاً للثقة. لذا أحس يديغاي بالارتياح. فها هي إحدى المهام قد نفذت.

بعد بضع دقائق تحرك القطار، وبينما كان يديغاي يودع السائق رأى أحدهم يقترب منه بمشية متثاقلة من آخر الرصيف بمحاذاة القطار المغادر. حدق يديغاي جيداً فعرف أن هذا ادلباي.

أثناء تسليم يديغاي المناوبة لادلباي الطويل، وبينما كانا يتحدثان ويتذكران قازانغاب مر من أم العواصف زوج آخر من القطارات. عندها اتجه يديغاي، بعد أن فرغ من كل أعماله، إلى البيت، في الطريق تذكر أنه نسي أن يذكر زوجته، بل أن يستشيرها بشأن بناته وأصهرته، وكيف يمكن إخبارهم بوفاة العجوز قازانغاب. ابنتا يديغاي المتزوجتان تعيشان في ناحية أخرى تماماً، في ضواحي قيزيل أوردا. الكبرى تعيش في سوفخوز يزرع الأرز وزوجها سائق جرار، والصغرى كانت تعيش في المحطة قرب قازالينسك ثم انتقلت مع أسرتها إلى نفس السوفخوز لتكون قريبة من أختها، وزوجها يعمل سائق سيارة. ومع أن قازانغاب ليس من أقاربهم، فهم يجب أن يحضروا جنازته، إذ أن يديغاي يرى أن قازانغاب أعز عليهم من أي قريب. ولدت البنتان في أم العواصف بوجوده، وترعرعتا هنا وتعلمتا في مدرسة المحطة الداخلية في قومبيل. كان يديغاي وقازانغاب يتناوبان في نقلهما إلى

المدرسة. تذكر يديغاي البنات وتذكر كيف كانا يحملانهما على الجمل حين تبدأ العطلة ويحضرانهما إلى البيت، وحين تنتهي العطلة يأخذانهما إلى المدرسة. كانت الصغرى تجلس في المقدمة ووالدها في الوسط وخلفه الكبرى، ويسافر الثلاثة معاً ساعات ثلاث، وفي الشتاء كانت المدة تطول أكثر. كان قارانار يَحُثُّ السير بخطى عريضة من أم العواصف إلى قومبيل. وعندما كان ينشغل يديغاي كان يأخذهما قازانغاب، الذي كان بالنسبة لهما مثل الأب. قرر يديغاي أنه يجب إرسال برقية لهم في الصباح، وهم سيتصرفون حسب إمكانياتهم... ولكن يجب أن يعرفوا أن العجوز قازانغاب قد رحل...

ومضى يديغاي وهو يفكر أنه في الصباح يجب، قبل كل شيء، جلب قارانار من المرعى، إذ سيكون بأمس الحاجة إليه. ليس الموت بسيطاً، لكن دفن الإنسان بشكل مشرف في هذا العالم ليس سهلاً أيضاً... فدائماً تكتشف أنه ينقصك هذا الشيء أو ذاك، ويجب تدبير كل الأمور بسرعة، ابتداءً من الكفن وانتهاءً بالحطب من أجل تحضير الطعام.

في هذه اللحظة بالذات اهتز شيء ما في الهواء ذكره بما كان يحدث في الجبهة، وكأنه صدمة موجة انفجار بعيد. واهتزت الأرض تحت قدميه. ورأى أمامه، بعيداً في السهب، وفي تلك الناحية التي يقع فيها، على حد علمه، مطار صاري – أوزيك الفضائي، شيئاً ينطلق إلى السماء من خلال زوبعة نارية ملتهبة تشهق إلى أعلى. فارتبك يديغاي – إنَّهُ صاروخ ينطلق إلى الفضاء. قبل الآن لم ير يديغاي مثل هذا المشهد. كان يعرف، مثل كل سكان صاروزيكي، بوجود مطار صاري – أوزيك – الفضائي. هذا المطار يقع على مسافة أربعين كيلو متراً أو أقل من هنا، وكان يعرف أنه مددت إلى هناك طريق حديدية فرعية من محطة توغريك – تام، حتى أنه قيل أن مدينة كبيرة قد قامت في تلك النواحي، وفي هذه المدينة مخازن ضخمة. كان يسمع دائماً بالراديو ومن أحاديث الناس ويقرأ في الصحف عن رواد الفضاء وعن

التحليقات الفضائية. كل هذا كان يجرى في مكان قريب. على كل حال، كان الأطفال في حفلة للهواة في مركز الناحية، حيث يعيش سابيتجان – وهذه المدينة تقع على مسافة سفر يوم ونصف بالقطار – كانوا يغنون أغنية تقول أنهم أسعد الأطفال في الدنيا لأن أعمامهم رواد الفضاء ينطلقون إلى الفضاء من أرضهم. لكن يديغاي، الذي يعيش ليس بعيداً جداً عن هذه الأماكن كان يكتفي بما يسمعه ويعرفه من الآخرين – إذ أن كل ما يحيط بالمطار الكوني يعتبر منطقة مغلقة. وها هو الآن يراقب لأول مرة بأم عينه كيف ينطلق الصاروخ الفضائي مسرعاً إلى قبة السماء المظلمة المرصعة بالنجوم، ملفوفاً بنار مدمرة شديدة، وهو ينير ما حوله بومضات نور مرتجف. وذهل يديغاي: أيعقل أن إنساناً يجلس في هذه الكتلة الهائلة من النار؟... واحد أم اثنان؟... ولماذا لم ير سابقاً، وهو الذي يعيش هنا، لحظة انطلاق الصاروخ؟ علماً أن من طاروا إلى الفضاء لا يعدون ولا يحصون. ربما تكون تلك الصواريخ قد أطلقت في النهار، إذ تصعب رؤيتها من هذه المسافة البعيدة في ضوء النهار. ولكن لماذا ينطلق الصاروخ ليلاً؟... إذن، صاروخ مستعجل، أو ربما لضرورة ما؟ وقد يكون السبب أنه ينطلق من الأرض ليلاً ويصل إلى هناك في النهار؟ لقد قال سابيتجان ذات مرة، وكأنه نفسه كان هناك، أن الليل والنهار في الفضاء يتناوبان كل نصف ساعة. يجب الاستفسار مرة أخرى من سابيتجان، فهو يعرف كل شيء ويحب جداً أن يكون شخصية هامة وأن يكون عارفاً بكل شيء. وهو على كل حال يعمل في عاصمة الناحية، وإلا لما حاول البروز، ولكن ما الداعي لذلك؟ كن كما أنت في الواقع... «كنت مع هذا وكنت مع ذلك، مع شخصيات كبيرة. قلت لهذا كذا وكذا وكذا». لكن ادلباي الطويل حدثنا أنه ذهب إليه في مكان عمله مرة، وقال أن سابيتجان لا عمل له إلا أن يركض من الهاتف إلى باب غرفة الاستقبال ولا يكاد يَصِلها حتى تسمعه «حاضر الجعفر قهارمانوفيتش! أمرك الجعفر قهارمانوفيتش، وهكذا لم أستطع أن أتحدث معه وأن نتفاهم. وقال ادلباي: هذا هو ابن بلدتنا، ابن أم

العواصف.. فليكن من يشاء، الله معه. لكننا نأسف من أجل قازانغاب. لقد كان قازانغاب قلقاً جداً على ابنه، ولم يقل كلمة سيئة واحدة عن ابنه حتى آخر أيامه، لدرجة أنه ذهب بناء، على طلب ابنه وكنته، ليعيش عندهم في المدينة. والنتيجة.. هذا حديث آخر...

مع هذه الأفكار سار يديغاي في هذا الليل العميق بعد أن تابع الصاروخ الفضائي حتى اختفائه تماماً. ظل يتابع هذه الأعجوبة طويلاً، وعندما صار الصاروخ الناري يتقلص ويصغر، ثم اختفى في تلك اللجة السوداء متحولاً إلى نقطة بيضاء ضبابية، لاح برأسه ومضى وفي صدره تختلج مشاعر متناقضة. فإلى جانب إعجابه بما رأى، أدرك، في الوقت ذاته، أن هذا الأمر الغريب عنه أثار لديه الدهشة والخوف. وعندها تذكر فجأة تلك الثعلبة التي جاءت إلى السكة الحديدية: ماذا حل بها عندما باغتتها في السهب الخالي هذه الزوبعة في السماء؟ حتماً لم تعد تعرف أين تختبئ...

لكن يديغاي العاصف نفسه، الشاهد على انطلاق صاروخ إلى الفضاء في هذه الليلة، لم يكن يتوقع، بل لم يكن له أن يعرف أن هذا الإطلاق كان إطلاقاً لسفينة فضائية استثنائية تحمل رواد فضاء – بلا احتفالات ولا صحفيين ولا تحقيقات – نظراً لحدث طارئ وقع على المحطة الفضائية «باريتيت»(١) التي تحلق منذ أكثر من سنة ونصف، في نطاق برنامج سوفييتي أميركي مشترك، على مدارها الذي سمي مجازاً «ترامبلين»(٢). ومن أين ليديغاي أن يعرف ذلك، وهو الذي لم يخطر بباله قط أن هذه الحادثة ستمسه وستمس حياته، ليس فقط بسبب العلاقة التي لا تفصم بين الإنسان والبشرية بمعناها العام، بل بأكثر الأشكال مباشرة وتحديداً. والأكثر من ذلك، لم يكن يديغاي يعرف ولم يكن يتوقع أنه بعد فترة قصيرة انطلقت في أثر

---

(١) باربتيت: التكافؤ، التوازي أو التعامل بالمثل.

(٢) ترامبلين: مدرج الانطلاق.

السفينة المنطلقة من صاري – اوزيك، من الطرف الثاني لكرتنا الأرضية، من مطار السفن الفضائية في نيفادا انطلقت لنفس المهمة وإلى نفس المحطة «باريتيت» ونفس المدار «ترامبلين» سفينة أميركية ولكن بخط سير معاكس.

أرسلت هذه السفينة إلى الفضاء على وجه السرعة تنفيذاً للأوامر الصادرة عن حاملة الطائرات للبحث العلمي «كونفينتسيا»[١]، التي تعتبر قاعدة عائمة للمركز السّوفييتي الأمريكي المشترك لقيادة برنامج «ديمي اورغ»[٢].

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» موجودة في منطقة مكوثها الدائم – في المحيط الهادئ، جنوبي جزر آليوت في مربع يقع على مسافة واحدة تقريباً مِن فلاديفوستوك وسان فرانسيسكو. في هذه الأثناء كان مركز القيادة المشترك «اوبتسينوبر»[٣] يراقب باهتمام خروج السفينتين إلى المدار «ترامبلين»، كل شيء على ما يرام. بقي أن تجري مناورات للالتحام مع مجمع «باريتيت»، وهذه مهمة فائقة التعقيد. فعمليتا الالتحام يجب أن تتما في لحظة واحدة تماماً من طرفي المحطة وليس بالتتالي – أي ليس واحدة تلو الأخرى مع وجود فاصل زمني بينهما.

منذ أكثر من عشرين ساعة والمحطة «باريتيت» لا تستجيب لشارات «اوبتسبنوبر» المرسلة إليها من «كونفينتسيا»، كما أنها لم تَستَجِبْ لتعليمات السفن المتجهة إليها للالتحام بها.. كان يجب معرفة ما حدث لطاقم «باريتيت».

* * *

(١) كونفينتسيا: كلمة لاتينية الأصل تعني الاتفاق.

(٢) ديمي اورغ: كلمة يونانية الأصل تعني المبدع.

(٣) اوبنسينوبر: اختصار لثلاث كلمات روسية تعني مركز القيادة المشترك.

- ٢ -

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

المسافة بين الطريق الحديدية في أم العواصف ومدفن قبيلة نايمان «انابيت» لا تقل عن ثلاثين كيلو متراً، هذا إذا سلكت طريق مباشرة في سهوب صاروزيكي. أما إذا لم يَشَؤوا أن يخاطروا كي لا يُضِلّوا الطريق في السهوب فمن الأفضل أن يسيروا بمحاذاة الطريق الحديدية لكي تكون دليلهم طوال الطريق، لكن المسافة إذ ذاك ستطول كثيراً حتى المدفن، كما يجب أن يقوموا بدورة الوداع قبل الانعطاف من وادي قيصيكساي إلى انابيت. هذا هو المخرج الوحيد. وهكذا تكون المسافة في أفضل الحالات اثنين وثلاثين كيلو متراً في اتجاه الذهاب واثنين وثلاثين باتجاه العودة. يديغاي هو الوحيد بين سكان أم العواصف الذي يعرف الطريق إلى هناك، بالرغم من أن الجميع سمعوا عن «بيت» الغريب الذي كانت تروى حوله الحكايات المختلفة، منها ما كان فعلاً ومنها ما لم يكن. لكن أحداً منهم لم يذهب إلى هناك أبداً، إذ لم تكن لديهم ضرورة لذلك. فمنذ سنوات طويلة لم يقع في أم العواصف – البلدة

ذات البيوت الثمانية على الطريق الحديدية، حادث وفاة استوجبت الدفن هناك. عندما توفيت فتاة صغيرة فور إصابتها باختناق صدري قام والداها بنقلها إلى مسقط رأسها حيث دفناها هناك، في محافظة الاورال. أما زوجة قازانغاب العجوز بوكيي، فقد دفنت في مدفن المحطة في فومبيل، وكانت قد توفيت في مستشفى الغرباء منذ عدة سنوات. عندها قرروا دفنها في المحطة، إذ لم يكن من المعقول نقل الراحلة إلى أم العواصف، ففومبيل هي أكبر محطة في صاروزيكي، إضافة إلى أن ابنتها أيزادا وصهرها يعيشان هناك، ومع أنه سكير وعربيد فهو يظل صهرها وهما سيعتنيان بالقبر. لكن قازانغاب كان حياً إذ ذاك وقرر بنفسه ماذا عليه أن يفعل.

أما الآن فصاروا يفكرون ويخمنون كيف العمل.

إلا أن يديغاي أصر على موقفه متسلحاً بالحجة في مواجهة الشباب.

- كفوا عن هذا الكلام الصبياني، فلن ندفن الرجل إلا في انابيت حيث يرقد أجداده، كما أوصى المرحوم نفسه. هيا نتحول من الكلام إلى العمل، هيا نستعد، فالطريق أمامنا ليست قصيرة. سنتحرك غداً في الصباح الباكر...

كان الجميع يدركون أن اتخاذ القرار من حق يديغاي. لذا وافقوا مع أن سابيتجان حاول الاعتراض. لقد تمكن سابيتجان من القدوم بواسطة قطار شحن عابر، إذ أن قطارات المسافرين لا تتوقف هنا. كان قدوم سابيتجان لحضور مراسم دفن والده وحده كافياً ليفرح يديغاي وليهز مشاعره، علماً أنه جاء وهو لا يعرف أحي أبوه أم ميت. مرت دقائق تعانقا فيها وبكيا، توحد بينهما المصيبة والحزن. بعدها استهجن يديغاي من نفسه، وبينما هو يضم سابيتجان إلى صدره ويبكي لم يتمالك نفسه فصار ينحب ويردد «حسناً أنك جئت يا عزيزي، حسناً أنك جئت»، وكأن مجيء سابيتجان سيرد الحياة إلى قازانغاب. لماذا انفلت يديغاي بالبكاء هكذا – هو نفسه لم يستطع أن يفهم. إذ لم يسبق أن حدث له مثل هذا أبداً. لا شك أن هناك شيئاً ما أثر على يديغاي.

لقد تذكر أن سابيتجان ترعرع أمام ناظريه، كان الصبي المدلل عند أبيه. كانا يأخذانه للدراسة في مدرسة قومبيل الداخلية الخاصة بأبناء العاملين في السكك الحديدية. وكانا كلما وجدا متسعاً من الوقت يذهبان لمشاهدته – أحياناً مع قطار عابر وأحياناً على الجمال – وللاطمئنان عليه: كيف يعيش في السكن الداخلي؟.. ألم يزعجه أحد؟.. كيف يدرس؟.. ألم يأت بعمل ممنوع؟... ماذا يقول عنه المعلمون؟... وأثناء العطل – كم مرة حملوه على الجمال عبر ثلوج صاروزيكي، في الصقيع والعواصف ملفوفاً بالفراء، كي لا يتأخر عن دراسته.

أيه.. أيام لا تعود! لقد مضى كل هذا وصار كالحلم. ها هو الآن يقف رجلاً كبيراً، يذكر عن بعد بما كان عليه في طفولته – جاحظ العينين باسماً، لكنه اليوم يحمل النظارات على عينيه ويرتدي قبعة مُطَعَّجة وربطة عنق مجعدة. إنه يعمل الآن في مركز الناحية ويريد جداً أن يبدو إنساناً كبيراً ذا أهمية، لكن الحياة خبيثة وليس من السهل أن تصبح رئيساً – كما شكى هو نفسه أكثر من مرة – إذا لم تكن مدعوماً ولم يكن لك اقارب ومعارف. أما هو، فمن هو: أين قازانغاب من نقطة أم العواصف. يا له من يائس. حتى هذا الأب لم يعد موجوداً الآن. فالأب الحي، مهما كان مغموراً أفضل بألف مرة من الأب الميت، حتى لو كان شهيراً. وهذا الأب لم يعد موجوداً الآن...

بعد ذلك توقفت الدموع وانتقلا إلى الحديث والعمل. عندها أصبح واضحاً أن الابن العزيز هذا، العارف بكل شيء لم يحضر لدفن والده، بل ليرفع عن نفسه العتب وليواريه التراب كيفما اتفق، ثم ليغادر بأسرع ما أمكن. أخذ سابيتجان يطرح الآراء، مثل: ما ضرورة الذهاب إلى هذا المكان البعيد، إلى انابيت، انظروا ما أكثر الأماكن الخالية وما أوسع صحراء صاروزيكي – من عتبة البيت إلى آخر الدنيا – بإمكاننا أن نحفر قبراً في أي مكان قريب، على أية هضبة جانب الطريق الحديدية، وليرقد هذا المراقب

القديم ليسمع كيف تجري القطارات في هذه النقطة التي عمل فيها كل حياته، وتذكر قولاً قديماً: راحة نفس الميت في دفنه السريع. فما الداعي للإطالة والتفكير، أو ليس الأمر سواء أينما دفن المرء. السرعة في هذه الأمور أحسن.

كان يحاكم الأمور على هذا النحو وهو يحاول تبرير موقفه بأن هناك أموراً مستعجلة وهامة تنتظره في العمل ووقته محدود. أمر واضح، ما شأن الرؤساء إن كانت المقبرة بعيدة أم قريبة من هنا. هناك أمر بالتواجد في الخدمة في الساعة الفلانية واليوم الفلاني، فيتواجد الجميع.

الرؤساء هم الرؤساء والمدينة هي المدينة...

شتم يديغاي نفسه، العجوز المجنون، في سره، وأحس بالأسف والخجل من البكاء والنحيب الذي أثاره حضور هذا الإنسان، وإنْ كان ابن المرحوم قازانغاب. ونهض يديغاي من مكانه، حيث كانوا يجلسون، وهم خمسة رجال، نهض عن عوارض السكة الحديدية الخشبية القديمة التي رصفت لتقوم مقام المقعد بجانب الجدار، وبذل جهداً كبيراً ليضبط نفسه كي لا يتلفظ بما يزعج ويهين في مثل هذا اليوم. كان يشفق على روح قازانغاب، وكل ما قاله:

- الأماكن حولنا كثيرة طبعاً. لكن الناس، لسبب ما، لا يدفنون أقرباءهم حيثما اتفق. يجب أن لا يكون الأمر بهذه البساطة. هل تظننا نبخل بالأرض؟
- وصمت. فقد كان أهالي أم العواصف يصغون إليه صامتين، ثم تابع: فكروا وقرروا، وأنا ذاهب لأرى كيف تسير الأمور هناك.

ومضى بوجه مكفهر حاقد مبتعداً عن الخطيئة. وانعقدت حواجبه عند أعلى أنفه. كان يديغاي قاسياً وعنيفاً، وقد سموه العاصف لأنه بطبعه منسجم مع هذه الصفة. ولو كان الآن وحيداً مع سابيتجان لقال له بلا خجل وبشكل لا ينساه طوال حياته كل ما يستحقه. غير أنه لم يشأ أن يخوض في أحاديث هي أجدر بالنساء. أما النساء فقد كن يتهامسن ويعربن عن استيائهن – جاء الابن

إلى دفن أبيه كالضيف، يد من الأمام ويد من الخلف. ليته أحضر معه علبة شاي، هذا إن لم تقل شيئاً آخر. وزوجته... الكنة المتمدنة... كان حَرِيّاً بها أن تأتي احتراماً فتبكيه وتنوح عليه، كما هي التقاليد. لا خجل ولا ضمير. عندما كان العجوز حياً وحاله ميسوراً، وعندما كان يمتلك ناقتين حلوبين وحوالي خمس عشرة نعجة وخروفاً – عندها كان جيداً وكانت تتردد عليه إلى أن باع العجوز كل شيء فأخذته ليعيش – على حد زعمها – عندها، وبعد أن اشترت هي وزوجها أثاثاً وسيارة صار العجوز غير مرغوب فيه. والآن لم تعد ترينا وجهها. كان في نية النساء إثارة هذا الموضوع لكن يديغاي منعهن وقال: إياكن أن تفتحن فمكن في مثل هذا اليوم، ثم أن هذا ليس شأننا. فليناقشوا أمورهم بنفسهم.

واتجه يديغاي نحو الحظيرة التي ربط بجانبها – على غير العادة – قارانار العاصف غاضباً مرغياً لأنه اقتيد إلى هنا من المرعى. فإذا أسقطنا من الحساب المرتين اللتين ذهب فيهما قارانا مع القطيع ليشرب الماء من البئر عند مضخة الماء يكون هذا اللعين قد أمضى أسبوعاً كاملاً تقريباً وهو يتجول مطلق الحرية مفلتاً من الأيدي ليل نهار. وها هو الآن يعرب عن عدم رضاه فاغراً فاه المليء بالأسنان بوحشية وهو يرغي رغاء ممطوطاً بين الفينة والفينة: إنها القصة القديمة – العودة إلى تقييد الحرية، وهو أمر يجب الاعتياد عليه.

اقترب يديغاي من الجمل منفعلاً بعد حديثه مع سابيتجان، مع أنه كان يعرف سلفاً أن الأمر سيكون كما هو عليه الآن. فالذي حدث أن سابيتجان قد تكرم عليهم بحضوره دفن أبيه، مع أن هذا بالنسبة له مهمة شاقة يجب التحايل للتخلص منها بسرعة. ولم يشأ يديغاي أن يهدر كلماته عبثاً، إذ لا ضرورة لذلك، فهو يعرف أنه في كل الأحوال سيقوم هو نفسه، بكل شيء، والجيران أيضاً لم يقفوا متفرجين. فكل من لم يكن مشغولاً على خط السكة الحديدية

ساعد في الإعداد للدفن والمأتم. النساء بدأن بجمع الأواني من البيوت ولمعن السماورات وعَجَنَّ العجين، لا بل بدأن بالخبز، أما الرجال فصاروا يجلبون الماء ويحطبون العوارض المهترعة، فالوقود في السهوب الجرداء دائماً من أول الضروريات، تماماً كالماء. سابيتجان وحده الذي كان يعرقل العمل ويلهي عنه ويثرثر عما هب ودب: من يشغل المنصب الفلاني في الناحية، من عزل من عمله ومن رفع. أما أن زوجته لم تحضر لدفن حميها فلم يضره أبداً: شيء رائع والله، ليتكم تعلمون، عندها مؤتمر سيحضره ضيوف أجانب. أما بالنسبة للأحفاد، فمجرد الكلام عنهم غير ممكن. إنَّهمُ يكافحون هناك من أجل الدوام والنجاح، كي يحصلوا على الشهادة بأحسن شكل من أجل الانتساب للمعهد. وفكر يديغاي مستاء: «ما هؤلاء الناس؟ ما هذا الشعب؟ كل شيء مهم عندهم إلا الموت». وكان هذا يؤرقه: «إذا كان الموت بالنسبة لهم لا شيء، فهذا يعني أن الحياة لا قيمة لها أيضاً. فأين هو المغزى، ولماذا يعيشون؟»

صرخ يديغاي على قارانار مفرغاً غيظه:

- مالك ترغي وتزيد بوجه السماء، أيها التمساح، أتظن أن الله يسمعك؟

لم يكن يديغاي يسمي جمله تمساحاً إلا في الحالات القصوى، عندما يفقد السيطرة على أعصابه كلياً. هذه التسمية أطلقها عمال السكة الحديدية على قارانار بسبب رغوة الغاضب وأسنانه. وتابع يديغاي:

- سترغي عندي، أيها التمساح، عندما سأكسر لك أسنانك.

كان يجب حدج الجمل. وعندما بدأ بذلك رق يديغاي وهدأ بالتدريج وحن على قارانار العاصف الجميل القوي. ومع أن طول يديغاي لا بأس به إلا أن يداه لم تكونا تطالان رأس الجمل. لكن يديغاي استطاع بمهارته لَيَّ عنق الجمل فأناحه بضربات من مقبض السوط على ركبته السمكية القاسية وهو يطلق أصواتاً صارمة مرهباً إياه. وبالرغم من الاعتراض الشديد انصاع

الجمل لإرادة صاحبه، وعندما ثنى قوائمه تحته أخيراً، استناخ بصدره على الأرض وهدأ، فبدأ يديغاي عمله.

إن شد الرحالة على الجمل عمل كبير، تماماً كبناء بيت. فالقتاب يجهز في كل مرة من البداية، ومن أجل ذلك يجب أن تتوافر المهارة والقوة الكبيرة، وخاصة إذا كان الجمل ضخماً مثل قارانار.

لم يسموه قارانار، أي الجمل الأسود، هكذا عبثاً، بل لأن رأسه الأشعث أسود، ولحيته الكثيفة الممتدة حتى مؤخرة رأسه سوداء، ورقبته مغطاة من أسفلها بشعر كثيف متدل حتى ركبتيه على شكل لبدة كثيفة وحشية سوداء، وهذا الشعر هو زينة الذكر الرئيسية، كما أن سناميه المرنين المنتصبين على ظهره كبرجين – أسودان، وفوق كل هذا – طرف ذنبه المبتور أسود. وما تبقى من جسمه – أعلى الرقبة والصدر والخاصرتان والقوائم والبطن – فقد كان، على العكس، ذا لون كستنائي فاتح. هذا هو سر جمال قارانار العاصف الذي اشتهر بقامته ولونه، إضافة إلى أنه كان في هذه المرحلة في ذروة فحولته – في العقد الثالث من عمره.

الجمال تعيش طويلاً. ولهذا – على ما يبدو – لا تلد النوق إلا في عامها الخامس، ومن ثم لا تلد في كل سنة، بل مرة كل سنتين، وهي تحمل الجنين في بطنها مدة أطول من كل الحيوانات – عشرين شهراً. وأهم شيء هو حماية الحوار في السنة والنصف الأول من البرد ومن رياح السهب، وبعدها يكبر يوماً بعد يوم. وعند ذلك لا يخشى عليه لا من البرد ولا من الحر والجفاف...

كان يديغاي ذا خبرة في هذه الأمور – كان دائماً يحافظ على قارانار بحالة جيدة. وأول دلائل العافية والقوة لديه هو أن سناميه السوداوين كانا ينتصبان على ظهره ثقيلين متينين كالحديد. لقد أهدى قازانغاب هذا الجمل وهو ما يزال حواراً صغيراً منقوشاً كفرخ البط، أهداه إياه في يوم من أيام

تلك السنوات الأولى بعد عودة يديغاي من الحرب وعندما كان يؤسس لنفسه في نقطة أم العواصف. عندها كان يديغاي ما يزال شاباً، ولم يكن يعرف أبداً أنه سيظل هنا حتى الشيخوخة والآن عندما ينظر إلى تلك الصور لا يصدق نفسه. لقد تغير كثيراً فأصبح رمادي اللون. حتى حاجباه – ابيَضَّا، وتغير وجهه أيضاً، لكن البدانة لم تتسلل إلى جسمه كما يحدث في مثل هذه السن. أما بالنسبة للحية فقد كان الأمر عفوياً: أطلق في البداية شاربيه ثم أطلق لحيته، والآن لا يستطيع أن يظل بلا لحية، إذ يشعر كأنه يسير عارياً... لقد مر منذ تلك الأوقات تاريخ كامل، إن صح التعبير.

والآن أثناء شد يديغاي للرحالة على قارانار الجاثم على الأرض موجهاً إليه الأمر بالصوت أو بشارات من اليدين، وبينما ذلك يرغي زائراً كالأسد محركاً رأسه الأسود الأشعث فوق رقبته الطويلة، تذكر يديغاي اليوم ما كان وكيف كان في تلك السنين، وهدأت نفسه...

عمل طويلاً بحدج قارانار، رتب القتاب وربط البطان، ولكنه في هذه المرة غطى قارانار بأحسن غطاء للسفر قبل أن يضع القتاب، وهو غطاء قديم الصنع مزين بشراشيب ملونة طويلة وتطريز سجادي. يديغاي لا يذكر متى كانت آخر مرة زين فيها قارانار بهذه الأدوات النادرة التي كانت اوقوبالا تحافظ عليها بحرص. والآن جاء وقتها...

عندما تم حدج قارانار أوقفه يديغاي ففرح جداً به. بل انتابه شعور الفخر بعمله. بدا عندها قارانار مهيباً ومثيراً للإعجاب وهو الذي زُين بالغطاء ذي الشراشيب واقتب بين سناميه بمهارة. فلير الشباب وخاصة سابيتجان وليفهموا أن دفن إنسان عاش حياة محترمة ليس مهمة شاقة وليس مضيعة للوقت، بل هو عمل عظيم، رغم أنه حدث مؤلم، لذلك يجب أن تكون له مراسيم تتفق مع التقاليد السارية. البعض يعزفون الموسيقى ويرفعون الرايات، وآخرون يطلقون النار في الهواء، وآخرون يحملون الأكاليل ويرمون الزهور...

وغداً سيقود يديغاي العاصف وهو على ظهر قارانار المزين بالغطاء والشراشيب الموكب إلى انابيت مودعاً قارانغاب إلى مثواه الأخير ومقره الدائم.. وسيظل يديغاي يفكر به طوال الطريق مجتازاً صاروزيكي الصحراوية العظيمة. وسيواريه التراب في مدفن عائلته كما كان الاتفاق بينهما. نعم لقد كان بينهما هذا الاتفاق. يجب سلوك هذا الطريق أياً كان، طويلاً أو قصيراً، ولا أحد يستطيع أن يثنيه عن قناعته بضرورة تنفيذ رغبة قارانغاب، حتى ولا ابن المرحوم...

فليعرف الجميع أن قارانار معد ومجهز بهذه العدة لهذا الهدف.

فلير الجميع. وقاد يديغاي قارانار من مقوده مخرجاً إياه من الحظيرة وسار به حول كل البيوت ثم ربطه قرب بيت قارانغاب الطيني. ليره الجميع. يديغاي العاصف لا يمكن أن يتراجع عن كلامه. لكنه عبثاً كان يحاول برهنة ذلك. فبينما هو مشغول بحدج الجمل لطف اديلباي الطويل الجو وانفرد جانباً بسابيتجان:

- تعال إلى الظل لنتكلم.

لم يكن حديثهما هناك طويلاً. فاديلباي لم يحاول الإقناع، بل أعلن مباشرة:

- اسمع يا سابيتجان... اُشكُر ربك على وجود يديغاي العاصف صديق أبيك على وجه هذه البسيطة، ولا تحاول عرقلة دفننا للرجل كما يجب. إذا كنت مستعجلاً فنحن لسنا ممسكين بك. أنا نفسي سألقي حفنة تراب إضافية نيابة عنك.

وبدأ سابيتجان بالكلام:

- هذا أبي وأنا أعرف...

- أبوك – نعم – قاطعه اديلباي الطويل مباشرة – لكنك أنت نفسك لست ملك نفسك.

- ما هذا الكلام... – بدأ سابيتجان بالتراجع عن موقفه – حسناً، لن نتجادل في مثل هذا اليوم. فليكن في انابيت، ما الفرق. كل ما قصدته أنه بعيد بعض الشيء...

هكذا انتهى حديثهما. وعندما وضع يديغاي قارانار في مكان يراه الجميع عاد ليقول لأهالي أم العواصف: «كفوا عن الكلام الذي لا يليق بالرجال. سندفن هذا الرجل في انابيت...» فلم يعترض أحد ووافق الجميع بصمت...

أمضى الجميع مساء وليل ذلك اليوم معاً كجيران في الباحة أمام بيت المتوفى إذ كان الطقس مناسباً لذلك. فبعد قيظ النهار حلت برودة صاروزيكي الربيعية المبكرة الحادة ولفت العالم عند الغروب سكينة عظيمة لا صوت فيها للرياح. عند الغروب كانوا قد انتهوا من سلخ جلد الخروف استعداداً لوليمة التأبين يوم غد، وحتى ذلك الحين جلسوا يشربون الشاي حول السماورات التي ينطلق منها الدخان ويتحدثون أحاديث مختلفة عن هذا الأمر وذاك... كل الاستعدادات للجنازة كانت جاهزة تقريباً ولم يبق إلا انتظار الصباح لينطلقوا إلى انابيت. مرت ساعات المساء بهدوء وسكينة، كما هو المفروض عند وفاة رجل مسن وهذا ما يحزن ويؤلم.

وكالعادة ظلت القطارات تأتي إلى نقطة أم العواصف وتغادرها. تلتقي آتية من الشرق والغرب وتفترق مغادرة إلى الشرق والغرب.

هكذا كانت الأمور في ذلك المساء عشية الذهاب إلى انابيت، وكان يمكن أن يكون كل شيء طبيعياً لولا وقوع حدث مزعج. في ذلك الوقت وصلت آيزادا مع زوجها على قطار شحن عابر لحضور جنازة والدها. وما كادت تعلن عن وصولها بنحيب مرتفع حتى اجتمعت النساء حولها وبدأن بالبكاء، وقد تعاطفت بشكل خاص مع آيزادا اوقوبالا. كانت تشفق عليها. بَكينَ ونَدَبْنَ بمرارة. حاول يديغاي تهدئة آيزادا: ماذا بيدنا الآن أن نعمل، لا يجب أن نموت مع الميت، يجب أن نسلم بالقدر. لكن آيزادا لم تهدأ.

هذا ما يحدث أحياناً. لقد كانت وفاة والدها حجة لتبكي ولتفرغ أمام الجميع ما شُحِنت به نفسُها وما لم تجد له مخرجاً بالكلام منذ زمن طويل. فمن خلال البكاء بصوت مرتفع كانت تتوجه إلى والدها المتوفي شعثاء متورمة، نادبة، وعلى طريقة النساء، حظها العاثر، شاكية من أن أحداً لا يفهمها ولا يتعاطف معها، ومن أن حياتها كانت بائسة منذ صباها، فزوجها سكير وأولادها يتسكعون في المحطة من الصباح حتى المساء دون رقيب أو حسيب ولذلك تحولوا إلى أشقياء، وربما غداً سيصبحون قطاع طرق ويبدؤونَ بسرقة القطارات، فها هو الكبير فيهم قد بدأ يتعاطى المشروبات وقد حضرت الشرطة من أجله وحذرتها – وقريباً تصل الأمور إلى النيابة العامة. ماذا بوسعها أن تفعل وحيدة وهم ستة، ووالدهم «كالأطرش في زفة»...

وفعلاً كان زوجها «كالأطرش في زفة»، كان يجلس متهدلاً مضطرباً، حزيناً بعيداً عما يجري حوله، ومع ذلك جاء ليحضر دفن حميه. كان يجلس وهو يدخن تبغاً رخيصاً ذا رائحة كريهة. لم يكن هذا جديداً عليه. كان يعرف أن المرأة ستبكي وتبكي ثم تتعب... لكن أخاها سابيتجان تدخل دون مبرر. ومن هنا كانت البداية. صار سابيتجان يعيّر أخته: أين رأيتم مثل هذا؟ ما هذا الأسلوب؟ لماذا جاءت، لتدفن أباها أم لتجرّس نفسها؟ أهكذا تنوح الابنة الكازاخية على أبيها الذي تحترمه؟ ألم تصبح مناحات النساء الكازاخيات العظيمة أساطير وأغان لمن خلفهن على مدى مئات السنين؟ طبعاً لم تحي هذه المناحات الموتى، إلا أنها كانت تفجر دموع الأحياء. كانت تعدد مناقب المتوفى وترفع مزاياه إلى السماء – هكذا بكت النساء في الماضي. أما هي...؟ إنها تشكو وكأنها يتيمة، تشكو من تعاستها وسوء حظها في الدنيا.

هذا ما كانت آيزادا تنتظره. وبدأت بالصراخ بقوة وحماس متجددين. يا لك من عالم ذكي. علم زوجتك أولاً. أفهم زوجتك أولاً هذه الكلمات الجميلة. لماذا لم تأت هي ولم ترنا نواح الاحترام والتبجيل. ليس ذنباً أن تحضر وتفي

والدنا حقه، إلا أنها منافقة وأنت إنسان حقير، خرقة أمام زوجته، نصبتم على العجوز وسرقتموه حتى آخر قطرة. لكن زوجي، وإن كان مدمناً، فقد حضر. أين هي زوجتك الذكية العاقلة؟

عندها بدأ سابيتجان يصرخ على زوجها كي يجبر هذا الأخير آيزادا على السكوت، فثار ذاك بشكل مفاجئ وانقض على سابيتجان يريد خنقه...

وتمكن أهل أم العواصف بصعوبة أن يهدئوا الأقارب المتخاصمين. لقد كان الموقف مزعجاً مخجلاً للجميع. ارتبك يديغاي جداً. كان يعرف مقامهم ولكنه لم يتوقع تطور الموقف إلى هذا الحد، فحذرهم بعنف وصرامة جديين: إذا كنتم لا تحترمون بعضكم البعض فلا تلحقوا العار بذكرى والدكم، وإلا فلن أسمح لأحد منكم بالبقاء ولن أراعي أي اعتبار. لا تلوموا إلا أنفسكم...

نعم. هذه هي القصة المزعجة التي حدثت عشية الدفن. لقد تكدر يديغاي بشدة، وعادت حواجبه لتتقطب على جبينه العابس، وعادت التساؤلات تضج في رأسه: من أين جاؤوا وجاء أبناؤهم، ولماذا أصبحوا هكذا؟ أهذا ما كانا يحلمان به هو وقازانغاب عندما كانا ينقلانهم أثناء الحر وأثناء القر إلى مدرسة قومبيل الداخلية كي يتعلموا ويصبحوا كالناس، كي لا يظلوا يعيشون حياة بائسة فارغة في إحدى نقاط صاروزيكي، كي لا يلعنوا فيما بعد حظهم: أهلنا لم يهتموا بنا...؟ إلا أن كل شيء سار على العكس... لماذا؟ وما الذي منعهم أن يصبحوا بشراً لا تتقزز النفس منهم؟...

مرة أخرى، أنقذ اديلباي الطويل الموقف وأبدى حذاقة في التصرف وخفف كثيراً عن يديغاي في ذلك المساء، إذ فهم وضعه. أبناء الوالد المتوفى هم دائماً الأشخاص الرئيسيون في الجنازة – هذا هو حال الدنيا ولا مجال لإبعادهم أو للتخلص منهم مهما كانوا وقحين ومزعجين. ولكي يسوي اديلباي النزاع الذي أزعج الجميع، والذي نشب بين الأخ وأخته، دعا جميع الرجال

إلى بيته قائلاً: هل سنجلس في الباحة لنعد النجوم؟ تعالوا نشرب الشاي ونجلس قليلاً عندنا...

في بيت اديلباي الطويل شعر يديغاي وكأنه دخل عالماً آخر. لقد سبق له أن جاء إلى هنا بحكم الجوار، وفي كل مرة دخل فيها كان يخرج راضياً، نفسه عامرة بالسرور من أسرة اديلباي. واليوم أحس برغبة بالبقاء فترة أطول هنا. كانت به حاجة إلى ذلك – وكأنه كان يريد أن يستعيد في هذا البيت قواه الخائرة.

كان اديلباي الطويل عاملاً في السكة الحديدية كالآخرين، ولا يتقاضى أكثر مما يتقاضاه الآخرون. كان يعيش كالجميع في بيت مسبق الصنع من غرفتين ومطبخ. لكن الحياة التي كانت تسود هنا كانت حياة مختلفة: نظافة وراحة ونور. نفس الشاي الموجود عند الآخرين كان في فناجين بيت اديلباي يبدو ليديغاي شهداً رائقاً شفافاً. زوجة اديلباي بحد ذاتها لا بأس بها، وفي بيتها مدبرة، وأطفاله كانوا أطفالاً... وفكر يديغاي في نفسه: سيعيشون في صاروزيكي المدة التي يقدرون عليها، ثم سينتقلون إلى مكان أفضل. سيكون من المؤسف أن يرحلوا من هنا...

بعد أن خلع يديغاي حذاءه القماشي السميك عند العتبة دخل وجلس في الغرفة الداخلية متربعاً وهو يرتدي الجوارب، وشعر لأول مرة خلال هذا اليوم أنه تعب وجائع. استند بظهره إلى الجدار المصنوع من الألواح الخشبية وصمت. وجلس بقية الضيوف حول مائدة مستديرة موضوعة على الأرض وهم يتحدثون بأصوات منخفضة حول مواضيع مختلفة...

بعد قليل دار حديث جدي، حديث غريب. كان يديغاي قد نسي موضوع السفينة الفضائية التي أطلقت ليلة الأمس. تكلم من كان يعرف شيئاً عن هذا، وقالوا ما جعل يديغاي يغرق في التفكير، ليس بقصد تحقيق اكتشاف ما، بل لأنه استهجن بعض الشيء محاكماتهم وجهله في هذا المجال. ولكنه مع ذلك

لم يشعر بملامة داخلية، فهذه التحليقات الفضائية التي تشغل الجميع إلى هذه الدرجة، كانت بالنسبة له قضية بعيدة جداً وغريبة كالسحر. لذلك كان موقفه من كل هذا موقف الاحترام المتحفظ كموقفه من ظهور إرادة ما خارجية جبارة لا يحق له في أفضل الحالات إلا أخذ العلم بها. إلا أن مشهد السفينة المنطلقة إلى الفضاء هزه وأسره. وهذا ما دار الحديث عنه في بيت اديلباي الطويل.

في البداية جلسوا يشربون «شباط». وهو شراب من حليب الجمال المخمر. كان شباطاً ممتازاً بارداً ذا رغوة، ومسكراً بعض الشيء. عمال الرقابة والصيانة الذين كانوا يأتون إلى هنا كانوا يشربونه بشره ويسمونه بيرة صاروزيكي. عندما كان يحدث مثل هذا لم يكن يديغاي العاصف يمتنع عن شربه للمجاملة. أما في هذه المرة فلم يشرب وبهذا أفهم الجميع – حسب تصوره – أنه لا ينصحهم بالانشغال بالشراب، فيوم غد سيكون قاسياً والطريق طويلة. ما أقلقه أن الآخرين وخاصة سابيتجان انكبوا على الشرب وصاروا يشربون الشباط بعد الفودكا. الشباط والفودكا يترافقان بشكل ممتاز كجوادين أصيلين يعدوان معاً – يزيدان من نشوة الإنسان. إلا أنه لا داعي لهذا اليوم. ولكن كيف لك أن تأمر أناساً راشدين ألا يشربوا؟ يجب أن يعرفوا الحدود بأنفسهم. غير أن ما أراحه، على كل حال، هو أن زوج آيزادا ما زال يمتنع عن الفودكا. وكم يحتاج المدمن... أنه يسكر فوراً. لكنه لم يشرب إلا الشباط ويبدو أنه فهم، رغم كل شيء، أنه من غير المعقول أن يقع ثملاً في جنازة حميه، ولكن إلى متى سيظل متماسكاً... الله وحده يعلم.

كانوا جالسين يتجاذبون أطراف الحديث حول مواضيع مختلفة عندما تذكر اديلباي فجأة، وهو يقدم الشباط للضيوف (كانت يداه الطويلتان تنثنيان وتمتدان كأنهما ذراع حفارة) فقال وهو يمد يده إلى يديغاي بالفنجان من طرف المائدة المقابل:

- يديكيه، ليلة أمس عندما أخذت المناوبة عنك، ما كدت تذهب حتى دوى صوت في الفضاء، أفقدني توازني. نظرت وإذ بصاروخ انطلق من المطار الفضائي إلى السماء. صاروخ كبير بحجم «العريش». هل رأيته؟

- وكيف لا. لقد أذهلتني الدهشة. يا لها من قوة. كان كله يسبح في النار ويرتفع أعلى وأعلى، لا نهاية له ولا حدود. وانتابني الخوف. منذ متى وأنا أعيش هنا... لكني لم أر شيئاً كهذا.

واعترف اديلباي:

- فعلاً، لأول مرة أراه بعيني.

وهنا قرر سابيتجان أن يسخر من طول ايدلباي:

- إذا كنت أنت تراه لأول مرة، فمن الأحرى أن لا نستطيع نحن رؤيته أبداً.

رد اديلباي على هذا بابتسامة خاطفة وبحركة من يده:

- ومن أنا؟... نظرت ولم اصدق نفسي: نار ملتهبة تهدر في الأعالي. فقلت: ها هو شخص جديد ينطلق إلى الفضاء. رحلة سعيدة لك. أدرت الترانزستور بسرعة، فأنا أحمله معي دائماً، وصرت أفكر: والآن سيعلنون عنه بالراديو. عادة يبثون فوراً من المطار الفضائي، والمذيع يتكلم فرحاً وكأنه يخطب في مهرجان. صار دمي يغلي. كنت أريد جداً أن أعرف، يا يديكيه، من هو، من هذا الذي رأيته شخصياً وهو يحلق، ولكنني لم أعرف.

- ولماذا؟ - سبق سابيتجان الجميع مستغرباً رافعاً حاجبيه بأهمية بمعان متعددة. لقد بدأ يسكر، فالعرق بدأ يبزغ من مسامات وجهه المحمر.

- لست أدري. لم يذيعوا شيئاً. أبقيت الموجة طوال الوقت على «ماياك»[١]، ولم يقولوا أية كلمة...

---

(١) ماياك تعني المنارة. وهم اسم محطة إذاعة سوفييتية تعمل طوال اليوم وعلى موجة قصيرة جداً لما وراء البحار.

- مستحيل. هناك شيء ما غير طبيعي. – أعلن سابيتجان شكه بشكل مثير وهو يبتلع بعض الشباط وراء الفودكا – كل تحليق إلى الفضاء حدث عالمي... أفهمت؟ هذه سمعتنا في العلم والسياسة.

- لا أعرف لماذا. سمعت نشرة الأخبار خصيصاً وكذلك استعراض الصحف...

- احم – وبرم سابيتجان رأسه – لو كنت في مكاني، في عملي. لعرفت حتماً. شيء مزعج، يا للشيطان، ولكن ربما هناك شيء ما غير اعتيادي.

فأضاف اديلباي الطويل عن طيبة قلب:

- والله لا أحد يعرف ما هو الاعتيادي وما هو غير الاعتيادي. بالنسبة لي أشعر وكأنه رائدنا هذا الذي أطلق أمام عيني، وأظن أنه قد يكون أحد شبابنا. سيكون ذلك مفرحاً. وربما نلتقي به ذات يوم. سيكون الأمر مفرحاً لو أنَّهُ يحدث...

قاطعه سابيتجان مستعجلاً وقد أثاره لغز ما:

- آه. فهمت. هذه سفينة بلا طيار. أطلقوها للاختبار.

- كيف هذا؟ - شزره اديلباي.

- نوع تجريبي. أفهم، هذه تجربة. سفينة بلا طيار تذهب للالتحام أو للخروج على المدار، وحتى الآن لا يعرفون ماذا سيحدث وكيف. إذا تم كل شيء بنجاح فسيعلنون في الإذاعة والصحف، وإلا فقد لا يعلنون. مجرد تجربة علمية.

فرك اديلباي جبينه محتداً:

- وأنا كنت أظن أن إنساناً حياً هو الذي انطلق.

صمت الجميع وقد خيبت معلومات سابيتجان آمالهم، وكان يمكن أن ينتهي الحديث عند هذا، لولا أن يديغاي وجهه وجهة جديدة عن غير قصد:

- إذن – كما فهمت، يا شباب – انطلق إلى الفضاء صاروخ بلا إنسان؟ ولكن من سيقوده؟

- كيف من؟ - ضرب سابيتجان كفاً بكف مستغرباً ونظر إلى يديغاي الجاهل نظرة المنتصر – كل شيء يتم يا يديكيه بالراديو، بناء على أوامر الأرض، من مركز القيادة. كل الأمور تدار بالراديو. أفهمت؟ حتى لو كان على متن السفينة رائد فضاء، فتحليق الصاروخ يوجه بالراديو فيجب أن يحصل على إذن كي يتصرف هو بنفسه... هذا يا عزيزي كوكيتاي[١] ليس سفراً على قارانار في سهوب صاروزيكي. هناك كل شيء بالغ التعقيد...

تمتم يديغاي بشكل مبهم:

- إذن هكذا.

لم يكن يديغاي العاصف ليدرك مبدأ التوجيه بالراديو. وهذه الكلمة في تصوره هي كلمات وأصوات تنتقل عبر الأثير من مسافات بعيدة. ولكن كيف يمكن قيادة الجماد بهذه الطريقة؟. لو كان يوجد داخل هذا الجَماد إنسان لكان الأمر مختلفاً: فهو ينفذ التعليمات – أفعل كذا وأعمل كيت. كان يود يديغاي أن يسأل عن كل هذه الأمور ولكنه قرر أن لا داعي لذلك. كان في داخله ما يمنعه عن ذلك لسبب ما. فصمت. لقد طرح سابيتجان معارفه بشكل غير لبق أبداً. وكأنه يقول: «تفضلوا، أنتم لا تعرفون شيئاً وتعتبرونني إنساناً فارغاً. وصهري السكير يهجم علي ليخنقني، أما أنا فأفهم في هذه الأمور أكثر منكم جميعاً». فكر يديغاي: «الله معك. من أجل هذا علمناك كل حياتنا. يجب أن تعرف أكثر منا، نحن الجهلة». وفكر يديغاي أيضاً: «ماذا لو يصل هذا الإنسان إلى السلطة –سيقتلنا كلنا، سيجبر مرؤسيه على التظاهر بمعرفة كل شيء، ولا يمكن أن يحتمل الآخرين مطلقاً. ما زال الآن يجري ذهاباً وإياباً

---

(١) كوكيتاي: صيغة نداء للتصغير والتدليل وبنفس الوقت للسخرية وعدم الاحترام.

تنفيذاً للأوامر ويريد أن ينظر الجميع إلى فمه، وعلى أقل تعديل هنا في صاروزيكي...».

ويبدو أن سابيتجان وضع فعلاً نصب عينيه هدف إذهال وسحق أهالي أم العواصف، ربما كي يرفع من قيمته في أنظارهم بعد الفضيحة المعيبة مع أخته وصهره. فبدأ بالكلام، وصار يُحدِّثُهُم عن المعجزات التي لا تصدق وعن الإنجازات العلمية، وقد قرر أن يلهيهم بالحديث بينما كان هو يغب الفودكا جرعة إثر جرعة ويشرب وراءها الشباط. لهذا ازداد حماسة وصار يروي أشياء فيها من الغرابة ما جعل أهالي أم العواصف المساكين يحتارون: ما الذي يصدق وما الذي لا يصدق.

- احكموا بأنفسكم. نحن، إن كنا ندرك، أسعد الناس في تاريخ البشرية. – كان يتكلم وهو يمسح نظارتيه ويتلفت إلى الجميع بنظرة كاوية – أنت يا يديكيه أكبرنا الآن، وتعرف كيف كان الحال في الماضي وكيف هو الآن. مناسبة كلامي هذا هو أن الناس كانوا يؤمنون بالآلهة. ويقولون أن الآلهة كانت تعيش في اليونان القديمة على جبل أولمبيا. ولكن ما هي هذه الآلهة؟ مجانين. ماذا كانت تستطيع أن تعمل؟ كانت تتخاصم فيما بينها وهذا ما اشتهرت به، لكنها لم تستطع تغيير نمط حياة الناس، بل إنّها لم تفكر بهذا مجرد تفكير. هذه الآلهة لم تكن موجودة. كلها أساطير. حكايات. أما آلهتنا فتعيش بالقرب منا، هنا في المطار الفضائي، على أراضي صاروزيكي، وهذا ما نفخر به أمام كل العالم. لا يراهم أحد منا ولا يعرفهم، ولا لزوم لذلك. فلا يجب أن يدس أنفه كل من هب ودب: مرحباً، كيف حالك. ولكنهم آلهة حقيقيون. أنت تستهجن يا يديكيه كيف يوجهون بالراديو السفن الفضائية. هذا أمر تافه، هذه مرحلة تم تجاوزها. فالأجهزة والآلات تعمل حسب برنامج معد. وسيأتي وقت سيتمكنون فيه من توجيه الناس بالراديو، كما يوجهون تلك الآلات – أتفهمون – سيوجهون الناس كلهم من أصغرهم إلى أكبرهم. إن مثل

هذه المعطيات العلمية موجودة. لقد توصل العلم حتى إلى هذا انطلاقاً من المصالح العليا.

فقاطعه اديلباي الطويل:

- قف، قف. كلما تضايقت تقفز فوراً إلى المصالح العليا. حدثني عن التالي، فأنا لم أفهم كل شيء. يفهم من كلامك أن كل واحد منا يجب أن يحمل معه دائماً جهاز راديو صغير كالترانزيستور كي يسمع الأوامر؟ هذا موجود في كل مكان.

- آه منك. أتظن أن الحديث عن هذا؟ هذا سخافةــ لعب أطفال. لا يجب أن يحمل أحد معه شيئاً. سر عارياً. لكن الموجات اللاسلكية المسماة «بيوتوك» (التيار الحيوي)(١) ستؤثر دائماً عليك وعلى وعيك. وعندها إلى أين ستهرب؟

- إذن هكذا؟

- هكذا... وأنت تظن ترانزيستور. الإنسان سيفعل كل شيء حسب برنامج من المركز. الإنسان يظن أنه يعيش ويعمل مستقلاً بكل حريته، ولكنه في الواقع يعيش ويعمل حسب الأوامر العليا، وحسب نظام صارم. يجب أن تغني – إشارة، فتغني. يجب أن ترقص – إشارة، فترقص. يجب أن تعمل – فتعمل بجد. السرقة والزعرنة والجريمة – كلها ستنسى، ولن تعرفها إلا من قراءة الكتب القديمة، لأن كل شيء في سلوك الإنسان سيكون مدروساً – تصرفاته، وأفكاره، ورغباته. لنقل مثلاً أنه يوجد في العالم انفجار سكاني، أي أن الناس يتكاثرون جداً ولا يوجد ما يأكلونه. ما العمل؟ الحَدّ من الولادة. ولن تقيم علاقة مع زوجتك إلا عندما تأتيك إشارة بذلك انطلاقاً من مصالح المجتمع.

---

(١) الذبذبات المغناطيسية المكونة في مخ الإنسان والمؤثرة فيه.

- من المصالح العليا؟ أكد اديلباي الطويل بسخرية لاذعة.

- بالضبط. مصالح الدولة فوق كل شيء.

- وإذا كنت أريد أنا، بلا هذه المصالح، أن... ما اسمه... مع زوجتي فكيف؟

- اديلباي يا عزيزي. لم يحصل شيء كهذا. حتى أن فكرة كهذه لن تخطر ببالك. فلو شاهدت أجمل الجميلات لن تلتفت إليها حتى التفاتاً. لأنهم سيوجهون إليك «بيوتوك» سلبي. كن على ثقة أنهم في هذا المجال سيطبقون النظام تماماً. أو خذ مثلاً الناحية العسكرية. كل شيء بالإشارة. يجب أن يهجم – يهجم، يجب أن يقفز بالمظلة – لا يطرف له جفن. يجب أن يفجر نفسه مع لغم ذري تحت الدبابة – بكل سرور وبلحظة واحدة. تسألونني لماذا؟ «بيوتوك» عدم الخوف – أرسل البيوتوك – انتهى الخوف عند الإنسان... هكذا!...

وأعرب اديلباي عن استغرابه الصادق:

- ما أمهرك بالكذب. ما الذي تعلمته طوال هذه السنين؟

كان الجالسون يضحكون ساخرين بشكل مكشوف ويهزون رؤوسهم: الشاب يكذب، ولكنهم ومع ذلك تابعوا الإصغاء: يهذي بأشياء شيطانية، ولكنها مسلية وجديدة، مع أنهم فهموا أنه سكر تماماً وهو يشرب الفودكا وبعدها الشباط. لا قيد على كلامه، فليثرثر. سمع الرجل بعض الأشياء، فهل تستأهل أن نتعب رأسنا في البحث عن الصحيح فيها والكذب. لكن يديغاي خاف بالفعل فجأة – ثرثارنا لا ينعق هكذا بلا سبب، فهو حتماً قرأ هذه الأشياء في مكان ما أو سمعها بطرف أذنه. فهو يلتقطها وهي تطير. إن هنا شيئاً ما غير طبيعي. وماذا لو وجد مثل هؤلاء الناس فعلاً، وكانوا علماء كباراً يتعطشون فعلاً للتحكم بنا كالآلهة؟...

وانطلق سابيتجان دون تخلف، ما داموا يسمعونه. حدقات عينيه توسعت تحت نظارتيه المتعرقتين، مثل عيني قطة في الظلام، وهو يغب تارة الفودكا وتارة الشباط. بدأ هذه المرة، وهو يؤشر بيديه، برواية حكاية عن مثلث برمودا في المحيط، حيث تختفي البواخر بشكل مجهول، ولا أحد يعرف أين تختفي الطائرات التي تحلق فوق هذا المكان.

- عندنا في المحافظة رجل حاول طويلاً أن يسافر إلى الخارج. ما الذي يشده إلى هناك... لست أدري. المهم أزاح الجميع عن طريقه وجنى على نفسه وسافر إلى ما وراء المحيط – إلى الأورغواي أو الباراغواي – وكانت النهاية. فوق مثلث برمودا اختفت الطائرة وكأنها لم تكن. ومات هو ومن معه. ولذلك – يا أصدقائي – لماذا ترجو غيرك وتسعى وتزيح آخرين من طريقك. لا حاجة بنا إلى مثلثات برمودا. عش على أرضك وبصحتك. تعالوا نشرب نخب صحتنا.

شتمه يديغاي في سره، «بدأت. الآن يتذكر قصته المفضلة. يا له من كذاب. ما يكاد يشرب حتى تفلت مكابحه». وهذا ما حدث.

كرر سابيتجان ناظراً إلى الجالسين بعينين زائغتين، ولكنه ما يزال قادراً على تحميل تعابير وجهه أهمية متعددة المعاني:

- لنشرب نخب صحتنا. وصحتنا هي أكبر ثروة لبلادنا. أن صحتنا من قيم الدولة. كذا. نحن لسنا أي أحد، نحن رجال الدولة وأريد أيضاً أن أقول...

وقف يديغاي العاصف من مكانه بحدة دون إنَّ ينتظر حتى ينتهي ذلك من نخبه وخرج من البيت، محدثاً قرقعة عند العتبة في الظلام إذ تعثر بسطل فارغ، أو ربما بشيء آخر. واحتذى بسرعة وأثناء سيره حذاءه القماشي السميك الذي كان قد برد في الخارج، وذهب إلى بيته منزعجاً غاضباً. «أيه، مسكين قازانغاب. – وأن بصوت مسموع وهو يقضم شاربيه لشدة حنقه – ما هذا؟ الموت لم يعد موتاً والمصيبة لم تعد مصيبة. جالس يشرب وكأنه في

حفلة، لا يهمه شيء. ثم اخترع هذه الديباجة الشيطانية – صحة الدولة... هكذا في كل مرة... إن شاء الله نتمكن غداً من تنفيذ كل شيء كما يجب. وعندما ندفنه ثم نقيم وليمة التأبين، لن تدوس رجله المنطقة. سنتخلص منه فلا هو بحاجة لأحد ولا أحد بحاجة إليه!».

مع ذلك، يبدو أنهم جلسوا في بيت اديلباي الطويل فترة لا بأس بها. وقد اقترب الآن الوقت من منتصف الليل. وتنشق يديغاي هواء صاروزيكي الليلي البارد ملء رئتيه. الطقس يعد بِأن يكون غداً كالعادة صحواً وجافاً، وحاراً بما فيه الكفاية. هكذا دائماً. النهار حار والليل بارد حتى القشعريرة. ولهذا ترى السهوب هنا يابسة – فالنباتات لا تستطيع التكيف. في النهار تنشد نحو الشمس وتنتصب وتتعطش للرطوبة وفي الليل يضربها البرد. ولا يبقى منها إلا ما يصمد. وهي الأشواك بأنواعها والشيح بأكثريته والنباتات الأخرى التي تصمد نتف منها عند مجاري السيول والتي يمكن تعشيبها. يقول الجيولوجي بليزاروف وهو من أصدقاء يديغاي العاصف القدامى أنه كانت هنا ذات يوم أماكن تنبت فيها الحشائش الكثيرة، إذ أن المناخ كان مختلفاً عما هو الآن، كانت الأمطار تهطل أكثر بثلاث مرات. ومن الطبيعي أن الحياة أيضاً كانت مختلفة عما هي عليه حالياً. كانت القطعان والمضارب تجوب صاروزيكي. يبدو أن هذا كان منذ زمن بعيد، ربما قبل أن يظهر هنا الغزاة المتوحشون جوان جوان، الذين محي أثرهم إلى الأبد ولم يبق إلا ذكرهم. وإلا فكيف كان يمكن أن يقطن في صاروزيكي هذا العدد الكبير من الناس. لم يكن بليزاروف عبثاً يقول أن صاروزيكي هو كتاب منسي عن تاريخ الصحراء... وهو يظن أن تاريخ مقبرة انابيت ليس مجرد مصادفة. هناك بعض العارفين الذين لا يقرون من التاريخ إلا بما كتب على الورق. وإذا لم تكن الكتب قد وجدت في ذلك الزمان، فكيف...؟...

تذكر يديغاي وهو يستمع إلى أصوات القطارات المارة من النقطة، تذكر بتداع هيجان بحر آرال، الذي ولد وترعرع وعاش حتى الحرب على

شاطئه. قازانغاب أيضاً كان كازاخياً من آرال، وهذا ما قرب بينهما إذ وجدا نفسيهما يعملان على الطريق الحديدية، وكثيراً ما تشوقا وهما في صاروزيكي إلى بحرهما. قبل فترة قصيرة من موت قازانغاب، في الربيع سافرا معاً إلى آرال. ويبدو أن العجوز ذهب إلى البحر ليودعه – ولكن ليتهما لم يسافرا إلى هناك، إذ لم يجنيا إلا الألم. البحر يتقهقر ويختفي، وآرال يجف. قَطَعا حوالي عشرة كيلو مترات من قعر البحر، سابقاً، على الرمال ركوباً، إلى أن وصلا أطراف الماء. عندها قال قازانغاب: «بحر آرال موجود منذ وجود الأرض، وها هو الآن يجف، فما قولك في حياة الإنسان.» وقال إذ ذاك أيضاً: «يديغاي، اِدفنّي في انابيت. أنا الآن أرى البحر لآخر مرة!...».

مسح يديغاي العاصف بكمه دمعة طفرت من عينيه، وتَصنَّعَ السعال كي لا تبقى غصة الأسى في حلقه، واتجه إلى بيت قازانغاب الطيني، حيث جلست آيزادا واوقوبالا وبقية النساء جلسة الحداد. كانت نساء أم العواصف تأتين إلى هنا بالتناوب في الفترات ما بين أعمالهن لكي يبقين معاً وليقدمن المساعدة إذا لزم الأمر.

أثناء مروره أمام الحظيرة توقف يديغاي للحظة عند جذمور مغروز في الأرض، كان قارانار العاصف يقف أمامه جاهزاً معداً ومزيناً بالغطاء ذي الشراشيب. بدأ الجمل تحت ضوء القمر ضخماً جباراً، لا يهزه شيء، كالفيل، ولم يتماسك يديغاي عن أن يربت له على خاصرته.

- ممتاز أنت.

وعند العتبة تماماً تذكر يديغاي لسبب ما، هو نفسه لم يعرفه، تذكر ليلة الأمس، كيف اقتربت ثعلبة من ثعالب السهب من السكة الحديدية، وكيف لم يتجرأ على رميها بحجر فعدل عن ذلك، وكيف انطلقت سفينة نارية من المطار الفضائي إلى اللجة السوداء البعيدة وهو ذاهب إلى البيت.

* * *

- ٣ -

في هذه الساعة كان قد حل الصباح في رحاب المحيط الهادئ الشمالية، إنَّها الساعة الثامنة صباحاً. كانت الشمس المبهرة تسكب نورها الذي لا ينضب فوق السكينة العظيمة البراقة التي لا تحيق العين بها كلها. في هذه الأصقاع لم يكن يوجد إلا الماء والسماء. إلا أنه كانت تدور على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» دراما عالمية لم يكن أحد خارج السفينة ليعرف بها بعد. سببها الحدث الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ غزو الفضاء والذي وقع في المحطة المدارية الأميركية السوفييتية «باريتيت».

قطعت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» وهي المقر العلمي الاستراتيجي للمركز المشترك لقيادة البرنامج الثنائي لعلم الكواكب المسمى «ديمي اورغ»، قطعت بسبب ما حدث كل اتصالاتها بالعالم المحيط ولم تغير مكان تواجدها الدائم إلى الجنوب من جزر اليوت في المحيط الهادي، بل على العكس، تمركزت بشكل أكثر دقة في تلك المنطقة الواقعة في نقطة متساوية البعد تماماً عن فلاديفوستوك وسان فرانسيسكو.

وحدثت على السفينة العلمية نفسها بعض التغيرات. فبتوجيه من قائدي البرنامج الرئيسيين المشتركين – الأميركي والسوفييتي عزل العاملان المناوبان في مجمع الاتصالات الفضائية – سوفييتي وأميركي – اللذان كانا يستقبلان المعلومات عن الحدث الطارئ في «باريتيت»، عزلا مؤقتاً، ولكنه مشدد، تجنباً لتسرب المعلومات عما حدث...

وأعلنت في جهاز «كونفينتسيا» حالة التأهب القصوى، بالرغم من أن السفينة لم تكن ذات صفة عسكرية، خاصة وأنه لا توجد عليها أية أسلحة، كما

أنها كانت تتمتع بحصانة دولية بناء على قرار خاص من هيئة الأمم المتحدة. حاملة الطائرات هذه كانت حاملة الطائرات الوحيدة غير الحربية في العالم.

كان يتوقع وصول اللجنتين المسؤولتين من الطرفين والمخولتين بصلاحية مطلقة لاتخاذ القرارات الطارئة والتدابير العملية التي ترياها ضرورية لمصلحة أمن بلديهما والعالم، كان يتوقع وصولهما في الساعة الحادية عشرة ظهراً بفارق زمني مقداره خمس دقائق.

وهكذا، كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» موجودة في تلك الساعة في عرض المحيط إلى الجنوب من جزر اليوت في نقطة متساوية البعد تماماً عن فلاديفوستوك وسان فرانسيسكو. لم يكن اختيار هذا المكان اعتباطياً. ففي هذه المرة بدت واضحة كل الوضوح – كما لم يسبق لذلك أن حصل – فطنة وبعد نظر واضعي برنامج «ديمي اورغ» منذ البداية، إذ أن مكان تواجد السفينة التي يجري على متنها تنفيذ البرنامج الذي وضع بشكل مشترك للأبحاث في علم الكواكب، يعكس مبدأ المساواة التامة والتوازن المطلق في هذا التعاون العلمي التقني الدولي الفريد.

حاملة الطائرات «كونفينتسيا» بكل معداتها وتجهيزاتها واحتياطيها من الطاقة كانت ملكاً للطرفين بحصص متساوية، وبهذا كانت تعتبر سفينة مشتركة الملكية للدول المساهمة. كانت السفينة تمتلك اتصالاً تلفونياً وتلفزيونياً مع المطارات الكونية في نيفادا وصاروزيكي يعمل في وقت واحد. كانت تقبع على حاملة الطائرات ثماني طائرات نفاثة – أربع من كل طرف – تقوم وبشكل دائم بأعمال النقل والانتقال الضرورية لــ «اوبتسينوبر» في اتصالاته اليومية مع القارات. كان يوجد على «كونفينتسيا» قبطانان موازيان سوفييتي وأميركي: القبطان الموازي ١-٢ والقبطان الموازي ٢-١. كل منهم يكون الرئيسي أثناء ورديته. كل طاقم السفينة كان مزدوجاً – مساعدو القبطانين الموازيين، الملاحون والميكانيكيون والكهربائيون والبحارة والمضيفون...

وحسب نفس النظام تشكل الجهاز العلمي التقني لـــ «اوبتسينوبر» على متن «كونفينتسيا»، ابتداء من القائدين الرئيسيين المشتركين للبرنامج الممثلين للجانبين عالمي الكواكب الموازيين ١-٢ و٢-١ مروراً بكل العاملين العلميين بكافة الاختصاصات، كانوا مزدوجين ممثلين بدرجات متساوية لكلا الطرفين. ولذلك سميت السفينة الفضائية الموجودة على أبعد مدار عن سطح الأرض تم التوصل إليه حتى الآن «ترامبلين»، سميت «باريتيت» تعبيراً عن جوهر العلاقات المتبادلة على الأرض.

من الطبيعي أن يكون كل ذلك قد أسبق بعمل تحضيري كبير ومتنوع من قبل المؤسسات العلمية والدبلوماسية والإدارية في كلا البلدين. وقد تطلب ذلك سنوات كثيرة حتى توصل الجانبان في اللقاءات والاجتماعات التي لا تحصى إلى تنسيق كل المسائل العامة والخاصة المتعلقة ببرنامج «ديمي اورغ».

وقد طرح برنامج «ديمي اورغ» مهمة من أعظم مهام العصر الكونية وهي دراسة الكوكب «اكس» بقصد استخدام مصادره الطبيعية الحاوية على كميات تفوق حدود تصورنا نحن أبناء الأرض من احتياطي الطاقة الداخلية. فمئة طن من صخور الكوكب اكس الموجودة على سطحه يمكنها أن تطلق، إذا عولجت معالجة خاصة، من طاقتها الداخلية ما تحتاجه كل أوروبا من الطاقة الكهربائية والحرارية الجاهزة خلال سنة كاملة. هذه هي طبيعة المادة الطاقية على الكوكب اكس، الذي تكون في ظروف متميزة مرت بها المجرة، وتحت تأثير التبدلات الكونية طويلة الأمد وخلال ملايين السنين. لقد أثبتت هذا عينات الصخور التي حضرتها أكثر من مرة الأجهزة الكونية من سطح اكس، وهذا ما أظهرته نتائج البعثات التي قامت عدة مرات بالهبوط لفترات قصيرة على سطح هذا الكوكب الأحمر من كواكب مجموعتنا الشمسية.

العامل الحاسم لصالح مشروع استثمار اكس هو ما لم يكن موجوداً على أي من الكواكب الأخرى التي اكتشفها العلم، بما في ذلك القمر والزهرة

– ألا وهو وجود الماء في أعماق كوكب اكس الذي يبدو كوكباً شديد التصحر. وقد أكدت أعمال الحفر وجود الماء في اكس. ويرى العلماء – بناءً على حساباتهم – أن تحت سطح كوكب اكس تكمن طبقة من المياه تبلغ سماكتها بضعة كيلو مترات، تقبع في وضع غير متبدل تحت طبقات من الصخور الباردة.

وجود هذه الكميات الهائلة من المياه على كوكب اكس، هو الذي ضمن واقعية برنامج «ديمي اورغ». والماء في هذه الحالة لا يعتبر فقط مصدراً للرطوبة، بل يعتبر كذلك مادة أساسية لتركيب العناصر الأخرى الضرورية للحفاظ على الحياة ولعمل أجهزة الجسم الإنساني بشكل طبيعي في ظروف كوكب غير الأرض، وبالدرجة الأولى الهواء من أجل التنفس. إضافة إلى ذلك فإن الماء، من وجهة النظر الإنتاجية، يلعب دوراً رئيسياً في تكنولوجيا التعويم الأولي للصخور قبل تحميلها في صناديق النقل الفضائي.

من المسائل التي تم بحثها مسألة أين يجب استخلاص طاقة اكس: في المحطات المدارية وهي في الفضاء، ومن ثم نقل الطاقة إلى الأرض بواسطة مدارات جيومتزامنة، أم على الأرض مباشرة؟ لكن الوقت ما زال كافياً لحل هذه القضية.

سبق أن أعدت بعثة كبيرة لإنزال مجموعة من الحفارين والمختصين بالمصادر المائية لفترة طويلة على سطح اكس. مهمة هذه المجموعة هي التجهيز لتأمين تدفق آلي دائم وموجه للمياه من أعماق اكس عبر شبكة من الأنابيب. وكانت المحطة المدارية «باريتيت» - إذا استخدمنا مصطلحات متسلقي الجبال – مخيم تمركز رئيسي على الطريق إلى اكس. فقد جهزت «باريتيت» بالمنشآت الضرورية لرسو وشحن وتفريغ «قوارب» النقل التي ستبحر بين اكس و«باريتيت». مع مرور الزمن وعند الانتهاء من بناء المجمعات سيتمكن من التواجد على متن باريتيت أكثر من مئة إنسان ضمن ظروف مريحة جداً، بما في ذلك استقبال مستمر للبث التلفزيوني من الأرض.

في هذه المنشأة الفضائية الضخمة سيكون استخراج مياه اكس وتحليلها أول عملية إنتاجية يحققها الإنسان خارج حدود كوكبه...

كان هذا اليوم يقترب، وكل الأمور كانت تسير نحوه.

كانت آخر الاستعدادات للعملية الهيدروتكنيكية على اكس قد أنجزت في مطاري صاري اوزيكي ونيفادا الفضائيين. وكانت «باريتيت» أثناء وجودها على مدار «ترامبلين» مستعدة لاستقبال أول مجموعة عمل من مستصلحي الفضاء وإرسالها إلى اكس.

لقد كانت البشرية تقف في الواقع عند منابع بداية حضارتها اللا أرضية...

وقي هذه اللحظات بالذات، وقبيل إرسال أول مجموعة من المختصين بالمصادر المائية إلى اكس اختفى رائدا الفضاء الموازيان، الموجودان على المدار «ترامبلين» بمهمة فضائية طويلة الأمد على متن «باريتيت»...

فجأة توقفا عن الإجابة على أية إشارات، لا في الوقت المحدد للاتصال ولا في غيره. كان الانطباع ثقيلاً وكئيباً. فباستثناء أجهزة البث التي تشير باستمرار إلى مكان وجود المحطة وباستثناء قناة تصحيح سيرها لم يعمل في المحطة أي جهاز راديو تلفزيوني.

كان الوقت يمضي، و«باريتيت» لا تستجيب إلى أي نداء يوجه إليها، وازداد القلق على متن «كونفينتسيا». وصارت تتكون كل أشكال التكهنات والفرضيات. ماذا حدث لرائدي الفضاء الموازيين؟ ما سر صمتهما؟ ألم يمرضا، أو يتسمما بطعام ما فاسد؟ وبشكل عام، أحياء هم أو أموات؟

وأخيراً استخدمت آخر وسيلة – أرسلت إشارة لتشغيل نظام إنذار الحريق العام في المحطة. ولكن لم يكن هناك أي رد فعل على هذا التصرف المرعب.

وخيم على برنامج «ديمي لورغ» خطر حقيقي. عندها لجأ «اوبتسينوبر» الموجود على «كونفينتسيا» إلى آخر ما بيده لاستجلاء الأمور، وأرسل من مطاري نيفادا وصاري اوزيكي، بشكل عاجل سفينتين فضائيتين تحملان رائدي فضاء للالتحام بمحطة «باريتيت».

عندما تم الالتحام المتزامن – وهذا ما كان بحد ذاته عملية على درجة عالية من الصعوبة – كان أول نبأ تم الحصول عليه من رائدي التقصي بعد دخولهما إلى «باريتيت» صاعقاً: فبعد أن تجولا في كل أقسام المحطة ومخابرها وطوابقها حتى آخر زاوية فيها أعلنا أنهما لم يجدا على متن المحطة الرائدين الموازيين. ليسا موجودين لا أحياء ولا أموات...

لم يكن هذا ليخطر على بال أحد. ولم يكن أي خيال قادراً على تصور ما حدث. أين اختفى فجأة هذان الرجلان اللذان مكثا أكثر من ثلاثة أشهر في هذه المحطة المدارية، واللذان كانا حتى الآن ينفذان بدقة كل المهام التي أوكلت إليهما. لا يمكن أن يكونا قد تبخرا، ولا يمكن أن يلقيا بنفسيهما في الفضاء!

كانت فترة البحث في «باريتيت» تجري بوجود اتصال تلفزيوني لاسلكي مباشر مع «كونفينتسيا» وبمشاركة القائدين الرئيسيين المشتركين – عالمي الكواكب الموازين الرئيسيين. كان يشاهد بوضوح على شاشات «اوبتسينوبر» العديدة كيف كان رائدا التقصي يتجولان ويسبحان في حالة انعدام الوزن، وهما يتحادثان، في أقسام وممرات المحطة المدارية. فحصا المحطة خطوة خطوة وكانا خلال ذلك يرسلان تقاريرهما عن مشاهداتهما باستمرار. وقد سجل شريط التسجيل الحوار التالي:

باريتيت: هل تشاهدون؟ لا يوجد في المحطة أحد. نحن لا نرى أحداً.

كونفينتسيا: هل توجد أية آثار لمواد محطمة أو خلل أو عطب في المحطة؟

باريتيت: كلا، كل شيء يبدو كما يجب أن يكون. كل شيء على ما يرام، كل شيء في مكانه.

كونفينتسيا: ألم تلحظا آثار دماء؟

باريتيت: لا، على الإطلاق.

كونفينتسيا: أين توجد حاجيات الرائدين الموازيين الشخصية وفي أية وضعية؟

باريتيت: يبدو أن كل شيء في مكانه.

كونفينتسيا: ومع ذلك؟

باريتيت: لدينا انطباع وكأنهما كانا هنا منذ فترة وجيزة. الكتب، الساعات، البيك أب وكل الأشياء الأخرى – كلها في مكانها.

كونفينتسيا: حسن. ألا يوجد أي خطاب أو كتابة على الجدران أو على الورق؟...

باريتيت: لم يقع نظرنا على شيء كهذا، ولكن لحظة. دفتر المناوبة مفتوح على رسالة كبيرة، ولكي لا يسبح في انعدام الوزن ثبت الدفتر بملاقط ووجهت صفحاته المفتوحة نحو الداخل إلى القمرة...

كونفينتسيا: اقرأا، ماذا كتب؟!

باريتيت: الآن، سنحاول. هنا نصان كتبا جنباً إلى جنب في عمودين باللغتين الانكليزية والروسية...

كونفينتسيا: اقرآ، ماذا تنتظران.

باريتيت: العنوان «رسالة إلى أهل الأرض». وضمن قوسين: خطاب تفسيري.

كونفينتسيا: قفا. لا تقرأا. الاتصال متقطع. انتظرا، سنناديكما بعد قليل. كونا على استعداد.

باريتيت: اوكي.

في هذا المكان توقف الحوار بين المحطة المدارية وابتسينوبر وبعد أن تشاور القائدان المشتركان للبرنامج «ديمي اورغ» مع بعضهما طلبا من الجميع، باستثناء عاملي الاتصال الموازيين المناوبين، مغادرة مجمع الاتصال الكوني. بعد ذلك أعيد فتح الاتصال الثنائي. وهذا هو النص الذي تركه رائدا الفضاء الموازيان على متن «باريتيت»:

«أيها الزملاء المحترمون. بما أننا سنغادر المحطة المدارية «باريتيت» في ظروف استثنائية جداً ولفترة غير محددة، ربما تكون لا نهائية – وهذا كله يتوقف على جملة من العوامل المتعلقة بمشروعنا الذي لا سابقة له – نرى من واجبنا الأكيد شرح دوافع تصرفنا.

نحن ندرك بشكل ممتاز أن سلوكنا هذا سيعتبر بلا شك، ليس مجرد سلوك مستهجن، بل سيعتبر حتماً سلوكاً غير مسموح به من وجهة نظر بديهيات الانضباط. إلا أن الواقع الاستثنائي الذي اصطدمنا به أثناء وجودنا في الفضاء على متن المحطة المدارية، هذا الواقع الذي يصعب تصور مثيل له في كل تاريخ الحضارة الإنسانية، يمكننا من الاعتماد – في أسوأ الأحوال – على الإدراك...

منذ بعض الوقت بدأنا نلتقط ضمن الكميات التي لا تحصى من الشارات اللاسلكية الصادرة عن محيطنا الفضائي، وبدرجة كبيرة من الايونوسفير الأرضي نفسه المشبع بالضجيج والتشويشات التي لا حدود لها، بدأنا نلتقط إشارة لاسلكية موجهة ضمن مجال ذي ذبذبة قصيرة، وباعتباره أقصر مجال للذبذبات كان من السهل تمييز هذه الإشارات. كانت هذه الإشارات تظهر لنا بشكل منتظم وبنفس الوقت ودائماً في فترات متماثلة. في البداية لم نعرها اهتماماً خاصاً. ولكنها ظلت تذكرنا بنفسها بإلحاح وانتظام صادرة عن نقطة ما محددة بدقة من الكون، وهي – استناداً إلى كل ملاحظاتنا – كانت موجهة إلى محطتنا المدارية بالذات. والآن صرنا نعرف بشكل دقيق

أن هذه الموجات اللاسلكية الاصطناعية الموجهة كانت تصل عبر الأثير قبل زمن طويل من بداية دورنا وهو الدور الثالث، إذ أن «باريتيت» تحلق على مدار «ترامبلين» في الفضاء الكوني البعيد منذ أكثر من سنة ونصف. من الصعب تفسير لماذا كنا، نحن بالذات أول من اهتم بهذه الإشارات القادمة من الكون، يبدو أنها مصادفة. ومهما كان الأمر، بدأنا نحن بمراقبة وتسجيل ودراسة طبيعة هذه الظاهرة. وصرنا نتأكد منها أكثر وأكثر حتى وصلنا بالتدريج إلى استنتاج مفاده أن هذه الشارات ذات مصدر اصطناعي.

نحن لم نألف هذه الفكرة بسرعة، وظل الشك يراودنا طوال هذه المدة. فيكف يمكننا أن نقتنع بوجود حضارة لا أرضية وذلك فقط استناداً إلى واقع وجود إشارات لاسلكية اصطناعية صادرة – كما افترضنا نحن – عن أعماق الكون غير المرئية؟. ما منعنا عن ذلك كون كل محاولات العلم السابقة التي كانت ترمي بالدرجة الأولى إلى اكتشاف أي مظهر من مظاهر الحياة في أبسط أشكالها، حتى على الكواكب المجاورة، قد باءت بالفشل. وكان البحث عن عقل لا أرضي يبدو أمراً قليل الاحتمال، لا بل غير ممكن، وضرباً من ضروب الطوباوية. إذ أنه مع كل خطوة من خطوات دراسة الفضاء الكوني كانت هذه الاحتمالات، حتى من الناحية النظرية، تتقلص أكثر فأكثر، إن لم نقل أنها تناهت إلى الصفر. لم نتجاسر نحن على الإعلان عن تكهناتنا. وما كنا نريد أن نتحدى الفكرة المؤيدة من الجميع القائلة بتفرد ووحدانية الحياة كظاهرة بيولوجية متميزة موجودة فقط على كوكب الأرض. ولم نر من واجبنا مشاركة غيرنا في شكوكنا حول هذا الموضوع، إذ أن هذا النوع من الملاحظات لم يكن موجوداً ضمن برنامج التزاماتنا العملية في المحطة المدارية. والحق أننا ما كنا نريد – رغم كل شيء – أن نضع أنفسنا موضع رائد الفضاء ذلك، الذي تناهى إلى سَمعِهِ خوار بقر وتراءى له مرج عند النهر وقطيع يرعى فيه، فأصبح يدعى «رائد الفضاء البقري».

ولكن عندما حدث ما كان آخر برهان على وجود حياة عاقلة في العالم غير الحياة الأرضية كان الأوان قد فات. لقد عشنا قفزة في الوعي، عشنا انقلاباً وتحولاً في تصوراتنا حول بنية الكون واكتشفنا فجأة أننا صرنا نفكر بشكل يختلف كلياً عن السابق. لقد أوصلنا الفهم الجديد نوعياً لبنية العالم واكتشاف فضاء مأهول جديد ووجود بؤرة أخرى للطاقة العقلية، أوصلنا إلى استنتاج أن علينا الإمساك لفترة ما عن إبلاغ أهل الأرض باكتشافنا، وذلك انطلاقاً من فهم جديد لاهتمامات الأرض. لقد توصلنا إلى هذا القرار لمصلحة المجتمع الأكثر حداثة.

والآن حول جوهر الموضوع. كيف حدث هذا.

قررنا ذات مرة بدافع الفضول إرسال إشارة لاسلكية جوابية في نفس مجال الذبذبات الذي نستقبل عليه، فأرسلناها إلى نفس النقطة الكونية التي كانت تأتينا منها الشارات المنتظمة المحيرة. **وحدثت المعجزة. استقبلت إشارتنا فوراً. تم التقاطها وفهمها!** وجواباً على إشارتنا وصلنا على نفس مجالنا المستقبل، رد آخر إلى جانب السابق، ثم ثالث. كانت هذه ثلاثية تحية. ثلاث إشارات لاسلكية متزامنة من الكون استمرت لعدة ساعات على التوالي، وكأنها معزوفة الانتصار، تحمل معها نبأً مبهماً عن وجود مخلوقات عاقلة خارج مجرتنا تتمتع بمقدرة عالية جداً على إقامة الاتصالات مع شبيهاتها من المخلوقات وعلى مسافات فوق بعيدة. كان هذا ثورة في تصوراتنا حول البيولوجيا الفضائية، وفي إدراكنا لبنية الزمان والمكان والمسافات... أيعقل أننا لَسنا وحدنا في هذا الكون؟ أننا لسنا الوحيدين من نوعنا في امداء الكون الصحراوية هذه التي يستحيل تصورها؟ أيعقل أن تجربة الإنسان على الأرض ليست مظهراً من مظاهر أحادية الروح في الكون؟؟

لكي نتأكد من صحة اكتشافنا للحضارة اللا أرضية أرسلنا بالراديو صيغة كتلة الكرة الأرضية، التي وجدت عليها منذ الأزل وما زالت تخضع

لها حياتنا. وكان الجواب فكا لهذه الرموز – لقد أرسلوا لنا بدورهم صيغة كوكبهم التي كانت مطابقة تقريباً. انطلاقاً من هذه خرجنا باستنتاج أن هذا الكوكب المأهول ذو مقاييس كبيرة وقوة جذب مقبولة تماماً.

تبادلنا معهم المعارف الأولية حول القوانين الفيزيائية، وهكذا أقمنا لأول مرة اتصالاً مع مخلوقات لا أرضية ذات عقول.

لقد كان سكان الكوكب الآخر مشاركين فعالين في مجال تعميق وتقريب اتصالاتنا. واغتنت اتصالاتنا، بفضل جهودهم، بمضامين جديدة. وسرعان ما عرفنا أن لديهم أجهزة طائرة تساوي سرعة حركتها سرعة الضوء. هذا وأشياء أخرى عرفناها بفضل كونهم قادرين على تبادل الأفكار، عن طريق الصيغ الرياضية والكيميائية في البداية، ومن ثم أفهمونا أنهم قادرون على الكلام. وقد ظهر أنهم بدؤوا بدراسة لغاتنا منذ سنوات طويلة، ومنذ اخترق أهل الأرض الجاذبية الأرضية وخرجوا إلى الفضاء وصاروا يأهلونه باستمرار، وذلك بواسطة أجهزة سمعية فلكية ضخمة قادرة على سماع أصوات المجرة العميقة، ومع التقاطهم للاتصالات اللاسلكية المنتظمة بين الفضاء والأرض استطاعوا عن طريق المقارنة والتحليل فك رموز وفهم معاني كلماتنا وجملنا. وهذا ما لمسناه بأنفسنا عندما حاولوا التفاهم معنا باللغة الانكليزية والروسية. وكان هذا بالنسبة لنا اكتشافاً آخر مذهلاً صعب التصديق.

والآن عن أهم شيء. لقد تجرأنا على الذهاب لزيارة هذا الكوكب ذي الحضارة اللا أرضية. اسم هذا الكوكب – كما استطعنا أن نفك رموزه لأنفسنا – هو «صدر الغابة». سكان صدر الغابة هم الذين دعونا إليهم وكانت هذه فكرتهم هم. ونحن اتخذنا قرارنا انطلاقاً من تفكير ناضج. شرحوا لنا أن أجهزتهم الطائرة بسرعة الضوء ستصل إلى محطتنا المدارية خلال ست وعشرين أو سبع وعشرين ساعة. وخلال نفس الوقت تعهد سكان صدر الغابة

بإعادتنا عندما نشاء نحن. وقد شرحوا لنا جواباً على سؤالنا حول الالتحام أن هذا الأمر ليس مشكلة، إذ أن الجهاز الطائر الذي يمتلكونه قادر على الالتحام وبإحكام مع أي جسم مهما كان شكله وبنيته. وهذا، على ما يبدو، إحدى وسائل الالتحام الكهرطيسية. وقررنا أن أفضل شيء بالنسبة لنا أن يقترب جهازهم من فتحة الخروج إلى الفضاء المكشوف في محطتنا، التي نستطيع الانتقال عبرها من المحطة المدارية إليهم. وبنفس الطريقة ننوي العودة، طبعاً إذا تمت الرحلة إلى صدر الغابة بنجاح.

وهكذا نترك على متن «باريتيت» رسالتنا أو خطابنا التفسيري، إذا شئتم، أو رسالتنا المفتوحة، أو نداءنا... المهم ليس هنا. فنحن نعي تماماً ما نقدم عليه ونعي المسؤولية التي نتحملها، نحن ندرك أن القدر قد وضع أمامنا بالذات إمكانية فريدة جداً لتقديم خدمة للإنسانية لا نرى أن هناك ما هو أسمى منها...

إلا أن أكثر ما كان يعذبنا هو تجاوز الشعور بالواجب والارتباط والالتزام وأخيراً الانضباط... وهو ما نما في كل منا بفعل التقاليد القديمة والقوانين وأعراف المجتمع الأخلاقية. ها نحن نغادر «باريتيت» دون أن نعلمكم أنتم كقادة «اوبتسينوبر»، ودون أن نعلم أحداً من سكان الأرض، ودون أن نبحث أهدافنا ومهماتنا مع أحد بأي شكل من الأشكال وذلك ليس لأننا نتجاهل قواعد الحياة الاجتماعية على الأرض، فقد كان هذا مادة لأكثر معاناتنا صعوبة وثقلاً، نحن مضطرون إلى التصرف هكذا، إذ ليس من الصعب علينا أن نتصور الأمزجة والتناقضات والانفعالات التي ستتفجر عندما تتحرك تلك القوى التي ترى، حتى في كل هدف يسجل أثناء لعبة الهوكي، انتصاراً سياسياً وتفوقاً لنظام دولتها.

- هيهات. أننا نعرف واقعنا الأرضي جيداً! فمن يضمن أن لا تصبح إمكانية الاتصال مع الحضارات اللا أرضية سبباً آخر للخلافات الداخلية العالمية؟

على الأرض يصعب أو ربما يستحيل الابتعاد عن الصراع السياسي. لكن مكوثنا زمناً طويلاً – أياماً وأسابيع كثيرة – في الفضاء البعيد، الذي تبدو منه الكرة الأرضية ليست أكبر من عجلة السيارة، مكوثنا هذا جعلنا نفكر بألم وأسف عاجز أن أزمة الطاقة الحالية التي دفعت بالمجتمع إلى الجنون واليأس اللذين يجران الآن الدول إلى الرغبة بامتلاك القنبلة الذرية، إن هذه الأزمة ستنحصر بمجرد مشكلة تقنية كبيرة لو استطاعت هذه الدول أن تتفق: ما هو الأهم...

خوفاً من خلق الاضطرابات في وضع سكان الأرض وتعقيده وهو المهدد – دون ذلك – بأخطار وخيمة، تجرأنا أن نأخذ على عاتقنا مسؤولية فريدة من نوعها – وهي الوقوف أمام أصحاب العقل اللا أرضي باسم كل الجنس البشري وفقاً لضمائرنا ومعتقداتنا.

نحن نأمل، ونشعر بثقة داخلية، بأننا سننفذ هذه المهمة التطوعية بالشكل اللائق.

وفي الختام، آخر شيء. لقد كنا في أفكارنا وشكوكنا وترددنا مهتمين ولدرجة كبيرة بألا نسبب الأضرار لبرنامج «ديمي اورغ» - وهو البداية العظيمة في تاريخ البشرية الجيوفضائي، التي تمكنت بلداننا من التوصل إليه بعد سنين طويلة من عدم الثقة المتبادلة والمد والجزر في التعاون بينهما. ومع كل ذلك انتصر العقل، وقد قمنا نحن بخدمة قضيتنا المشتركة بكل إخلاص وشرف وضمن حدود قدرتنا وإمكانياتنا. ولكن بعد مقارنة أمر بالآخر ورغبة منا بعدم وضع برنامج «ديمي اورغ» تحت الاختبار بسبب المخاوف التي عرضناها أعلاه اخترنا خيارنا – سنغادر «باريتيت» مؤقتاً على أن نكمل دورنا بعد عودتنا. وإذا اختفينا إلى الأبد، أو إذا اعتبرتنا القيادة غير جديرين بمتابعة دورنا على «باريتيت» فإن اختيار بدلاء لنا ليس بالأمر الصعب. فالشباب الذين يمكن أن يعملوا بشكل لا يقل جودة عن عملنا متوفرون دائماً.

نحن نغادر إلى المجهول، يقودنا إلى هناك التعطش للمعرفة وحلم الإنسان القديم باكتشاف مخلوقات عاقلة مثله في عوالم أخرى كي يتحد العقل مع العقل. لكن أحداً لا يعرف ما الذي تنطوي عليه تجربة الحضارة اللا أرضية – خير الإنسانية أم الشر لها؟. سنحاول أن نكون موضوعيين في تقييمنا. وإذا شعرنا أن اكتشافنا سيحمل معه ما يهدد أو ما هو مدمر لأرضنا فإننا نقسم إننا سنتصرف بما لا يجر وراءه أي أذى للأرض.

وآخر شيء مرة أخرى. نودعكم ونحن نرى من كوة قمرتنا الأرض عن بعد. إنها تلتمع كلؤلؤة مشعة في بحر أسود من الفراغ. الأرض رائعة بزرقتها التي لا مثيل لها وهي من هنا تبدو هشة كرأس طفل وليد. ويبدو لنا من هنا أن كل الناس في الدنيا هم إخواننا وأخوتنا ونحن لا نجرؤ على تصور ذاتنا دونهم، مع أننا نعرف أن الأمر على الأرض ليس كذلك أبداً...

نحن نودع الكرة الأرضية. وبعد ساعات سنغادر مدار «ترامبلين»، وعندها تختفي الأرض عن أنظارنا، فلا تعود مرئية لنا. سكان الكوكب الآخر – صدر الغابة – في طريقهم الآن إلينا، وقريباً سيطلون، بعد بضع ساعات. لم يبق إلا القليل، القليل، ونحن بانتظارهم.

ها نحن نترك أيضاً رسائل لأسرنا ونرجوكم رجاء حاراً، نرجو كل من ستكون له علاقة بهذه القضية تسليم رسائلنا إلى أصحابها...

ملاحظة: معلومات من أجل من سيأتي إلى مكاننا في «باريتيت»: لقد ذكرنا في دفتر المناوبة قناة الاستقبال والبث وتوتر موجة الراديو التي أقمنا عن طريقها الاتصال مع سكان الكوكب الآخر. عند الضرورة سنتصل بكم على هذه القناة وننقل إليكم إخبارنا. ما استطعنا أن نعرفه من خلال الاتصالات اللاسلكية مع سكان صدر الغابة هو أن أفضل طريقة، بل الطريقة الوحيدة للاتصال هي أجهزة المتن في المحطة المدارية، إذ أن إشارات لراديو

المرسلة من الكون إلى الأرض مباشرة لا تصل إلى سطحها بسبب الحاجز الذي لا يمكن اختراقه وهو المحيط المحدَّد في غلاف الأرض الجوي.

هذا كل شيء. وداعاً. آن الأوان.

نص الرسالة الواحدة كتب باللغتين الانكليزية والروسية.

رائد الفضاء الموازي ١-٢

رائد الفضاء الموازي ٢-١

متن المحطة المدارية «باريتيت»

الدور الثالث. اليوم ٩٤.»

في الوقت المحدد تماماً، أي في الساعة الحادية عشر حسب توقيت الشرق الأقصى حطت على ظهر حاملة الطائرات «كونفينتسيا» واحدة تلو الأخرى، طائرتان نفاثتان تحملان على ظهريهما اللجنتين الخاصتين مطلقتي الصلاحية – واحدة من الجانب الأميريكي وأخرى من الجانب السوفييتي.

ثم استقبل أعضاء اللجنتين حسب المراسيم الدقيقة، واعلموا مباشرة أن فرصة الغداء هي نصف ساعة فقط. وبعد الغداء مباشرة كان على أعضاء اللجنتين أن يجتمعوا في الغرفة المشتركة في اجتماع مغلق بصدد الوضع الطارئ على المحطة المدارية «باريتيت».

ولكن ما كاد الاجتماع يبدأ حتى قطع فجأة. فقد أرسل رائدا الاختبار الموجودان على «باريتيت» إلى «اوبتسينوبر» على «كونفينتسيا» أول نبأ حصلا عليه من الرائدين الموازيين ١-٢ و٢-١، من المجرة المجاورة، من كوكب صدر الغابة.

* * *

- ٤ -

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاري – اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريقة الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

مهما قلنا فالمسافة إلى مدفن قبيلة نايمان في انابيت ليست مرمى عصا – حوالي ثلاثين كيلو متراً، هذا إذا كان المسير دائماً بشكل مستقيم في صاروزيكي.

استيقظ يديغاي العاصف في هذا اليوم باكراً، علماً أنه لم ينم كما يجب. فهو لم يغف إلا قليلاً مع الفجر، وقبل ذلك كان مشغولاً بتكفين الراحل قازانغاب. جرت العادة أن يتم ذلك في يوم الدفن وقبل مدة قصيرة من إخراج الجثمان، قبيل الصلاة العامة في بيت المتوفى، وفي بداية الجنازة. ولكنه اضطر هنا أن يقوم بهذا ليلاً عشية الدفن كي لا يتأخروا وكي ينطلقوا في الصباح باتجاه المدفن. قام بكل ما يجب القيام به هو بنفسه، هذا إذا استثنينا أن اديلباي الطويل أحضرَ الماء المسخن لغسل الميت. كان اديلباي يهاب الجثمان بعض الشيء ويتجنبه. فالأمر مرهب بالنسبة له طبعاً. وقد قال له يديغاي بهذا الصدد وبشكل غير متعمد:

- انظر يا اديلباي. سينفعك هذا في الحياة. بما أن الناس يتوالدون فهم سيموتون، وقد تضطر أنت أن تدفن أحدهم.

- أعرف ذلك. – أجاب اديلباي بشكل غير واثق.

- أقصد من كلامي، الافتراض أنني سأموت غداً... ألن يوجد من يكفنني؟ هكذا ستحشرونني في أية حفرة؟

- لم هذا الكلام – قالها اديلباي مستاءً وهو ينير بالمصباح محاولاً التغلب على الرهبة من وجوده قرب المرحوم – الحياة هنا من غيرك مملة. الأفضل أن تظل أنت حياً، أما الحفرة فبإمكانها الانتظار.

استمرت عملية التكفين ما يقارب الساعة ونصف الساعة، لكن يديغاي كان راضياً في النهاية. غسل الجثمان حسب الأصول، سبل اليدين والرجلين ووضعها كما يجب، ثم لف قازاتغاب بكفن أبيض، كما يجب أيضاً غير مقتصد بالقماش. أثناء العمل كان يُري اديلباي كيف يجب لف الكفن. بعد ذلك رتب هندامه: حلق لنفسه وشذب شاربيه اللذين كانا كثيفين وقاسيين كحاجبيه. لكن الشيب بدأ يغزوها بالتدريج. لقد شاب. لم ينس يديغاي أوسمته العسكرية، فعلق على سترته الأوسمة وشارات التفوق، وجهزها ليوم الغد.

هكذا مرت تلك الليلة. لقد تعجب يديغاي العاصف من نفسه، كيف استطاع أن يفعل كل هذا بهذه السهولة والبساطة. ولو قال له أحدهم أن هذه الأعمال المحزنة ستكون سهلة الانجاز لما صدق. إذن هذا مقدر له منذ الولادة، مقدر له أن يدفن قازانغاب.

من كان يفكر بذلك عندما التقيا لأول مرة في محطة قومبيل. سرح يديغاي من الجيش بعد إصابته برض دماغي في أواخر عام أربع وأربعين. كل شيء بدا في الظاهر طبيعياً – يداه ورجلاه في مكانها ورأسه فوق كتفيه، لكن رأسه كانت وكأنها ليست رأسه. ضجيج دائم في أذنيه كريح لا تهدأ. إذا سار بضع خطوات يفقد توازنه وتدور رأسه ويشعر بحاجة إلى التقيؤ، بينما

يتصبب منه العرق غزيراً بارداً تارة وساخناً تارة أخرى. أحياناً لا يطاوعه لسانه فيبدو له نطق الكلمات عملاً شاقاً. لقد كانت قد هزته بعنف موجة أصدرها انفجار قذيفة ألمانية. لم تقتله، ولكن الحياة في هذه الحالة لم تكن ذات مغزى. عندها اكتأب يديغاي تماماً. شاب قوي في الظاهر، لكنه سيعود إلى بيته على بحر آرال، فماذا سيعمل هناك، وفيم سينفع؟ لحسن حظه أن الطبيب الذي فحصه كان جيداً. الطبيب لم يعالجه، بل فحصه بعناية واستمع إلى دقات قلبه ورئتيه. يذكره الآن وكأنه أمامه: رجل ضخم أشقر يرتدي ثوباً أبيض وقلنسوة بيضاء، عيناه لامعتان، أنفه كبير. ربت له على كتفه بمرح وضحك:

- اِعلم يا أخ أن الحرب ستنتهي قريباً، ولولا ذلك لأعدتك إلى الخدمة بعد فترة وجيزة لتتابع الحرب. ولكن لا بأس، بدونك سنتدبر أمرنا ونصل إلى النصر. لا تقلق – بعد سنة على الأقل كل شيء سيكون على ما يرام. ستعود قوياً كالثور. أنا الآن أقول لك هذا وستتذكره فيما بعد. جهز نفسك وسافر إلى موطنك. لا تحزن. أمثالك يعيشون مئة سنة...

ما قاله الطبيب الأشقر كان هاماً. وفعلاً كان ما قال، لكن كلمة سنة، في الواقع، سهلة على النطق فقط. خرج من المستشفى في معطف عسكري مدعوك، حقيبته على ظهره، ويحمل عكازاً للحالات الطارئة، وانطلق فوراً يسير في المدينة وكأنه في غابة كثيفة. الضجيج في رأسه والارتجاف في ساقيه والظلام في عينيه، ولكنه لا يثير اهتمام أحد. الناس في المحطات والقطارات شديدو الفظاظة، الأقوى هو الذي يركب أما أنت فيدفعونك جانباً. رغم ذلك وصل وركب. بعد شهر من الترحال توقف القطار في محطة آرالسك ليلاً. كان ذلك القطار «المجيد» يدعى «القطار خمسمائة وسبعة المرح»، لا أركب الله أحداً مثل هذا القطار!!!

حتى مجرد هذا، كان مفرحاً إذ ذاك. نزل في الظلام من العربة وكأنه ينزل عن ظهر جبل، ووقف مشدوهاً، الظلام دامس. لا شيء إلا أنوار

المحطة في مكان بعيد. كان الجو عاصفاً. ولم تستقبله إلا هذه الريح، الريح الآرالية المحببة التي كانت تضرب وجهه برائحة البحر. كان البحر في تلك الأيام قريباً، يطير رذاذ مائه إلى الطريق الحديدية. أما الآن فلا تراه حتى بالمنظار المكبر. وتوقفت أنفاسه – اجتذبته رائحة عفن الشيح التي أحس بها بالكاد ورائحة الربيع المستيقظ في رحاب ما وراء الآرال. ها هو ذا في موطنه من جديد.

كان يديغاي يعرف المحطة جيداً ويعرف القرية المجاورة للمحطة على شاطئ البحر ويعرف طرقاتها المتعرجة. كان يسير والطين مكدس على جزمته، فاتجه إلى بعض معارفه كي يبيت عندهم وفي الصباح يتجه إلى قريته جان غيلدي، حيث يعيش صيادو الأسماك، والتي كانت المسافة إليها كبيرة لا يستهان بها. لم يلاحظ يديغاي كيف قادته الطريق إلى طرف القرية، إلى الشاطئ. هنا لم يحتمل يديغاي. اقترب من البحر، وتوقف على الرمال عند شريط المياه الخافق. كان البحر الذي ستره الظلام يعلن عن نفسه ببعض البقع الضبابية وبزحف الأمواج التي تظهر خطاً صاخباً ثم يختفي فوراً. كان القمر في فترة ما قبل الشروق يبدو بقعة بيضاء وحيدة في الأعالي خلف الغيوم.

والتقيا. وتمتم يديغاي:

- مرحباً آرال.

جلس على حجر وأشعل لفافة، بالرغم من أن الطبيب نصحه جداً بألا يدخن وهو في هذه الحالة من الرض الدماغي. لقد أقلع عن هذه العادة الشنيعة فيما بعد. أما عندها فقد كان قلقاً – ما أهمية دخان التبغ؟ المهم كيف سنعيش بقية الحياة؟... لا أعلم. الخروج إلى البحر يتطلب أيد قوية وظهراً متيناً، وأهم شيء رأساً ثابتة كي لا تصاب بالدوار في الصندل. قبل الجبهة كان صياداً محترفاً، أما الآن فمن هو؟... عاجز؟... ليس عاجزاً، ولكنه لا ينفع لشيء. لقد كان واضحاً، قبل كل شيء أن رأسه غير صالحة للصيد.

كان يديغاي يهم بالنهوض عندما ظهر على الشاطئ كلب أبيض أتى من مكان ما. كان يتمشى ببطء عند حافة الماء. ويتوقف أحياناً مهموكاً بشم الرمل الرطب. استدرج يديغاي الكلب، فاقترب منه واثقاً وتوقف بجانبه هازاً ذيله. وربت يديغاي على رقبته.

- من أين أنت، آ؟ من أين جئت تعدو؟ ما اسمك؟ آرستان؟ جولبارس؟ بورييباسار؟[1]. أنا أعرف أنك تبحث عن سمكة على الشاطئ. أحسنت. غير أن البحر لا يلقي دائماً سمكاً ميتاً. ولكن ما باليد حيلة. يجب أن تركض. لهذا أنت هزيل أما أنا يا صديقي فعائد إلى بيتي، من ضواحي كينيغسبورغ. قبل وصولي إلى هذه المدينة بقليل أصابتني قذيفة كادت تقتلني. والآن أفكر وأخمن كيف سأعيش. لماذا تنظر هكذا؟ ليس معي شيء لك. أوسمة ومداليات... الدنيا حرب يا صديقي وحولنا مجاعة، وإلا، هل تعتقد أنني أبخل عليك... انتظر. هنا يوجد سكاكر أحملها لابني، من المفروض أنه صار يركض الآن...

لم يتكاسل يديغاي، وفك كيس حاجياته نصف الفارغ الذي كان يحمل فيه حفنة من السكاكر ملفوفة بورقة جريدة ومنديلاً لزوجته اشتراه من عابر في محطة في الطريق وقطعتين من الصابون اشتراها من المحتكرين. وكان يوجد في الكيس أيضاً زوج من الألبسة العسكرية وحزام وعمرة وقميص قطن احتياطي وبنطال. كان هذا كل متاعه.

لحس الكلب السكاكر عن كف يديغاي وراح يقضمها فسمع صوت تكسرها بين فكيه، ووقف وهو يهز ذيله ناظراً بعينين يقظتين لامعتين نظرة جرأة وولاء.

- والآن وداعاً.

---

(١) آرستان = سبع، جولبارس = نمر، بورييباسار = ذئب.

نهض يديغاي وسار بمحاذاة الشاطئ، إذ قرر ألا يزعج أحداً في المحطة، فها هو الفجر يقترب، كما أن عليه ألا يتأخر في الوصول إلى قريته جان غيلدي.

لم يصل جان غيلدي إلا عند الظهر، وكان طوال الوقت يسير بمحاذاة الشاطئ. قبل أن يصاب بالرض الدماغي كان يقطع هذه المسافة بحوالي الساعتين. عندما وصل صعقه نبأ فظيع – لقد مات ابنه منذ زمن طويل. عندما استدعي يديغاي إلى الجيش كان عمر الصغير ستة أشهر. بئس هذا القدر، لقد مات الطفل وعمره أحد عشرا شهراً. أصيب بالحصبة ولم يحتمل حرارته الداخلية فاحترق وانهار. وقرروا أن لا يكتبوا إلى يديغاي في الجبهة، فإلى أين يكتبون؟ ولماذا يكتبون؟ فمن غير هذا الخبر تكفيه في الجبهة المرارة. إن عاد حياً، يعرف عند وصوله فيحزن قليلاً ويتجاوز هذه المرحلة. هكذا ناقش أقاربه الموضوع ونصحوا اوقوبالا بألا تخبره عن ذلك: ما زلتم شباباً، قريباً تنتهي الحرب وتنجبون أطفالاً... الله يبعث. «انقصف غصن... وهذه ليست مشكلة... المهم أن يظل جذع الدلبة سليماً». كانت توجد كذلك بعض التصورات التي لم تعلن ولكن الجميع كانوا يدركونها: الحرب هي الحرب. إن جندلته رصاصة ما، فليكن وداعه الأخير مع الدنيا مرفقاً بالأمل بأنه ترك في البيت ابناً... يتابع نسله...

اوقوبالا كانت تلوم نفسها على كل هذا. استقبلت زوجها العائد وضمته إلى صدرها باكية، لأنها كانت تنتظر هذا اليوم بأمل وألم لا حدود لهما، يضنيها الانتظار المفعم بالشعور بالذنب الذي كان يعذبها. قصت عليه كل شيء من خلال دموعها، حدثته بأن العجائز حذرنها وقلن لها: الطفل مريض بالحصبة والحصبة هذه شيء خبيث. يجب أن تلفي الطفل بغطاء دافئ من وبر الجمال وتبقيه في الظلام التام. يجب أن تسقيه باستمرار ماء فاتراً،

وتتكلي على الله. إنْ تحمل الطفل الحرارة عاش. أما هي بيباك[1] قليلة الحظ، فلم تطع عجائز القرية، بل استعارت من جيرانها عربة ونقلت الطفل المريض إلى الطبيبة في المحطة، وعندما وصلت بهذه العربة التي تخض الجسم كان الوقت قد فات. احترق الطفل في الطريق. الطبيبة شتمتها بكل شتائم الدنيا، وقالت لها: كان عليك أن تسمعي من العجائز...

هذه هي الأخبار كانت تنتظر يديغاي والتي عرفها بمجرد تخطيه عتبة بيته. تحجر يديغاي منذ تلك اللحظة وازرقَّ وجهه من هول المصيبة ولم يكن يظن أبداً أنه سيحزن بهذه الشدة على صغيره البكر، الذي لم يستطع حتى أن يحمله كما يجب. ولهذا كان إدراك الخسارة أشد إيلاماً. لم يكن يستطع أن ينسى ابتسامته الطفولية المشرقة المفعمة بالثقة على فمه الخالي من الأسنان، التي ما يكاد يتذكرها حتى يعتصر الألم قلبه.

من هنا كانت البداية. سئم يديغاي القرية. هنا على هذا المرتفع الرملي كان يوجد ذات يوم حوالي خمسين منزلاً، كانوا يصطادون سمك الآرال ويصنعونه، وكان يوجد تجمع تعاوني. كانوا يعيشون على هذا. والآن لم يبق إلا عشرة بيوت طينية تحت الجرف. لا يوجد أحد من الرجال، فقد أودت بهم الحرب جميعاً دون استثناء، كباراً وصغاراً. كثيرون منهم تفرقوا في قرى الكولخوزات ومزارع الماشية، كي لا يموتوا من الجوع. فانحل التجمع التعاوني. ولم يعد هناك من يخرج إلى البحر.

اوقوبالا، أيضاً، كان بإمكانها الرحيل إلى أهلها فهي من أهل السهوب. جاء أقاربها لأخذها إليهم. قالوا لها: تقضين سني النحس هذه عندنا، وعندما يعود يديغاي من الجبهة، تعودين إلى قريتك جان عيلدي، فلن يمنعك أحد. لكن اوقوبالا رفضت قاطعاً: «سأنتظر زوجي. لقد فقدت ابني، فليجد زوجي، إذا

---

(١) بيباك = البائسة، التعيسة.

عاد حياً، زوجته في انتظاره على أقل تعديل. أنا هنا لست وحيدة، فمعي الكبار والصغار سأبقى وأساعدهم ومعاً سنصمد».

كان تصرفها سليماً. لكن يديغاي صار يقول منذ الأيام الأولى أنه لا يستطيع أن يبقى الآن، قرب البحر بلا عمل. وهو محق في هذا. اقترح أقرباء اوقوبالا الذين جاؤوا ليروا يديغاي ينتقلا إليهم. قالوا له: تعيش عندنا مع قطعان الغنم في السهب، وهناك تتحسن صحتك فتشتغل في عمل ما، وبإمكانك أن ترعى الماشية... شكرهم يديغاي ولكنه لم يوافق. كان يدرك أنه سيكون عالة عليهم. بإمكانه أن يحل ضيفاً على أقارب زوجته المقربين يوماً أو اثنين. وبعد ذلك... ما حاجتهم إليك إن كنت لا تعمل.

عندها قرر هو واوقوبالا أن يخاطرا، قررا التقدم إلى الطريق الحديدية. وفكرا أنهما قد يجدا عملاً مناسباً ليديغاي – قد يعمل حارساً أو عاملاً يرفع وينزل الحاجز عند تقاطع الطرق. إذ يجب أن يراعوا حالة عاجز قاتل على الجبهة.

وبهذا القصد غادرا القرية في الربيع. كانا ما يزالان شابين وليست لديهما أية التزامات. في البداية صارا يبيتان في المحطات المختلفة، ولكنهما لو يوفقا في إيجاد عمل مناسب، والأسوأ من كل ذلك وضعهما بالنسبة للسكن. عاشا كيفما اتفق. وكسبا من أي عمل يصادفانه على الطريق الحديدية. كانت اوقوبالا شابة وقوية وكانت تقوم بأكثر الأعمال. أما يديغاي كرجل ذي مظهر قوي فقد كان يقاول على أعمال الشحن والتفريغ المختلفة، واوقوبالا تنفذ العمل.

وهكذا وجدا نفسيهما ذات مرة، في أواسط الربيع، في محطة قومبيل وهي عقدة كبيرة للطرق الحديدية، وهما يفرغان شحنات الفحم. كانت عربات الفحم تصل مباشرة إلى باحات العنابر على سكة حديدية فرعية، وهنا كان يفرغ الفحم على الأرض أولاً من أجل السرعة في تحرير الرصيف، ومن ثم

ينقل على عربات من ذوات العجلة الواحدة إلى الأعلى حيث كان يكون في أكوام هائلة كالأبنية. وهو احتياطي لكل السنة. كان هذا العمل فائق الصعوبة كثير الغبار والأوساخ. ولكن العيش ضروري. كان يديغاي يكوم الفحم بواسطة مجرفة على العربة واوقوبالا كانت تدفع العربة على مدرج إلى الأعلى، وهناك تفرغها وتعود بها إلى الأسفل. فيعبئ يديغاي العربة ثانية بالفحم لتدفع اوقوبالا إلى الأعلى وبكل قوتها كالكديش هذا الحمل الثقيل الذي لا يتناسب مع قوة المرأة. كان النهار يزداد حرارة فيصبح الجو فائظاً. وكان الحر وغبار الفحم المتطاير يعذبان يديغاي ويدفعانه إلى التقيؤ.

كان يشعر كيف تنهار قواه، حتى يحس برغبة في الارتماء على الأرض مباشرة فوق كومة الفحم فلا ينهض أبداً. لكن ما كان يعذبه أكثر من غيره هو أن زوجته كانت تقوم، وهي تكاد تختنق بغبار الفحم، بما يفترض أن يقوم به هو نفسه، وكان النظر إليها مؤلماً: كلها من رأسها حتى أخمص قدميها مغطاة بطبقة من غبار الفحم، حيث لا يرى منها إلا بياض عينيها وأسنانها. كانت كلها مبتلة بالعرق الذي كان يسيل على رقبتها وصدرها وظهرها في خطوط فحمية سوداء. لو كان بكل قواه السابقة، أيعقل أن يسمح بذلك؟. لو كان كذلك لقام هو نفسه بنقل عشر عربات قطار من هذا الفحم اللعين، على ألا يرى عذاب زوجته.

عندما غادرا قرية صيد السمك جان غيلدي التي خلت من الناس، على أمل أن يجد يديغاي كمقاتل جريح عملاً ما مناسباً له لم يحسبا حساب شيء واحد فقط: أن أمثاله ممن قاتلوا على الجبهة كانوا موجودين في كل مكان وبكثرة. كان عليهم جميعاً أن يتكيفوا مع الحياة من جديد. حسن إن يديغاي جاء ومعه يداه وساقاه. لكن كم من المشوهين – بلا أيدي، وبلا أرجل وعلى العكاكيز والأرجل الاصطناعية – كانوا يتسكعون على الطرق الحديدية. عندما كانا يجدان لنفسهما زاوية في إحدى قاعات المحطة المزدحمة النتنة

منتظرين قدوم الليل، كانت اوقوبالا تقضي الليل بطوله تطلب المغفرة وتشكر الله بصمت على وجود زوجها بقربها، دون أن تؤذيه الحرب أذية كبيرة وأبدية. إذ أن ما شاهدته في المحطات آلمها وروعها. مقطعوا الأيدي، مقطعوا الأرجل، مهشمون محطمون في معاطف عسكرية بالية وثياب رثة، منهم على عربات تسند أقفيتهم ومنهم على العكاكيز ومنهم من يقوده الآخرون، مشردون لا يجدون لأنفسهم مكاناً، يتنقلون من قطار إلى قطار ومن محطة إلى محطة متدافعين على أبواب المطاعم والمقاهي يقطعون القلوب بالبكاء وبصراخهم المعربد... ما الذي ينتظر كلاً منهم؟ وبماذا يعوضون ما لا يعوض بشيء؟ لقاء عدم تعرض زوجها لمثل هذه المصائب التي كان يمكن أن تصيبه، لقاء عودة زوجها غير مشوّه – وإنْ كان مصاباً برض دماغي – لقاء ذلك فقط كانت اوقوبالا مستعدة أن تنفذ أقسى ما في العالم كله من أعمال. لذلك لم تتذمر ولم تستسلم ولم تظهر ما كان ينتابها، حتى عندما كانت تعجز عن جر رجليها. عندها كانت تحس بأن صبرها قد نفذ...

ولم يكن هذا سهلاً على يديغاي. كان يجب أن يتصرف، يجب أن يحدد مكانه في هذه الحياة بصلابة، فلن يظل جوالاً طوال حياته. وصارت تراوده باستمرار: ماذا لو أقول لنفسي «تاوباكيل»[1] وأذهب إلى المدينة، وهناك أنا وحظي. آه، لو تعود لي صحتي، لو أتكيف مع هذا الرض الدماغي اللعين. عندها يمكنني أن أناضل وأن أثبت ذاتي... كل الاحتمالات ممكنة في المدينة، ربما يتأقلمون مع الزمن ويصبحون من أهل المدن كالكثيرين غيرهم، لكن قدرهم كان غير هذا. وقد وقع هذا القدر، وإلا فكيف يمكن أن نسمي هذا الحادث...

---

(١) تاوباكيل – فليكن ما يكون.

في تلك الأيام كانوا يتنقلون في محطة قومبيل مقاولين على تفريغ عربات الفحم. وفي باحة مستودع الفحم ظهر ذات مرة كازاخي متربعاً على ظهر أحد الجمال، يبدو أنه جاء لغرض ما من السهب. هذا ما كان يدل عليه مظهره الخارجي. وقد صادف أن ربط القادم هذا جمله في الأرض الخواء قربهما ومضى وهو يحمل تحت أبطه كيساً فارغاً، بعد أن تلفت حوله باهتمام.

- يا أخ – توجه بالكلام إلى يديغاي وهو يمر بالقرب منه – من فضلك لا تدع الأطفال يشاكسون الجمل. عندهم عادة لعينة: يضربون الحيوان ويشاكسونه، وقد يفكون عقاله لمجرد اللهو. أنا سأعود سريعاً، لن أغيب طويلاً.

- اذهب، اذهب، أنا سأراقبهم – وعده يديغاي بذلك وهو يشتغل بالمجرفة ويمسح عرقه بخرقة سوداء رطبة ثقيلة.

كان العرق يتصبب من وجهه بلا انقطاع. في كل الأحوال كان يديغاي يدور حول كومة الفحم وهو يعبئ العربة، وكان يكفيه أن يلقي بين الفينة والفينة بنظرة إلى الجمل كي لا يضايق أشقياء المحطة هذا الحيوان. لقد سبق له أن شاهد ما يفعلون – لقد أوصلوا الحيوان ذات مرة إلى درجة أنه صار يرغي حانقاً ويزيد ويجري وراءهم. أما هم فكانوا فرحين بهذا، كانوا يضربونه بالحجارة والعصي كالصيادين البدائيين الذين يحيطون فريستهم بالصراخ. وحتى عاد صاحب الجمل كان هذا الجمل المسكين قد نال نصيبه من العذاب.

وفي هذه المرة أيضاً، ظهرت، لا يدري من أين، مجموعة صاخبة من الأطفال، في ثياب رثة يتقاذفون كرة. وصاروا يقذفون الجمل المربوط بهذه الكرة بكل قوتهم. الجمل يحيد عنهم وهُم يقذفونه بالكرة على جانبيه، كلٌ وقوته، كلٌ ومهارته. من يُصبه يهلل وكأنه سجل هدفاً...

- هيه، أنتم، هرولوا من هنا، لا تمسوه – وإلا فسا... – ولوح يديغاي بالمجرفة.

هرب الأطفال معتقدين أنه صاحب الجمل، أو لأن منظر عامل الفحم هذا كان مخيفاً، وخاصة إذا كان ثملاً أيضاً، فالنتائج ليست طيبة، هربوا بعيداً وهم يتقاذفون الكرة. لم يخطر ببالهم أنه كان بإمكانهم تعذيب الجمل كما يشتهون. وأن تلويح يديغاي بالمجرفة كان مجرد تهويل، لأنه، عملياً، في وضع لا يسمح له أبداً أن يجري خلفهم. فكل مجرفة من الفحم يضعها في العربة كانت تكلفه من الجهد ما يضني. لم يفكر قط سابقاً أن كون الإنسان ضعيفاً مريضاً غير مناسب لشيء أمر فظيع ومهين إلى هذه الدرجة. كانت رأسه تدور طوال الوقت. إضافة إلى إزعاجات العرق الشديدة. كان يديغاي ينهار وتنهد قواه وتضيق نفسه بسبب غبار الفحم، فيثقل صدره البلغم الأسود الجاف. فتندفع اوقوبالا لتحمل العبء الأكبر من العمل كي يجلس زوجها جانباً ويرتاح قليلاً، وفي هذه الأثناء كانت تعبئ العربة وتدفعها بنفسها إلى أعلى الكومة. لكن يديغاي لم يكن يحتمل أن يراها وهي تتعذب، فيقف ثانية وهو يترنح ويعود للعمل...

عاد ذلك الرجل الذي طلب الانتباه للجمل بسرعة وهو يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً. بعد أن شد حمولته على الجمل وهم بالذهاب اقترب من يديغاي ليلقي عليه كلمة تحية وشكر. فانعقد الحديث بينهما سريعاً. كان هذا الرجل قازانغاب من نقطة أم العواصف...

لقد ثبت أنهما من منطقة واحدة. قازانغاب قص على يديغاي أن منشأه هو قرى سواحل آرال. وهذا ما قرب فيما بينهما بسرعة.

إذ ذاك لم تكن هناك عند أي منهما فكرة عن أن هذا اللقاء سيقرر كل حياة يديغاي واوقوبالا. كان قازانغاب يحاول فقط إقناعهما بالذهاب معه إلى نقطة أم العواصف ليعيشوا ويعملوا هناك. يوجد نوع من الناس يجتذبون

الآخرين إليهم منذ اللقاء الأول. لم يكن في قازانغاب أي شيء متميز، بل على العكس، كانت بساطته تبرز فيه الإنسان الذي اكتسب خبرته من دروس الحياة القاسية.

كان بمظهره الخارجي كازاخياً عادياً جداً، يرتدي ثياباً بهتت ألوانها لطول ارتدائها واتخذت على جسمه الشكل المريح له. كان سرواله من جلد الماعز المدبوغ. لم يرتد هذه الملابس هكذا عبثاً – بل لأنها مريحة جداً في الركوب على الجمل إذ أنه كان يعرف قيمة الأشياء – كانت تزين رأسه الكبيرة قبعة جديدة نسبياً من قبعات عمال السكك الحديدية، يبدو أنه قد خصصها للسفر، وكان يحتذي جزمة من الجلد اللماع يبدو أنه يرتديها منذ سنين طويلة، وكانت هذه الجزمة مرقعة بعناية ومخاطة بخيوط مشمعة في الكثير من مواضعها. كان يمكن ملاحظة أنه إنسان عام من أبناء السهوب الأصليين من وجهه الأسمر الذي دبغته الشمس الحارقة والرياح الدائمة، ومن يديه القاسيتين المعروقتين. كتفاه المتقوسان قبل الأوان بسبب الأعمال الصعبة كانا متهدلين، ولذلك بدت رقبته طويلة ممطوطة كرقبة ذكر الأوز، مع أنه كان متوسط القامة – كانت عيناه مدهشتين – عسليتين باسمتين متيقظتين ذكيتين تتخذ التجاعيد حولهما شكل الأشعة بسبب زره لهما بشكل دائم.

كان عمر قازانغاب إذ ذاك حوالي الأربعين سنة، من المحتمل جداً أن يكون هذا مجرد تقدير لأن شاربيه القصيرين المقصوصين كالفرشاة ولحيته الداكنة الصغيرة قد أعطوه ملامح النضوج الحياتي. أكثر ما كان يوحي بالثقة هو حديثه الذي يمتاز بمناقشة الأمور. وفوراً تولدت لدى اوقوبالا مشاعر الاحترام تجاه هذا الرجل. فقد كان كل ما قاله في موضعه تماماً، كما أنه قال أشياء حكيمة، ومن قوله:

ما دامت هذه مصيبتكم، وما دام الرض الدماغي ما يزال موجوداً في جسمك لماذا تؤذي صحتك. لقد لاحظت فوراً، يا يديغاي، أن هذا العمل فوق

طاقتك. فأنت لم تتعاف بعد ولست صالحاً لمثل هذا العمل. بالكاد تنقل رجليك. ليتك تجد مكاناً أسهل، في الهواء الطلق، تشرب الحليب الصافي كما تشاء. عندنا مثلاً في النقطة، بأمس الحاجة لمن يعمل على الطريق الحديدية. رئيس النقطة الجديد يقول لي دائماً: أنت من السكان القدامى هنا، أحضر لنا ناساً مناسبين. ولكن أين هم هؤلاء الناس؟ الجميع في الحرب. ومن حارب وانتهى يعمل، فالعمل كثير في كل مكان. الحياة عندنا طبعاً ليست في الجنة. والمكان الذي نحن فيه قاس – تحيط بنا من كل الجهات سهوب صاروزيكي، لا ناس ولا ماء. يحضرون لنا الماء في الصهاريج كل أسبوع، وتحدث أحياناً انقطاعات في جلب الماء. يحدث هذا أحياناً. عندها نضطر إلى الذهاب إلى الآبار البعيدة لجلب الماء في القرب. تذهب صباحاً ولا تعود إلا في المساء. ومع ذلك الأفضل أن تكون منعزلاً في صاروزيكي، من أن تقاسي المحن في أماكن مختلفة. لك سقف فوق راسك وعمل دائم. ونحن سنريك كل شيء ونعلمك العمل، ويمكنك أن تقتني لنفسك ملكية صغيرة حسب نشاطك. أنتما الاثنان تستطيعان أن تكفيا نفسيكما تماماً. وهناك تعود إليك عافيتك، ومع الزمن سترى، أن مللتما تذهبان إلى مكان أفضل...

هذا ما قاله قازانغاب. فكر يديغاي ووافق. وفي نفس اليوم تحركا مع قازانغاب إلى صاروزيكي، حيث نقطة أم العواصف. وبما أن جمع الأمتعة لم يكن يحتاج إلى وقت طويل، فقد جمع يديغاي واوقوبالا أشياءهما وانطلقا. لم يكن يكلفهما الأمر شيئاً إذا ذاك. فقررا تجربة حظهما الجديد، الذي ثبت فيما بعد أنه مصيرهما.

ظل يديغاي يتذكر هذا الطريق عبر سهوب صاروزيكي من محطة قومبيل إلى نقطة أم العواصف. في البداية ساروا بمحاذاة الطريق الحديدية ثم صاروا يبتعدون عنها تدريجياً عبر الوديان، وقد أفهمهم قازانغاب أنهم بهذا يختصرون ما يقارب عشرة كيلو مترات من الطريق، إذ أن الطريق الحديدية

تشكل هنا قوساً كبيراً ملتفة حول منخفض كبير وهو بحيرة مالحة كانت موجودة ذات يوم ولكنها جفت. وما زال الملح والخبث المستنقعي حتى الآن يخرجان من أعماق الأرض. في كل ربيع يستيقظ هذا المنخفض الملحي ويتحول إلى مستنقع رخو فيصبح من الصعب عبوره، عند قدوم الصيف يكتسي بطبقة بيضاء صلبة من الملح، وتصبح أرضه صلدة كالصخر، ويظل هكذا حتى الربيع التالي. حدثهم قازانغاب عن وجود هذه البحيرة المالحة الكبيرة مستشهداً بكلمات جيولوجي مختص بصاروزيكي، هو يلبزاروف الذي ارتبط به يديغاي العاصف فيما بعد بصداقة متينة. لقد كان إنساناً ذكياً.

يديغاي لم يكن إذ ذاك يديغاي العاصف، بل مجرد كازاخي من آرال، جريح من الجبهة، ذي حياة غير مستقرة، قابله صدفة عابر من سكان المنطقة، فوثق به فذهب مع زوجته إلى نقطة أم العواصف المجهولة بحثاً عن العمل والمأوى، وهو لا يملك أي تصور عن أنه سيقضي كل حياته هناك.

صمت سهوب صاروزيكي الشاسعة اللامحدودة التي لا تخضر إلا لفترة قصيرة في الربيع، صم آذان يديغاي. حول بحر آرال يوجد أيضاً الكثير من السهوب والمنخفضات، يكفي منها ذكر هضبة اوستيورت، لكنه لم يقدر له أن يرى مثل هذا الامتداد الصحراوي إلا الآن. وأدرك يديغاي فيما بعد أن من يستطيع البقاء وحيداً وجهاً لوجه مع صمت صاروزيكي هو فقط ذلك الإنسان القادر على جعل روحه فسيحة بقدر فساحة الصحراء. نعم، روحُ صاروزيكي عظيمة شاسعة، لكن الفكر الحي عند الإنسان يحيق حتى بها. لقد كان بليزاروف حكيماً، استطاع تفسير ما كان يكبر كامناً في هذه الألغاز الغامضة.

من يعرف بأية حال كان يمكن أن يكون يديغاي واوقوبالا حين توغلهما في صاروزيكي لولا وجود قازانغاب الذي كان يسير واثقاً في المقدمة وهو يقود الجمل خلفه. كان يديغاي راكباً على الجمل وسط حمولة مختلفة. طبعاً كان من المفروض أن تركب اوقوبالا وليس هو، لكن قازانغاب واوقوبالا،

بشكل خاص، طلباً من يديغاي، بل أجبراه أن يصعد إلى ظهر الجمل: «نحن أصحاء، أما أنت فيجب أن توفر قوتك. لا تناقش، ولا تؤخرنا. الطريق أمامنا طويلة». كان الجمل صغيراً، لا قدرة له على الحمل الثقيل، لذلك سار اثنان على أقدامهما والثالث ركب على الجمل. لو كان هذا على جمل يديغاي الحالي قارانار لاستطاع الثلاثة أن يركبوا ولساروا أسرع بكثير. لاستطاعوا أن يصلوا خلال ثلاث ساعات ونصف أو أربع ساعات من السير الحثيث. ولكنهم وصلوا إذ ذاك إلى نقطة أم العواصف في آخر الليل.

إلا أنهم قطعوا هذه الطريق بشكل غير ملحوظ منشغلين بالأحاديث وبالنظر إلى الأماكن الجديدة. أثناء الطريق حدثهم قازانغاب عن الحياة هنا، وروى لهم كيف جاء هو إلى صاروزيكي ليعمل على الطريق الحديدية. لم يكن كبيراً بالسن، بل كان في تلك السنة قبيل انتهاء الحرب في السادسة والثلاثين من عمره. وهو كازاخي من منطقة آرال. كانت قريته «بيشاغاتش» تبعد عن «جان غيلدي» مسافة ثلاثين كيلو متراً بمحاذاة البحر. ومع أن قازانغاب غادر القرية منذ زمن بعيد، وانقضت منذ ذلك الحين سنون طويلة، فهو لم يزر قريته «بيشاغاتش» أبداً. وقد كانت لديه أسبابه لهذا الانقطاع. لقد نفوا أباه خلال حملة تصفية الكولاك(1) كطبقة، ولكنه مات في طريق عودته من منفاه بعد أن تبين أنه لم يكن كولاكا وأنه كان ضحية التطرف والمبالغة، وأنه كان من العبث، بل من الخطأ التصرف بهذا العنف مع الملاكين الصغار أمثاله، فأطلقوه، ولكن بعد فوات الأوان، خلال هذه المدة تفرقت أسرة قازانغاب – أخوته وأخواته – في أماكن مختلفة – المهم الابتعاد عن الأنظار. ومنذ ذلك الوقت انقطعت أخبارهم. كان النشطاء المتحمسون يجبرون قازانغاب الذي كان إذ ذاك شاباً أن يخطب في الاجتماعات مديناً أباه، وأن يعلن أمام الجميع أنه يدعم بحرارة الخط القائل أن إدانة أبيه كانت عادلة

(1) كولاك – فلاح غني يستثمر عمل غيره.

باعتباره عنصراً غريباً، وأنه «أي قازانغاب» يتبرأ من هذا الأب وأن أمثال أبيه من الأعداء الطبقيين لا مكان لهم على الأرض ويجب أن يلاحقهم الموت الأكيد أينما كانوا.

واضطر قازانغاب أن يقصد أماكن بعيدة كي يتجنب هذا العار. عمل ست سنوات في «بيتباك - دال» في سهوب الجوع قرب سمرقند. إذ ذاك كانوا قد بدؤوا باستصلاح الأراضي التي لم تمتد لها يد إنسان طوال قرون، لإقامة مزارع القطن عليها. كانوا هناك بحاجة ماسة إلى الناس. هناك عاشوا في بيوت خشبية مؤقتة، وكانوا يحفرون القنوات. اشتغل حفاراً وسائق جرار، ورئيس مجموعة، ومنح قازانغاب شهادة شرف لقاء عمله الجيد. وهناك تزوج. كان الناس يتوافدون إلى سهوب الجوع من كل مكان من أجل العمل وكسب الرزق. ومن بينهم كانت بوكيي القاراقالباقية، التي جاءت مع عائلة أخيها للعمل في «بيتباك - دال». والذي حصل أن اللقاء كان مكتوباً عليهما، فتزوجا في «بيتباك - دال» وقررا العودة إلى موطن قازانغاب عند بحر آرال، ليعيشا بين أهله وعلى أرضه. لكنهما لم يدرسا كل شيء حتى نهايته. كان سفرهما طويلاً في «المكسيمات»[(١)] مع عدة تحويلات، وعندما لم يبق لهما إلا تحويلة واحدة في محطة قومبيل التقى قازانغاب فجأة بأبناء موطنه من الآرال وفهم من حديثهم أنه لا يجدر به أن يعود إلى قريته بيشاغاتش، إذ أن الذين يديرون الأمور هناك هم أنفسهم أولئك المتطرفون. ولما كان الأمر كذلك عدل قازانغاب عن العودة إلى قريته، ليس لأنه كان يخاف شيئاً ما، فهو يحمل اليوم شهادة شرف من كل أوزبيكستان، ولكن لم يشأ أن يرى أولئك الناس الذين انتصروا عليه وسخروا منه وظلوا دون عقاب. وكيف له بعد كل ذلك أن يصافحهم وأن يتظاهر بأن شيئاً لم يحدث.

---

(١) المكسيمات ــ هكذا كانت تسمى عربات القطارات المخصصة لنقل الركاب.

لم يكن قازانغاب يحب تذكر ذلك ولم يفهم أن الآخرين باستثنائه نسوا التفكير بهذا منذ زمن طويل. وخلال هذه السنوات الطويلة التي مرت بعد قدومه إلى صاروزيكي، أشعرهم مرتين فقط أنه لم ينس شيئاً. إحداهما عندما أزعجه أبنه إزعاجاً كبيراً ذات مرة، والثانية عندما مزح معه يديغاي مزحة غير موفقة:

خلال إحدى زيارات سابيتجان جلسوا ليشربوا الشاي، فصاروا يتحادثون ويتسمعون إلى أخبار المدينة. فحدثهم سابيتجان بشكل عارض ساخراً أن أولئك الكازاخيين والقرغيزيين الذين ذهبوا إلى سينتزيان أثناء إقامة الجمعيات التعاونية سيعودون الآن. فقد حصرهم الصينيون في كومونات، يمنع فيها الأكل في البيوت، ولا يأكلون إلا من صهريج عام، يقف الجميع كباراً وصغاراً مع قصعاتهم بالدور أمامه. لقد أراهم الصينيون ما جعلهم يهربون من هناك كالملدوغين متخلين عن كل ممتلكاتهم. يقبلون الأرجل... دعونا فقط نعود إلى حيث كنا.

عبس قازانغاب وصارت شفتاه ترتجفان من الغضب، لقد كان ما حدث له نادر الحدوث جداً، ونادراً كان أيضاً – إن لم نقل مستحيلاً – أن يتكلم بهذه اللهجة مع ابنه الذي كان يحبه جداً، علمه، ولم يمنع عنه شيئاً معتقداً أنه سيصبح إنساناً كبيراً:

- وما هو الجيد في هذا؟ لماذا تضحك من هؤلاء؟ - وأضاف بصوت مخنوق وقد زاد الدم المتدفق إلى رأسه توتره – هذه مأساة إنسانية.

- إذن كيف أتكلم؟ عجيب – اعترض سابيتجان – أنا أتكلم كما هو الواقع.

لم يجبه أبوه بشيء وأزاح جانباً فنجان الشاي. لم يعد صمته محمولاً. فأضاف سابيتجان وقد رفع كتفيه مستهجناً:

- على كل، على من أنت غاضب؟ لست أفهم. أعود وأقول: على من أنت غاضب؟ على الزمن؟ - الزمن لن تمسكه. على السلطة؟ ليس من حقك.

- اِعرف يا سابيتجان. ما يهمني هو ما أحمل عبأه. وأنا لا أتدخل في شؤون غيري. تذكر يا بني، أعتقد أنك صرت عاقلاً، إذن تذكر: الله وحده لا يجوز أن نغضب منه: فإذا أرسل لي الموت – يعني أن نهاية حياتي قد حلت – ولهذا ولدت. وكل شيء آخر في الدنيا يمكن، بل يجب أن نطالب به.

ونهض قازانغاب من مكانه وخرج من البيت صامتاً غاضباً لا يلوي على شيء.

المرة الثانية كانت بعد مرور عدة سنوات من الخروج من قومبيل. وكانوا قد تأسسوا واستقروا في أم العواصف، وولد عندهم أبناء وترعرعوا. ذات مساء عندما كانا يدخلان الماشية إلى الحظيرة، وكان ذلك في الربيع، فرح يديغاي وهو ينظر إلى الغنم التي زاد تعدادها مع حملانها وقال:

- لقد اغتنينا وإياك يا قازاكية، وصرنا نستحق أن ينزعوا منا الملكية الكولاكية من جديد.

رماه قازانغاب بنظرة حادة واهتز شارباه غضباً:

- تكلم ولكن زن كلامك.

- ماذا دهاك؟ ألا تفهم المزاح؟.

- ليس هذا مادة للمزاح.

- دع عنك هذا، قازاكية، لقد مرت مئة سنة...

- هنا السر. إذا أخذوا منك ما لك، لا يهم، بإمكانك أن تتدبر أمرك. أما أن تظل نفسك منكسرة، فهذا ما لا يمكن تسويته...

ولكن في ذلك اليوم عندما كانوا قادمين من قومبيل إلى أم العواصف عبر صاروزيكي كان ما يزال يفصلهم عن هذه الأحاديث زمن طويل. عندها لم يكن أحد ليعرف بماذا سينتهي قدومهم إلى نقطة أم العواصف، وهل سيقصر أم سيطول صمودهم فيها، هل سيستقرون فيها أو سيتابعون ترحالهم

في هذا العالم. كان حديثهم يدور ببساطة عن الحياة فتساءل يديغاي أثناء الحديث، كيف حدث أن قازانغاب لم يذهب إلى الجبهة، أهو المرض؟

فأجابه قازانغاب:

- الحمد لله، لا. صحتي جيدة. لم يكن عندي أي مرض، وكان يمكن أن أحارب مثل الآخرين وليس أسوأ. لكن القصة كانت مختلفة تماماً...

بعد أن عدل قازانغاب عن العودة إلى «بيشاغاتش» توقفا مع زوجته في محطة قومبيل، إذ لم يكن لهما مكان يذهبان إليه. إلى سهوب الجوع ثانية؟ - بعيدة جداً. ولماذا؟... وإلا لما غادراها. إلى بحر آرال؟ عدل ثانية. مدير المحطة كان طيباً فلاحظهما ولاحظ طيبتهما، فاستفسر من أين هما وماذا ينويان العمل، وأرسلهما – قازانغاب وبوكيي – على قطار شحن عابر إلى نقطة أم العواصف. قال لهما أنهم هناك بحاجة إلى عاملين وأنتما زوج مناسب. كتب قصاصة ورق إلى سهوب الجوع، حيث كان الناس هناك كثيرين والعمل على قدم وساق، ورغم رهبة صاروزيكي عديمة الحياة اعتادا وتكيفا وبدآ حياتهما. قلة وفقر ولكنهما وحدهما. واعتبر كلاهما عاملاً في الطريق الحديدية على المسافات الفاصلة بين المحطات، مع أنهما كانا يقومان بكل ما يلزم في النقطة. هكذا بدأت حياتهما المشتركة – قازانغاب وعروسه بوكيي – في نقطة أم العواصف في صاروزيكي. الواقع أنهما فكرا في تلك السنين أن ينتقلا إلى مكان آخر – بعد ادخار بعض النقود – أقرب إلى المحطة أو إلى المدينة. ولكن الحرب بدأت وهما ما يزالان يستعدان لذلك.

وصارت تمر القطارات عبر أم العواصف باتجاه الغرب تحمل الجنود وباتجاه الشرق تحمل المرحلين، باتجاه الغرب تحمل الخبز وباتجاه الشرق تحمل الجرحى. حتى هذه المحطة الصغيرة النائية «أم العواصف» صارت تحس كيف كانت تتغير الحياة حولها.

كانت القاطرات تزعق واحدة تلو الأخرى طالبة فتح الطريق، وفي الجهة المقابلة نفس الزعيق... العوارض لم تعد تتحمل الثقل والسكك صارت تلتوي وتهتري قبل أوانها، تحت ثقل القطارات المتخمة بالحمولة، كانوا ما يكادون يفرغون من تغيير القضبان في مكان حتى يأتيهم طلب إصلاح في مكان آخر...

لا نهاية ولا حدود – من أين كانوا يجلبون هذه الأعداد التي لا تحصى من الناس، قطار تلو قطار، كلهم يتجهون إلى الجبهة ليل نهار، أسابيع وأشهر، ثم سنوات – وكلهم نحو الغرب – إلى هناك حيث كانت تتعارك العوالم عراكاً مستميتاً...

بعد فترة قصيرة جاء دور قازانغاب. وطلبوه إلى الحرب. أوصلوا إليه من قومبيل إعلاماً بوجوب الحضور إلى مركز التجمع. وأمسك رئيس النقطة رأسه بيديه وصار يئن: أخذوا أفضل عامل على الطريق، ومن غير ذلك لم يكن في أم العواصف إلا رجل ونصف. ولكن ماذا كان بمقدوره أن يفعل ومن كان يسمع منه عندما كان يقول أن قدرة التمرير في النقطة ليست مطاطاً... والقاطرات تزعق عند الحواجز... عندما يسمعون أنه يجب مد خط احتياطي يضحكون. من لديه الوقت لذلك؟.. العدو على أبواب موسكو...

وعلى الأبواب كان أول شتاء في الحرب. كان مبكراً مستعجلاً بتسلل خفية ببرده. وعشية ذلك الصباح تساقط الثلج. بدأ في الليل بذرات خفيفة ثم انهال كثيفاً قوياً. وهبط على أواسط صاروزيكي العظيمة الساكنة غطاء أبيض ناصع كثيف كسا الوديان والسهول والمروج وتحركت فوراً رياح صاروزيكي الخفيفة التي بدأت تلعب بالثلج الذي لم يتلبد بعد، ثم بدأت تعصف وتعوي مثيرة العواصف الثلجية الكبيرة. ماذا سيحل بخيط السكة الحديدية الرفيع الذي يقطع الأراضي الوسطى في السهوب الصفراء العظيمة من أقصاها إلى أقصاها وكأنه عرق في الصدغ؟ كان هذا العرق ينبض والقطارات تتحرك وتتحرك في كلا الاتجاهين...

في ذلك الصباح غادر قازانغاب إلى الجبهة. سافر وحيداً دون أي وداع. عندما خرجا من البيت توقفت بوكيي وقالت أن رأسها بدأ يدور بسبب الثلج. فأخذ قازانغاب منها الطفل الملفوف بغطاء – كانت آيزادا إذ ذاك قد ولدت – وسارا، ربما لآخر مرة يتركان وراءهَمُا آثار أقدامهما المتجاورة على الثلج ولكن زوجة قازانغاب لم توصله، بل هو الذي أوصلها أخيراً إلى غرفة التحويل قبل أن يركب في قطار شحن عابر إلى قومبيل. وبقيت بوكيي عاملة تحويل مكان زوجها. في هذه الغرفة ودع كل منها الآخر. فكل ما كان يجب قوله وكل البكاء كان قد قيل وبكي ليلاً. كان القطار يقف على أهبة الانطلاق. والسائق كان يستعجل قازانغاب ويناديه إليه، وما كاد قازانغاب يصعد إلى السائق حتى أطلق القطار صفرة طويلة، وبدأ يكتسب سرعته وسار مطلقاً عنان العجلات في القعقعة على السكة عبر المحول المفتوح لمروره، حيث وقفت بوكيي وهي تلف رأسها بمنديل وتشد خصرها بحزام وتحتذي جزمة للرجال، تحمل الشارة في يد والطفلة على اليد الأخرى. ولوحا لبعضهما لآخر مرة...

ومر أمام عينه مسرعاً وجهها ونظرتها ويدها والحاجز...

في هذه الأثناء كان القطار منطلقاً بضجيجه معلناً قدومه لثلوج صاروزيكي المتراكمة والمنتشرة بصمت في كل جانب وكأنها الحلم. نفخت الريح في القاطرة وأقحمت معها رائحة ثلج السهب النقي الجديد في الرائحة التي لا يمكن لشيء أن يطغي عليها والمنبعثة من احتراق الخبث في موقد القاطرة. حاول قازانغاب أن يحتفظ في رئتيه أطول مدة ممكنة برائحة شتاء صاروزيكي وأدرك أن هذه الأرض صارت تشكل بالنسبة له شيئاً ما...

من محطة قومبيل كانت تجري عملية إرسال المعبئين. صف الجميع في أرتال وبعد التفقد كانوا يوزعون على العربات. وهنا حدث حادث غريب. فعندما اتجه قازانغاب مع رتله لركوب العربة تبعه أحد العاملين في اللجنة العسكرية:

- اسانبايف قازانغاب. من منكم اسانبايف؟ فليخرج من الصف. تعال معي.

ونفذ قازانغاب ما قيل له.

- أنا اسانبانيف.

- وثائقك... صحيح. هو نفسه، والآن اتبعني.

وعادا إلى المحطة حيث كان مركز التجمع. وقال له ذلك:

- اسبانبايف. عد إلى بيتك. هيا. فهمت؟

- فهمت. أجابه قازانغاب مع أنه لم يفهم شيئاً.

- إذن انصرف، ولا تتدافع هنا. انصرف.

وظل قازانغاب بين هذه الجمهرة الصاخبة من المودعين والمسافرين، مشدوهاً. في البداية فرح لهذا التحول في الأحداث، ولكن بعد ذلك انتابته نوبة من الحمى التي لا تطاق بسبب التكهنات التي صارت تتوارد إلى أعماق وعيه. إذن هكذا! وصار يحاول اختراق هذا السد من الناس إلى أبواب قائد التجمع. وصار أولئك الذين كانوا يحاولون أيضاً الوصول إلى القائد يصرخون:

- إلى أين، أين تحشر نفسك؟

- شغل مستعجل! القطار سيذهب، شغل مستعجل – نفذ من بينهم.

وفي غرفة عابقة بدخان السجائر الذي جعل الجو فيها سديمياً أزرق رفع رجل مبحوح الصوت، جالس بين الهواتف والأوراق والناس المحتشدين حول، رفع وجهه المشوه عندما دس قازانغاب رأسه:

- ماذا، ما هي قضيتك؟.

- أنا غير موافق.

- على ماذا غير موافق؟

- لقد برئ أبي لأنه كان ضحية التطرف. فهو ليس كولاكا. راجع الوثائق التي عندك. لقد برئ باعتباره فلاحاً متوسطاً.

- قف، قف. ماذا تريد؟

- إذا كنتم لا تأخذونني لهذا السبب، فهذا غير صحيح.

- اسمع. لا تهذي عندي بتفاهاتك. كولاك، فلاح متوسط – من يشغله هذا الآن. من أين جئتني؟ من أنت؟

- اسانبايف من نقطة أم العواصف.

وأخذ القائد ينظر في القوائم.

- قل من البداية. توجع رأسي – فلاح متوسط، فقير، كولاك. أنت معفى. استدعوك خطأ. هناك أمر من الرفيق ستالين نفسه – بألا يمسوا عمال السكك الحديدية. كلهم يظلون في أماكنهم. هيا. لا تعيقني هنا. اذهب إلى نقطتك... وأعطنا عملاً...

أدركهم مغيب الشمس وهم في الطريق غير بعيدين عن أم العواصف. وها هم الآن يقتربون ثانية من الطريق الحديدية، بدؤوا يسمعون أصوات القطارات السائرة في الاتجاهين، وصار من الممكن رؤيتها وهي تبدو عن بعد كلعب الأطفال. كانت الشمس تنطفئ خلفهم ببطء منيرة المروج النظيفة والتلال التي حولها وملقية في الوقت ذاته الظلال عليها، وخيم الشفق على الأرض وبدأ يتسلل الظلام الذي أعطى الجو لوناً أزرق وبعث رائحة الأرض الربيعية الباردة التي ما تزال تكتنز بقايا رطوبة الشتاء.

- تلك أم العواصف – وأشار قازانغاب بيده ملتفتاً إلى يديغاي الجالس على ظهر الجمل وإلى اوقوبالا التي كانت تحث الخطى بجانبه لم يبق الآن إلا القليل. قريباً سنصل، وعندها ترتاحون إن شاء الله.

في ذلك المكان الذي تشكل عليه الطريق الحديدية انحناء ملحوظاً بعض الشيء على سطح السهب، كانت تنتصب أمامهم بضعة بيوت وكان يقف على الخط الاحتياطي قطار عابر منتظراً إعطاءه حق المرور. وأبعد من ذلك وفي كل الجهات كانت تمتد أرض خالية بوديانها قليلة الانحدار وفراغها الأصم الذي لا نهاية له، كانت تمتد سهوب تليها سهوب...

وهبط قلب يديغاي – فمع أنه ابن السهوب المجاورة للبحر المعتاد على صحاري آرال لم يتوقع شيئاً كهذا. من البحر الأزرق المتبدل أبداً، الذي ترعرع على شواطئه إلى أرض ميتة لا بحر فيها. كيف سيعيش هنا؟!

وارتفعت يد اوقوبالا لتمسك بساق زوجها يديغاي الذي كانت تسير بجانبه، وظلت ممسكة بها مسافة بضع خطوات، ففهم. وقالت له «لا بأس، المهم أن تعود إليك عافيتك... وعندها سنرى».

هكذا اقتربوا من المكان الذي قدر لهم – كما ثبت فيما بعد – أن يقضوا به سنيناً طويلة، بل كل ما تبقى من حياتهم.

سرعان ما انطفأت الشمس وعم الظلام وبدت في سماء صاروزيكي واضحة دقيقة، مجموعة كبيرة من النجوم. ووصلوا إلى أم العواصف.

أمضيا عدة أيام عند قازانغاب، ثم انفصلا، إذ أعطوهما غرفة في البيوت الخشبية المؤقتة التي كانت مخصصة إذ ذاك لعمال الطرق، ومن هنا بدأت حياتهما في هذا المكان الجديد.

مع كل الصعوبات والشقاء، وخاصة في الفترات الأولى، ومع خلو صاروزيكي من الناس فإن ما أفاد يديغاي هو شيئان: الهواء وحليب النوق. كان الهواء ذا نقاوة لا مثيل لها وكان من الصعب إيجاد عالم بكر كهذا، أما الحليب، فقد رتب أموره قازانغاب، إذ أعطاهما، بقصد الحلب، إحدى ناقتين كانتا عنده، وقال لهما:

- لقد تشاورنا أنا وزوجتي حول هذه الأمور. الحليب الذي عندنا يكفينا، خذا هذه الناقة «بيلوغولوفايا»(١) واحلباها. إنها ناقة فتية وحلوب وهذه ولادتها الثانية. اعتنيا بها واستثمراها. ولكن احذرا من تجويع رضيعها. فهو لكما. هكذا قررنا أنا وزوجتي. هذا مني لك يا يديغاي، لكي تربيه كبداية لمقتنياتك. إن حافظت عليه سيولد حوله قطيع كامل، وإن فكرتما بالرحيل فجأة – تبيعه وتأخذ ثمنه.

كان وليد «بيلوغرلوفايا» ضئيلاً، ذا رأس أسود وسنامين قائمين صغيرين. ولد منذ أسبوع ونصف فقط. كانت عيناه الواسعتان الجاحظتان الرطبتان تلتمعان برقة وفضول طفوليين. كان أحياناً يعدو بشكل مضحك قافزاً فرحاً قرب أمه، وكان يناديها عندما يظل في حظيرته بصوت شاك يشبه الصوت الإنساني. من كان يعرف أن هذا الحُوار سيكون قارنار العاصف، ذلك الجمل الجبار الذي لا يتعب والذي سيصبح مع مرور الزمن من معالم الناحية. فيه ارتبطت أحداث كبيرة في حياة يديغاي العاصف، إذ ذاك كان هذا الرضيع يحتاج إلى رعاية مستمرة. وقد تعلق به يديغاي تعلقاً شديداً، وكان يقضي معه كل وقت فراغه. سابقاً عندما كان عند بحر آرال كان ذا خبرة في هذه الأمور، والآن أفادته هذه الخبرة جداً. نما قارانار الصغير بشكل ملحوظ حتى بداية الشتاء، ومع حلول البرد أخاطوا كساء دافئاً ربطوه إلى أسفل بطنه. فبدا في هذا الكساء مضحكاً تماماً، ولم يكن يظهر منه إلا رأسه ورقبته وقوائمه وسنماه. وظل طوال الشتاء وبداية الربيع بهذا اللباس وهو يسرح طوال اليوم تحت السماء في السهب.

حتى بداية شتاء ذلك العام شعر يديغاي أن قوته بدأت تعود إليه بشكل تدريجي، حتى أنه لم يلاحظ متى توقف رأسه عن الدوران واختفى بشكل غير ملحوظ أيضاً الضجيج في أذنيه ولم يعد يتصبب عرقه أثناء العمل. وفي

---

(١) بيلوغولوفايا = ذات الرأس الأبيض. هنا اسم أطلق على الناقة.

أواسط الشتاء صار قادراً أن يخرج على قدم المساواة مع الآخرين إلى استنفارات العمل أثناء العواصف الثلجية. بعد ذلك اشتد عزمه لدرجة أنه نسي كم كان وضعه سيئاً وصعباً في الماضي القريب، عندما كان بالكاد ينقل قدميه، وهذا طبيعي، فهو ما يزال شاباً أضف إلى أنه شديد العزم بطبيعته – لقد تحققت نبوءة الطبيب ذي اللحية الشقراء.

في لحظات المزاج الطيب كان يديغاي يمازح الجمل الصغير مدللاً حاضناً إياه من رقبته:

- أنا وأنت نشبه الأخوة في الرضاع. انظر كيف كبرت أنت على حليب «بيلوغولوفايا» وأنا تخلصت من الضعف، على ما يبدو. إن شاء الله إلى الأبد. الفرق بيني وبينك هو أنك كنت ترضع من الضرع أما أنا فكنت أحلبه وأصنع الشباط...

بعد مضي سنين طويلة، اكتسب قارانار شهرة كبيرة في صاروزيكي حتى أن أناساً جاؤوا خصيصاً لتصويره. أصبحت الحرب طي النسيان وصار الأطفال يتعلمون في المدرسة، وظهرت في النقطة مضخة خاصة للماء وحلت مشكلة الماء نهائياً، في هذه الفترة كان يديغاي قد أشاد لنفسه بيتاً ذا سقف حديدي. بعد مضي هذه السنين أي عندما دخلت الحياة بعد سني الحرمان والمحن الطويلة مسارها الطبيعي الجدير بحياة الإنسان الكريمة الطبيعية، بعد هذه السنين وقع هذا الحدث الذي ظل يديغاي يتذكره طويلاً.

كان قدوم المراسلين الصحفيين – كما أعلنوا هم عن أنفسهم طبعاً – كان حدثاً نادراً إن لم يكن فريداً في تاريخ أم العواصف. ثلاث من المصورين الصحفيين كثيري الكلام لم يبخلوا بالوعود – قالوا أنهم جاؤوا كي ينشروا في كل الصحف والمجلات صور قارانار العاصف وأصحابه. لكن الضجيج والهرج حول قارانار لم يعجبه، فصار يرغي مهتاجاً ويصر بأسنانه ويرفع رأسه كي لا يطاله أحد، راغباً أن يَدَعوه وشأنه. وكان القادمون هؤلاء

مضطرين أن يرجو يديغاي طوال الوقت كي يهدئ الجمل وكي يديره بهذا الاتجاه وذاك. أما يديغاي فكان في كل مرة يدعو الأطفال والنساء وقازانغاب نفسه، كي لا يظهر في الصورة وحده، بل كي يظهر الجميع معه، معتقداً أن هذا أفضل. وتقبل المصورون هذا الأمر برضى وصاروا يطقطقون بمختلف آلات التصوير. كانت اللقطة الأولى عندما ارتقى كل الأطفال إلى ظهر قارانار العاصف: اثنان على رقبته وحوالي خمسة على ظهره وفي الوسط يديغاي نفسه – انظروا إلى جبروت هذا الجمل. وارتفع الضجيج والمرح. بعد ذلك اعترف المصورون الصحفيون أن المهم بالنسبة لهم هو تصوير هذا الفحل وحده دون الناس. تفضلوا. لم لا؟.

وعندها صار المصورون يلتقطون الصور لقارانار العاصف من الجانبين ومن الأمام، عن قرب ومن بعيد، بكل ما أوتوا من قدرة ومهارة وبعد ذلك صاروا يقيسون: بمساعدة يديغاي وقازانغاب ارتفاعه من مؤخرة رأسه، ومحيط صدره ومحيط رسغه وطوله وكل ذلك كانوا يسجلونه مبدين إعجابهم:

- باكتريان رائع. هنا عملت المورثات بشكل ممتاز. نموذج الباكتريان الكلاسيكي. يا له من صدر ضخم ممتاز.

كان مفرحاً ليديغاي طبعاً أن يسمع هذا الإطراء ولكنه كان يجب أن يسألهم عن معاني تلك الكلمات التي لم يفهمها: «باكتريان» مثلاً. فتبين أن هذا هو الاسم الذي يطلق في العلم على هذا الجنس القديم من الجمال ذات السنامين.

- إذن هو باكتريان؟

- أصيل أصالة نادرة. الماس.

- وما حاجتكم بكل هذه القياسات.

- من أجل المعطيات العلمية.

كان كلام هؤلاء القادمين عن الصحف والمجلات مجرد ذر للرماد في عيون أهل أم العواصف من أجل زيادة الاهتمام بهم. بعد ما يقارب الستة أشهر أرسل هؤلاء طرداً بريدياً فيه كتاب تدريسي مخصص لكليات علم الحيوان حول تربية الجمال، كانت على غلافه صورة الباكتريان الكلاسيكي – قارانار العاصف. كما أرسلوا كذلك مجموعة كبيرة من الصور، بينها صور ملونة. كان يمكن الحكم، من الصور، أن تلك الفترة سعيدة مفرحة. فقد أصبحت شدائد سنوات ما بعد الحرب ماضياً، والأطفال لم يتجاوزوا بعد طفولتهم والكبار كلهم أحياء أصحاء والشيخوخة كانت ما تزال مختبئة خلف الجبال.

في ذلك اليوم ذبح يديغاي خروفاً وأقام مأدبة دعا إليها كل أهل أم العواصف تكريماً للضيوف. كان الشباط والفودكا وكل أنواع المأكولات كثيراً. عندها كانت تأتي إلى النقطة عربة قطار المخزن المتنقل «اورسا»، التي كانوا يجلبون فيها كل ما تشتهيه النفس على أن تتوفر النقود. كانت توجد فيها كل أنواع السرطان المائي والكافيار الأسود والأحمر ومختلف أصناف السمك، والكونياك «والمرتديلا» والسكاكر وغيرها. ومع ذلك، ورغم وجود كل شيء، لم يكونوا يشترون كثيراً. ما ضرورة ما لا حاجة به؟ والآن اختفى هذا المخزن المتنقل عن الخط منذ زمن...

عندها جلسوا جلسة ممتعة حتى أنهم شربوا نخب قارانار العاصف وظهر من الحديث أن الزوار عرفوا بوجود قارانار من يليزاروف. يليزاروف هو الذي حدثهم أنه في صاروزيكي يعيش صديقاً له، هو يديغاي العاصف وأنه صاحب أجمل جمل في العالم – صاحب قارانار العاصف. يليزاروف، يليزاروف – إنسان رائع، خبير في صاروزيكي، عالم...

عندما كان يليزاروف يأتي إلى أم العواصف كان الثلاثة يديغاي ويليزاروف وقازانغاب يجتمعون ويتحدثون ليال بطولها.

أثناء هذه الجلسة مع القادمين حدث قازانغاب ويديغاي وهما يكملان حديث بعضهما، حدثا الضيوف عن حكايات صاروزيكي القديمة حول قصة الجدة الأولى لفصيلة الجمال الموجودة هناك وعن الناقة الشهيرة ذات الرأس الأبيض «أكمايا» وعن صاحبتها التي لا تقل شهرة عنها نايمان آنا المدفونة في مدفن انابيت. من هنا جاءت سلالة قارانار العاصف. وأمل أهل أم العواصف أن يكتب في إحدى الصحف عن هذه القصة القديمة. كان الضيوف يصغون باهتمام، ولكنهم أبدوا اعتقادهم أن هذه القصة يجب أن تكون مجرد أسطورة محلية انتقلت من جيل إلى جيل. أما رأي يليزاروف فقد كان مختلفاً. كان يعتقد أن أسطورة «أكمايا» يمكن أن تكون انعكاساً لما كان – على حد قوله – واقعاً تاريخياً. كان يحب سماع مثل هذه الأشياء بل كان نفسه يعرف الكثير من حكايات وماضي السهوب...

وعند المساء ودعوا الضيوف. كان يديغاي مسروراً ومعتزاً. ولهذا قال شيئاً لم يفكر به جيداً. كان قد شرب مع الضيوف. ولكن ما قيل قد قيل. قال لقازانغاب:

- اعترف يا قازاكية، أَلَسْتَ آسفاً لغلطتك بأن أهديتني الحوار قارانا؟

نظر إليه قازانغاب ساخراً، وبدا عليه أنه لم يتوقع هذا السؤال. بعد صمت قصير أجاب:

- نحن كلنا بشر طبعاً. ولكن أنت تعرف أن هناك قانوناً قاله أجدادنا: مال بيسي كودايدان[١]. هذه مشيئة الله. هذا هو المقدر. فقارانار يجب أن تكون صاحبه. ولو وقع، لنقل، في أيدٍ غير يديك، لا نعلم كيف كان يمكن أن يكون. ربما وقع من أعلى المنحدر. يجب أن يكون لك. في السابق كانت عندي جمال وهي ليست سيئة، ومن نفس الأم التي ولدت قارانار، من

---

(١) مال بيسي كودايدان (كازاخية) صاحب الحيوان يقدره الله.

«بيلوغولوفايا». ولكنه هو الوحيد الذي أهديته... إن شاء الله يبقى لك في خدمتك مئة سنة. إنما أنت لست على حق في تفكيرك هذا...

- عفواً، عفواً يا قازاكية –وخجل يديغاي وأسف لأنه رمى هذه الكلمات.

استمراراً لحديثهما أعلن قازانغاب عن ملاحظاته: تقول الحكاية أن الأم الذهبية «أكمايا» أنجبت سبعة أبناء. أربع نوق وثلاثة جمال. ومنذ ذلك الحين والنوق تولد زاهية اللون بيضاء الرؤوس والجمال تولد على العكس، سوداء الرؤوس ذات لون كستنائي. لهذا ولد قارانار هكذا. من أم بيضاء الرأس – جمل أسود. هذا هو أول دليل على انتسابه لسلالة «أكمايا» من يعرف كم مر من السنين منذ ذلك الزمن – مئتان، ثلاثمائة، خمسمائة... ولكن سلالة «أكمايا» لا تنقرض في صاروزيكي. تغيب وتغيب وفجأة يولد جمل صيرتان[1] مثل قارانار العاصف... حظ يديغاي كان بكل بساطة؛ حظاً جيداً. فمن أجل سعادته كرجل ولد قارانار وآل إليه...

وعندما آن الأوان كي يقرر يديغاي أن يعمل شيئاً مع قارانار: أما أن يخصيه أو يقيده بالقيود، إذ صار يعربد بشكل فظيع ولا يسمح لأحد من الناس بالاقتراب منه ويهرب ويهيم على وجهه لأيام عدة، عند ذلك قال قازانغاب ليديغاي صراحة عندما استشاره الأخير:

- هذا شأنك. إن أردت حياة هادئة – أخصه. وإن أردت المجد فلا تمسه، ولكن تحمل عندها المسؤولية إذا حدث شيء. إذا كانت قوتك وصبرك كافيين انتظر. سيتمرد حوالي ثلاث سنين وبعدها سيتبعك كظلك.

ولم يمس يديغاي قارانار العاصف. لم يتجاسر ولم تطاوعه يده بالامتداد إليه. أبقاه فحلاً. ولكن مرت بعد ذلك بيديغاي لحظات عض فيها أصابعه ندماً...

* * *

---

(١) صيرتان (كازاخية) مخلوق فوق العادة.

- ٥ -

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

في الصباح الباكر كان كل شيء جاهزاً. وضعوا جثمان قازانغاب الذي لف تماماً بلباد كتيم ومن الخارج شدت عليه عروة صوفية وغطي رأسه جيداً، وضعوه على عربة قطرت إلى جرار، كانوا قد فرشوها سلفاً بنشارة الخشب وبطبقة من التبن النظيف. كان يجب ألا يتأخروا كثيراً بالانطلاق كي يتمكنوا من العودة من المقبرة مساء في وقت لا يتجاوز الساعة الخامسة أو السادسة. ثلاثون كيلو متراً باتجاه الذهاب وبقدرها في اتجاه الإياب إضافة إلى الدفن هناك – وهكذا لن يتمكنوا من إقامة وليمة التأبين إلا حوالي الساعة السادسة مساء. على هذا الأساس مضوا على أن يلحقوا موعد وليمة التأبين. كل شيء كان جاهزاً استعجل يديغاي العاصف الناس وهو يمسك بمقود قارانار الذي كان قد جهز وزين منذ مساء الأمس. كان يديغاي يبدو، مع أنه لم ينم طوال الليل حيوياً ذا تركيز جيد بالرغم من تذمره. كان بذقنه المحلوقة وشاربه وحاجبيه رماديي اللون مزداناً بأبهى حلة – الجزمة اللماعة وسروال الخيالة (الغولف) المخملي والسترة السوداء فوق قميص أبيض وعلى رأسه

قبعة الخروج الخاصة بعمال السكك الحديدية. كانت تلتمع على صدره كل الأوسمة التي نالها في الحرب حتى علامات العمل الطليعي في الخطط الخمسية. كل هذا كان لائقاً به وأضفى عليه هيبة مؤثرة. هكذا يجب أن يكون يديغاي العاصف في جنازة قازانغاب.

عند الوداع اجتمع كل أهل أم العواصف من أصغرهم إلى أكبرهم، وتجمهروا عند العربة المقطورة منتظرين الانطلاق. ولم تنقطع النساء عن البكاء. توجه يديغاي إلى الحضور بكلمات عفوية انطلقت من ذاتها:

- نحن ذاهبون الآن إلى انابيت، إلى أقدم مدفن مكرم في صاروزيكي. والمرحوم قازانغاب – آتا يستحق هذا العناء. فهو نفسه أوصى بدفنه هناك – وصمت يديغاي مفكراً فيما يجب أن يقول وأضاف: - إذن انتهى الملح والماء الذي كتب له منذ ولادته. لقد عمل هذا الإنسان في نقطتنا أربعاً وأربعين سنة تماماً، ويمكننا القول أنه عمل هنا طوال حياته. عندما بدأ العمل هنا لم تكن حتى مضخة الماء موجودة. كانوا يجلبون الماء بالصهاريج لمدة أسبوع كامل. لم تكن موجودة إذ ذاك آلات كنس الثلج ولا غيرها مما يوجد الآن، حتى أنه لم يكن يوجد جرار كالذي نحمله اليوم عليه لندفنه، ومع ذلك كانت القطارات تسير وكان طريقها جاهزاً دائماً. لقد خدم خلال حياته في أم العواصف بشرف. كان إنساناً جيداً، وأنتم جميعاً تعرفون ذلك. والآن سننطلق. لا ضرورة لأن يذهب الجميع إلى هناك، إضافة إلى أنه لا يوجد ما يمكن أن يذهبوا عليه ولا يحق لنا أن نترك الخط كلنا. سنذهب إلى هناك نحن الستة وسنقوم بكل شيء كما يجب. وأنتم انتظرونا واستعدوا لتحضروا جميعاً وليمة التأبين عند عودتنا. أنا أدعوكم باسم أبنائه. ها هم ابنه وابنته...

ومع أن يديغاي لم يفكر بذلك، فقد كان هذا وكأنه اجتماع تأبيني صغير. بهذا انطلق الموكب وتبعه أهل أم العواصف لمسافة قصيرة ثم توقفوا وظلوا مجتمعين خلف البيوت. وظل يسمع لفترة قصيرة صوت البكاء الذي كانتا تطلقانه في أثرهم آيزادا واوقوبالا...

عندما توقف البكاء وابتعد هؤلاء الستة عن الطريق الحديدية متوغلين في صاروزيكي تنفس يديغاي العاصف الصعداء. لقد أصبحوا الآن وحدهم وهو يعرف ماذا يجب أن يعمل.

كانت الشمس ترتفع فوق الأرض ساكبة بسخاء ومرح نورها على رحاب صاروزيكي. الجو ما يزال بارداً في السهوب وليس هناك ما يعرقل سيرهم. كان عقابان اثنان فقط يحلقان تحليقاً عادياً في السماء العالية، وأحياناً كانت بعض القبرات تقفز من بين الأعشاب اليابسة مصفقة بأجنحتها وهي تطير فزعة «هذه أيضاً ستغادر قريباً. تجتمع في السهب وترحل مع بداية الثلوج» فكر يديغاي بهذا وقد تخيل للحظة الثلج المتساقط والعصافير الراحلة عن البساط الثلجي. وفجأة تذكر لسبب ما تلك الثعلبة التي قدمت في تلك الليلة إلى الطريق الحديدية. حتى أنه صار يسترق النظر حوله.. ألا تتبعهم. وعاوده التفكير بالصاروخ الناري الذي كان ينطلق في تلك الليلة إلى السماء فوق صاروزيكي لكنه استهجن أفكاره الغريبة هذه وحاول إجبار نفسه على نسيانها. ليس هذا ما يجب التفكير به في مثل هذه الساعة، مع أن الطريق ما زالت طويلة.

كان يديغاي العاصف يسير في المقدمة مستوياً على قاراناره، ليدلهم على الطريق إلى انابيت، وقارناره كان يخب تحته بخطوات واسعة، مستغرقاً أكثر وأكثر في إيقاع السير. لقد كان قارانار، بالنسبة لمن يفهم، ذا جمال متميز أثناء السير. كان رأسه على رقبته الممتدة عالياً بشمم ثابتاً لا يتحرك وكأنه يسبح على ذرى الأمواج، أما قوائمه الطويلة الثخينة فقد كانت تشق الهواء وتقيس الأرض بالخطى بلا كلل أو ملل. جلس يديغاي مستقراً بين السنامين، بثقة وارتياح راضياً عن قارانار لأنه لم يكن يحتاج للحث، بل كان يسير بخفة ملتقطاً بدقة كل توجيهات صاحبه. الأوسمة والمداليات كانت ترن

بخفة على صدر يديغاي خلال السير وتلتمع تحت أشعة الشمس. لكن هذا لم يزعجه أبداً.

خلف يديغاي كان يسير جرار «بيلوروس» وهو يجر خلفه العربة المقطورة. في قمرة القيادة كان سابيتجان يجلس إلى جانب السائق الشاب كاليبيك. لقد شرب سابيتجان بالأمس ما فيه الكفاية مسلياً أهل أم العواصف بمختلف الخرافات حول توجيه الإنسان بالراديو وغير ذلك من الترهات، أما الآن فليجلس هامداً صامتاً ورأسه يميل من جانب إلى جانب. كان يديغاي يخشى أن تكسر نظارته. في العربة المقطورة بجانب جثمان قازانغاب جلس زوج آيزادا حزيناً مكتئباً، وهو يزر عينيه تحت الشمس متلفتاً حوله بين الفينة والفينة. لقد برهن هذا المدمن الذي لا نفع منه على مزاياه الجيدة في هذه المرة. لم يشرب نقطة واحدة وحاول المساعدة في كل الأمور واجتهد بشكل خاص حين إخراج جثمان الراحل، إذ ساعد في حمله على كتفه. وعندما عرض عليه يديغاي أن يركب خلفه على الجمل رفض وقال: «لا. أريد أن أجلس بجانب حمي، سأرافقه من البداية حتى النهاية». وقد أيده في هذا يديغاي وكل أهل أم العواصف. وعندما انطلقوا من القرية بكل بالذات هو أشد وأمر بكاء، وهو يجلس في العربة المقطورة ممسكاً باللفة اللبادية التي لف بها جثمان المتوفى. وبعث هذا حتى في نفس يديغاي الأمل. ربما يعود الرجل إلى رشده فجأة ويبتعد عن الشرب. «أية سعادة ستكون هذه لآيزادا ولأبنائها».

اختتمت هذا الموكب القصير والغريب في هذا السهب الخالي من الناس، والذي كان يقوده جمال على ظهر جمله المكسو بالغطاء ذي الشراشيب اختتمته الحفارة ذات العجلات «بيلوروس». في قمرة قيادتها كان يجلس اديلباي وجوماغالي. جوماغالي قصير القامة، أسود كالزنوج، كان يجلس خلف المقود. عادة هو الذي يقود هذه الآلة إلى مختلف الأعمال على الطريق الحديدية. وقد جاء إلى أم العواصف منذ فترة قصيرة نسبياً، ومن

الصعب التنبؤ إن كان سيظل هنا طويلاً. بجانبه كان يركب اديلباي الطويل الذي علاه مقدار رأس كامل. وطوال الطريق كانا يتحدثان بحيوية حول شيء ما.

يجب تقدير رئيس النقطة اوسبان حق قدره. فهو الذي قدم الآليات الموجودة لتساهم في الدفن. لقد ناقش رئيس النقطة الشاب الأمر بشكل صحيح – إذا قطعوا هذه المسافة الطويلة وحفروا اللحد يدوياً فإنهم لن يستطيعوا العودة قبل المساء، إذ يجب حفر حفرة عميقة مع تجويف جانبي حسب العادات الإسلامية.

لقد حير اقتراح رئيس النقطة يديغاي بعض الشيء في البداية، إذ لم يخطر بباله أبداً أن يحفر لحداً، لا بالأيدي، بل بواسطة الحفارة الآلية. عندما دار هذا الحديث جلس يديغاي أمام اوسبان عابساً يفكر، مفعماً بالشك. ولكن اوسبان وجد مخرجاً أَقنَع به العجوز:

- يديكيه، أنا أقول لك شيئاً عملياً. لكي لا يزعجكم شيء ابدأ الحفر يدوياً، الرفوش الأولى فقط ومن ثم بالحفارة الآلية على مرحلتين. التربة في صاروزيكي جافة كالصخر، أنت تعرف. تتعمقون بواسطة الحفارة الآلية بقدر حاجتكم، وقبل النهاية تكملون بأيديكم، ولنقل تختتمون العمل. فتختصرون الوقت وتراعون التقاليد...

والآن بعد أن ابتعدوا في صاروزيكي وجد يديغاي أن نصيحة اوسبان كانت معقولة تماماً وممكنة. حتى أنه استغرب كيف لم يفكر هو بذلك. هكذا سيفعلون بعد وصولهم إلى انابيت إن شاء الله. يجب أن يختاروا مكاناً مناسباً في انابيت لكي يضعوا المرحوم ورأسه متجه نحو الكعبة الشريفة ويبدؤوا الحفر، كبداية بالمر والرفوش التي يحملونها معهم في العربة المقطورة. وعندما يحفرون قليلاً يشغلون الحفارة الآلية لتحفر اللحد حتى آخره أما الفجوة الجانبية – والمرقد فيكملونهما يدوياً. هكذا سيكون الأمر أسلم وأسرع.

لهذا الهدف كانوا يسيرون في تلك الساعة في سهب صاروزيكي، تارة يظهرون كسلسلة على ظهر المرتفعات وتارة يختفون في المنخفضات الواسعة، ويعودون مرة أخرى ليرتسموا بدقة في السهب، في المقدمة يديغاي العاصف على جمله وخلفه الجرار والعربة المقطورة وخلف العربة سارت الحفارة الآلية «بيلوروس» كخنفسة ذات عيون واسعة وأيد طويلة، متجهة بمغرفة الجرف إلى الأمام ومغرفة الحفر إلى الخلف.

التفت يديغاي للمرة الأخيرة إلى النقطة التي كانت قد اختفت في الخلف فشاهد، ويا للعجب، - إذ لاحظه لأول مرة – الكلب الاصهب جوليارس يخطو بجانبهم مهموكاً بخطوات قصيرة. متى استطاع فك رباطه؟ يا له من كلب. كأنه لم يكن موجوداً عندما غادروا أم العواصف. ولو عرف أنه سيفعل فعلته هذه لأوثق رباطه. خبيث. ما يكاد يشاهد يديغاي ذاهباً إلى مكان ما على قارانار حتى يجد اللحظة المناسبة للإفلات ومرافقته. وفي هذه المرة ظهر وكأنه خرج من تحت الأرض. هذا شأنه. طرده الآن أصبح متأخراً، كما أنه لا داعي لإضاعة الوقت من أجل الكلب. فليركض. تجاوز جولبارس الجرار وكأنه تكهن بما يفكر به يديغاي وانضم إلى القافلة ليسير إلى جانب قارانار وأمامه. هدده يديغاي بعصا السوط ولكن لم يطرف له جفن. تهديده جاء متأخراً. ولكن ما السيء فيه حتى يمنع من المشاركة في هذا العمل. عريض الصدر، ذو رقبة قوية شعثاء وأذنين مقصوصتين ونظرة ذكية هادئة. لقد كان الكلب الاصهب جولبارس، من كل النواحي، جميلاً ومعتبراً.

في هذه الأثناء تناوبت على يديغاي أفكار مختلفة وهو في طريقه إلى انابيت. صار يتذكر وهو ينظر إلى الشمس وهي ترتفع فوق الأفق – حاسباً مرور الزمن – الحياة الماضية. وتذكر تلك الأيام عندما كان هو وقازانغاب شباباً أقوياء وكانا يعتبران العاملين الدائمين الرئيسيين في النقطة، فالآخرون لم يمكثوا طويلاً في أم العواصف فما يكادون يأتون إليها حتى يغادرونها. أما

هو وقازانغاب فلم يكن لديهما الوقت لالتقاط أنفاسهما، لأنه شاءا أم أبيا كانا مضطرين ألا يحسبا حساباً لشيء وأن يقوما بكل الأعمال الضرورية في النقطة. ليس من اللائق تذكر هذا الآن بصوت مرتفع – قد يضحك الشباب ويقولون: شيوخ حمقى، دفنوا أنفسهم أحياء. من أجل ماذا؟ فعلاً من أجل ماذا؟. ولكن كان هناكَ ما فعلا هذا من أجله.

ذات مرة ظل يديغاي وقازانغاب يعملان يومين متتالين دون توقف لتنظيف الطريق من الثلج أثناء إحدى العواصف. في الليل جعلا أحد القطارات يقترب وينير لهما بمصابيحه المكان، والثلج يتساقط ويتساقط والريح تلف وتدور. ينظفان هنا فتتكون كثبان الثلج هناك. كان الجو بارداً – لا، ليست هي الكلمة المعبرة: كانت الوجوه والأيدي تتورم لشدة البرد. يدخلان إلى القطار ليتدفأ خمس دقائق. ويعودان ثانية إلى هذا العمل المميت في صاروزيكي. القطار نفسه أنطمر بالثلج حتى أعلى عجلاته. ثلاثة من العمال الذين جاؤوا حديثاً وصلوا إلى ليلة ذلك اليوم ورحلوا. شتموا بكل شتائم الدنيا صاروزيكي وحياتها. كانوا يقولون: نحن لسنا معتقلين. حتى المعتقلون في السجون لديهم الوقت ليناموا. ولهذا رحلوا. في الصباح عندما سارت القطارات صفروا لنا مودعين:

- إي، يا مجانين، خذوا عضوا هذا.

أثناء هذه العاصفة تعارك يديغاي وقارانغاب، ليس لأن هؤلاء «القبضايات» شتموهما، بل هذا ما حدث. نعم، لقد حدث هذا: في الليل لم يعد العمل مطاقاً. الثلج يغطي كل شيء والريح من كل جانب تعوي كالكلب الكلب. ولا مهرب منها. القطار كان يطلق البخار فلا يفيد بشيء، بل يغرق المكان بالضباب، والمصابيح بالكاد كانت تنير وسط الظلام. وعندما ذهب أولئك الثلاثة، ظل يديغاي وقازانغاب ليرحلا الثلج بجرافات تجرها الجمال. شداها على جملين، فلم يسيرا. إنهما مخلوقات حية ضعيفة بردانة في هذه

الدوامة. والثلج على جانبي الطريق حتى صدريهما. صار قازانغاب يشد الجمال من شفاهها كي تسير خلفه أما يديغاي فصار يضربها بالسوط على مؤخرتها. عاركا هذه الجمال حتى منتصف الليل، وبعدها سقطت الجمال في الثلج. خارت قواها. اقتلها ولا تنهض. ما العمل؟ يجب ترك العمل إلى أن يهدأ الطقس. ووقفا قرب القطار محتميين به من الرياح.

- كفى، قازاكيه! لنصعد إلى القطار، وهناك سنرى كيف سيكون الطقس.

- قال يديغاي هذا وهو يضرب قفازيه المتجمدين ببعضهما.

- الطقس كما كان سيظل. ومع ذلك مهمتنا هي تنظيف الطريق. تعال نعمل بالرفوش. لا يحق لنا أن نقف.

- من نحن، ألسنا بشراً؟

- لسنا بشراً. الذئاب والحيوانات الأخرى تختبئ الآن في أوكارها.

فانفجر يديغاي:

- يا لك من سافل. لا فارق عندك إن فطست، وأنت فعلاً ستفطس هنا – وضربه على وجهه.

فتشابكا ولكما بعضهما. بيد أن وقاد القطار قفز من القطار وفرق بينهما في الوقت المناسب.

هكذا كان قازانغاب. اليوم لا تجد مثله. لم يعد يوجد «قازانغابات». ها نحن نحمل آخرهم لدفنه. بقي أن يدفنوا المرحوم تحت التراب مع كلمات الوداع، وهكذا... آمين.

مع هذه الفكرة الأخيرة كرر يديغاي بداخله الصلوات شبه المنسية لكي يصحح ترتيب كلماتها المعروفة وليحيي في ذاكرته بشكل أدق تسلسل أفكارها الموجهة إلى الله، إذ أنه هو الوحيد الذي لا يرى، القادر على التوفيق في

الوعي البشري بين ما لا توفيق بينهما: البداية والنهاية، الحياة والموت. ولذلك صيغت الصلوات. فالصوت – مهما صرخت – لن يصل إلى الله، ولن تسأله لماذا رتبت الأمور هكذا – حياة وموت؟. هكذا يعيش الإنسان منذ خلقت الدنيا. وهو يرضخ لهذا دون موافقة. وهذه الصلوات أيضاً لم تتبدل منذ تلك الأيام ومضمونها ما يزال نفسه، هدفها أن لا يتذمر الإنسان سدى وأن يتعزى. لكن هذه الكلمات صقلت خلال آلاف السنين مثل سبيكة الذهب فظلت خلاصة الكلمات التي يجب أن يقرأها الحي على الميت. هذه هي الطقوس.

وفكرا أيضاً أنه بغض النظر عن وجود الإله وعدم وجوده، فالإنسان يتذكره في غالب الأحيان عندما يقع في ضائقة، مع أن ذلك ليس مستحسناً. ولهذا قيل أن من لا يؤمن لا يذكر الله إلا إذا آلمه رأسه. أكان الأمر كذلك أم لم يكن فحفظ الصلوات أمر ضروري.

نظر يديغاي العاصف إلى مرافقيه الشباب وتحسر وأسف – لا أحد منهم يعرف أية صلاة. كيف سيدفنون بعضهم؟ ما هي الكلمات التي تشمل بداية ونهاية الحياة والتي سيختمون بها رحيل الإنسان إلى الموت؟ «وداعاً أيها الرفيق، سنظل نذكرك»؟ أو أية سخافة أخرى؟

لقد قدر له ذات مرة أن يحضر جنازة في مركز المحافظة. وما أشد ما استهجن يديغاي العاصف ما رآه هناك. في المدفن صاروا – تماماً كما لو أنهم في اجتماع ما – يخطبون أمام الراحل وهو في قبره، والخطباء يقرؤون كلماتهم من الأوراق ويتكلمون عن نفس الشيء – ماذا كان يعمل، ما هي المراكز التي شغلها، وكيف كان يعمل. من كان يخدم وكيف كان يخدم، بعد ذلك عزفت الموسيقى وكوموا الزهور على القبر. ولم يتبرع أي منهم ليقول شيئاً عن الموت، كما جاء في الصلوات التي تكلل وعي الناس منذ أقدم العصور في هذا التناوب بين الحياة والموت، وكأن أحداً لم يمت قبل الآن ولن يموت بعد الآن. لقد كان هؤلاء البؤساء خالدين! هذا ما أعلنوه معارضين كل ما هو معروف: «لقد رحل إلى الخلود!».

كان يديغاي يعرف المكان جيداً، إضافة إلى أن بصره كان يمتد بعيداً وهو الراكب على ظهر قارانار العاصف العالي. كان يحاول سلوك أكثر الطرق مباشرة إلى انابيت عبر صاروزيكي سامحاً بالانحراف عنه فقط كي يمكن الجرارات من تجنب الحفر والأخاديد.

سارت الأمور كلها كما كان مخططاً لها. اجتازوا ثلث الطريق لا مسرعين ولا مبطئين... وقارانار العاصف يخب بخطى لا تعرف الكلل ملتقطاً بدقة توجيهات صاحبه، وفي أثره يسير مقرقعاً الجرار والعربة المقطورة ووراء العربة كانت تسير الحفارة الآلية ذات العجلات «بيلوروس».

ولكن، مع ذلك، كانت تنتظرهم ظروف لم يتوقعوها. كانت ذات علاقة داخلية – مهما كان هذا القول مستغرباً – بتلك الأمور التي كانت تجري في المطار الكوني صاري – اوزبك...

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» تقبع في تلك الساعة في مكانها، في نفس المنطقة من المحيط الهادئ، إلى الجنوب من جزر اليوت، على بعد متماثل تماماً عن فلادرقوستوك وسان فرانسيسكو.

الطقس في المحيط لم يتغير. خلال النصف الأول من النهار كانت الشمس تصب نورها المبهر على رحاب المياه البراقة، ولم تكن تلاحظ في الأفق أية علائم للتغير في الطقس.

على حاملة الطائرات نفسها كانت كل أجهزة الخدمة تعمل في جو متوتر – في استعداد عملي تام، بما في ذلك جناح الطيران وجهاز الأمن الداخلي، بالرغم من عدم وجود أية أسباب محددة لهذا التوتر في الوسط المحيط بالسفينة عملياً. فالأسباب كانت موجودة خارج نطاق المجرة.

لقد أوقعت المعلومات التي وصلت إلى متن «كونفينتسيا» من الرائدين الموازيين الموجودين على كوكب صدر الغابة عبر مدار «ترامبلين»، أوقعت

قادة اوبتسينوبر وأعضاء اللجان المطلقة الصلاحية الخاصة في ارتباكٍ واضطراب تامَّين. وقد كانت البلبلة قوية لدرجة أن الطرفين قررا في البداية عقد اجتماعات منفصلة لبحث الوضع المتشكل، انطلاقاً من المصلحة والموقع الخاص بكل طرف بالدرجة الأولى، وبعد ذلك يجتمعون من أجل المناقشة العامة.

لم يكن العالم يعرف بعد بهذا الاكتشاف الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الكون – لم يكن يعرف بوجود حضارة لا أرضية على كوكب صدر الغابة. حتى أن حكومات الجانبين التي أعلمت وبسرية مطلقة عن الحدث نفسه لم تكن تملك أية معلومات عن تطور الأحداث اللاحق. لقد كانوا ينتظرون وجهة نظر اللجان المختصة ذات الصلاحية التي تم الاتفاق حولها. في كل مواقع حاملة الطائرات كان يسود نظام صارم – لم يكن يحق لأحد، بما في ذلك لجناح الطيران، مغادرة مكانه مهما كانت الأسباب ولا يحق لأية سفينة أخرى الاقتراب من «كونفينتسيا» لمسافة خمسين كيلو متراً. كما غيرت الطائرات التي تطير في هذه المنطقة خط طيرانها كيلا تقترب أكثر من حدود ثلاثمائة كيلو متراً من مكان وجود حاملة الطائرات.

وهكذا قطع الاجتماع العام للجانبين، وكل لجنة صارت تبحث مع القائد المشترك الذي يمثلها في قيادة برنامج «ديمي أورغ» رسالة الرائدين الموازيين ١-٢ و٢-١، التي وجهاها من كوكب صدر الغابة الذي لم يسبق أن عرفه العلم.

كانت كلماتهم تصل من أبعاد فلكية لا يمكن تصورها:

استمعوا، استمعوا!

نحن نجري بثاً بين المجرات من أجل الأرض.

لا نستطيع أن نفسر كل ما لا اسم له على الأرض، ولكن هناك الكثير من الأشياء المشتركة.

إنّهم يشبهون المخلوقات البشرية. ناس مثلنا. تحية لهذا التطور الكوني. والتطور هذا صنع نموذجاً للمخلوقات البشرية حسب مبدأ شامل. إنّها نماذج رائعة من المخلوقات البشرية اللا أرضية. بشرة سمراء، وشعر أزرق وعيون ليلكية وخضراء ذات رموش بيضاء منفوشة.

شاهدناهم في لباس رواد الفضاء الشفاف تماماً عندما اقتربوا من محطتنا المدارية. ابتسموا لنا من مؤخرة السفينة ودعونا إليهم.

وخطونا من حضارة إلى أخرى.

انطلق الجهاز اللولبي الطائر بسرعة الضوء، التي لم نحس بها ونحن داخل السفينة، لقد تحركنا متخطين سير الزمن، إلى الكون. أول ما لفت انتباهنا وما أراحنا جداً هو عدم وجود حالة انعدام الوزن. كيف تم التوصل إلى هذا؟ ما زلنا عاجزين عن التفسير. من خلال المزج بين الكلمات الانكليزية والروسية نطقوا أمامنا بأول جملة «ويل كم ناش غالاكتيك(١)». عندها أدركنا أنه مع إظهار بعض العناية سنتمكن من تبادل الأفكار. هذه المخلوقات ذات الشعر الأزرق طويلة القامة – حوالي المترين. كانوا أربعة أو خمسة رجال وامرأة. لم تتميز المرأة عن الرجال بقامتها، بل بشكلها الأنثوي وببشرتها الأفتح لوناً.

كل سكان صدر الغابة زرق الشعور ذَوي بشرة سمراء بما فيه الكفاية يشبهون العرب الشماليين. شعرنا بالثقة نحوهم منذ اللحظات الأولى.

ثلاثة منهم ملاحو الجهاز الطائر والرجل الآخر والمرأة اختصاصيون باللغات الأرضية، وهما اللذان درسا وصنفا الكلمات الروسية والانكليزية عن طريق التقاط البث الفضائي ووضعا قاموساً «أرضياً». حتى لحظة لقائنا كانا قد استوعبا أكثر من ألفين وخمسمائة كلمة ومصطلح. وبمساعدة هذا

---

(١) جملة مركبة من كلمات انكليزية وروسية: «أهلاً بكم في مجرتنا».

الاحتياطي اللغوي بدأ تفاهمنا. هم يتكلَّمون لغة، ليست مفهومة بالنسبة لنا طبعاً – ولكن أصواتها تذكر باللغة الاسبانية.

بعد إحدى عشرة ساعة من مغادرتنا «باريتيت» خرجنا من إطار مجموعتنا الشمسية.

تم هذا الانتقال من مجرة إلى مجرة بشكل غير ملحوظ ولم يتميز بشيء. فمادة الكون واحدة. ولكن أثناء تحليقنا (ويبدو أن ترتيب ووضع أجسام المجموعة الأخرى كان في تلك اللحظات على ذلك النحو) بدأنا نرى نور هالة محمرة. واتسعت هذه الهالة وهي تتحرك في البعيد في فراغ فضائي لا حدود له. خلال هذه الفترة مررنا أمام عدد من الكواكب، كانت في ذلك الوقت مظلمة في أحد جوانبها ومضاءة في الجانب الآخر، ومر أمامنا في الفراغ المنظور عدد كبير من الشموس والأقمار.

شعرنا وكأننا ننتقل من الليل إلى النهار. وفجأة دخلنا في نور صاف مبهر لا نهائي، مصدره شمس هائلة جبارة في السماء التي لم يسبق لنا رؤيتها.

وشرحت لنا المرأة المختصة باللغة:

- ها نحن في مجرتنا. هذا هو «حاملنا» يضيء. قريباً سيبدو كوكبنا صدر الغابة.

وفعلاً، شاهدنا على ارتفاع لا يمكن قياسه في هذه الدنيا الجديدة شمساً جديدة علينا، تسمى «الحامل». الحامل بطاقته الإشعاعية وضخامته أكبر من شمسنا. بالمناسبة، نحن نميل إلى إرجاع أسباب جملة من الاختلافات الجيولوجية بين هذا العالم وعالمنا إلى تميز هذه النجمة وإلى كون اليوم هنا على كوكب صدر الغابة يمتد ثمان وعشرين ساعة.

ولكننا سنعلمكم بكل هذا في المرة التالية أو حين عودتنا إلى «باريتيت»، أما الآن فإليكم بعض المعلومات الهامة وبشكل سريع. مشهد كوكب صدر الغابة من الأعلى يذكر بالأرض، فهو محاط بنفس الغيوم الجوية. عندما اقتربنا إلى مسافة خمس أو ست آلاف متر عن سطح الكوكب «صدر الغابة» قام الصدر غابيون بتحليق إطلاعي خاص من أجلنا – كان مشهداً فريداً بجماله: سلاسل جبلية وهضاب مكسوة كلها بالخضرة الزاهية وبينها أنهار وبحار وبحيرات. وفي بعض مناطق هذا الكوكب وبشكل خاص في قطبيه توجد بقع هائلة من الصحاري الميتة، حيث تخيم عليها العواصف الرملية. لكن أكبر انطباع تركته لدينا المدن والقرى. فهذه الجزر من الأبنية والمنشآت وسط منظر صدر الغابة الطبيعي تشهد على وجود مستوى رفيع جداً من فن بناء المدن، حتى «مينهاتن» لا يمكن أن تقارن في شيء مع فن بناء المدن المتميز لدى سكان هذا الكوكب الزرق الشعور.

نحن نعتقد أن «الصدر غابيين» يعتبرون ظاهرة متميزة فريدة بين المخلوقات العاقلة في الكون. فترة الحمل عندهم أحد عشر شهراً صدر غابيا. طول الحياة عندهم عظيم. ورغم ذلك يرون أن أهم مشاكل المجتمع ومغزى الوجود هو إطالة الحياة. إنهم يعيشون بين مئة وثلاثين ومئة وخمسين سنة وسطياً، وبعضهم يعمر حتى المئتي سنة. وعدد سكان الكوكب أكثر من عشرة مليارات نسمة.

وضعنا الآن لا يسمح لنا أبداً أن نعلمكم بشكل منتظم بكل ما يتعلق بنمط حياة زرق الشعور ومنجزات هذه الحضارة، لذلك نعلمكم بشكل مجزأ عما أدهشنا أكثر من غيره في هذا العالم.

إنَّهم يستطيعون الحصول على الطاقة الشمسية، أو الأصح، الحاملية وتحويلها إلى طاقة حرارية وكهربائية ذات مردود عال جداً يفوق طرقنا

الهيدوتكنيكية، والمهم جداً أيضاً أنهم يركبون الطاقة من فوق حرارة الهواء بين الليل والنهار.

لقد تعلموا كيف يتحكمون بالمناخ. فعندما كنا نقوم بتحليق إطلاعي فوق الكوكب استطاع الجهاز الطائر تشتيت الغيوم والضباب بلحظات حيث كانت متراكمة وذلك بواسطة الإشعاعات. وقد عرفنا أنهم قادرون على التأثير على حركة الكتل الهوائية والتيارات المائية في البحار والمحيطات، وبهذا ينظمون عملية انتشار الرطوبة والنظام الحراري على سطح الكوكب.

إلا أن مشكلة معقدة تعترضهم، وهي مشكلة لم تعترضنا بعد على الأرض، هم لا يشكون من الجفاف لأنهم قادرون على التحكم بالمناخ، وهم لا يعرفون نقص المواد الغذائية، هذا مع وجود كمية هائلة من السكان التي تفوق الجنس البشري على الأرض بأكثر من الضعف. لكن جزءاً لا بأس به من الكوكب يصبح تدريجياً فغير صالح للحياة، ففي هذه الأماكن يموت كل ما هو حي. وهي ظاهرة ما يسمى بالجفاف الداخلي. لقد شاهدنا أثناء تحليقنا الاطلاعي عواصف رملية في القسم الجنوبي الشرقي من صدر الغابة. نتيجة لتفاعلات جبارة في أعماق الكوكب – ربما تشبه العمليات البركانية عندنا، غير أنها شكل من أشكال الانفجارات الشعاعية البطيئة – تتهدم الصخور والتربة السطحية وتفقد بنيتها وتحترق فيها كل المواد المكونة للتربة. في هذا الجزء من صدر الغابة توجد صحراء تساوي بمساحتها منطقة الصحاري (الصحراء الكبرى) وهي تهاجم سنوياً وخطوة خطوة المساحات الحية التي يعيش عليها سكان هذا الكوكب الزرق الشعور. هذه هي أكبر مآسيهم. فهم لا يعرفون بعد كيف يتحكمون بالعمليات التي تجري في أعماق الكوكب. وقد دفعوا بأفضل قواهم وبإمكانيات علمية ومادية هائلة لمحاربة ظاهرة الجفاف الداخلي الرهيبة هذه. في مجرتهم لا يوجد قمر ولكنهم يعرفون بوجود قمرنا وقد زاروه. وهم يفترضون أن قمرنا قد تعرض، ربما، لما يشبه ما يحدث

عندهم. عندما عرفنا هذا فكرنا بعض الوقت – المسافة من القمر إلى الأرض ليست بعيدة جداً. فهل نحن مستعدون للقاء؟ وما هي النتائج ذات الطابع الخارجي والداخلي التي يمكن أن تكون؟ ألن يفكر الناس بأنهم خسروا الكثير من تطورهم العقلي بسبب هذا الخلل الدائم الموجود على الأرض؟

في الوقت الحاضر تدور في الأوساط العلمية على صدر الغابة مناقشة تشمل الكوكب كله حول ما هو الأصح: مضاعفة الجهود لمحاولة كشف سر هذا الجفاف الداخلي والبحث عن الطرق الكفيلة بإيقاف هذه الكارثة الكامنة أم يجب سلفاً البحث في الكون عن كوكب يستجيب لمتطلباتهم الحياتية والبدء مع مرور الزمن بالانتقال الجماعي إلى مكان الحياة الجديد، بقصد نقل وبعث حضارة صدر الغابة. وحتى الآن ليس معروفاً ما هو الكوكب الجديد الذي تتجه أنظارهم إليه. على كل حال ما زالت أمامهم ملايين وملايين من السنين يعيشونها على كوكبهم الحالي، لكن المدهش أنهم منذ الآن يفكرون بالمستقبل البعيد كل هذا البعد بهذا الحماس والفاعلية، وكأن الأمر يمس بشكل مباشر الأحياء حالياً ألم تخطر ببال أحد منهم الفكرة الحقيرة القائلة ومن بعدي الطوفان؟ لقد خجلنا جداً – لأننا نفسنا فكرنا بشيء كهذا، عندما عرفنا أن قسماً كبيراً من إنتاج الكوكب بمجمله مخصص لبرنامج تجنب الجفاف الداخلي لجوف الكوكب. فهم يحاولون إقامة سد على امتداد آلاف عديدة من الكيلومترات – على طول حدود الصحراء الزاحفة ببطء. فعن طريق حفر آبار فائقة العمق يحقنون في الجوف مواد معدلة طويلة مدى الفاعلية. يفترضون أنه سيكون لها التأثير الضروري على تفاعلات الكوكب الجوفية.

من الطبيعي أنه توجد عنهم، ويجب أن تكون، مشاكل اجتماعية، وهي التي تجهد العقل منذ الأزل وهو يحمل صليبه الثقيل. إنها مشاكل من النمط الأخلاقي والمعنوي والعقلي. من الواضح تماماً أن الحياة المشتركة لعشرة مليارات نسمة لن تسير بيسر وسهولة مهما كانت درجة الرفاه التي توصلوا

إليها. ولكن أكثر ما يثير العجب أنهم مع هذا لا يعرفون الدولة كدولة ولا يعرفون الأسلحة ولا يعرفون ما هي الحرب. ويصعب علينا الحكم هنا، إذ ربما قامت عندهم حروب في ماضيهم التاريخي، وكانت عندهم دول ونقود وكل ما يرافق ذلك من أنواع العلاقات الاجتماعية، إلا أنهم حالياً لا يحملون أي تصور عن مؤسسات مثل الدولة، ولا عن أشكال الصراع هذه، مثل الحروب وإذا حاولنا تفسير مغزى الحروب التي لا معنى لها على الأرض ألن يبدو لهم هذا عديم المعنى، لا بل أسلوباً وحشياً لحل المشاكل؟

كل حياتهم هنا منظمة على أسس مغايرة، ليست مفهومة تماماً ولا هي يسيرة المنال بالنسبة لنا بسبب نمط تفكيرنا.

لقد وصلوا إلى مستوى من الوعي الجماعي الكوكبي الذي تنتفي معه الحرب كلياً كطريقة للصراع مما يجعلنا تفترض أن هذا الشكل من الحضارة هو، على الأغلب، أكثر الأشكال تقدماً في كل الوسط الكوني الذي يمكن تصوره. ربما يكونون قد توصلوا إلى درجة من التطور العلمي أصبحت معه انسنة الزمان والمكان الهدف الرئيسي لنشاط المخلوقات العاقلة وبهذا يكون هذا الهدف استمراراً للسير بالعالم إلى مراحل أعلى وأحدث من التطور لا نهائية.

نحن لا نريد هنا أن نقارن بين ما لا يقارن بينه. فمع مرور الزمن سيتوصل الناس على أرضنا إلى مثل هذا التقدم العظيم. كما أن لدينا ما نفخر به حتى الآن، ومع ذلك لا تفارقنا تلك الفكرة التي تضطهدنا: ماذا لو ظلت البشرية على الأرض في تيهها المأساوي مقتنعة نفسها بأن التاريخ هو تاريخ الحروب؟ وماذا لو كان طريق التطور هذا خاطئاً من بدايته وطريقاً مسدوداً؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل ستجد البشرية الوقت لتمتلك الشجاعة على الاعتراف بهذا، ولتتجنب الجائحة الشاملة؟ لو اختارَنا القدر لنكون أول الشهود على الحياة الاجتماعية اللاأرضية، نحس بأحاسيس معقدة هي الخوف على

مستقبل أهل الأرض والأمل فيه ما دام يوجد في العالم مثال على الحياة الجماعية العظيمة التي تكمن حركتها إلى الأمام في أشكال من التناقضات تختلف عن أشكال التناقضات التي تحل بالحروب...

الصدر غابيون يعرفون بوجود الأرض منذ آماد بعيدة جداً، بالنسبة لهم، في هذا الكون، وهم مفعمون بالرغبة بإقامة اتصال مع أهل الأرض وهذا ليس فقط بدافع حب المعرفة الطبيعي، ولكن بالدرجة الأولى حسب اعتقادهم – من أجل سيادة ظاهرة العقل الفريدة، من أجل تبادل تجارب الحضارة، من أجل عصر جديد في تطور الفكر والروح لدى أصحاب العقول الكونيين.

في كل هذا يستشرفون أكثر بكثير مما يمكن التفكير به، واهتمامهم بأهل الأرض يمليه عليهم اعتقادهم أن توحيد الجهود العامة لهذين الفرعين من فروع العقل الكوني هو الطريق الرئيسي لضمان استمرار الحياة في الطبيعة إلى ما لا نهاية، آخذين بعين الاعتبار أن أية طاقة حتمية النضوب وأن أي كوكب محكوم عليه بالموت مع مرور الزمن... فهم مهتمون بمشكلة «نهاية الكون» بعد مليارات السنين ويضعون منذ الآن مشاريع كونية لتنظيم قاعدة جديدة للالتقاء والتعايش بين كل ما هو حي في الدنيا..

وبما أنهم يمتلكون أجهزة طائرة بسرعة الضوء فإنهم قادرون الآن على زيارة أرضنا، ولكنهم لا يريدون القيام بهذا دون موافقة أهل الأرض ودعوة منهم. فهم لا يريدون اقتحام الأرض ضيوفاً غير مدعوين. لذلك أفهمونا أنه منذ زمن طويل وهم يبحثون عن وسيلة للتعارف، ومنذ تحولت محطاتنا الفضائية إلى مواقع طويلة الإقامة على المدارات أدركوا أن موعد اللقاء يقترب وأن عليهم المبادرة. واستعدوا لذلك بشكل متقن وصاروا ينتظرون اللحظة المناسبة، وكانت هذه اللحظة من نصيبنا لأننا نحن الذين وجدنا في هذا الموقع المتوسط – في المحطة المدارية...

لقد اثار وجودنا على كوكبهم ضجة لها مسوغاتها. فبهذه المناسبة أطلقت في الأثير منظومة من الاتصال التلفزيوني الشامل التي لا تطلق إلا في الأعياد الكبيرة. وقد كنا نرى في الجو المضاء المحيط بنا كل الوجوه والأجسام وكأنها حقيقية قريبة منا، مع أنها تقع على مسافة آلاف وآلاف الكيلو مترات وكان بإمكاننا في الوقت نفسه أن نتبادل اللقاء وأن نرى بعضنا البعض وجهاً لوجه وأن نبتسم ونتصافح ونتحادث بفرح وضحك صاخبين، وكأننا على تماس مباشر مع بعضنا. ما أجمل سكان صدر الغابة وما أكثر الاختلاف بينهم، حتى لون الشعر الأزرق يتماوج ما بين الأزرق القاتم والأزرق اللازوردي، والشيوخ فيهم يشيبون كما يشيب شيوخنا. أنماطهم السلالية أيضاً متباينة إذ أنهم من فئات عرقية مختلفة.

سنحدثكم عن كل هذا وعن أشياء أخرى لا تقل إثارة حين عودتنا إلى «باريتيت» أو إلى الأرض. أما الآن فعن أهم شيء: يرجونا الصدرغابيون أن ننقل عبر أجهزة الاتصال في «باريتيت» رغبتهم بزيارة كوكبنا في الوقت الذي يختاره أهل الأرض، وحتى ذلك الحين يقترحون الاتفاق حول برنامج لإقامة محطة وسيطة بين المجرات تكون في البداية مكاناً للقاءات الأولية ومن ثم تصبح قاعدة دائمة على طريق الرحلات المتبادلة. وقد وعدناهم بإعلام أبناء كوكبنا بهذه الاقتراحات. إلا أن ما يقلقنا بهذا الصدد هو أمر آخر.

هل نحن، أبناء الأرض، مستعدون لمثل هذه اللقاءات بين المجرات، وهل نحن، كمخلوقات مفكرة – على درجة من النضوج جديرة بهذا. وهل سنقدر مع كل ما بيننا من فرقة وتناقضات أن نقف موقفاً موحداً مانعينَ أنفسنا صلاحية تمثيل الجنس البشري كله وتمثيل الأرض كلها؟ نتوسل إليكم – تجنباً لانفجار التنافس والصراع على أولوية كاذبة – أن تحيلو أمر اتخاذ القرار في هذا الموضوع إلى هيئة الأمم المتحدة فقط. ونرجوكم عدم إساءة استخدام حق «أو ربما إلغاء هذا الحق في هذه المرة». إنه لما يؤلمنا بمرارة أن نفكر في

هذه الأمور ونحن خارج نطاق مجرتنا. ولكننا من أهل الأرض ونعرف موطننا – كوكب الأرض.

وأخيراً – عن نفسنا ومرة أخرى عن تصرفنا: نحن ندرك مدى الارتباك والإجراءات الطارئة التي نجمت عن اختفائنا من المحطة المدارية. إننا آسفون جداً لأننا سببنا لكم هذا القلق. لكن هذا الحدث كان الحدث الفريد من نوعه في الممارسة العالمية، إذ أننا لم نستطع ولم يكن يحق لنا أن نرفض أكبر إنجاز في حياتنا. وبما أننا أناس خاضعون لنظام صارم، فقد كان علينا أن نخالف النظام من أجل هذا الهدف.

فلنكن نحن المسؤولين عن هذا ولنتحمل نحن العقاب المناسب، ولكن انسوا الآن هذا. اسمعوا وعوا. لقد أرسلنا لكم إشارة من الكون. ونحن نعطيكم هذه الشارة ومن مجموعة لم يسبق لنا معرفتها قبل الآن من إحدى المجرات – من مجموعة النجم «الحامل». الصدرغابيون الزرق الشعور هم مبدعو أسمى الحضارات المعاصرة. واللقاء بهم يمكن أن يحدث تحولاً هائلاً في كل حياتنا وفي مصير الجنس البشري. هل ستكفينا الجرأة لهذا ولمراعاة مصالح الأرض، طبعاً، وبالدرجة الأولى؟....

سكان الكوكب الآخر لا يهددوننا بشيء، أو هذا ما نراه على أقل تعديل. ولكننا إذا اقتبسنا تجربتهم يمكننا أن نحقق انقلاباً في حياتنا ابتداء من طريقة استحصال الطاقة من المحيط المادي في العالم حتى المقدرة على الحياة بلا أسلحة وبلا عنف ولا حرب. يبدو لكم مجرد سماع هذه الأخيرة نوعاً من الوحشية، ولكننا نثبت لكم رسمياً أن حياة المخلوقات العاقلة على كوكب صدر الغابة مبنيةٌ على هذا الأساس، وأنهم توصلوا إلى هذا الإنجاز – الكنز وهم يعيشون في موطن جيولوجي شبيه في كتلته بكوكبنا الأرض. وبما أنهم أصحاب نموذج كوني عالي التحضر في تفكيره فهم على استعداد لإقامة اتصال مع إخوتهم في العقل، مع أهل الأرض، بالشكل الذي يتفق ومتطلبات وكرامة الطرفين.

إننا، إذ أثار اهتمامنا وهزنا اكتشاف حضارة لا أرضية، نتعطش للعودة سريعاً لكي نعلم الناس بكل ما كنا شهود عيان عليه ونحن خارج نطاق المجرة، على أحد كواكب المجموعة الحاملية.

بعد ثمان وعشرين ساعة أي بعد يوم كامل من هذا الاتصال بالراديو ننوي أن ننطلق على الطريق المداري إلى «باريتيت». وعند وصولنا إلى باريتيت سنضع أنفسنا كلية تحت تصرف «اوبتسينوير».

والآن إلى اللقاء. قبل انطلاقنا إلى المجموعة الشمسية سنعلمكم بموعد وصولنا إلى «باريتيت».

هكذا نختتم رسالتنا الأولى من كوكب صدر الغابة. إلى لقاء قريب. نرجوكم أن تبلغوا أسرنا ألا يقلقوا.

رائد الفضاء الموازي ١-٢

رائد الفضاء الموازي ٢-١»

انتهى الاجتماع المنفصل للجان الخاصة مطلقة الصلاحية على ظهر حاملة الطائرات «كونفينتسيا»، المكرس لدراسة الحدث الطارئ على المحطة المدارية «باريتيت»، انتهى بأن سافرت اللجنتان بكامل أعضائهما للتشاور مع الجهات العليا. انطلقت طائرة من على متن حاملة الطائرات واتجهت باتجاه سان فرنسيسكو، وبعد بضع دقائق انطلقت طائرة أخرى في الاتجاه المعاكس إلى فلاديفوستوك.

وحاملة الطائرات «كونفينتسيا» ما تزال في مكانها في منطقة تواجدها الدائم – في المحيط الهادئ، إلى الجنوب من جزر آليوت... وعليها كان يسود نظام صارم. كل واحد كان على رأس عمله مستعداً يقظاً... والكل كانوا صامتين...

القطارات في هذه النواحي كانت تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

وعلى جانبي الطريق الحديدية في هذه النواحي كانت تمتد مساحات صحراوية – صارى أوزيكي والأراضي في السهوب الصفراء.

تم اجتياز ثلث الطريق إلى انابيت. والشمس التي كانت ترتفع بسرعة فوق الأرض في البداية تبدو الآن وكأنها تسمرت في نقطة واحدة فوق صاروزيكي. إذن حلت الظهيرة. وبدأت لفحة الظهر الكاوية.

افترض يديغاي العاصف وهو ينظر تارة إلى ساعته وتارة إلى الشمس وتارة أخرى إلى السهب المكشوف المنبسط أمامه، افترض أن كل شيء يسير كما يجب. كان يهتز في المقدمة على جمله وخلفه تسير الجرار مع العربة المقطورة وخلف العربة الحفارة ذات العجلات «بيلوروس» والكلب الأصهب جولبارس يعدو إلى جانبهم.

«لقد ثبت أن رأس الإنسان لا يمكنه التوقف عن التفكير لحظة واحدة. هكذا ركبت هذه القطعة المجنونة – شئت أم أبيت، تظل الأفكار تتولد واحدة من الأخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية، على الأغلب إلى أن تموت!». لقد وصل يديغاي إلى هذا الاكتشاف المضحك إذ انتبه لنفسه، أنه طوال الوقت يفكر دون توقف. أفكار تتلوها أفكار، كما في البحر: الموجة تتلوها الموجة. في طفولته كان يجلس ساعات وهو يراقب كيف كانت تتولد الأمواج عندما يكون الطقس عاصفاً في عرض بحر آرال وتجري بيضاء هائجة، وكيف كانت تقترب بذؤاباتها المتراقصة، متوالدة واحدة من الأخرى. في هذه الحركة كانت تحدث في الوقت نفسه الولادة والموت ثم الولادة من جديد والخمود في جسد البحر. عندها كان يتمنى وهو صبي أن يتحول إلى نورس ليطير فوق الأمواج وفوق الرذاذ البراق ليرى من الأعلى كيف تعيش هذه المياه العظيمة.

سهب صاروزيكي المكشوف بحزن قبيل الخريف وخطوات الجمل الإيقاعية قادت يديغاي العاصف إلى سلسلة من الأفكار التي تراود المرء أثناء السفر فاستسلم لها دون مقاومة، بما أن الطريق ما زالت طويلة ولا شيء

يمنع من استمرارها. كان جسم قارانار يزداد دفء كعادته في الرحلات الطويلة، وقد بدأت تنطلق منه رائحة الجسد المجهد شديدة تهف إلى الأنف منطلقة من شعر لبدة الجمل ورقبته. وضحك يديغاي في سره «هكذا، إذن، كلك تسبح في العرق آه يا وحش، يا لك من زير. مجنون أنت، مجنون».

فكر يديغاي أيضاً بالأيام الخوالي، بتلك الأمور والأحداث التي دارت عندما كان قازانغاب ما يزال معافى قوياً، ومع سلسلة الذكريات تلك انهال عليه وبغير مناسبة ذلك الحزن المرير القديم. فلم تساعده الصلوات التي صار يرددها بصوت مسموع مرة بعد مرة، كي يطرد ويخبئ هذا الألم الذي عاوده. لكن روحه لم تطاوعه. فتكدر يديغاي العاصف وصار يتودد دون داع إلى جمله الذي غذ السير قدماً مربتاً على خاصرتيه، ودفع بقبعته إلى مقدمة رأسه ممتنعاً عن الالتفاف إلى الجرارات التي كانت تسير خلفه. فليسيروا في أثري. لن يتخلفوا، ما شأنهم – وهم شباب أغضة العود – بتلك القصة القديمة، التي لم يتحدث بها حتى لزوجته، والتي عالجها قازانغاب، كالعادة، بنزاهة وحكمة. فهو وحده الذي كان قادراً على معالجتها، ولولا ذلك لهجر يديغاي نقطة أم العواصف منذ زمن بعيد...

في آخر تلك السنة، عام واحد وخمسين، في الشتاء جاءت إلى نقطة أم العواصف عائلة مؤلفة من الزوج والزوجة وطفلين – صبيين. كان عمر الصبي الكبير داول حوالي الخمس سنوات، والصغير – ارميك – ثلاث سنوات. أبو طالب كان من أتراب يديغاي. عندما كان شاباً صغيراً قبل الحرب عمل لمدة سنة واحدة في مدرسة قروية. وفي صيف عام واحد وأربعين سيق إلى الجبهة منذ أول أيام الحرب. تعرف إلى ظريفة وتزوجا في آخر أيام الحرب أو بعد نهايتها مباشرة. هي أيضاً كانت قبل انتقالهم معلمة للصفوف الأولى. ودفعهم القدر مجبرين إلى صاروزيكي، إلى أم العواصف.

لقد صار معروفاً مباشرة أنهم لم يأتوا إلى قفار صاروزيكي عن طيب خاطر أو لأنهم أحبوا الحياة فيها. فأبو طالب وظريفة كانا قادرين على إيجاد عمل في أي مكان آخر، لكن الواضح أن ظروفهما ترتبت بشكل لم يعد معه أمامهما إلا هذا المخرج. ظن أهل أم العواصف في البداية أنهما لن يمكثا هنا طويلاً ولن يحتملا، بل سيهربان إلى أي مكان آخر. فغيرهما كثيرون جاؤوا إلى أم العواصف وهجروها. يديغاي وقازانغاب كانا أيضاً يحملان مثل هذا الرأي. ورغم ذلك كان الموقف من عائلة أبي طالب، ومنذ البداية، موقف احترام وتقدير. إنَّهم ناس جيدون ومهذبون، يعيشون مأساة. عملا كالجميع – الزوج وزوجته. كانا يحملان العوارض بنشاط وكانت تجمد العواصف الثلجية أوصالهما، وبشكل عام كانا يقومان بكل ما يفترض أن يقوم به عامل الطرق الحديدية. يجب القول هنا أن هذه الأسرة كانت أسرة **جيدة متفاهمة متحابة،** برغم كونها أسرة بائسة لأن أبا طالب، كما ثبت، كان أسيراً عند الألمان. في تلك الفترة كانت حماسة سنوات الحرب قد انحسرت، ولم يعودوا يقفون من أسرى الحرب السابقين موقفهم من الخونة والأعداء. وما شأن أهل أم العواصف، لذلك لم يعطوا بالاً لهذه القضية. كان الرجل أسيراً، وليكن. فالحرب انتهت بالنصر، وما أكثر ما ذاقه الناس من هذه التبدلات العالمية الرهيبة. هناك آخرون ما زالوا حتى الآن يجوبون العالم كالبؤساء وما زال شبح الحرب يلاحقهم... لذلك لم يضجر أهل أم العواصف القادمين الجدد بالأسئلة حول هذا الموضوع، فما الداعي إلى تسميم حياة الناس وهم قد عبوا، حتى دون هذا، من المرارة ما يطفح به كيلهم.

ومع مرور الزمن تصادق يديغاي وقازانغاب مع أبي طالب. كان إنساناً ذكياً، وما أعجب يديغاي فيه أن أبا طالب لم يَذُل رغم حالته التي يرثى لها، بل ظل محتفظاً بكرامته، ولم يكن يندب حظه، ولم يكن قادراً إلا أن يأخذ بعين الاعتبار حال الدنيا. وقد أدرك الرجل، كما يبدو، أن هذا هو قدره

المكتوب عليه. ويبدو أيضاً أن زوجته ظريفة كانت تحمل نفس هذه القناعة. فمع استسلامهما لفكرة ضرورة نيل الجزاء، كانا يريان مغزى الحياة في تلك الرقة والتقارب المتميزان القائمان فيما بينهما. وأدرك يديغاي فيما بعد أنهما يعيشان على تلك الرقة وذلك القرب وبهما يدافعان عن نفسيهما ويحمي كل منهما الآخر ويحميان أطفالهما من رياح الزمان العاتية. وبشكل خاص أبو طالب، فهو لم يكن يستطيع أن يعيش خارج أسرته يوماً واحداً. كان أبناؤه كل شيء بالنسبة له. كل دقيقة فراغ كان يمضيها معهما. علمهما القراءة والكتابة وكان يؤلف لهما الحكايات والأحاجي ويخترع لهما الألعاب المختلفة. عندما كان يخرج مع زوجته إلى العمل كان الأطفال يظلون وحيدين في البيت الخشبي في الفترة الأولى، لكن أوقوبالا لم تستطع أن تقف موقف المتفرج تجاه هذا الأمر، فصارت تأخذ الصبيان إليها. كان بيت يديغاي واوقوبالا دافئاً وحياتهم كانت إذ ذاك قد أصبحت أحسن بكثير مما هي عند القادمين الجدد. وهذا ما قرب بين الأسرتين، إذ كانت عند يديغاي إذ ذاك طفلتان أيضاً بنفس أعمار أبناء أبي طالب.

ذات مرة اقترح أبو طالب عندما عرج ليأخذ أطفاله بعد العمل على الطريق قائلاً:

- اسمع يا يديغاي، هات بناتك فأعلمهما مع أولادي. فأنا في كل الأحوال أعلم أبنائي. إنَّهم أصدقاء ويلعبون معاً. يقضون النهار عندكم، فليقضوا المساء عندنا. لماذا أقول هذا؟ الحياة هنا حياة إحباط وهي فقيرة طبعاً، لذلك يجب العمل معهم. هذا الزمن يتطلب المعرفة منذ الصغر. فالإنسان الحالي يجب أن يعرف منذ نعومة أظفاره ما كان يعرفه شاب كبير في الماضي، وإلا فلن يستطيع أن يكون متعلماً.

ولم يفهم يديغاي العاصف مغزى مساعي أبي طالب هذه إلا متأخراً، عندما وقعت المصيبة. عندها فقط أدرك أن أبا طالب في وضعه هذا لم يكن

يستطيع أن يفعل شيئاً لأطفاله بجهوده الخاصة وفي ظروف أم العواصف إلا هذا. كان يتحرق لأن يعطيهم أكثر ما بإمكانه من ذاته وبالشكل الذي يعرفه، وكأنه كان يريد بهذا أن ينطبع في ذاكرتهم وأن يعيش فيهم من جديد. في المساء عندما يعود أبو طالب وظريفة من العمل كانا يقيمان ما يشبه مدرسة – روضة أطفال لأطفالهما ولأطفال يديغاي. تعلم الأطفال الحروف والمقاطع، كانوا يرسمون ويلعبون ويتبارون، يصغون إلى الكتب التي يقرؤها لهم أهلهم وكانوا يتعلمون الأغاني معاً. لقد كان هذا الأمر ممتعاً لدرجة أن يديغاي نفسه صار يمر عليهم ويراقب كيف يقومون بكل هذا وبشكل جيد. وأحياناً كانت اوقوبالا تخطف رجلها إليهم بحجة شيء ما، وفي الواقع لكي تنظر إلى بناتها. كان يديغاي العاصف يحن وترق نفسه. هذا ما يعنيه أن يكون الإنسان متعلماً، معلماً. جميل أن ترى كيف يتعاملون مع الأطفال بمهارة، كيف يستطيع أن يكونوا هم أنفسهم أطفالاً كباراً. في تلك الأمسيات كان يديغاي يحاول عدم إزعاجهم، فيجلس بهدوء بعيداً عنهم، وعندما كان يحضر كان ينزع قبعته عن رأسه منذ العتبة.

- مساء الخير، ها هو تلميذكم الخامس قد جاء إلى روضة الأطفال.

واعتاد الأطفال على زياراته، وبناته كن سعيدات بهذا، وكن يبذلن كل جهدهن بحضور والدهن. كان يديغاي واوقوبالا يشعلان لهم المدفأة بالتناوب، كي يكون جو البيت مساء دافئاً ومريحاً للأطفال.

هذه هي العائلة التي التجأت في تلك السنة إلى أم العواصف. ولكن الغريب أن حفظ مثل هؤلاء الناس سَيِّئ دائماً.

مصيبة أبي طالب كوطيبايف تكمن في أنه لم يكن فقط في الأسر عند الألمان، ولكن، لحسن حظه أو لسوء حظه، هرب مع مجموعة من أسرى الحرب من معسكر للاعتقال في بافاريا الجنوبية ووصل عام ثلاثة وأربعين إلى فصائل المقاومة اليوغوسلافية. حارب أبو طالب في جيش التحرير

اليوغوسلافي حتى نهاية الحرب. هناك جرح وعالجوه، وقلد هناك أوسمة حربية يوغوسلافية، وكتبوا عنه في صحف المقاومة ونشروا صوره. وهذا ما ساعده كثيراً عندما بدؤوا بدراسة قضيته في لجنة التقصي والتنقية بعد عودته إلى وطنه عام خمسة وأربعين. لم يبق حياً من بين أولئك الذين هربوا من معسكر الاعتقال إلا أربعة وكانوا عشرين. وكان حظ هؤلاء الأربعة جيداً لأن لجنة التقصي السوفييتية زارت أماكن وجود وحدات جيش التحرير اليوغوسلافي وأعطى القادة العسكريون اليوغسلاف شهادات خطية عن المواصفات القتالية والأخلاقية لهؤلاء الأسرى السوفييت سابقاً، وعن مشاركتهم في حرب المقاومة ضد الفاشيين.

على كل حال، بعد شهرين من الاختبارات العديدة والاستجوابات واللقاءات المباشرة والانتظار والآمال واليأس عاد أبو طالب كوطيبايف إلى بلده كازاخستان دون تجريده من الحقوق المدنية ولكن، أيضاً، دون الامتيازات التي كان يستحقها المسرحون الطبيعيون. لم يغضب أبو طالب كوطيبايف. وعاد إلى عمله، إذ كان قبل الحرب معلماً لمادة الجغرافيا. وفي إحدى مدارس مركز الناحية تعرف إلى معلمة شابة للصفوف الأولى هي ظريفـــة. أجل تحدث أحياناً مثل حالات السعادة المشتركة هذه. نادرة، ولكنها تحدث. فالحياة لا تخلو من مثل هذا.

خلال تلك الفترة كانت ما تزال تمر صاخبة سنوات النصر الأولى. وبعد النصر والابتهاج بدأت تظهر في الأفق ذرات ثلج «الحرب الباردة»، ثم صارت تكبر هذه الذرات وتكبر. فانضغت نوابض وعي ما بعد الحرب في كل بقاع العالم وفي كل النقاط الموجعة...

في أحد دروس الجغرافية بدأ هذا النابض عمله. كان يجب أن يحدث هذا عاجلاً أم آجلاً، بهذا الشكل أو غيره، هنا أو في مكان آخر، ولكنه كان يجب أن يحدث وإِنْ لم يحدث معه فإنه سيحدث مع أي إنسان آخر مثله.

أثناء كلامه لتلاميذ الصف الثامن عن القسم الأوروبي من العالم حدثهم كيف أخرجوهم ذات مرة من معسكر الاعتقال في جبال الألب في بافاريا الجنوبية إلى مقالع الحجارة، وكيف استطاعوا تجريد الحرس من أسلحتهم والفرار إلى الفدائيين اليوغوسلاف، وحدثهم أنه اجتاز أثناء الحرب نصف أوروبا وأنه كان عند سواحل البحر الادرياتيكي والبحر الأبيض المتوسط وأنه يعرف طبيعة تلك المناطق جيداً ويعرف حياة السكان المحليين وأنه من الصعب كتابة كل هذا في الكتب المدرسية. كان هذا المعلم يعتقد أنه بهذا الحديث يغني المادة بملاحظات شاهد عيان حية.

كانت عصاه تمر على خارطة أوروبا الجغرافية المعلقة على اللوح ذات الألوان الزرقاء والخضراء والبنية. كانت العصا ترافق المرتفعات والسهول والأنهر ملامسة تلك الأماكن التي ما يزال يراها في أحلامه حتى الآن، الأماكن التي دارت بها المعارك يوماً بعد يوم، أصيافاً وشتاءات عديدة، ربما لامست العصا تلك النقطة غير المرئية حيث تدفق دمه، حيث اخترقت خاصرته رشقة مفاجئة من رشاش العدو فهوى ببطء على المنحدر مدفئاً بدمه الحشائش والصخور، هذا الدم الأحمر الذي كان بمقدوره أن يغطي كل الخارطة التدريسية. وتراءى له للحظة واحدة كيف يسيل هذا الدم الأحمر على الخارطة، كيف دارت إذ ذاك رأسه وغطت عينيه غباشة مظلمة، كيف تهاوت حوله الجبال وهو يصرخ طالباً المساعدة من صديقه البولوني الذي كان قد هرب معه في الصيف الماضي من مقالع الحجارة في بافاريا «كازيمير، كازيمير»، لكن كازيمير لم يسمعه، لأنه كان يظن أنه يصرخ بكل طاقته، بينما لم ينبس في الواقع بكلمة ولم يطلق أي صوت، ولم يعد إلى وعيه إلا وهو في مستشفى المقاومة بعد أن أعطوه دماً.

كان أبو طالب كوطيبايف يحدث التلاميذ عن الجزء الأوروبي من العالم وهو مستغرب من نفسه، من أنه بعد كل ما قاساه ما يزال قادراً أن

يتكلم بهذا الاهتمام، وبهذا التجرد، عما له علاقة بهذه الخارطة الجغرافية البسيطة فقط.

هنا قطعت يد ارتفعت بعنف في المقعد الأول حديثه:

- آغاي[١]، إذن أنت كنت في الأسر؟

كانت عينان قاسيتان تنظران إليه بوضوح بارد. كان وجه الفتى المراهق مرتداً إلى الخلف بعض الشيء، وهو يقف بحالة «استعداد»، وظل المعلم يتذكر طوال حياته – لسبب ما – أسنان التلميذ ذات العضة المنعكسة – إذ كانت أسنانه السفلي تغطي بسبب اندفاعها إلى الأمام الأسنان العليا.

- نعم. وماذا؟

- لماذا لم تطلق النار على نفسك؟

- لماذا يجب أن أقتل نفسي. علماً أنني جرحت.

- لأنه لا يجوز الاستسلام لأسر العدو. هناك أمر بهذا.

- أمر ممن؟

- أمر من الأعلى.

- من أين تعرف أنت هذا؟

- أنا أعرف كل شيء. يزورنا أناس من الما – آتا ومن موسكو أيضاً. إذن أنت لم تنفذ الأوامر العليا؟

- هل كان أبوك في الحرب؟

- كلا. كان يعمل في التعبئة.

- لذلك لن نستطيع أنا وأنت أن نتفاهم. يمكنني فقط أن أقول أنه لم يكن لدي مخرج آخر.

---

(١) آغاي: تعني بالكازاخية معلم، وهي ما يستخدمه التلاميذ لمناداة معلمهم. بالعربية: أستاذ.

- ومع ذلك كان عليك أن تنفذ الأمر.

- لماذا هذا التنعت؟

ونهض تلميذ آخر من مكانه:

- معلمنا حارب مع الفدائيين اليوغوسلاف. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- ومع ذلك كان عليه أن ينفذ الأمر. – أكد ذلك بشكل قاطع.

وهنا هاج الصف وانفجر صمت القبور: «كان عليه»، «لم يكن عليه»، «استطاع»، «لم يستطع»، «صح»، «غلط». فضرب المعلم بقبضة يده على الطاولة:

- كفوا عن الكلام. نحن في درس جغرافيا. أما كيف حاربت، وماذا حدث لي، فهذا يعرفه من يجب أن يعرفه وفي المكان الذي يجب أن يعرفه. والآن نعود إلى خارطتنا.

ومن جديد لم ير أحد في الصف تلك النقطة الصعبة التمييز على الخارطة التي أصابت فيها خاصرته رشقة رشاش، وهوى المعلم الواقف حاملاً عصاه، هوى ببطء على المنحدر مغطياً بدمه خارطة أوروبا ذات الألوان الزرقاء والخضراء والبنية...

بعد مرور بضعة أيام استدعي إلى مركز الناحية فاقترحوا هناك، دون أي كلام زائد، على كوطيبايف أن يقدم استقالته من العمل: فأسير الحرب السابق لا يملك الحق المعنوي بتعليم الجيل الصاعد.

فاضطر أبو طالب كوطيبايف ومعه ظريفة وبكرهما داول إلى الانتقال إلى ناحية أخرى بعيداً عن مركز المحافظة. وصار يعلم في مدرسة قروية. وعاشوا واستوت أمورهم وأصبحت المعلمة الشابة الموهوبة ظريفة رئيسة لقسم التعليم. ولكن هنا تفجرت أحداث عام ثمانية وأربعين المتعلقة بيوغوسلافيا. فلم يعودوا ينظرون إلى أبي طالب كوطيبايف على أنه أسير

حرب سابق، بل على أنه شخصية مشبوه فيها، عاشت فترة طويلة في يوغوسلافيا. وبالرغم من أنه برهن أنه حارب فقط مع الرفاق الفدائيين اليوغوسلاف، إلا أن هذا لم يؤخذ بعين الاعتبار. الكل كانوا يعرفون، بل كانوا يتعاطفون ولكن أحداً لم يتجرأ أن يتحمل أية مسؤولية من هذه الناحية فاستدعي مرة أخرى إلى المركز وتكررت قصة طلب الاستقالة...

وبعد الانتقال من مكان إلى مكان وصلت أسرة أبي طالب كوطيبايف في نهاية العام الواحد والخمسين، في منتصف الشتاء، إلى صاروزيكي، نقطة أم العواصف...

في العام الثاني والخمسين كان الصيف قائظاً فوق العادة. جفت الأرض ويبست لدرجة أن حراذين صاروزيكي لم تعد تعرف أين تذهب بنفسها، فكانت تلجأ غير خائفة من الناس إلى عتبات البيوت بحناجرها الخافقة بيأس وأفواهها المفتوحة – همها أن تحتمي من الشمس أينما كان. أما العقبان فقد طارت بحثاً عن البرودة إلى ارتفاعات كبيرة يصعب معها رؤيتها بالعين المجردة، وكانت تعلن عن وجودها بين الفينة والفينة بزعيق حاد رتيب، ثم تصمت بعد ذلك طويلاً في السراب المتموج الحار.

لكن الخدمة ظلت خدمة، والقطارات كانت تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق. كم من القطارات مر عبر نقطة أم العواصف دون أن يؤثر أي قيظ على حركة النقل على هذه الطريق الدولية العظيمة.

كل شيء كان يسير سيره الطبيعي. وكان يجب العمل على الطريق بمساعدة القفازات، إذ أن الأيدي العارية لم تكن قادرة على لمس الحجارة فيكف بها إذا لمست الحديد. الشمس تقف فوق الرؤوس كالمجرة. كانوا يحضرون الماء، كالعادة، بالصهاريج، وإلى أن يصل الماء إلى النقطة كان يسخن لدرجة الغليان. الثياب كانت تبهت ألوانها على الأكتاف خلال يومين. في الشتاء وفي أقسى أيام الصقيع كانت حياة الناس في صاروزيكي أسهل منها في هذا الحر.

حاول يديغاي العاصف تشجيع أبي طالب:

- الحال عندنا ليست دائماً هكذا. فقط هذه السنة. قال يديغاي هذا محاولاً تبرئة نفسه وكأنه هو المذنب في ذلك – خمسة عشر أو عشرون يوماً في أقصى حد ويتحسن الجو وتنخفض الحرارة. عليها اللعنة. لقد أضنت الجميع. عندنا هنا في صاروزيكي يحصل تحول في نهاية الصيف ويتغير الطقس فجأة. وعندها يصبح الجو لطيفاً ويظل هكذا طوال الخريف حتى الشتاء – في هذه الأثناء تنتشر البرودة وتسمن الماشية – أنا أعرف ذلك، إذ توجد عندي دلائل خاصة لذلك. في هذه السنة سيحصل هذا الانعطاف. اِصبر، فالخريف سيكون جيداً.

فابتسم أبو طالب مدركاً:

- أنت تضمن ذلك؟

- يمكنني القول تقريباً.

- شكراً، حتى على هذا. أنا أجلس الآن وكأنني في حمام. لكنني لا أتألم لنفسي. أنا وظريفة نستطيع أن نحتمل فقد احتملنا كثيراً من هذا. لكن ما يحزنني هو الأطفال... لا أطيق النظر إليهم...

كان أطفال أهل أم العواصف قد أضناهم الحر وأنهكهم. كانوا ينامون طباً، ولا يجدون مكاناً يحتمون فيه من الجو الخانق والحر القائظ. لا أشجار ولا سواقي مما يحتاجه عالم الأطفال. في الربيع عندما يعود سهب صاروزيكي إلى الحياة وتخضر المنطقة والمنحدرات والوديان لفترة قصيرة كان يجد الأطفال لهم مرتعاً. كانوا يلعبون بالكرة و«التخباية» ويعدون في السهب ويركضون وراء السوالق(١). وكان سماع أصواتهم الآتية من بعيد أمراً مفرحاً.

---

(١) حيوان صغير من فصيلة القوارض.

قضى الصيف على كل شيء. حتى الأطفال كثيرو الحركة همدوا في هذا الحر الذي لا يحتمل. كانوا يختبئون منه في ظل جدران البيوت، ولا يخرجون من هناك إلا عندما تمر القطارات. كانت تسليتهم الوحيدة عد القطارات: كم قطاراً مر من طرف إلى طرف وكم قطاراً مر بالاتجاه المعاكس، كم عربة الركاب وكم عربة للشحن. وعندما كانت قطارات الركاب تخفض سرعتها أثناء مرورها بالنقطة، كان الأطفال يظنون أن هذا القطار سيتوقف فيعدون خلفه لاهثين محتمين من الشمس بأيديهم، يحدوهم أملهم الساذج بالخروج من هذا الجحيم. وكان الصغار ينظرون بحسد وحزن طفولي إلى القطارات المغادرة. المسافرون في هذه القطارات التي فتحت أبوابها ونوافذها على مصراعيها كانوا يجنون من الحرارة وانحباس الهواء والذباب، ولكنهم كانوا واثقين سيصلون بعد يومين إلى حيث الأنهار الباردة والغابات الخضراء.

الكبار كلهم، الآباء والأمهات كانوا يخافون في ذلك الصيف على الأطفال. لكن أحداً. باستثناء ظريفة، لم يكن يعرف مدى معاناة أبي طالب إلا يديغاي. فقد دار بينه وبين ظريفة ذات مرة حديث حول هذا ولأول مرة. في ذلك الحديث تكشف شيء جديد في قدر هذين الاثنين.

كانوا في ذلك اليوم يعملون على الطرق ويمدون الحصى على الخط الحديدي. كانوا يرمون الحصى يَدسّونها تحت العوارض والقضبان وبذلك يدعمون الردم المنزاح بسبب الارتجاج. هذا العمل يجب تنفيذه من حين لآخر في الفترات الفاصلة بين مرور القطارات. كان العمل طويلاً مُضنياً في هذا الحر. في منتصف النهار تقريباً أخذ أبو طالب الصفيحة الفارغة وذهب باتجاه الصهريج ليحضر ماء ساخناً – على حد تعبيره – وفي الوقت نفسه ليلقي نظرة على الأطفال.

مضى سائراً على العوارض بسرعة غير آبه بلذعة الشمس. كان يسرع إلى الصغار ناسياً نفسه. كان قميصه الداخلي المهترئ الذي ضاع لونه لشدة الاتساخ، مُلقىً على عظام كتفيه، وعلى رأسه قبعة بالية من القش، وسرواله متهدل على جسمه النحيل، وفي قدميه حذاء عمالي قديم بلا رباط. كان يسير وهو يخبط بنعله على العوارض غير عابئ بشيء. عندها بدا خلفه قطار ولكنه لم يلتفت. فصرخ يديغاي:

- أي، أبو طالب. انزل عن الخط. هل طرشت؟

ولكنه لم يسمع ولم ينزل على المنحدر إلا عندما أطلق القطار صفارته. ولم ينظر إلى القطار الذي مرَّ بجانبه بسرعة كبيرة ولم ير كيف لوح له سائق القطار بقبضة يده.

في الحرب وفي الأسر لم يغز الشيب رأس أبي طالب لأنه كان طبعاً أصغر سناً، إذ ذهب إلى الجبهة في التاسعة عشرة من عمره، برتبة ملازم. وفي ذلك الصيف سرى الشيب في رأسه. إنَّهُ شيب صاروزيكي. وصار هذا البياض المتطفل يظهر هنا وهناك في فروة رأسه الكثيفة القاسية حتى سيطر على صدغيه. لو كان زمنه جيداً لبدا شاباً جميلاً وقوراً: جبهة عريضة وأنف كمنقار الصقر، تفاحة آدم بارزة لديه وفمه شديد صارم، وعيناه كبيرتان متطاولتان، كان جميلاً ذا قامة لا بأس بها. كانت ظريفة تمازحه بمرارة: «حظك سيء، أبو[١]، كان يجب أن تمثل دور عطيل في المسرح»، وكان أبو طالب يضحك: «لو حدث ذلك لخنقتك كالمجنون. فماذا تستفيدين؟».

أثار رد فعل أبي طالب البطيء على لحاق القطار به خوفاً وقلقاً حقيقيين عند يديغاي، فقال لظريفة شبه معاتب:

---

(١) الأسماء العربية تستخدم في بلدان آسيا الوسطى مجردة عن معانيها. هنا تنادي الزوجة زوجها بجزء من اسمه، الذي هو مجرد لفظ لا يرتبط بمعناه، ودون إدراك طبعاً للرابطة بين كلمة «أبو» والكلمة التي تليها.

- لو تقولين له. ما هذا؟ - السائق لن يتحمل المسؤولية. لا يجوز السير على الخط. المشكلة ليست هنا إنما ما ضرورة هذه المخاطرة؟

تنهدت ظريفة بألم ومسحت بالقفاز – العرق عن وجهها المحروق المسود.

- أنا أخاف عليه.

- لماذا؟

- أخاف، يا بيديكيه. لماذا نخفي عليك. أنه يفني نفسه من أجل الأطفال ومن أجلي. فأنا عندما تزوجته لم أُطِعْ أهلي. أخي الكبير ثارت أعصابه وصار يصرخ: «ستندمين مدى العمر، يا مجنونة. أنت لا تتزوجين بل تذهبين إلى البؤس. أبناؤك وأبناء أبنائك الذين لم يولدوا بعد محكوم عليهم بالبؤس. وحبيبك هذا، إذا كان بين أكتافه رأس، يجب ألا ينشئ أسرة، بل أن ينتحر. هذا أحسن حل بالنسبة له»، وتصرفنا كما شئنا. كنا نأمل: بما أن الحرب قد انتهت. فأية حسابات يمكن أن تكون بين الأحياء والموتى؟ منذ ذلك الحين ونحن نحاول الابتعاد عن أقاربه وأقاربي. في آخر مرة، كتب أخي تصريحاً بأنه حذرني وعارض زواجنا، وأنه لا شيء يجمع بينه وبيني وبشكل خاص بينه وبين إنسان أمضى فترة طويلة في يوغوسلافيا مثل أبي طالب كوطيبايف. وبعد ذلك بدأ كل شيء من جديد. أينما حشرنا نفسنا نرجع من العتبة. وها نحن الآن هنا وليس لنا أن نذهب أبعد من ذلك.

ثم صمتت وهي ترمي الحصى بسرعة وعنف تحت العوارض. وظهر أمامهم ثانية قطار قادم، فنزلا عن الطريق وأبعدا معهما الرفوش والقفف.

أحسن يديغاي أن عليه تقديم المساعدة بشكل من الأشكال عندما تكون هذه حال الناس، ولكنه لم يكن قادراً على تغيير شيء، فالمصيبة كانت بعيداً خارج حدود صاروزيكي.

- نحن نعيش هنا منذ سنين عديدة. وأنتم ستعتادون وتتكيفون. يجب أن تعيشوا.

أكد لها هذا وهو ينظر إلى وجهها، وفكر: «نعم، ما أمرك يا خبز صاروزيكي. عندما جاءت شتاء كان وجهها أبيضاً والآن بلون الأرض - ولاحظ بأسف الجمال الذي يتلاشى في عينيها... شعرها – كيف كان، والآن كيف كوته الشمس، التي لفحت حتى رموشها. وشفتاها تشققتا... حالها سيء جداً. لم تعتد مثل هذه الحياة. إلا أنها صامدة لا تتراجع. وإلى أين تتراجع الآن مع طفلين. مع ذلك فهي عظيمة...»

في تلك الأثناء مر هادراً على الطريق القطار التالي وكأنه رشقة رشاش ساخنة، مر مثيراً موجة من الهواء المحرق. وعادا مع أدواتهما إلى الخط ليتابعا العمل.

- اسمعي، ظريفة، - حاول يديغاي أن يرفع من معنوياتها لمعايشة الواقع. – وضع الأطفال هنا صعب طبعاً. لا أجادل في ذلك. فأنا نفسي يؤلمني قلبي عندما أنظر إلى أطفالنا. لكن القيظ لن يدوم مدى الحياة. سينحسر. ثم، إذا فكرنا، أنتم هنا لستم وحدكم في صاروزيكي. حولكم يوجد ناس، وفي أسوأ الأحوال، نحن هنا. ما الفائدة أن تعذبي نفسك ما دام الذي حدث قد حدث.

- هذا ما أقوله أنا له يا يديكيه. أنا أحاول بكل الطرق ألا أنطق بكلمة زائدة واحدة، أنا أفهم وضعه.

- حسناً تفعلين. هذا ما كنت أريد أن أقوله لك يا ظريفة. وكنت انتظر مناسبة لذلك. أنت نفسك تعرفين كل شيء. لا تؤاخذيني.

- يحدث أحياناً، طبعاً، أن لا أحتمل. أحزن على نفسي وعليه، وعلى الأطفال أكثر وأكثر. ومع أنه لا ذنب له في شيء، يشعر بنفسه مذنباً، لأنه أتى بنا إلى هنا، وأنه لا يقدر تغيير شيء. ماذا أقول. الحياة في نواحينا، بين

جبال وأنهار الاطاو مختلفة تماماً والمناخ غير هذا المناخ. ليتنا نستطيع إرسال الأطفال إلى هناك صيفاً. ولكن إلى من؟ ليس عندنا عجائز، فقد ماتوا مبكرين. الأخوة والأخوات والأقارب... وعليهم يصعب الحكم أيضاً. ليس لهم حاجة بكل هذا. في الماضي كانوا يتهربون منا. فكيف الآن؟ ما حاجتهم إلى أطفالنا؟. ونحن نتعذب ونخشى أن نعلق هنا مدى الحياة، مع أننا لا نعلن هذا صراحة. ولكنني أرى ما يعاني... ماذا ينتظرنا؟ الله وحده يعلم...

صمتا صمتاً ثقيلاً، ولم يعودا بعد ذلك إلى هذا الحديث. ظلوا يعملون ثم يمررون القطارات على الطريق ويعودون للعمل من جديد. ماذا بقي لهم غير هذا؟ كيف يمكن تعزيتهم؟ وكيف يمكن مساعدتهم في بلواهم؟. «طبعاً لن يطوفوا العالم. –فكر يديغاي – عندهم ما يعيشون منه فكلاهما يعمل. لا أحد يتمسك بهم قسراً، ولكن لا مخرج لهم من هنا، لا غداً ولا بعد غد».

واستهجن يديغاي من نفسه، من مرارته وتألمه لهذه الأسرة، وكأن قصتهم تمسه مباشرة. من هم بالنسبة له؟ بإمكانه أن يقول لنفسه أن هذه القضية ليست من مستوى تفكيره، وما شأنه بها؟، بل من هو كي يناقش ويحاكم الأمور التي لا علاقة له بها؟ عامل، ابن سهوب وأمثاله كثر في العالم. أهو من يجب أن ينزعج وأن يستاء وأن يشغل فكره بما هو عادل وغير عادل في الحياة؟. على الأغلب، هناك، حيث تجري كل هذه الأمور، يعرفون أكثر بألف مرة من يديغاي العاصف. هناك يرون الأمور بشكل أوضح مما يراها هو هنا في صاروزيكي. وهل هذه هي مهمته؟. ومع ذلك لم يستطع أن يستكين. ولسبب ما كانت نفسه تتألم من أجل ظريفة. لقد أسره وأعجبه إخلاصها وصمودها وصراعها الميئوس منه مع الشقاء. كانت تشبه العصفورة التي تحاول أن تحمي بأجنحتها العش من العاصفة. ولو كانت امرأة غيرها لبكت وبكت ثم استسلمت وخضعت لأهلها. أما هي فتتال عقاب الماضي على قدم المساواة مع زوجها. هذا الوضع بالذات هو الذي سبب،

رغم كل شيء، القلق ليديغاي، إذ أنه لم يكن بنفسه قادراً لا على حماية أطفالها ولا على حماية زوجها... كانت تمر بعد ذلك لحظات يشعر فيها بأسف مر لأن القدر شاء أن تسكن هذه الأسرة في أم العواصف. ما حاجته بكل هذه الآلام؟. لو لم يعرف ولم ير كل هذا لعاش بهدوء كالسابق.

*   *   *

- ٦ -

في النصف الثاني من النهار تحركت الأمواج في المحيط الهادي إلى الجنوب من جزر آليوت. كانت الريح الجنوبية الشرقية الآتية من القسم الأسفل من القارة الأميركية تكتسب سرعتها تدريجياً وكانت تحدد وتركز اتجاهها شيئاً فشيئاً. تحرك الماء في هذه الرحاب الواسعة وتحركت الأمواج التي صار يطوي بعضها البعض صفوفاً وسلاسل وهي تهتز وتصطفق. كان هذا ينبئ بهيجان طويل الأمد في المحيط، إن لم تكن عاصفة.

لم تكن هذه الأمواج في عرض المحيط لتشكل أي خطر على حاملة الطائرات «كونفينتسيا»، لذلك فهي لم تفكر بتغيير مكان وجودها. ولكن بما أنه كان يتوقع بين لحظة وأخرى هبوط طائرات اللجان مطلقة الصلاحية الخاصة، العائدة بسرعة بعد التشاور مع الجهات العليا إلى ظهر حاملة الطائرات، فقد فضلت الحاملة أن تتخذ وضعاً معاكساً لاتجاه الريح لكي تقلل من الميلان على الجانبين. كل شيء مر بسلام. وهبطت أولاً الطائرة القادمة من سان فرانسيسكو وتلتها الطائرة القادمة من فلاديفوستوك.

عادت اللجنتان بكامل أعضائهما الذين كانوا يحملون نفس الصمت والاهتمام. بعد خمس عشرة دقيقة جلسوا إلى طاولة جلسة مغلقة. بعد خمس دقائق من بداية عمل اللجان أرسلت بالشيفرة إلى متن المحطة الفضائية «باريتيت» رسالة سريعة بالراديو لنقلها إلى رائدي الفضاء الموازين ١-٢ و٢-١ الموجودين في مجرة الحامل: «إلى رائدي التقصي ١-٢ و٢-١ على المحطة المدارية «باريتيت»: حذروا رائدي الفضاء الموازيين ١-٢ و٢-١

الموجودين خارج نطاق المجموعة الشمسية من الإتيان بأي تصرف وليبقيا حيث هما حتى وصول تعليمات خاصة من «اوبتسينربر».

بعد ذلك، دون إضافة أية دقيقة باشرت اللجنتان الخاصتان مطلقتا الصلاحية عرض مواقف واقتراحات الطرفين لحل الأزمة الكونية.

حاملة الطائرات «كونفينتسيا» كانت تقف في مواجهة الريح وسطح أمواج المحيط الهادي المتراكضة. ولم يعرف أحد في العالم أن مصير الكوكب بمجمله يقرر الآن على ظهرها...

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق...

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

بقي حتى مدفن انابيت سفر حوالي الساعتين. وموكب الدفن يسير في صاروزيكي بنفس وضعه السابق. يديغاي العاصف يدلهم على الطريق متربعاً على جمله، في المقدمة. وقارانار يسير بخطواته الحثيثة العريضة ووراءه يسير في هذه الأراضي البور الجرار والعربة المقطورة التي جلس فيها إلى جانب المرحوم قازانغاب صهره زوج آيزادا وحيداً صابرا وخلفهم الحفارة «بيلوروس»، وإلى جانبهم كان يعدو بثقة وانهماك كالسابق الكلب الأصهب ذو الصدر العريض جولبارس متجاوزاً أحياناً ومقصراً أحياناً ومتوقفاً أحياناً أخرى لأسباب هامة.

كانت الشمس تلفهم مرتفعة في قبة السماء. لقد خلفوا وراءهم قسماً كبيراً من المسافة وصاروزيكي العظيم يبدي للنظر وراء كل مرتفع مساحات جديدة وجديدة من الأراضي الصحراوية التي تبدو في كل مرة ممتدة حتى خط الأفق البعيد. ما أعظم رحاب السهوب. في هذه الأماكن كان يعيش ذات يوم قوم جوان جوان سيئي الذكر، الذين جاؤوا واحتلوا أمداً طويلاً كل منطقة صاروزيكي تقريباً. في هذه المناطق كانت تعيش أيضاً شعوب رحل أخرى وكانت تدور بينهم باستمرار الحروب من أجل المرعى والآبار، كان ينتصر فيها هؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى. لكن المنتصرين والمنهزمين كانوا يظلون في هذه الأصقاع، بعضهم تتقلص أراضيهم والبعض الآخر يوسعون مساحاتهم. كان يليزاروف يقول أن صاروزيكي باعتبارها منطقة حيوية كانت تستحق ذلك الصراع. إذ ذاك كانت تهطل هنا كمية من الأمطار في الربيع والخريف، وكان الكلأ يكفي للكثير من قطعان الماشية الصغيرة والكبيرة. كان يأتي التجار إلى هنا وتدور التجارة وتعقد الصفقات. ولكن المناخ تغير هنا – على حد زعمه – بشكل حاد، فانقطعت الأمطار وجفت الآبار ومات الكلأ، تفرقت الشعوب والقبائل التي جاءت إلى صاروزيكي، أما الجوان جوان فقد اختفوا. اتجهوا نحو ايديل – هكذا كان يسمى نهر الفولغا – وانقطعت أخبارهم هناك. لا أحد يعرف من أين جاؤوا ولا أحد يعرف أين اختفوا. يقال أن اللعنة حلت عليهم، وعندما كانوا يجتازون بشكل جماعي في الشتاء نهر ايديل تكسر الجليد فجأة على سطح النهر فغرقوا جميعاً مع قطعانهم ومضاربهم تحت الجليد...

سكان صاروزيكي الأصليين وهم بدو رحل كازاخيون لم يتركوا إذ ذاك هذه البقاع وتمسكوا بتلك الأماكن حيث تمكنوا من استخراج المياه من آبار حفروها مجدداً. أكثر الأوقات حيوية بالنسبة لصاروزيكي كانت في سنوات ما بعد الحرب إذ ظهرت الآلات وناقلات الماء. ناقلة ماء واحدة كانت تكفي –

إذا كان السائق يعرف المكان جيداً – لإحضار الماء لثلاثة أو أربعة مراعي في اليوم. وقد فكر مستأجرو المراعي في صاروزيكي وهم المزارع التعاونية والمزارع الحكومية المجاورة، فكروا بإقامة مراكز ثابتة في صاروزيكي لتربية الماشية. قدروا وحسبوا كم ستكلف مثل هذه المنشآت، وحسناً فعلوا بأنهم لم يعجلوا، لأنه ظهرت في منطقة انابيت بشكل غير ملحوظ مدينة لا اسم لها سوى صندوق البريد. هكذا كانوا يقولون: ذهبت إلى صندوق البريد، كنت في صندوق البريد اشتريت من صندوق البريد، شاهدت في صندوق البريد... وكبر صندوق البريد ونما وأغلق في وجه الغرباء. ربطته طريق معبدة بالمطار الفضائي من جهة ومن الجهة الثانية بمحطة الطريق الحديدية. منذ ذلك الوقت بدأ السكن الصناعي في صاروزيكي. ولم يبق في تلك المنطقة من الماضي إلا مدفن انابيت القائم بين رابيتين توأمين متلامستين «ايكنيرتوبا» وكأنهما سناما جمل. وانابيت هو أقدس مدفن في كل ناحية صاروزيكي. كانوا يأتون إلى هنا قديماً من مناطق بعيدة للدفن وكان هذا يتطلب من الناس المبيت في السهب. لكن ذرية من دفن في انابيت كانت تفخر بحق بأنّها كرّمت ذكرى أسلافها. كانوا يدفنون في هذا المدفن أكثر الناس شهرة واحتراماً وهم الذين عاشوا طويلاً وعرفوا الكثير واستحقوا المجد الطيب قولاً وفعلاً. يليزاروف كان يعرف كل شيء وكان يسمي هذا المكان مدفن عظماء صاروزيكي.

من هذا المدفن كانت تقترب في ذلك اليوم جنازة غريبة من نوعها. جنازة على جمل وجرار يرافقها كلب – من نقطة الطريق الحديدية الموجودة في صاروزيكي – أم العواصف...

مدفن انابيت له تاريخه الخاص. فقد بدأت الحكاية من أن الجوان جوان الذين احتلوا في العصور القديمة صاروزيكي كانوا يعاملون أسرى الحرب

معاملة فظيعة القساوة. في بعض الحالات كانوا يبيعون عبيداً للمناطق المجاورة، وكان هذا من حسن حظ الأسير، إذ أن العبد المباع كان يهرب عاجلاً أم آجلاً ويعود إلى وطنه. لكن المصير الرهيب كان ينتظر أولئك الذين يتركهم الجوان جوان عبيداً لديهم. كانوا يقضون على ذاكرة العبد بعذاب فظيع وذلك بإلباسه «الشيري» على رأسه. هذا المصير كان يحل عادة بالشباب الصغار الذين يأسرونهم أثناء المعارك. كانوا أولاً يحلقون لهم شعر رأسهم تماماً وينتزعون كل شعرة من جذرها. وعندما تنتهي حلاقة الرأس يذبح الجوان الجوان وعم الجزارون المحنكون جملاً قوياً، وعندما يسلخون جلد الجمل كان أول ما يسلخونه هو جلد الرقبة الثقيل المتين، ويقطعون هذا الجلد إلى قطع يلصقونها مباشرة وهي دافئة على رؤوس الأسرى المحلوقة بمرهم لاصق سريع بشكل يشبه غطاء رأس السباحين في الوقت الحاضر. هذا هو إلباس «الشيري». من يتعرض لهذه الطقوس إمّا يموت غير محتمل هذا العذاب أو يفقد ذاكرته مدى الحياة فيتحول إلى إنسان مسلوب الإرادة – إلى عبد لا يذكر ماضيه. جلد الرقبة المأخوذة من جمل واحد يكفي لخمس أو ست «شيري». بعد إلباس «الشيري» يوضع على رقبة كل محكوم طوق خشبي بشكل لا يسمح معه أن يلامس رأسه الأرض. وهكذا كانوا ينقلونهم إلى مكان بعيد عن الناس كي لا يسمع الناس أصوات صراخهم الذي يقطع نياط القلب، ويتركونهم في أرض مكشوفة مقيدي الأيدي والأرجل تحت وهج الشمس، بلا ماء ولا طعام. كان هذا العذاب يستمر بضعة أيام. تحت حراسة دوريات مكثفة في مواقع معينة لمنع أبناء قبائل الأسرى من محاولة إنقاذهم وهم ما يزالون على قيد الحياة، إذا حاولوا. لكن هذه المحاولات نادراً ما كانت تقع لأن أي حركة ترى ببساطة في السهب المنبسط. وإذا ما حدث أن وصلت أنباء عن تحويل الجوان جوان فلاناً من الناس إلى «مسلوب» فإن أقرب الناس إليه لا يحاولون إنقاذه وافتداءه لأن هذا يعني أن يعيدوا إليهم خيال الإنسان السابق. لكن أماً نايمانية وحيدة، ظلت تذكرها الحكاية باسم نايمان أنا،

هي التي لم تستسلم لمصير ابنها. وهذه هي القصة التي تتحدث عنها الأسطورة الصاروزيكية. ومن هنا جاءت تسمية المقبرة «انابيت» أي «راحة نفس الأم».

كانت أكثرية من يتركون في الأرض المكشوفة لهذا العذاب المرير تموت تحت شمس صاروزيكي، ولا يبقى حياً إلا «مسلوب» واحد أو اثنان من أصل خمسة أو ستة. أولئك لم يموتوا من الجوع أو من العطش بل من العذاب اللا إنساني الذي لا يطاق، والذي يسببه جلد الجمل غير المدبوغ الذي يطبق ويضغط على الرأس. كانت «الشيري» تطبق تحت أشعة الشمس الحارقة، وتضغط بلا رحمة على رأس العبد المحلوق وكأنها طوق حديدي. في اليوم الثاني كان الشعر المحلوق يبدأ بالنمو ثانية، فيطول هذا الشعر الآسيوي السبط القاسي منغرزاً في الجلد غير المدبوغ، وفي أغلب الأحيان لا يجد الشعر لنفسه منفذاً فينثني وتنغرز رؤوسه في جلد الرأس ثانية مسبباً آلاماً كبيرة. هذا العذاب الأخير كان يترافق بتشوش العقل تماماً. في اليوم الخامس كان يأتي الجوان جوان ليروا أن ظل أحد من الأسرى على قيد الحياة. فإن وجدوا أحدهم حياً اعتبروا أن الهدف قد تحقق، فيسقونه ماء ويفكون قيوده ويعيدون إليه قوته تدريجياً ويوقفونه على رجليه. هذا الباقي حياً هو العبد «المسلوب»، الذي انتزعت منه الذاكرة عنوة، ولذلك فهو قيم جداً يساوي عشرة من العبيد الآخرين. حتى أنه كان يوجد قانون ينص على أنه في حال قتل عبد «مسلوب» خلال النزاعات فيما بينهم تكون فديته أكثر بثلاث مرات من فدية الرجل الحر منهم.

المسلوب لا يعرف من هو، ما هي قبيلته، ولا يعرف اسمه، لا يذكر طفولته ولا أمه ولا أباه – بكلمة واحدة «مسلوب» لا يعي وجوده كإنسان، وهو إذ جرد من «أنا» يعتبر من وجهة نظر مالكيه ذا أفضلية كبيرة. فهو في هذا يعادل مخلوقاً أبكم، لذلك يكون مطيعاً تماماً وغير خطير، لا يفكر أبداً

بالهرب. وأكثر ما يخافه مالك العبيد هو انتفاض العبد، ففي كل عبد يوجد متمرد كامن. لكن «المسلوب» استثناء فريد من نوعه – إذ أن دوافع التمرد وعدم الطاعة غريبة عنه، فهو لا يعرف مثل هذه الأحاسيس. لذلك لم تكن هناك ضرورة لحراسته ولا للشك في نواياه الخفية. المسلوب كالكلب لا يتعرف إلا على صاحبه، ولا يعاشر الغرباء. كل همه إشباع جوعه، ولا يعرف أية اهتمامات أخرى، لكنه ينفذ العمل المكلف به بشكل عشوائي وبدأب ومثابرة. كانوا يكلفون المسلوبين بتنفيذ أقذر الأعمال وأصعبها أو يشغلونهم بالأعمال الصعبة المملة التي تحتاج إلى قوة تحمل شديدة. والمسلوب وحده كان قادراً على احتمال خلو صاروزيكي الموحش من الناس وهو وحيد ملازماً باستمرار قطعان الجمال. والمسلوب الواحد كان يحل في مثل هذه الوحشة والانقطاع عن الناس محل عدد كبير من العاملين. يكفي أن يزود بالطعام وعندها يمكن أن يبقى، دون أدنى شك، في عمله صيف شتاء لا تثقله الوحدة ولا يستاء من الحرمان. أوامر صاحبه فوق كل شيء. لا يطلب شيئاً إلا الطعام والثياب القديمة لتحميه من برد السهوب.

أن تقطع رأس الأسير أو أن تأذيه أية أذية بقصد إرهابه أهون بكثير من أن تسلب الإنسان ذاكرته وتدمر عقله وتقتلع جذور ما يفترض أن يظل معه حتى يلفظ آخر أنفاسه، وما يجب أن يظل ملكيته الوحيدة التي يأخذها معه ولا يطالها أحد غيره. لكن الجوان الجوان الرحل الذين صوروا بتاريخهم المظلم أبشع أشكال البربرية تجرؤوا على جوهر الإنسان هذا. لقد وجدوا طريقة ليسرقوا من العبيد ذاكرتهم الحية معرضين الطبيعة البشرية الوحشية ليس أقسى منها في كل ما يمكن تصوره وما لا يمكن تصوره. وليس عبثاً أن تقول نايمان أنا بأسى ويأس مريرين وهي ترثي ابنها الذي حول إلى «مسلوب»:

«عندما سلبوا منك ذاكرتك، عندما عصروا، يا صغيري، لك رأسك، كما يعصر الجوز في كسارته، وحشروا جمجمتك في مكبس بطيء، في جلد

جمل، عندما طوقوا رأسك بطوق لا شبيه له فخرجت عيونك من مآقيها منسكبة كعصارة الخوف، عندما عذبك العطش في نار بلا دخان في صاروزيكي ولم تجد قطرة تسقط من السماء على شفتيك – هل كرهت الشمس التي تمنح الحياة للجميع وهل أصبحت بالنسبة لك نجمة عشواء وأكثر النجوم سواداً في الدنيا؟

عندما انطلق عويلك المضني إذ مزقك الألم وسط الصحراء، عندما كنت تصرخ وتتلوى مستغيثاً بالله طوال النهارات والليالي، عندما كنت تنتظر النجدة عبثاً من السماء، عندما كنت تختنق بالقيء الغزير الذي حملتك عليه عذابات الجسد، وتتضور في الغائط الكريه الخارج من الجسم الذي دوخه التشنج، عندما كنت تخبو في هذه الرائحة الكريهة فاقداً رشدك الذي التهمته غيوم الذباب هل لعنت بكل ما تقدر عليه الله الذي خلقنا جميعاً في هذا العالم وتركنا؟

عندما لف الظلام إلى الأبد عقلك الذي خربه العذاب، عندما فقدت ذاكرتك التي انتزعت منك بالقوة ارتباطها بالماضي، عندما نسيت في هذه الآلام نظرة أمك وصخب السواقي قرب الجبال، حيث كنت تلعب في أيام الصيف، عندما أضعت اسمك واسم أبيك في وعيك المسحوق، وأنطفأت ملامح من عشت بينهم وخبا اسم الفتاة التي كانت تبتسم لك بخجل، ألم تلعن وأنت تسقط في هاوية ضياع الذاكرة أمك لعنة فظيعة لأنها تجرأت وحملتك في رحمها وولدتك في هذه الدنيا من أجل هذا اليوم؟...»

تعود هذه القصة إلى تلك العصور، عندما كان الجوان جوان الذين طردوا خارج حدود رحل آسيا، واتجهوا نحو الشمال، يحتلون صاروزيكي ويخوضون الحروب المستمرة بهدف توسيع أملاكهم والاستيلاء على العبيد. في البداية كانوا يستفيدون من الغزو المفاجئ للأراضي المجاورة لصاروزيكي ويأخذون الأسرى بما فيهم النساء والأطفال ويسوقونهم جميعاً

إلى العبودية. لكن مقاومة الغزو الغريب ازدادت وبدأت الصدامات الحامية. لم يكن الجوان جوان ينوون مغادرة صاروزيكي، بل على العكس، كانوا يسعون إلى التثبت بقوة في هذه المساحات الشاسعة الصالحة لتربية الماشية. لم تستسلم القبائل المحلية لمثل هذه الخسائر ووجدت أن من حقها وواجبها أن تطرد الغزاة عاجلاً أم آجلاً. وفي كل الأحوال كانت تدور معارك صغيرة وكبيرة كان النجاح فيها متقلباً. ولكن كانت تتخلل هذه الحروب المضنية فترات من الهدوء.

في إحدى فترات الهدوء هذه روى تجار جاؤوا مع قافلة بضائع إلى أراضي نايمان، وهم يشربون الشاي، رووا أنهم مروا بسهوب صاروزيكي دون أية عراقيل عند الآبار من جانب الجوان جوان، وذكروا أنهم شاهدوا في صاروزيكي راعياً فتياً يرعى قطيعاً كبيراً من الجمال. فاتحه التجار بالحديث ولكنهم اكتشفوا أنه مسلوب. شكله الخارجي يوحي بأنه سليم فلا يظن المرء أبداً أنهم فعلوا به ما فعلوا. فهو، على الأغلب، كان ذات يوم مدركاً متحدثاً، ليس أقل من الآخرين. وهو ما يزال فتياً جداً لم يكد شارباه ينبتان، وملامحه جميلة، ولكنه عندما نطق – كأنه جاء بالأمس فقط إلى الدنيا. لا يذكر هذا المسكين ولا يعرف اسمه ولا اسم أبيه ولا أمه ولا ما فعله به الجوان جوان، ومن أين هو – لا يعرف أيضاً. مهما سألته يظل صامتاً ولا يجيب إلا «نعم»، «لا»، ويظل طوال الوقت ممسكاً بقبعته المشدودة على رأسه. ومع أن ذلك حرام، فإنهم كانوا يسخرون من عاهات الناس. مع هذا الكلام صاروا يهزؤون من أن جلد الجمل – على ما يبدو – ينمو أحياناً على رأس بعض المسلوبين. وتخويف المسلوب بالقول «تعال نكشف عن رأسك» أصعب بالنسبة له من أي عذاب. فيعارك وكأنه حصان بري ولا يسمح بلمس رأسه. أمثال هؤلاء لا ينزعون غطاء رأسهم لا في الليل ولا في النهار. ينامون به... وتابع الضيوف حديثهم: ولكن المسلوب، وإن كان مجنوناً، يظل مهتماً بعمله. فقد

ظل يراقبهم بحذر إلى أن ابتعدت القافلة من المكان الذي كان يسرح به قطيعه. لكن أحد الجمالين قرر قبل الذهاب أن يمازح المسلوب:

- طريقنا ما تزال طويلة. فلمن تريد أن ننقل تحيتك، إلى أية حسناء؟ وأين هي؟ تكلم. لا تخف ذلك. أتسمع؟ هل تريد أن ترسل لها منديلك؟

صمت المسلوب طويلاً وهو ينظر إلى الجمال ثم نطق:

- أنا انظر إلى القمر كل يوم وهو ينظر إلي ولكننا لا نسمع بعضنا... أحدهم يجلس هناك...

كانت تستمع إلى هذا الحديث في الخيمة امرأة تسكب الشاي للتجار. هذه المرأة هي ناريمان أنا. هكذا عرفت في الأسطورة الصاروزيكية. لم تدع نايمان أنا الضيوف يلاحظون شيئاً. فلم يلحظ أحد كيف صعقها هذا الخبر المفاجئ، وكيف تغير وجهها. كانت تريد أن تسأل التجار عن تفاصيل أكثر حول هذا المسلوب الشاب، ولكن هذا ما خشيته بالذات – خشيت أن تعرف أكثر مما قيل. استطاعت أن تظل صامتة خانقة القلق الذي تولد عندها، ويصرخ في أعماقها كعصفور جريح... خلال هذه الأثناء تحول الحديث في الجلسة إلى موضوع آخر ولم يعد أمر المسلوب البائس يهم أحداً. وما أكثر ما يحدث في هذه الحياة. لكن نايمان أنا ظلت تحاول مقاومة الخوف الذي سيطر عليها والسيطرة على يديها المرتجفتين، وكأنها فعلاً خنقت ذلك العصفور الصارخ في أعماقها، فاكتفت بإسدال منديل الحداد الأسود على وجهها، هذا المنديل الذي أصبح منذ زمن معهود على رأسها الأشيب.

سرعان ما غادرت قافلة التجار متابعة طريقها. وفهمت نايمان أنا في تلك الليلة التي لم تعرف فيها النوم أنها لن ترتاح إذا لم تجد هذا الراعي المسلوب في صاروزيكي، وإذا لم تتأكد أنه ليس ابنها. وأُحيَت من جديد في قلب الأم تلك الفكرة الثقيلة الرهيبة التي كانت منذ زمن بعيد حبيسة إحساسها، فكرة الشك في أن ابنها قد سقط في ساحة المعركة... كان من الأفضل لها

طبعاً أن تدفن ابنها مرتين من أن تتمزق في معاناة هذا الخوف والألم والريبة الملحين.

قتل ابنها في إحدى المعارك مع الجوان جوان في صاروزيكي، وكان زوجها قد قتل قبله بسنة. وقد كان رجلاً شهيراً ومعروفاً بين قوم نايمان. بعد موت زوجها ذهب ابنها مع أول حملة ليثأر لأبيه. ولم يكن من الجائز ترك القتلى في ساحة المعركة. لذلك كان على أقربائه أن يحضروا جثته. لكن هذا كان مستحيلاً. عندما التحموا مع العدو في هذه الموقعة الكبيرة كثيرون هم الذين شاهدوا كيف وقع ابنها على عرف فرسه التي حملته بعيداً وهي جافلة وخائفة من ضجيج المعركة. عندها وقع الشاب عن السرج لكن رجله علقت بالركاب فظل معلقاً وهو مغمى عليه إلى جانب الفرس، والفرس التي ازداد هياجها انطلقت تعدو وهي تجره إلى السهب. ثم التفت – وكأنها تفعل ذلك نكاية – واتجهت نحو الأعداء. ورغم حماوة المعركة الدامية، حيث كان يجب أن يكون الجميع في غمارها، انطلق اثنان من أبناء قبيلته ليتبعانها وليوقفانها في الوقت المناسب ويأخذا جثة القتيل. لكن عدداً من الخيالة انطلقوا من فصيلة الجوان جوان الكامنيني في المنحدر، انطلقوا وهم يصرخون وقطعوا الطريق، فقتل أحد النايمان بسهم أصابه إصابة مباشرة، أما الثاني فرجع بجرحه العميق واستطاع بالكاد الوصول إلى جماعته وسقط على الأرض عندهم. هذا الحادث ساعد النايمان على اكتشاف فصيلة الجوان جوان الكامنة التي كانت تستعد لتوجيه ضربة للجناح في اللحظة الحاسمة. وقد اكتشف النايمان وجود هذا الكمين في الوقت المناسب، وانسحبوا بنجاح ليعيدوا تجمعهم ولينطلقوا إلى المعركة من جديد. ولم يعد أحد، طبعاً، ليشغله ماذا حل بمقاتلهم الشاب، بابن نايمان أنا... روى النايمان الجريح الذي عاد بالكاد إلى جماعته أنه عندما اندفعوا في أثر الفتى انطلقت الفرس التي كانت تجره بسرعة لتختفي فجأة عن أنظارهم...

ظل النايمان يبحثون عن جثة الشاب عدة أيام متتالية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا لا القتيل ولا فرسه ولا سلاحه ولا أي أثر من آثاره. لم يشك أحد في أنه قتل. حتى لو كان جريحاً فإنه سيموت خِلال هذه الأيام في السهب من العطش أو نزيف دمه. حزنوا وندبوا لأن قريبهم الشاب ظل في صاروزيكي الخاوية بلا دفن. وهذا عار على الجميع. النساء اللواتي كن يبكين في خيمة نايمان أنا كن يلمن أزواجهن وإخوتهن وينحن:

- مزقته صقور الجيف، سحبه أبناء آوى، وكيف تتجاسرون بعد هذا أن تلبسوا على رؤوسكم قبعات الرجال!.

ومرت أيام نايمان أنا خاوية على هذه الأرض اليباب. كانت تعرف أن الناس يموتون في الحروب، لكن التفكير بأن ابنها ظل مرمياً على ساحة المعركة ولم يوار الثرى سلبها الراحة والهدوء. وظلت الأم تؤرقها الأفكار المريرية المستمرة، لا تجد من تفضي له بها لتهون عليها مصيبتها ولا من تلجأ إليه إلا الله وحده...

وكي تحول دون استمرار التفكير بهذا كان عليها أن تقتنع وأن تتأكد بأم عينها من أن ابنها قد مات. من يستطيع رد إرادة القدر؟ لكن ما كان يؤلمها هو أن فرس ابنها اختفت دون أي أثر. فالفرس لم تصب بل هربت من الخوف، ومثلها مثل أي حصان من الخيول الأليفة كان يجب أن تعود مهما تأخرت إلى موطنها وهي، تجر وراءها بالركاب جثة فارسها، وعندها كان يمكن – مهما يكن المشهد فظيعاً – أن تعول الأم وتبكي وتنحب عند وفاة ابنها، وأن تمزق وجهها بأظافرها وأن تصف نفسها «بالمسكينة التي حل عليها الغضب» إلى أن يصاب الله في سمائه بالغثيان إن كان يفهم الاستعارات المجازية.

كل هذا محتمل، على ألا يبقى عندها أي شك، وعند ذلك ستكون مستعدة لاستقبال الموت بعقل بارد منتظرة قدومه في أية ساعة، تذهب إليه

غير مترددة، ولا متأخرة عليه رغبة في إطالة الحياة ولو بتفكيرها، لكنهم لم يجدوا جثة ابنها ولم تعد فرسه. كانت الشكوك تعذب الأم، مع أن أبناء عشيرتها بدؤوا ينسون ذلك، إذ أن كل خسارة تخف مع الزمن وتصبح طي النسيان.. لكن الأم لم تستطع أن تستكين أو تنسى. كل أفكارها كانت تدور ضمن هذه الدائرة. ماذا حل بالفرس؟ أين أدواتها وأين السلاح؟. فبهذه الأشياء يمكن ولو بشكل غير مباشر تحديد ما حل بابنها. يمكن أن يكون الجوان جوان قد قبضوا على الفرس في مكان ما في صاروزيكي وهي منهكة فمكنتهم من الإمساك بها. فحصان إضافي مع أدواته ليس غنيمة سيئة. عندها ماذا يمكن أن يكونوا قد صنعوا بابنها المجرور بالركاب: هل يطمرونه في التراب أم يلقونه لتمزقه وحوش السهب؟ وماذا ولو كان ما يزال حياً؟ لو وقعت المعجزة وظل حياً؟ هل يكملون قتله وينهون عذابه أم يرمونه ليفطس في العراء، أم...؟ ولو حدث...؟

لم تعرف الشكوك نهاية لها. وعندما تحدث التجار أثناء شربهم الشاي عن المسلوب الشاب الذي قابلوه في صاروزيكي لم يعرفوا أنهم بحديثهم هذا قد ألقوا شرارة في نفس نايمان أنا المتألمة. لقد وجف قلبها من إحساس مخيف، فاستحوذت فكرة احتمال كون هذا الشاب ابنها المفقود على عقلها وفكرها. وأدركت الأم أنها لن تهدأ ما لم تجد هذا المسلوب وتتأكد من أنه ليس ابنها.

في تلك الأماكن التي كان يحل بها النايمان صيفاً عند السفح شبه السهبية كانت تجري فيها سواق صغيرة صخرية المجاري. ظلت نايمان أنا طوال تلك الليلة تصغي إلى خرير الماء الجاري. عم كان يحدثها المساء الذي لم يكن ينسجم كثيراً مع روحها المعذبة؟ كانت تبغي الراحة وإشباع نفسها من أصوات هذا الماء الجاري قبل أن تمضي إلى صمت صاروزيكي الثقيل. كانت الأم تعرف حجم المغامرة والخطر في الذهاب وحيدة إلى شاروزكي

ولكنها لم تكن تريد أن تطلع أحداً على ما عقدت عزمها عليه. فلا أحد يمكن أن يفهمها. حتى أقرب الناس إليها ما كانوا ليؤيدوا نواياها. كيف يمكن الذهاب للبحث عن ابنها الميت منذ زمن؟ وإذا كان قد بقي بالصدفة حياً وحول إلى مسلوب فالأولى بها أن لا تبحث عنه وأن لا تزيد من آلام فؤادها عبثاً، لأن المسلوب ما هو إلا الغلاف الخارجي وخيال الإنسان السابق...

في تلك الليلة عشية ذهابها خرجت من الخيمة عدة مرات. تسمعت ونظرت محاولة التركيز وتجميع أفكارها. كان قمر منتصف الليل يقف في الأعالي فوق رأسها، في السماء الصافية وهو يسكب على الأرض ضوءاً حليبياً شاحباً. كانت الخيام البيضاء المتناثرة في أماكن متفرقة على سفح المنحدر أشبه بسرب من الطيور الضخمة التي حطت على الأرض لتبيت ليلتها عند ضفاف السواقي الصاخبة. وبالقرب من هذا المضرب، حيث كانت حظائر الماشية، وفي البعيد حيث كانت تسرح الخيول كان يسمع نباح كلاب وأصوات بشرية غير مفهومة، لكن أكثر ما أثر في نفس نايمان أنا هو تنادي الفتيات الساهرات عند الحظائر في طرف المضرب وهن يغنين. هي نفسها كانت ذات يوم تغني هذه الأغاني الليلية... في كل صيف – كانوا يحلون في هذه الأماكن، وهي تذكر عندما جاؤوا بها عروساً. كل حياتها كانت في هذه الربوع: تذكير عندما صار عدد أفراد أسرتها كبيراً فنصبوا أربع خيام: خيمة – مطبخ – وخيمة الضيوف – واثنتان للمعيشة – بعد ذلك، وبعد غزو الجوان جوان لم تبقَ إلا خيمة واحدة...

وها هي الآن نفسها تهجر خيمتها الوحيدة... منذ المساء بدأت تستعد للسفر، تزودت بالطعام والماء، وأكثرت من الماء إذ أخذت قربتين مليئتين تحسباً لاحتمال عدم إيجاد بئر قريبة في صاروزيكي... ومنذ المساء كانت الناقة أكمايا أملها ورفيقتها تقف مربوطة قرب الخيمة. وهل كان بإمكانها أن تتجرأ على الذهاب إلى قفار صاروزيكي لولا اعتمادها على قوة وسرعة

أكمايا. في تلك السنة ظلت أكمايا بلا إنجاب لترتاح بعد حملين، وكانت بحالة ممتازة – نحيفة ذات قوائم طويلة قوية، لها بطون أقدام مرنة لم تشققها بعد الأحمال الثقيلة والشيخوخة، لها زوج متين من الأسنام جميل جاف على رقبة قوية، وخياشيم تتحرك كجناحي فراشة وهي تستنشق أثناء سيرها الهواء بعمق. الناقة البيضاء أكمايا كانت تساوي الكثير، تساوي قطيعاً بأكمله. كانوا يدفعون لقاء مثل هذه الناقة السريعة في ذروة قوتها عشرات الرؤوس من الجمال الفتية التي لم يسبق استخدامها، وذلك من أجل نسلها. لقد كانت هذه الناقة آخر كنز – كانت آخر ناقة ذهبية – عند نايمان أنا، وآخر ذكرى من ثروتها السابقة. كل الثروة السابقة تسربت من بين أصابعها كالماء. الواجبات – احتفالات الأربعين والسنة للمتوفين... منذ مدة أقامت لابنها الذي تستعد الآن للبحث عنه بسبب أحاسيسها الخفية وبسبب حزنها وألمها المفرطين، أقامت احتفالاً كبيراً حضره جمع غفير – كل نايمان المناطق المجاورة.

عند الفجر خرجت نايمان أنا من خيمتها جاهزة للسفر. عند خروجها توقفت بعد أن اجتازت العتبة واستندت إلى الباب وتأملت ملقية نظرة على المضرب الغافي قبل أن تتركه. كانت نايمان أنا التي ما تزال تحتفظ بصحتها وجمالها القديم مزنرة كما يجب أن يتزنر المسافر. في أقدامها جزمة وترتدي سروالاً وجبة بلا أكمام فوق ثوبها، وعلى أكتافها كان رداؤها يتهدل متحرراً. صبت رأسها بمنديل أبيض وقد شدت نهايتيه إلى مؤخرة رأسها. وقد قررت أثناء تأملاتها ليلاً: ما دامت تأمل بإيجاد ابنها حياً فلم الحداد؟ وإنْ لم يتحقق أملها فستلحق أن تلف رأسها بالمنديل الأسود الأبدي. كان غبش الصبح في تلك الساعة يستر شعرها الأشيب ويخفي بصمات الحزن العميق على وجه الأم – التجاعيد التي خددت جبينها الحزين. كانت عيناها في تلك اللحظة دامعتين. وتنهدت بألم. هل فكرت ذات يوم أو تكهنت بأنها ستعاني هذه المرارة! ولكنها استجمعت قواها. «أشهد أن لا إله إلا الله» - تمتمت بالمقطع

الأول من هذه الصلاة واتجهت بحزم نحو الناقة، وأناختها على ركبتيها المثنيتين وصرخت بها بصوت خافت مكشرة لتخويفها كالعادة، فهبطت أكمايا متباطئة بصدرها على الأرض. فألقت نايمان أنا بعتادها المحزوم بسرعة على الحداجة وامتطت الناقة. حثتها فنهضت تلك منتصبة على قوائمها حاملة معها إلى الأعلى صاحبتها. هنا أدركت أكمايا أن رحلتها قد بدأت...

لم يكن أحد ليعرف في المضرب عن سفر نايمان أنا. ولم يودعها أحد في تلك اللحظة إلا سلفتها الناعسة وهي تتثاءب ملء فمها. كانت قد أخبرتها في المساء أنها ستذهب إلى أقارب أهلها لتزورهم ومن هناك ستذهب، مع الحجيج – إِنْ وجدت حجيجاً – إلى أراضي كابيتشاك لتزور معبد الولي ياساوي وتسجد له...

غادرت المضرب مبكرة كي لا يضايقها أحد بالأسئلة. وبعد أن ابتعدت عن المضرب اتجهت نايمان أنا إلى سهوب صاروزيكي التي بالكاد كان يمكن التكهن ببعدها الغامض في هذا الفراغ الساكن الممتد أمامها...

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق...

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاروزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

انطلقت من على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» رسالة شيفرة ثانية بالراديو إلى رائدي التقصي في المحطة المدارية «باريتيت». هذه الرسالة اقترحت وبنفس اللهجة القطعية المحذرة عدم إقامة أي اتصال مع الرائدين –

الموازيين ١-٢ و٢-١ الموجودين خارج المجموعة الشمسية لبحث موعد وإمكانية عودتهم إلى المحطة المدارية، وانتظار تعليمات «اوبتسينوبر».

كانت العاصفة في المحيط متوسطة القوة، وكانت حاملة الطائرات تهتز مع الأمواج، ومياه المحيط الهادي تلعب لعبة الأمواج حول هذه السفينة العملاقة. والشمس ما تزال تلتمع فوق المدى البحري الذي علته كله حركة الأمواج المتلاطمة ذات الزبد الأبيض، وهبات الريح تندفع بانتظام.

كل الأجهزة على حاملة الطائرات «كونفينتسيا»، بما فيها جناح الطيران ومجموعات أمن مصالح الدولتين – كلها كانت على أهبة الاستعداد التام...

ليس هذا هو أول يوم تغذ فيه الناقة البيضاء أكمايا السير وهي تخب بشكل لا يكاد يسمع في سهول ووديان سهب صاروزيكي العظيم مرددة رُغاءها بوتيرة واحدة، وصاحبتها تحثها وتستعجلها في هذه الأرض الصحراوية القائظة. كانتا تتوقفان فقط ليلاً عند بئر نادرة، إذا عثرتا عليها وفي الصباح تنهضان وتعاودان السير بحثاً عن قطيع كبير من الجمال ضائع في مساحات صاروزيكي الكبيرة. في هذه المنطقة من صاروزيكي، غير بعيد عن المنحدر الرملي الأحمر الممتد لعدة كيلو مترات – مالاقومديتشاب التقى التجار العابرون منذ فترة وجيزة بالراعي المسلوب الذي تبحث عنه الآن نايمان أنا. وها هو اليوم الثاني وهي تلف وتدور حول مالاقومديتشاب خائفة من الوقوع في أيدي الجوان جوان. ولكنها أينما نظرت وأينما سارت لم تكن تجد إلا السهب والسهب وحده والسراب والخداع. إلى أن قطعت طريقاً متعرجاً طويلاً باتجاه سراب مدينة ظهرت فيها جوامع وجدران قلعة. أيكون ابنها هناك في سوق للعبيد؟ لو كان الأمر هكذا لاستطاعت أن تحمله خلفها على أكمايا، وليحاولوا اللحاق بها.. كان سفرها في الصحراء مضنياً ولذلك تراءى لها هذا.

إن البحث عن إنسان في صاروزيكي أمر صعب طبعاً، ولكن إذا كان معه قطيع كبير يشغل مساحة كبيرة من المرعى فيمكن أن يلحظ المرء عاجلاً أم آجلاً حيواناً متطرفاً ومن ثم يجد بقية القطيع ومع القطيع يجد الراعي. هذا ما كانت نايمان أنا تعول عليه.

إلا أنها لم تجد شيئاً من هذا القبيل حتى الآن. وبدأ ينتابها الخوف: أيكون القطيع قد ذهب إلى مكان آخر؟ أو هل يكون الجوان جوان قد ساقوا القطيع لبيعه بالجملة في خيوه أو في بخارى؟ عندها هل سيعود الراعي من تلك الأماكن البعيدة؟.. عندما تركت المضرب وقد أنهكها الحزن والريبة كانت تحلم بشيء واحد فقط: أن ترى ابنها حياً، ليكن مسلوباً، وليكن من يكون، ليكن قد نسي كل شيء ولا يعرف شيئاً، على أن يكون ابنها حياً، حياً وحسب.. وهل هذا قليل؟. لكنها عندما توغلت في صاروزيكي واقتربت من المكان الذي كان يحتمل أن تجد فيه ذلك الراعي الذي التقت به منذ مدة قافلة التجار صار يزداد خوفها من أن تجد ابنها مخلوقاً مشلول العقل. لقد اضطهدها هذا الخوف وأثقلها، فصارت تصلي لله أن لا يكون ذلك ابنها بل أي إنسان بائس آخر، وعندها ستسلم بلا اعتراض لفكرة أن ابنها ليس حياً ولا يمكن أن يكون حياً. وكل سفرها ما هو إلا كي تنظر إلى المسلوب وتتأكد من أن شكوكها كانت عبثاً، وبعد أن تتأكد تعود وتكف عن العذاب لتعيش بقية حياتها كما يشاء القدر.. لكنها عادت لتستسلم للحزن ولتتمنى أن لا تجد في صاروزيكي أي شخص آخر بل أن تجد ابنها بالذات مهما كان الأمر.

في غمرة صراع الأحاسيس هذه رأت فجأة وهي تعبر منحدراً خفيفاً قطيعاً كبيرة من الجمال، مئات الرؤوس من الجمال السارحة طليقة في واد عريض. كانت الجمال السمراء المعلوفة تجول وسط أجمة من الشجيرات والأشواك قاضمة رؤوسها. ضربت نايمان أنا أكمايا فاندفعت بكل قوتها، وانتابت الأم في البداية فرحة كبيرة لأنها وجدت أخيراً القطيع، ثم جزعت

وانتابتها قشعريرة سببها الرهبة، فهي قد ترى ابنها الذي تحول إلى مسلوب، ولكنها عادت إلى فرحتها وهي لا تدرك ماذا يجري لها.

هذا هو القطيع يسرح ولكن أين الراعي؟ يجب أن يكون هنا. ورأت شخصاً عند طرف الوادي المقابل. لم تستطع عن بعد أن تميز من هو. كان الراعي يقف ومعه عصا طويلة، يمسك بمقود جمل ركوب محمل بمتاع وينظر بهدوء من تحت قبعته المشدودة على رأسه إلى ناقتها.

عندما اقتربت منه، عندما عرفت فيه ابنها لم تدر نايمان أنا كيف نزلت عن ظهر ناقتها. أحست بأنها سقطت، وهل يهم هذا الآن!

- ولدي، حبيبي. أنا أبحث عنك في كل مكان – واندفعت إليه وكأنها تتدفع عبر غابة كثيفة تفصل بينهما – أنا أمك!

وفهمت فوراً كل شيء فانفجرت بالبكاء وهي تضرب الأرض بأقدامها وفغرت فاها بشفتين مرتجفتين محاولة الكف عن البكاء لكنها لم تستطع السيطرة على نفسها ولكي تظل واقفة على رجليها تمسكت بقوة بكتف ابنها اللامبالي وهي تبكي وتبكي، وقد صعقتها المصيبة التي كانت تخيم عليها منذ زمن والآن انهالت وجثمت فوقها، صارت تنظر عبر دموعها وعبر خصلات شعرها البيضاء المبتلة المنسدلة على وجهها عبر أصابعها المرتجفة التي مسحت بها أغبار السفر على وجهها، صارت تنظر إلى ملامح ابنها التي تعرفها وهي تحاول التقاط نظرة منه، متوقعة، بل آملة أن يعرفها، إذ ليس أسهل من أن يعرف الابن أمه.

إلا أن ظهورها لم يترك عنده أي رد فعل وكأنها كانت دائماً تأتي إليه وتزوره كل يوم في السهب، حتى أنه لم يسألها من هي ولماذا تبكي. وفي لحظة من هذه اللحظات رفع المسلوب يدها. عن كتفه وجر خلفه جمل الركوب الذي لا يفارقه والأمتعة التي فوقه إلى طرف القطيع الآخر كي يتأكد من أن هذه الحيوانات الصغيرة اللاهية لم تذهب بعيداً.

ظلت نايمان أنا في مكانها. جلست القرفصاء وغطت وجهها بكفيها وهي تنشج وبقيت في جلستها هذه لا ترفع رأسها. ثم استجمعت قواها وسارت إلى ابنها محاولة الحفاظ على هدوئها. نظر إليها ابنها المسلوب نظرة فارغة لا مبالية – كأن شيئاً لم يكن – من تحت قبعته المشدودة بإحكام على رأسه، ثم ارتسمت على وجهه الشاحب المخشوشن المسود من الريح والشمس ما يشبه ابتسامة صغيرة، لكن عينيه اللتين كانتا تبديان عدم وجود أي اكتراث بأي شيء في الدنيا ظلتا شائحتين عنها كما كانتا.

- اجلس لنتكلم – قالتها نايمان أنا مرفقة بتنهيدة عميقة. وجلسا على الأرض.

- هل عرفتني؟ سألته أمه.

هز المسلوب رأسه بالنفي.

- ما هو اسمك؟

- مسلوب.

- الآن يسمونك هكذا، ولكن هل تذكر اسمك سابقاً؟ تذكر اسمك الحقيقي.

صمت المسلوب. لاحظت الأم أنه يحاول التذكر، إذ بزغت على أرنبة أنفه قطرات من العرق وغاب بصره في ضبابية مرتجفة. لكن جداراً أصم لا يمكن اختراقه وقف أمامه فلم يستطع أن يتخطاه.

- كيف كانوا يدعون أباك؟ أنت نفسك، من أين؟ هل تعرف ولو مكان ولادتك؟

كلا. لم يكن يذكر شيئاً ولا يعرف شيئاً.

همست الأم:

- ما الذي فعلوه بك.

وصارت شفتاها ترتجفان رغم إرادتها، وعادت تنشج وقد ضيق الضيم والغضب والمصيبة أنفاسها، ولكنها عبثاً حاولت كبت انفعالها. ولم تلامس بلوى الأم حس المسلوب أبداً.

- يمكن انتزاع الأرض، يمكن انتزاع الثروة، بل يمكن انتزاع الحياة نفسها – تمتمت الأم بصوت مسموع – ولكن من فكر ومن يتجرأ أن يعتدي على ذاكرة الإنسان؟! يا إلهي، إن كنت موجوداً، كيف أوحيت للناس بهذا؟ ألا يكفيهم الشر الموجود دون ذلك؟

في هذه اللحظات قالت الأم وهي تنظر إلى ابنها المسلوب كلماتها الحزينة المعروفة عن الشمس وعن الله وعن نفسها، هذه الكلمات التي يرويها العارفون حتى الآن عندما يدور الحديث عن تاريخ صاروزيكي..

في هذه اللحظات بدأت مناحتها التي يتذكرها العارفون حتى الآن:

- مين بيطاصي اولغين يوزمايا، توليبين كيليب اسكيغين(١)..

عندها اجهشت بالبكاء والعويل الطويل المر وسط صاروزيكي الصامتة الشاسعة..

لكن كل هذا لم يؤثر في ابنها المسلوب.

فقررت نايمان أنا أن تحاول جعله يعرف من هو بالإيحاء إليه وليس بالسؤال.

- اسمك جولامان. اسمع. أنت جولامان واسم أبيك دونينباي. ألا تذكر أباك؟ هو الذي علمك منذ طفولتك الرمي بالقوس. وأنا أمك، وأنت ابني. أنت من قبيلة النايمان. فهمت؟ أنت نايماني..

كان يصغي إلى كل ما قالته له دون أي اكتراث بكلماتها، وكأن الحديث يدور عن لا شيء، وكأنه يصغي إلى صرير الجنادب في العشب.

---

(١) أنا ناقة ثكلى جئت انشق رائحة ولدى الذي حشوا جلده تبناً.

عندها سألت نايمان أنا ابنها المسلوب:

- ماذا حدث قبل أن تأتي إلى هنا؟

- لم يحدث شيء.

- كان نهاراً أم ليلاً؟

- لم يكن شيئاً.

- مع من تود أن تتحدث؟

- مع القمر، ولكننا لا نسمع بعضنا البعض. هناك يجلس أحدهم.

- وماذا تريد أيضاً؟

- ضفيرة على رأسي، كما عند مالكي.

- دعني انظر، ماذا فعلوا برأسك – ومالت نايمان أنا نحوه.

تراجع المسلوب مندفعاً إلى الخلف وأمسك قبعته بيده ولم يعد للنظر إلى أمه. وأدركت أنه يجب ألا تعود لذكر رأسه ثانية.

في هذه الأثناء بدا في البعيد رجل يمتطي جملاً ويتجه نحوهما.

- من هذا؟

- إنَّه يحضر لي الطعام.

انتاب القلق نايمان أنا. عليها أن تختبئ بسرعة قبل أن يراها الجوان جوان الذي جاء في غير وقته. أناخت ناقتها على الأرض وصعدت إلى الحداجة. وهي تحذر ابنها:

- لا تقل شيئاً. سأعود قريباً.

لم يجبها ابنها، فقد كان الأمر بالنسبة له سواء.

أدركت نايمان أنا أنها ارتكبت خطيئة إذ ابتعدت عن القطيع الذي يرعى وهي على ظهر ناقتها. لكن الأوان قد فات. إذ كان بمقدور الجوان جواني

القادم باتجاه القطيع أن يلحظها وهي فوق ناقتها البيضاء كان يجب أن تسير على أقدامها وأن تختبئ بين الجمال.

ابتعدت نايمان أنا مسافة لا بأس بها ونزلت منحدراً عميقاً نبت على حوافه الشيح وأسرعت في إناخة أكمايا في قعر الوادي، ومن هناك صارت تراقب. لقد وقع فعلاً ما خشيته. لقد لحظها الجوان جواني.

بعد مضي وقت وبينما هي تسوق ناقتها بخطوات قصيرة شاهدت الجوان جواني متنكباً قوسه وسهامه. كان الجوان جواني منهمكاً بشكل واضح تتملكه الحيرة. كان يتلفت إلى الجانبين – أين اختفى الراكب على جمل أبيض والذي كان قد لحظة عن بعد؟ لم يعرف في أية جهة يذهب. اندفع في اتجاه، ثم عاد إلى الاتجاه الثاني. وفي المرة الأخيرة سار قريباً جداً من الوادي. جيد أن نايمان أنا فطنت لأن تربط فم أكمايا بمنديلها. فقد تطلق الناقة صوتاً في لحظة ما مفاجئة. شاهدت نايمان أنا وهي تختبئ خلف الشيح الجوان جواني بوضوح كامل. كان يمتطي جملاً أشعث متلفتاً إلى جانبيه، وجهه منتفخ متوتر وعلى رأسه قبعة سوداء تشبه القارب ثنيت حوافها إلى الأعلى وخلفه تدلت ضفيرة سوداء جافة ضفرت من ثلاثة حزم من الشعر. انتصب الجوان جواني على الركب ممسكاً قوسه بحالة تأهب. تلفت ودار برأسه وعيناه تبرقان. كان هذا أحد الأعداء الذين احتلوا صاروزيكي وساقوا الكثير من الناس إلى العبودية والذين جلبوا لأسرتها كل هذه المآسي. ولكن ماذا كان باستطاعتها وهي المرأة العزلاء أن تفعل في مواجهة مقاتل شرس من الجوان جوان؟ وفكرت أية حياة هذه وأية أحداث هي التي أوصلت هؤلاء الناس إلى هذه القسوة والهمجية – إلى تسميم ذاكرة العبد وقتلها..

راوح الجوان جواني بجمله إلى الأمام والخلف وسرعان ما ابتعد متجهاً نحو القطيع.

كان المساء قد حل والشمس قد انحدرت لكن هالتها ظلت تنير السهب فترة طويلة، وفجأة أعتمت، وحل ليل أصم.

قضت نايمان أنا تلك الليلة وحيدة تماماً في السهب ليس بعيداً عن ابنها البائس المسلوب. خشيت أن تعود إليه، فالجوان جواني الذي رأته قبل قليل قد يقضي الليل مع القطيع.

قررت أن لا تترك ابنها في العبودية، وأن تحاول أخذه معها فليكن مسلوباً وليكن غير مدرك للأمور، ولكن الأفضل أن يكون في بيته بين أهله من أن يكون راعياً عند الجوان جوان في صاروزيكي الخاوية. هذا ما أملاه عليها قلب الأم. ولم تستطع أن تستسلم لما استسلم له الآخرون. لم تستطع أن تترك دمها في العبودية. ربما يعود إليه الرشد في بيته ويتذكر طفولته...

في الصباح امتطت نايمان أنا ظهر أكمايا وسارت طويلاً على طرقات متعرجة إلى أن أدركت القطيع الذي كان قد ابتعد أثناء الليل كثيراً. عندما وجدت القطيع نظرت نظرات متفحصة طويلة. أليس الجوان جواني موجوداً. وبعد أن تأكدت من أنه لا يوجد أحد نادت ابنها باسمة:

- جولامان، جولامان، صباح الخير.

التفت ابنها إليها فصرخت الأم من فرحتها ولكنها أدركت فوراً أنه استجاب للصوت فقط.

وعادت نايمان أنا تحاول من جديد إحياء ذاكرة ابنها المنتزعة.

- تذكر، ما اسمك، هل تذكره؟ - كانت تتوسل وتبرهن له – أبوك دونينباي، ألا تعرفه؟ واسمك ليس «المسلوب» بل جولامان(١)، وقد أسميناك

(١) جولامان – اسم مصاغ من كلمتين: جول – طريق، ومان – صحة، سلامة ويعني فليكن طريقك آمناً. (أو حسب التعبير العربي – سفراً ميموناً).

بهذا الاسم لأنك ولدت في الطريق أثناء ترحال كبير للنايمان. عندما ولدت توقفنا ثلاثة أيام، ثلاثة أيام من الولائم.

ومع أن كل هذا لم يترك عند ابنها المسلوب أي انطباع، فقد استمرت في الحديث آملة عبثاً – قد يلتمع شيء ما في وعيه الخابي. ولكنها كانت تطرق باباً موصداً، ومع ذلك استمرت في التأكيد:

- تذكر. ما هو اسمك؟ أبوك اسمه دونينباي.

ثم أطعمته وسقته من زوادتها وصارت تغني له أغان من أغاني المهد.

أعجبته الأغاني جداً. فقد سر لمساعها وعلت وجهه الجامد الذي أضفى عليه السواد ملامح قاسية مسحة من دفء حي، عندها صارت الأم تقنعه يترك هذا المكان وهجر الجوان جوان والذهاب معها إلى أراضي قومه. لم يكن المسلوب يستطيع أن يتصور كيف يمكنه أن ينهض إلى أي مكان – فماذا بشأن القطيع؟ لا. لقد أمره المالك أن يظل مع القطيع طوال الوقت. هكذا قال المالك. لذلك لن يبتعد عن القطيع أبداً...

وحاولت نايمان أنا مرات ومرات أن تخترق باب ذاكرته المخربة الموصد وظلت تؤكد:

- تذكر. ابن من أنت؟ ما هو اسمك؟ أبوك دونينباي.

ولم تلحظ الأم في لهفتها وانهماكها كم مر من الوقت، ولكنها تنبهت فجأة عندما ظهر عند طرف القطيع جوان جواني على جمله. في هذه المرة ظهر على مسافة أقرب بكثير وكان مسرعاً. فامتطت نايمان أنا أكمايا غير متأنية وانطلقت مبتعدة. ولكن جوان جوانيا آخر ظهر على جمله من الطرف الآخر قاطعاً طريقها. عندها حثت نايمان أنا أكمايا وانطلقت عبر المسافة الفاصلة بين الاثنين. اندفعت أكمايا البيضاء السريعة إلى الأمام في الوقت المناسب وتبعها الجوان جوانيون وهم يصرخون ويلوحون برماحهم. ولكن

أين لهم أن يدركوا أكمايا، فصاروا يتخلفون عنها أكثر وأكثر وهم يعدون ببطء على جمالهم الشعثاء، وأكمايا مندفعة عبر صاروزيكي بسرعة لا تدرك، حاملة نايمان أنا بعيداً عن هذه المطاردة القاتلة.

لم تدرك الأم أن الجوان جوانيين حين رجعوا انهالوا على المسلوب ضرباً. ولكن أي طائل منه. كان يجيبهم فقط:

- تقول أنها أمي.

- ليست أمك. فأنت ليست لك أم. أتعرف لماذا جاءت؟ لقد جاءت لتنزع قبعتك وتكوي لك رأسك – لقد أخافوا هذا المسلوب المسكين.

عند سماع هذه الكلمات شحب وجه المسلوب الأسود وصار رمادياً رمادياً. فغرز رقبته بين كتفيه وتشبث بقبعته وصار يتلفت حوله كالوحش.

- لا تخف، هاك، أمسك – ودس الجوان جواني الأكبر في يده قوساً وسهاماً.

رمى الجوان جواني الأصغر قبعته عالياً في الهواء وقال له.

- سدد.

فاخترق السهم القبعة.

- انظر – قال صاحب القبعة مستهجناً – ما زالت الذاكرة موجودة في يده.

ومضت نايمان أنا تجول في مناطق صاروزيكي كعصفورة اضطرها الخوف إلى هجر عشها وهي لا تعرف ما العمل وماذا يجب أن تتوقع. هل سيسوق الجوان جوان القطيع كله ومعه ابنها المسلوب إلى مكان آخر يصعب عليها الوصول إليه، قريب من قومهم. أم سيترصدونها للقبض عليها؟ سارت وقد شتتت ذهنها التكهنات عبر الممرات المستورة وهي تنظر وتراقب، وفرحت جداً عندما رأت أن الجوان جوانيين قد تركا القطيع، وذهبا معاً

مبتعدين دون أن ينظرا إلى الخلف. وظلت نايمان أنا تلاحقهما ببصرها طويلاً وعندما اختفيا بعيداً قررت العودة إلى ابنها. إنها الآن تريد أخذ ابنها معها مهما كلف الأمر، وأياً كان هو – فليس ذنبه أن حكم عليه القدر بذلك، وليس ذنبه أن جعل الأعداء يسخرون منه. لكن أمه لن تتركه عبداً. فلير النايمان كيف يشوه الغزاة الشباب الأسرى، كيف يهينونهم ويسلبونهم عقولهم. فليتحمسوا ويحملوا السلاح. القضية ليست قضية الأرض، فالأرض تكفي الجميع، لكن شرور الجوان جوان لا تطاق حتى في حال جوارهم البعيد.

عادت نايمان أنا إلى ابنها بهذه الأفكار، وهي تفكر بطريقة تقنعه فيها بالهرب معها في هذه الليلة.

بدأ الظلام، وهبطت على صاروزيكي العظيمة ليلة أخرى من سلسلة الليالي الماضية والآتية، متسللة عبر الوهاد والمرتفعات بنسقها الأحمر. والناقة البيضاء أكمايا تحمل صاحبتها بخفة وانطلاق إلى القطيع. كانت أشعة الشمس الماضية نحو الانطفاء تنير بوضوح قامة الأم وهي بين سنامي الناقة. كانت نايمان أنا المهمومة اليقظة ذات وجه شاحب وصارم. شيب وتجاعيد، وأفكار على جبينها، وفي عيونها حمرة مثل غسق صاروزيكي، وألم لا يهون... ها هي تصل إلى القطيع وتسير بين الحيوانات السارحة. تلفتت حولها لكنها لم تر ابنها. جمله مع حمله يسرح حراً جاراً وراءه مقوده.. لكن ابنها لم يكن موجوداً. ماذا حل به؟

- جولامان. جولامان، يا بني. أين أنت؟

لم يظهر ولم يجب أحد.

- جولامان. أين أنت؟. هذا أنا، أمك. أين أنت؟

لم تلاحظ وهي تتلفت حولها بقلق أن ابنها المسلوب يختبئ في ظل أحد الجمال وهو يستعد جاثياً ليرميها بسهمه المشدود على الوتر. كان بريق ضوء الشمس يعيقه فانتظر اللحظة المناسبة للرمي.

نادته نايمان أنا وقد انتابها الخوف من أن يكون قد وقع له شيء ما.

- جولامان، يا ولدي.

واستدارت وهي تجلس على الحداجة:

- لا ترم.

استطاعت أن تصرخ بهذه الكلمات وحثت ناقتها البيضاء لتستدير نحوه، لكن السهم السريع أدركها بعد لحظة قصيرة وانغرز في جانبها الأيسر تحت يدها.

كانت طعنة قاتلة. انحنت نايمان أنا وصارت تسقط ببطء وهي تتمسك برقبة الناقة. لكن المنديل الأبيض سبقها بالسقوط عن رأسها وتحول في الهواء إلى طير ذهب يطير وهو يصرخ «تذكر. من أنت؟ ما هو اسمك؟ أبوك دونينباي، دونينباي، دونينباي».

يقال إنه منذ ذلك الحين وطير دونينباي يطير في الليالي في سماء صاروزيكي وعندما يلاقي هذا الطير مسافراً يقترب منه ويصرخ: «تذكر. من أنت؟ ما هو اسمك؟ أبوك دونينباي، دونينباي، دونينباي. دونينباي!...».

وأطلق على ذلك المكان الذي دفنت فيه نايمان أنا في صاروزيكي انابيت – راحة نفس الأم...

خلفت الناقة البيضاء أكمايا سلالة كبيرة. النوق من نسلها تولد شبيهة بها، نوق بيضاء الرأس شهيرة في المنطقة، أما الجمال فتولد على عكس النوق، سوداء جبارة مثل قارانار العاصف.

كان المرحوم قازانغاب الذي يحملونه الآن إلى مثواه الأخير يبرهن دائماً أن قارانار العاصف ليس جملاً عادياً، بل هو من سلالة أكمايا، الناقة البيضاء الشهيرة التي ظلت في صاروزيكي بعد موت نايمان أنا.

صدق يديغاي قازانغاب بسرور، ولم لا... فقارانار العاصف جدير بهذا... لقد جرب كثيراً في الأيام الطيبة والسيئة، ودائماً كان قارانار يخرج يديغاي من المصاعب... لكنه يجن جنونه عندما يذهب إلى المجامعة، ويحدث له هذا دائماً في أشد أوقات البرد. البرد يقسو وهو يقسو معه – شتاءان في آن واحد. في تلك الأيام لا يعود ليديغاي لا حول وقوة... حدث مرة أن خيب أمل يديغاي أيما خيبة، ولو لم يكن يديغاي إنساناً، بل، ولنقل، مجرد مخلوق عاقل لما سامح قارانار العاصف على فعلته هذه... ولكن ماذا تفعل مع جمل جن في موسم جنونه... القصة ليست هنا، فهل يمكن أن تعتب على حيوان. كل هذا قيل هكذا بالمناسبة – والواقع أن هذه هي مشيئة القدر، فما دخل قارانار العاصف بهذا؟ قازانغاب كان يعرف هذه القصة جيداً وهو الذي أعطى حكمه فيها، ولولا ذلك من كان يعرف ما الذي كان يمكن أن يحدث؟

تذكر يديغاي العاصف نهاية صيف وبداية خريف عام ١٩٥٢ وهو يحس إحساساً خاصاً بسعادة ماضية. تحققت نبوأة يديغاي كالمعجزة. فبعد ذلك الحر الفظيع الذي كانت حرازين صاروزيكي تهرب منه إلى عتبات البيوت لتحتمي من الشمس، تغير الطقس فجأة في أواسط آب، فانحسر الحر المضني وصار الجو يزداد برودة، وصار يمكن – على أقل تعديل – النوم بهدوء ليلاً. مثل هذه الغبطة موجودة في صاروزيكي. ليست كل السنين متشابهة، ولكنها موجودة. الشتاء دائماً واحد لا يتغير – قاس دائماً. أما الصيف فيتساهل من حين لآخر. يحدث هذا عندما يقع انزياح كبير – كما شرح له بليزاروف ذات مرة – في الطبقات العليا من التيارات الهوائية، وتتغير اتجاهات الأنهار السماوية. كان يليزاروف يحب الحديث عن مثل هذه الأمور. كان يقول أن أنهاراً ضخمة لها ضفافها وفيضاناتها تجري في الأعالي، وهذه الأنهار تظل تدور باستمرار ترسم حدود الكرة الأرضية. والأرض الملفوفة بأكملها بالرياح تسبح ضمن دائرتها وهذا هو سريان الزمن. كان الاستماع إلى يليزاروف

مشوقاً، فأمثال هذا الإنسان ذي النفسية النادرة الوجود نادرون أيضاً. يديغاي العاصف يحترم يليزاروف وكان ذاك يبادله نفس الاحترام. إذن هكذا: ذلك النهر الذي يجلب البرودة أحياناً إلى صاروزيكي في أشد أيام السنة حرارة، ينخفض لسبب ما عن مستوى سقفه، ومع انخفاضه هذا يصطدم بجبال هملايا، العلم عند الله كم تبعد هذه الجبال عن صاروزيكي، ولكنها بالقياس إلى الكرة الأرضية ليست بعيدة جداً. يصطدم هذا النهر الهوائي بهملايا وينعكس مجراه، فلا يصل إلى الهند وباكستان ويظل الحر عندهم كما هو، ويتدفق هذا النهر في مجراه المرتد فوق صاروزيكي، لأن صاروزيكي هي مجال مكشوف كالبحر لا عوائق فيه... عندها يجلب هذا النهر البرودة من هملايا...

على كل حال، كانت تلك الفترة في نهاية الصيف وبداية الخريف فترة مريحة حقاً. الأمطار في صاروزيكي ظاهرة نادرة، فكل هطول للمطر يظل في الذاكرة زمناً طويلاً. لكن هطول المطر هذه المرة بقي في ذاكرة يديغاي العاصف طوال حياته. في البداية تلبدت السحب، بشكل غير اعتيادي وحجبت العمق الصحراوي الأزلي لسماء صاروزيكي الملتهبة فانتشرت رطوبة خانقة لا تحتمل. في ذلك اليوم كان يديغاي يعمل في قطر العربات. فقد كانت قد بقيت على الخط الفرعي المسدود ثلاث عربات بعد أن أفرغت من الحصى ومن دفعة جديدة من العوارض الصنوبرية، وكانوا قد أفرغوها منذ فترة وجيزة. كما هي العادة دائماً يطلبون إنجاز العمل فوراً، ثم يظهر أن هذه السرعة لم تكن لازمة. ظلت العربات واقفة بعد تفريغها نصف يوم على الخط المسدود، لقد عبؤوا الجميع للتفريغ – قازانغاب وأبو طالب وظريفة واوقوبالا وبوكيي – كل من لم يكن مشغولاً على الطريق توجه إلى هذا العمل الفوري. إذ ذاك كل شيء كان يتم يدوياً. كان الحر شديداً، وصادف وصول هذه العربات في هذا الحر – على كل بما أن الأمر ضروري فهو ضروري.

عملوا كلهم. حتى أرهقت اوقوبالا وصارت تتقيأ إذ لم تحتمل رائحة صمغ خشب العوارض الحار، فأرسلوها إلى البيت، ومن ثم أرسلوا النساء كلهن – فالحر قد أنهك الأطفال في البيت. وظل الرجال يعملون وقد أضناهم هذا العمل، لكنهم أنجزوه.

في اليوم التالي مع بداية المطر عادت العربات الفارغة مع قطار شحن إلى محطة قومبيل. بينما ناور القطار وإلى أن ربطت العربات به كان يديغاي قد اختنق من الرطوبة وكأنه في حمام للجنود. لو ظلت الشمس تكوينا لكان الأمر أسهل. أما سائق القطار فقد كان من النوع المتمهل الذي يطيل ويطيل – كل ساعة بمقدار ملعقة شاي، أضف إلى أنه كان يُحِبُّ السير تحت العربات والظهر محني تماماً. صب يديغاي على هذا السائق ما يلزمه من الشتائم، له ولأمه، وذلك صار يرد له الشتائم بمثلها، فهو أيضاً لم يكن بنعيم عند موقد القطار إضافة إلى أنه تبلد في هذا الحر. وأخيراً ذهب قطار الشحن، والحمد لله، وسحب وراءه العربات الفارغة.

في هذه اللحظات انهمر المطر بشدة ودفعة واحدة، لقد انشقت السماء. وانهمر المطر دفعة واحدة ليعوض كل الجفاف الذي كان. تفجرت الأرض وفي لحظة واحدة تغطت بالبرك والفقاعات. وانسكب المطر الذي تزود بالبرودة والرطوبة من قمم هملايا – إذا كان هذا صحيحاً – غزيراً عنيفاً. ما هذه الهملايا! ما أعنفها! وركض يديغاي إلى بيته، وهو نفسه لا يعرف لماذا. هكذا فقط. إذ أن الإنسان يجري عندما يهطل فوقه المطر – إلى بيته أو ليلتجئ إلى سقف ما. مجرد عادة. وإلا فلماذا الهرب من هذا المطر؟ أدرك هذا وتوقف عندما رأى أن أسرة كوطيبايف كلها – أبو طالب وظريفة وابناهما الاثنان داول وارميك يدبكون ممسكين بأيدي بعضهم البعض ويقفزون تحت المطر قرب منزلهم. أدهش هذا المشهد يديغاي، ليس لأنهم فرحون مسرورون بالمطر، بل لأن أبا طالب وظريفة كانا قبل بداية المطر

يجتازان الطريق بخطى واسعة عائدين من العمل بسرعة. لقد فهم الآن: يريدان أن تكون الأسرة بكاملها هما والأطفال، معاً تحت المطر. ما كان يديغاي ليفكر بهذا. كانت أسرة أبي طالب تستحم تحت حبال المطر. كانون يرقصون ويضجون كالإوّز الطائر فوق بحر آرال. كان هذا عيداً بالنسبة لهم، ومتنفساً من السماء. لقد حنوا واشتاقوا في صاروزيكي إلى المطر. فرح يديغاي وحزن وضحك وأسف لهؤلاء المنبوذين الذين تعلقوا بلحظة مشرقة مرت بنقطة أم العواصف.

- يديغاي، تعال إلينا. صرخ أبو طالب عبر حبال المطر وهو يلوح بيديه وكأنه يسبح.

- عم يديغاي – واندفع إليه الأطفال بدورهم فرحين.

ركض الصغير ارميك حبيب يديغاي، وكان في سنته الثالثة، ركض إلى يديغاي فاتحاً ذراعيه فاغراً فاه. كانت عيناه تنضحان فرحاً لا يوصف وعبثاً وبطولة. التقطه يديغاي ودار به وهو على ذراعه ولم يعرف كيف يتصرف بعد ذلك. لم يكن ينوي أن ينضم إلى هذه اللعبة العائلية، ولكن بنات يديغاي ساوليه وشربات انطلقن في هذه اللحظة من خلف زاوية البيت بزعيق حاد. لقد جاءتا على ضجيج عائلة كوطيبايف. كانتا سعيدتين أيضاً. وانضم الجميع إلى هذا الهرج تحت المطر المنسكب بغزارة.

لم ينزل يديغاي ارميك الصغير عن ذراعه خشية أن يقع هذا الصغير في غمرة هذا الهرج والمرج في بركة فيشرق بالماء. أما أبو طالب فقد أجلَسَ ابنة يديغاي الصغيرة شربات عن ظهره. وصاروا يركضون جاعلين من هذا لعبة للأطفال. كان أرميك ينطنط على ذراع يديغاي صارخاً بأقصى ما يستطيع، وعندما يشرق بالماء يلصق وجهه المبتل بقوة وسرعة برقبة يديغاي. كان هذا مثيراً للمشاعر. حتى أن يديغاي استطاع أكثر من مرة أن يلتقط نظرات أبي طالب وظريفة المشعة بالامتنان إليه وهما مسروران لأن

ابنهما مرح وسعيد مع عمه يديغاي. لكن يديغاي وبناته كانوا سعداء أيضاً في هذا الاحتفال المطري الصاخب الذي أقامته أسرة أبي طالب. ولاحظ يديغاي عن غير قصد منه، مدى جمال ظريفة، المطر يبلل شعرها السود المنسدل على وجهها ورقبتها وكتفيها، وينساب الماء على جسمها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها بغزارة وينساب على جسم هذه المرأة الفتي مبرزاً رقبتها ويديها وفخذيها وبطات ساقيها، أما عيناها فقد كانتا تشعان بالفرح والحرارة وأسنانها تلتمع سعيدة في فمها.

المطر بالنسبة لصاروزيكي لا نفع منه ولا فائدة. الثلوج تتغلغل تدريجياً في التربة، أما المطر، أياً كان، فهو كالزئبق على الكف، يجري على السطح إلى المنحدرات والوديان، يهدر ويصخب ثم يختفي.

بعد بضع دقائق من انهمار هذا المطر الغزير بدأت السواقي تتدفق قوية سريعة مزبدة. عندها سار أهل صاروزيكي يركضون ويقفزون في هذه السواقي وصاروا يطلقون الطسوت والمعالف على الماء، حتى أن الأطفال الكبار داول وساوليه صاروا يسبحون على الطسوت في السواقي، فاضطروا إلى إجلاس الصغار في المعالف كي يسبحوا عليها أيضاً...

وظل المطر ينهمر. لم يلحظ الأطفال المشغولون بالسباحة أنفسهم إلا وهم عند الطريق تماماً تحت مرتفع الخط الحديدي عند طرف النقطة. في هذه الأثناء مر قطار ركاب من أم العواصف. كان الركاب يخرجون أجسامهم حتى منتصفها من نوافذ وأبواب القطار المشرعة وينظرون إلى هؤلاء البائسين غرباء الأطوار في الصحراء، ويصرخون «هيه إياكم أن تغرقوا» ويقهقون ويصفرون. يبدو أن هذا المشهد كان بالنسبة لهم غريباً جداً. وتابع القطار سيره وقد غسلته الأمطار، حاملاً معه أولئك الذين سيروون ما رأوه، ربما بعد يوم أو يومين، على سبيل التفكه.

ما كان يديغاي ليفكر بشيء من هذا لولا أنه لاحظ أن ظريفة تبكي. وعندما ينساب الماء غزيراً على وجه المرء يصعب الحكم إن كان هذا الإنسان يبكي أم لا. ومع ذلك كانت ظريفة تبكي. كانت تتظاهر بأنها تضحك وأنها فرحة لدرجة الجنون، بينما كانت تبكي محاولة كتمان شهقاتها، مقطعة البكاء بالضحك والصراخ. أمسك أبو طالب ظريفة من يدها بقلق:

- ما بك؟ أنت منزعجة؟ هيا إلى البيت.

- لا، لا، أنا أحزق فقط.

وعادا ثانية إلى ملاعبة الأطفال، مستعجلين لإشباعهم من هبة هذا المطر العابر. وارتبك يديغاي وانزعج جداً إذ تصور صعوبة أن يدرك هؤلاء أن هناك حياة أخرى أبعدوا عنها، حياة لا يعتبر المطر فيها حدثاً، والناس يسبحون ويستحمون في الماء النظيف الرقراق، حيث توجد ظروف أخرى وتسليات أخرى واهتمامات أخرى بالأطفال... وكي لا يزعج أبا طالب وظريفة اللذين تصنعا هذه الفرحة من أجل الأطفال فقد ظل يديغاي مستمراً في هذا اللهو...

الكبار والصغار ركضوا ولعبوا حتى شبعوا والمطر ما يزال ينهمر. ثم انصرفوا إلى البيوت. نظر يديغاي في أثرهم نظرة تحبب وعطف وهم يركضون بجانب بعضهم: الأب والأم والأطفال وجميعهم مبتلون تماماً. فليكن ولو يوم سعادة واحد في صاروزيكي.

ظهر يديغاي على عتبة بيته وهو يحمل ابنته الصغرى على يده ويقود الكبرى من يدها، فضربت اوقوبالا كفاً بكف من الخوف:

- أوي. ماذا حل بكم؟ أترون من تشبهون؟

- لا تخافي، يا أمنا. – هدأ يديغاي من روعها وضحك – عندما يسكر الجمل الفحل يلاعب صغاره.

- وأنا أرى أنكم أصبحتم مثلهم – ضحكت اوقوبالا معاتبة – اخلعوا ثيابكم. لا تقفوا كالدجاج المبتل.

توقف المطر، ولكنه ظل يهطل في مكان ما عند أطراف صاروزيكي حتى الفجر، كان هذا واضحاً لأنه كانت تصل في الليل أصوات قصف رعد بعيد، حتى أن يديغاي استيقظ أكثر من مرة في الليل على هذه الأصوات، واستغرب ذلك. عند بحر آرال كان الرعد يقصف فوق رأسه ولكنه كان ينام – إلا أن الأمر هناك مختلف – البرق والرعد هناك أمر اعتيادي. عندما استيقظ يديغاي كان يحس من خلال جفونه المطبقة كيف كان ينعكس على النوافذ بوميض خاطف ضوء البرق غير الواضح المعالم الملتمع في أماكن مختلفة من السهب.

في تلك الليلة حلم يديغاي العاصف أنه في الجبهة منبطح تحت القصب، لكن القذائف تتساقط بلا ضجيج والانفجارات بلا أصوات وتطير الشظايا في الهواء ثم تتسمر نثراً سوداء لتعود وتهوي ببطء وتثاقل. أحد هذه الانفجارات قذف به عالياً في الهواء، وعاد هو ليهوي مدة طويلة في فراغ عميق وقلبه واجف لا ينبض، ثم ركض مهاجماً. كان عددهم كبيراً جداً، كلهم جنود في معاطف رصاصية اللون، مندفعون في الهجوم. لم يكن بالإمكان تمييز الوجوه وكأنهم مجرد معاطف تركض من ذاتها وهي تحمل البنادق. وعندما بدأت المعاطف تصرخ «اورا» ظهرت على طريق يديغاي ظريفة وهي تضحك وقد بللها المطر. كان هذا غريباً. كانت ترتدي ثوباً من قماش الشيت وخصلات شعرها متهدلة مع حبال الماء المنسابة على وجهها وهي تضحك بلا توقف. لم يكن لدى يديغاي وقت ليتوقف، إذ تذكر أنه ماض إلى الهجوم، فقال لها: «لماذا تضحكين هكذا يا ظريفة؟ ليس هذا فال خير»، أما هي فقد ظلت تضحك تحت المطر وأجابته «أنا لا اضحك، أنا أبكي»...

في اليوم التالي أراد يديغاي أن يروي لأبي طالب ولها هذا الحلم، ولكنه عدل عن ذلك. ما الداعي لإزعاج الناس أكثر مما هم فيه...

بعد هذا المطر العظيم تراجع الحر في صاروزيكي، أو – كما قال قازانغاب – انتهت هجمة الصيف، وجاءت أيام قائظة ولكنها أيام يمكن تحملها. ومن هنا بدأت تدريجياً هناءة صاروزيكي في أيام ما قبل الخريف. أطفال أم العواصف تخلصوا من الحر المضني، وعادوا إلى حيويتهم وعادت أصواتهم ترن. في هذه الأيام أرسلوا إلى النقطة من قومبيل خبراً مفاده أن بطيخاً أحمر وبطيخاً أصفر قد وصل من قيزيل أوردا إلى المحطة، ويقولون أنه يمكن، إذا رغب أهل أم العواصف، أن يرسلوا لهم حصتهم، وإلا فليحضروا بأنفسهم لاستلامها. واستغل يديغاي هذا، واقنع رئيس النقطة أنه يجب أن يذهب بنفسه، وإلا فلن يرسلوا لنا إلا النفايات. وافق رئيس النقطة وقال ليديغاي: حسناً، اذهب أنت وكوطيبايف وانتقوا البطيخ الجيد. وهذا ما كان يريده يديغاي. كان يريد أن يخرج أبا طالب وظريفة وأطفالهما ولو ليوم واحد من أم العواصف. وهو أيضاً، لن يضيره أن يستنشق الهواء. وذهبت الأسرتان مع أطفالهما في الصباح الباكر على قطار عابر إلى قومبيل. ارتدوا ملابس جيدة، فكان مجرد هذا وحده بهجة. تصور الأطفال أنهم ذاهبون إلى بلد أسطوري، فطوال الطريق ظلوا يهللون ويستفسرون: هناك يوجد أشجار؟ يوجد، ويوجد هناك حشيش؟ أخضر؟ يوجد، وأخضر. ويوجد زهور أيضاً. توجد أبنية كبيرة وسيارات تسير في الطرقات؟ والبطيخ هناك قدر ما تريد؟ ويوجد مرطبات؟ بحر يوجد؟

كانت الريح تتغلغل في عربة الشحن بتيارات معتدلة مريحة عبر الأبواب المفتوحة التي سدت بحاجز خشبي من باب الاحتياط، وكي لا يقع الصغار، مع أن يديغاي وأبا طالب جلسا على صناديق فارغة عند حافة العربة على الممر تماماً. جلسا يتجاذبان أطراف الحديث ويجيبان على أسئلة

الأطفال. كان يديغاي العاصف مسروراً بهذه الرحلة المشتركة، ومرتاحاً لأن الطقس جيد والأطفال سعداء. ولكن فرحه الأكبر لم يكن لأجل الأطفال، بل لأجل أبي طالب وظريفة. كان وجهاهما مشرقين. فقد تحررا لبعض الوقت، من الهم الدائم ومن الضغط الداخلي على الأقل، وهذا يكفي. وفكر يديغاي وهو في هذه النشوة: ربما يسمحون لأبي طالب بالحياة في صاروزيكي حسبما يستطيع وقدر ما يستطيع. إن شاء الله.

كان المشهد مفرحاً – ظريفة واوقوبالا تتحدثان بانسجام كبير عن مختلف المسائل الحياتية. كانتا سعيدتين. هذا ما يجب أن يكون. وهل يحتاج الناس لأكثر من هذا... كان يديغاي مفعماً بالرغبة في أن تنسى أسرة كوطيبايف أيامها السوداء، وأن تستطيع الوقوف على إقدامها والتلاؤم مع حياة أم العواصف، إذ لا خيار آخر أمامها. ومما أفرح يديغاي أيضاً أن أبا طالب جلس بجانبه وقد ألصق كتفه بكتفه، وهو يعرف أنه يمكن الاعتماد على يديغاي، وأن كل منهما يفهم الآخر دون حاجة للكلام الزائد ودون أن يتطرقا للشكوى من المشاكل الصعبة التي لا ضرورة للكلام عنها عند كل خطوة. يديغاي كان يقدر ذكاء أبي طالب ورباطة جأشه وأكثر من هذا وذاك كان يقدر ارتباطه بأسرته التي عاش أبو طالب من أجلها دون أن يستسلم، مستمداً القوة منها. بعد سماع كلام أبي طالب خرج يديغاي باستنتاج مفاده أن أفضل ما يمكن أن يفعله الإنسان من أجل الآخرين هو أن يربي في أسرته أطفالاً جيدين، وليس بمساعدة الآخرين، بل بأن يمنح نفسه يوماً بعد يوم وخطوة إثْر خطوة لهذه القضية، وأن يظل مع أطفاله أكثر ما يستطيع وأطول وقت ممكن.

من هنا يتضح السبب. لقد علموا سابيتجان منذ نعومة أظفاره في المدارس الداخلية وفي المعاهد والدورات المختلفة لرفع التأهيل. كان قازانغاب المسكين يصرف كل ما ينتجه وثمرة كل عمله على إقامة ابنه في

المدن كي لا يكون أسوأ من غيره – وما هي الفائدة؟ يعرف كل شيء ولكن الفاشل يظل فاشلاً.

فكر يديغاي عندما كانوا في طريقهم إلى قومبيل لإحضار البطيخ أنه ما دام لا يوجد مخرج آخر فسيكون على أبي طالب كوطيبايف أن يضرب جذوره كما يجب في أم العواصف. أن يقتني أملاكاً وأن يربي ماشية وينشيء أبناءه بقدر استطاعته في صاروزيكي. طبعاً لم ينصحه ولم يرشده إذ فهم من الأحاديث أن ابا طالب ميال إلى هذا وأن لديه مثل هذه النية. فقد كان يهتم بمسألة التزود بالبطاطا وشراء جزم شتوية لزوجته وأطفاله، أما هو فتكفيه الجزمة العادية. وسأل أيضاً عما إذا كانت توجد في قومبيل مكتبة، وإنْ كانت هذه المكتبة تعير الكتب إلى البيت لقراءتها.

في مساء ذلك اليوم عادوا على قطار شحن عابر أيضاً ومعهم البطيخ الذي خصصته مديرية التموين العمالي لأهل أم العواصف. أرهق الأطفال طبعاً ولكنهم كانوا جد مسرورين. فقد رأوا العالم في قومبيل، اشتروا لعباً وأكلوا مرطبات وغيرها. وقد حدث أمر صغير في صالون الحلاقة في المحطة: قرروا أن يقصوا شعور الأولاد، وعندما جاء دور ارميك بدأ الصراخ والبكاء، ولم يقدروا عليه. الجميع صاروا يترجونه أما هو فيصرخ منادياً أباه ويبكي خائفاً. في هذه الأثناء كان أبو طالب قد خرج إلى مخزن مجاور. لم تعرف ظريفة كيف تتصرف فأحمر وجهها واصفَرَّ من الخجل، وهي تبرر ذلك بأنهم لم يقصوا له شعره منذ ولادته – كانوا يتأسفون عليه لأن شعره كان أجعد وجميلاً جداً. وفعلاً كان شعر ارميك كثيفاً متموجاً يشبه شعر أمه. وبشكل عام، كان الصغير يشبه ظريفة. عندما يغسلون له رأسه ويمشطون شعره يصبح وأمه صورة واحدة.

عند ذلك لجؤوا إلى أسلوب آخر وهو أن سمحت اوقوبالا بقص شعر ساوليه وقالوا له: انظر، هذه بنت لا تخاف. أثر هذا بعض الشيء عليه ولكن

ما كاد الحلاق يمسك بآلة الحلاقة حتى ارتفع الصراخ والبكاء من جديد. في هذه اللحظات ظهر أبو طالب في الباب فاندفع ارميك إلى أبيه، الذي حمله وضمه بقوة إليه وأدرك أن لا ضرورة لتعذيب الطفل. فقال للحلاق:

- اعذرنا. في مرة أخرى. نستجمع قوانا و...

حتى الآن بإمكانه البقاء هكذا. لا حاجة للاستعجال... في مرة أخرى...

أثناء الاجتماع الطارئ للجان الخاصة مطلقة الصلاحية على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» أرسلت بالراديو رسالة مرمزة أخرى إلى المحطة المدارية «باريتيت» بناء على اتفاق مشترك بين الجانبين، وهذه الرسالة مخصصة لنقلها إلى الرائدين الموازيين ١-٢ و٢-١ الموجودين على الكوكب ذي الحضارة اللا أرضية – لا تأتوا أبداً بأي تصرف وابقوا في مكانكم حتى وصول تعليمات أخرى من اوبتسينوبر.

واستمر الاجتماع خلف الأبواب المغلقة كما كان. وحاملة الطائرات «كونفينتسيا» ظلت كما كانت في مكانها في المحيط الهادئ، إلى الجنوب من جزر اليوت على مسافة متماثلة تماماً عن سان فرانسيسكو وفلاديفوستوك.

لم يكن أحد في العالم – كالسابق – يعرف بعد بحدوث هذا الحدث العظيم بين المجرات – وهو اكتشاف كوكب ذي حضارة لا أرضية، ضمن مجموعة النجم الحامل، تقترح مخلوقاته العاقلة إقامة اتصال مع سكان الأرض.

ناقش الطرفان أثناء الاجتماع الطارئ كل إيجابيات وسلبيات هذه القضية غير المتوقعة وغير العادية. كان يوجد على الطاولة أمام كل عضو من أعضاء اللجنتين – إلى جانب المواد الإضافية الأخرى – مصنف يحتوي على النص الكامل لرسالة الرائدين الموازيين ١-٢ و٢-١. درسوا كل فكرة وكل كلمة في هذه الوثيقة، وكل تفصيل عن واقع بنية الحياة العاقلة على كوكب صدر الغابة. ناقشوه – بالدرجة الأولى – من وجهة نظر نتائجه

الممكنة وإمكانية توافقه أو عدم توافقه مع تجربة الحضارة الأرضية ومع مصالح الأطراف الرئيسية على الأرض. لم يسبق لأحد من الناس أن اصطدم بمثل هذه القضية. كان يجب حل المسألة بشكل مستعجل...

والعاصفة في المحيط الهادي كانت – كالسابق – متوسطة القوة...

بعد أن اجتازت أسرة كوطيبايف أفظع مراحل صيف صاروزيكي الجهنمية دون أن تجمع حوائجها وترحل من أم العواصف إلى أي مكان آخر، لمجرد الرحيل من هنا، بعد ذلك أدرك سكان أم العواصف أن هذه الأسرة ستبقى هنا وستصمد. تشجع وانتعش أبو طالب كوطيبايف بشكل ملحوظ، والأصح استغرق في أعمال أم العواصف. اعتاد طبعاً وتكيف مع ظروف الحياة في هذه النقطة. كان من حقه – ككل إنسان وكأي إنسان – أن يقول أن أم العواصف هي أكثر أماكن الأرض موتاً، ما دام الماء يجلب إليها بالصهاريج على الطريق الحديدية للشرب ولكل الحاجات الأخرى. أما من يريد أن يشرب ماء حقيقياً عذباً فعليه أن يقتب جمله ويذهب مع قربه إلى بئر في آخر الدنيا وهذا ما لا يقدم عليه إلا يديغاي وقازانغاب.

استمر الحال هكذا من عام ١٩٥٢ وحتى الستينات، حيث ركبت في النقطة مضخة كهربائية للماء من الأعماق. إذ ذاك لم يكونوا يحلمون بهذا. ومع ذلك لم يلعن أبو طالب ولم يشتم نقطة أم العواصف أو صاروزيكي. كان يتقبل السيء على أنه سيء والجيد على أنه جيد. هذه الأرض، في نهاية المطاف، ليست مذنبة في شيء، فالإنسان نفسه يجب أن يقرر العيش هنا أو عدم العيش...

على هذه الأرض حاول هؤلاء الناس أن يرتبوا حياتهم بشكل مريح. فعندما وصلت أسرة كوطيبايف إلى قناعة نهائية بأن مكانهم هنا في أم العواصف، وأنه ليس هناك مكان آخر يقصدونه، وأن عليهم أن يرتبوا أمورهم ويؤسسوا لحياتهم هنا، لم يكن الوقت كافياً للشؤون المنزلية. طبعاً،

كان يجب العمل كل يوم أو كل وردية، وفي وقت الفراغ كانت المشاغل كثيرة. تعذب أبو طالب وتعب كثيراً عندما بدأ بتجهيز مسكن للشتاء – بنى مدفأة وأصلح الباب ليحتفظ بالحرارة وضبط ملابنه وركبها. لم تكن لديه مهارة في هذه الأمور، لكن يديغاي ساعده بالمواد وبالمعدات ولم يتركه وحيداً. وعندما أخذوا يحفرون قبواً قرب المستودع لم يبق قازانغاب متفرجاً. حفر الثلاثة قبواً صغيراً غطوه بالعوارض القديمة والقصب وطينوه بالطين وصنعوا سقفاً متيناً لكي لا تسقط فيه الماشية. ومهما عملوا وكيفما داروا وراحوا وجاؤوا كان أبناء أبي طالب بأمرتهم. فمع أنهم كانوا يعيقون العمل أحياناً إلا أن وجودهم كان يجعل الجو أكثر لطفاً ومرحاً. فكر يديغاي وقازانغاب كيف العمل لمساعدة أبي طالب على الحصول على بعض الممتلكات، فتبرعوا له ببعض الشيء، وقرروا أن يخصصوا له منذ الربيع ناقة حلوب. والمهم أن يتعلم حلبها، فهي ليست بقرة، والناقة يجب حلبها وقوفاً. يجب أن يتعلم كيف يرعاها في السهب، وبشكل خاص، كيف يحافظ على الحوار – السماح له بالرضاع في الوقت اللازم وإبعاده في الوقت اللازم. فمشاغل العناية بالحوار ليست قليلة، ويجب على أبي طالب أن يعرف كل هذه الأمور...

لكن ما أفرح يديغاي العاصف أكثر من غيره ليس أن أبا طالب بدأ الاهتمام بمقتنياته وأنه يهتم باستمرار بأطفال الأسرتين ويعلمهم مع ظريفة قراءة الكتب والرسم، بل أنه إضافة إلى مصارعته وتفوقه على خواء أم العواصف كان يهتم بنفسه. أبو طالب كوطيبايف كان إنساناً متعلماً، وخليق به أن يقرأ الكتب وأن يسجل لنفسه الملاحظات. كان يديغاي يفتخر بينه وبين نفسه بأن عنده مثل هذا الصديق، لذلك كان ينشد إليه. والصداقة مع بليزاروف – جيولوجي صاروزيكي – الذي كان يجيء إلى هنا بكثرة. لم تكن مجرد مصادفة. يديغاي يحترم العلماء والناس العارفين، وأبو طالب كان

يعرف الكثير، لكنه كان يحاول أن يقلل من التفكير بصوت عال. وذات مرة دار بينهما هذا الحديث الجدي.

في المساء كانا عائدين من العمل على الطريق. كانوا في ذلك اليوم ينصبون جدرانا واقية من الثلج عند الكيلو متر السابع، حيث تثور العواصف الثلجية كثيراً. مع أن الخريف لم يشتد بعد، إلا أنه يجب الاستعداد للشتاء قبل قدومه بوقت كاف. إذن، كانا عائدين إلى البيت. كان ذلك المساء مساء منيراً لطيفاً يطيب فيه الكلام. في مثل تلك الأمسيات تبدو مناطق صاروزيكي كما يبدو قعر بحر آرال من قارب على سطحه في الطقس الهادي – يمكن استشفافها فقط من خلال ضبابية المغيب الشفافة.

- ما القصة يا أبا طالب. كلما مررت مساء أراك مكباً على رف النافذة تكتب وتؤلف شيئاً ما، والمصباح بجانبك؟

استجاب أبو طالب بحماس لهذا الحديث وهو ينقل الرفش من كتف إلى كتف.

- هكذا فقط. لا توجد عندي طاولة للكتابة عليها. عندما يأوي أشقيائي للفراش. طريفة تأخذ شيئاً ما لتقرأه وأنا أسجل بعض الأشياء التي ما تزال في ذاكرتي – الحرب، وبشكل خاص سنواتي في يوغوسلافيا. الوقت يمر وما كان في الماضي يبتعد الآن عنا أكثر وأكثر – وصمت قليلاً – دائماً أفكر بما يمكنني أن أفعله من أجل أطفالي. طعامهم وشرابهم وتربيتهم أمر مفروغ منه، أقدم ما أستطيع عليه. لقد عشت وقاسيت ما لا يقاسيه غيري خلال مئة سنة، وما أزال حياً أتنفس. ويجب ألا تذهب هذه الإمكانية التي وفرها لي القدر سدى. ربما وفر لي القدر هذه الإمكانية لكي أقول شيئاً ما لأطفالي بالدرجة الأولى. ويجب علي أن أقدم لهم كشف حساب عن حياتي، بما أنني أنجبتهم إلى هذه الدنيا. هكذا أفهم أنا الأمور. طبعاً هناك حقيقة عامة للجميع، ولكن لكل واحد منا فهمه الخاص، الذي يموت بموته. عندما يمر الإنسان في الحلقة

الفاصلة بين الموت والحياة في عمرة صراع القوى العالمية وعندما يكون بالإمكان قتله أكثر من مئة مرة، لكنه يظل حياً، فإنه يتمكن من فهم الكثير – الخير والشر، الحقيقة والكذب...

- قف. شيء واحد لا افهمه – قاطعه يديغاي باستغراب – ربما أنت تقول أشياء صحيحة، لكن أبناءك ما زالوا صغاراً، أغراراً، يخافون من آلة الحلاقة، فماذا سيفهمون؟

- ولذلك أنا أسجل. أريد أن أحفظها لهم. هل سأكون حياً أم ميتاً، لا أحد يعلم. ها هو اليوم الثالث وأنا مستغرق في التفكير كالمجنون، حتى أن القطار كاد يعفسني. لكن قازانغاب لحق ودفع بي، ثم صرخ بي وشتمني وقال: ليسجد أبناؤك اليوم حمداً لربهم.

- فعلاً. أنا قلت لك ذلك منذ زمن بعيد، وقلت لظريفة. – انتهز يديغاي الفرصة ليعرب مرة أخرى عن مخاوفه، وليعرب عن استيائه – ما بك، تسير على الخطوط وكأن القطار هو الذي يجب أن يتنحى عن طريقك؟ هناك قواعد للسلامة. إنسان متعلم. كم مرة يجب أن نقول لك ذلك؟ أنت الآن عامل في الطريق الحديدية وتسير وكأنك في سوق. قد تقع. فلا تمزح.

- إن حصل شيء كهذا فسيكون ذنبي – وافق أبو طالب عابساً – ولكن اسمعني، وبعدها تكمل.

- أنا أقول هذا بالمناسبة فقط. تكلم.

- في الزمن الماضي كان الناس يتركون لأبنائهم تركة، ترك هذه التركة يكون خيراً أحياناً وشراً أحياناً أخرى. كم من الكتب كتبت حول هذا الموضوع وكم ألف من الحكايا، وكم عرضت من المسرحيات في المسارح عن تلك الأزمنة، كيف قسمت تلك التركات وماذا حل بالورثة... لماذا؟. لأن هذه التركات، في أغلبيتها تكونت بشكل غير عادل. فكونت من عذابات وعرق الآخرين، من الخداع، ولذلك تنطوي منذ بدايتها على الشر والخطيئة

والظلم أما أنا فأعزي نفسي بأننا والحمد لله، نجونا من هذا. فتركتي لن تجلب الأذى لأحد. إنّها مجرد روحي ومذكراتي، وفيها كل ما فهمته واستنتجته من الحرب. ليست لَدَيَّ ثروة كبيرة لأطفالي. وقد وصلت إلى هذه الفكرة هنا في صاروزيكي. الحياة كانت تدفعني إلى هنا باستمرار لكي أضيع واختفي، وأنا اكتب لهم كل ما أفكر به واتكهنه لذلك سأكون موجوداً في أطفالي ذات يوم. فما لم أستطعه أنا، قد يستيطعونه هم... حياتهم ستكون أصعب من حياتنا. فليتحلوا بالحكمة منذ صغرهم...

سارا بعض الوقت صامتين، كل منشغل بأفكاره. استهجن يديغاي أن يسمع مثل هذا الكلام. واستغرب أنه يمكن أن يفهم الإنسان جوهر وجوده على الأرض على هذا النحو. ومع ذلك قرر أن يستفسر عما أدهشه.

- الكل يعتقدون، ويذيعون في الراديو، أن أطفالنا سيعيشون حياة أفضل وأسهل، وأنت ترى أن حياتهم ستكون أصعب من حياتنا. أهذا لأنه ستقع حرب ذرية؟

- لا، ليس فقط لهذا السبب. ربما لن تقع حرب، وإنْ وقعت ففي وقت ليس قريباً. المسألة لا تتعلق بالخبز. عجلة الزمن تدور أسرع وأسرع، وعليهم أن يصلوا إلى كل شيء بأنفسهم، وسيكونون مسؤولين عنا إلى حد ما بعد انقضاء زمننا. والتفكير دائماً صعب. لذلك ستكون حياتهم أصعب من حياتنا.

لم يشأ يديغاي أن يستفهم لماذا التفكير صعب دائماً. وعبثاً لم يفعل، لأنه تأسف جداً فيما بعد عندما تذكر هذا الحديث لأنه لم يستفهم. كان يجب السؤال والاستفسار عن فحوى هذه الفكرة...

- لماذا أقول هذا الكلام؟ - تابع أبو طالب وكأنه يستجيب لشكوك يديغاي – الكبار بالنسبة للأطفال الصغار يبدون دائماً أذكياء ومعتبرين. يكبر الصغار وينظرون – وإذ بالمعلمين، أي نحن، لم يكونوا على هذه الدرجة من

المعرفة والذكاء، كما كانوا يبدون. قد يضحكون عليهم. وأحياناً يبدو معلموهم الكبار ضعافاً بائسين. فدولاب الزمن يدور أسرع وأسرع. إلا أننا يجب أن نطلق بأنفسنا على أنفسنا الحكم الأخير. أسلافنا حاولوا أن يفعلوا ذلك من خلال الحكايات والأساطير. أرادوا أن يبرهنوا لمن سيأتي بعدهم أنهم كانوا عظاماً. ونحن الآن نحكم عليهم من خلال آثارهم. وأنا أفعل الآن ما أستطيع فعله من أجل أبنائي – حكاياتي هي أعوامي التي قضيتها في الحرب. أكتب لهم مذكراتي الفدائية. كل شيء كما كان، كل ما شاهدت وما قاسيت. ستفيدهم عندما سيكبرون. عدا ذلك هناك بعض الأفكار. سينشؤون في صاروزيكي وعندما سيكبرون يجب ألا يظنوا أننا عشنا في أرض يباب. دونت أغانينا القديمة، فهي أيضاً ستضيع مع الزمن. الأغنية كما أفهم أنا، هي أنباء من الماضي. زوجتك اوقوبالا تعرف الكثير منها. ووعدتني أن تتذكر المزيد أيضاً.

- طبعاً، وكيف لا، فهي من آرال – قال يديغاي مفاخراً – كازاخيو آرال يعيشون عند البحر، والغناء عند البحر شيء جميل. البحر يفهم كل شيء. أي شيء تقوله ينطلق من الروح ليمتزج مع البحر.

- هذا صحيح تماماً. أعدت قراءة ما دونته منذ مدة وجيزة فكدنا نبكي أنا وظريفة. ما أجمل ما كانوا يغنونه في الماضي. كل أغنية هي تاريخ كامل. هكذا تنظر إلى أولئك الناس وتتمنى لو تمتزج روحك بروحهم، وتتمنى أن تعاني وتحب مثلهم. هذه هي الذكرى التي تركوها بعدهم. لقد أثرت أيضاً حماس بوكيي زوجة قازانغاب، قل لهم تذكري أغاني قاراقالباك وأنا سأدونها في دفتر خاص، سنسميه دفتر قاراقالباك...

هكذا سارا غير مسرعين بمحاذاة الطريق الحديدية. كانت ساعة نادرة. كانت نهاية هذا اليوم من أيام الخريف المبكر هادئة خفيفة كنسمة هواء بطيئة. ليس في صاروزيكي لا غابات ولا أنهار ولا حقول، لكن الشمس التي خبا

نورها خلقت انطباعاً وكأن السهب مليء بالغابات والأنهار بفضل تلك الحركة الخفية للضوء والظلال على وجه الأرض. الزرقة العكرة المنسابة التي تأسر الروح في هذا المدى تسمو بالتفكير وتخلق الرغبة بحياة مديدة وتأمل عميق...

تذكر أبو طالب ما كان قد أجله في سريرة نفسه على أن يعود إليه فيما بعد، فتابع يقول:

- اسمع، يديغاي، منذ زمن وأنا أنوي سؤالك: الطير دونينياي –كيف تظن – ربما فعلاً يوجد في الطبيعة طير يسمى دونينباي – ألم تر مثل هذا الطير؟

- هذه أسطورة.

- أعرف. لكن كثيراً ما تكون الأساطير مستندة إلى واقع كان في الحياة. مثلاً يوجد طير ايفولغا الذي يغني عندنا في سيميريتشيه[1] طوال النهار في البساتين الجبلية وهو يسأل: «من هو عريسي؟». هذا مجرد لعبة تقارب الصوت. وتوجد أسطورة حول هذا الطير ولماذا يغني هكذا. وأنا أفكر، ألا يوجد مثل هذا التقارب في الصوت في هذه الحكاية؟ ربما يوجد في السهب طير يزعق بما يشبه في صوته اسم دونينباي، ولذلك أصبح أسطورة؟

- لا أعرف. لم أفكر بهذا – أبدى يديغاي ارتيابه – ولكنني رغم سفري الكثير في طول هذه الأماكن وعرضها لم أر هذا الطير، إذن فهو غير موجود.

- ربما. – أجاب أبو طالب شارداً.

- وإذا لم يكن هذا الطير موجوداً، أيعني أن كل هذا غير صحيح؟ - قالها يديغاي قلقاً.

- لا، أبداً. فمقبرة انابيت موجودة، وهذا يعني أن شيئاً ما كان موجوداً هناك. وأنا أظن أيضاً أن هذا الطير موجود، وأن هناك من رآه ذات مرة. هكذا سأكتب للأطفال.

---

(١) سميريتشيه تسمية لمنطقة. الكلمة تعني النهر السبعة.

- إذا كان للأطفال... ممكن.

حسب ما يذكر يديغاي العاصف، لم يدون أسطورة صاروزيكي حول نايمان أنا على الورق إلا شخصان. في البداية دونها أبو طالب كوطيبايف من أجل أطفاله عندما يكبرون، وكان هذا في نهاية عام ١٩٥٢ وضاعت تلك المخطوطة. كم من المآسي مرت بعد ذلك التاريخ. بعد بضعة سنوات، في حوالي عام ١٩٥٧ دونها أفاناسي ايفانوفيتش يليزاروف. ويليزاروف الآن غير موجود، أما المخطوطة، من يعرف، ربما ظلت بين أوراقه في آلما آتا... الاثنان دوناها بشكل رئيسي عن رواية قازانغاب. وكان يديغاي حاضراً أثناء ذلك ولكن بصفة مذكر ومعلق على طريقته الخاصة.

«منذ ذلك الحين، يا إلهي، مرت أعوام وأعوام» - فكر يديغاي العاصف بهذا وهو يترنح بين سنامي قارانار. ها هو الآن ينقل قازانغاب إلى مقبرة انابيت. لقد أقفلت الحلقة. فراوية الأسطورة نفسه سيحظى بالسكينة الأبدية في المقبرة التي كان يحفظ تاريخها ويرويه للآخرين.

«لم يبق إلا أنا وانابيت» يديغاي بأسى وهو في طريقه قائداً على جمله موكب الدفن الغريب هذا الذي كان يسير خلفه في السهب على جرار وعربة مقطورة وحفارة «بيلوروس»، التي كانت تختتم الموكب. أما الكلب الأصهب جولبارس، الذي انضم إلى الجنازة بملء إرادته، فكان يسمح لنفسه أن يسير في مقدمة الموكب تارة وتارة أخرى في مؤخرته، وتارة ثالثة بجانبه وأحياناً يغادره لفترة ما... كان يسير وذيله مشدود بقوة، وهو يتلفت حوله باهتمام...

وصلت الشمس إلى ذروة ارتفاعها، وحل منتصف النهار. ولم يبق حتى مقبرة انابيت إلا القليل...

* * *

- ٧ -

مع كل هذا كان ختام سنة ١٩٥٢، أو الأصح، كل الخريف والشتاء، الذي جاء، في الواقع، متأخراً ولكن دون عواصف ثلجية، كان أفضل الأيام بالنسبة لتلك الحفنة من سكان نقطة أم العواصف إذ ذاك. وكثيراً ما تشوق يديغاي لتلك الأيام فيما بعد.

كان قازانغاب عميد سكان أم العواصف وكبيرهم، وكان لبقاً جداً. لم يتدخل في أي شأن لا يخصه، وكان عندها في كامل صحته وقوته. ابنه سابيتجان كان يدرس إذ ذاك في مدرسة قومبيل الداخلية، وكانت أسرة كوطيبايف قد استقرت في صاروزيكي. دفؤوا المنازل وتزودوا بالبطاطا استعداداً للشتاء وحصلوا على جزم البادية لظريفة والصغار وأحضروا من قومبيل كيس طحين كامل. أحضره يديغاي نفسه من دائرة التموين العمالي على ظهر قارانار الفتي الذي كان قد دخل مرحلة القوة. كان أبو طالب يعمل كما يجب وفي أوقات الفراغ يهتم، كالسابق، بأولاده وفي الليل يجلس قرب المصباح عند رف النافذة ليكتب بجد واهتمام.

كانت توجد أيضاً أسرتان أو ثلاث من أسر عمال المحطة ولكنهم – حسب كل الدلائل – مقيمون مؤقتون في النقطة. رئيس النقطة إذ ذاك كان آبيلوف وكان إنساناً جيداً. كل أهل أم العواصف كانوا أصحاء بلا أمراض. العمل يسير والأطفال يكبرون، وكل أعمال وقاية وصيانة الطريق استعداد للشتاء كانت تنفذ في وقتها.

كان الطقس طقساً رائعاً بالنسبة لصاروزيكي – خريف بني كقشرة الرغيف. ثم جاء الشتاء، وفرشت الأرض بالثلج فوراً وصار المشهد أبيض

جميلاً، ووسط هذا الصمت الأبيض العظيم تمتد الطريق الحديدية خطاً أسود، والقطارات تسير عليها كالعادة. وإلى جانب هذه الطريق قبعت بين الهضاب الثلجية قرية صغيرة هي نقطة أم العواصف. عدة بيوت وغيرها... كان المارون يلقون نظرات لا مبالية من عربات القطارات، أو كان يتولد لديهم ولدقيقة واحدة شعور خاطف بالشفقة على سكان هذه النقطة المرميين هنا...

لكن، عبثاً، كانت مشاعر الشفقة اللحظية هذه. فأهل أم العواصف كانوا يقضون عاماً جيداً، إذا استثنينا جهنم الصيف. على كل حال أصبح هذا ماضياً. وبشكل عام كانت الحياة بعد الحرب تنتظم وتتحسن شيئاً فشيئاً وتتعثر أحياناً. كانوا ينتظرون هبوطاً في أسعار المواد الغذائية والمنتجات الصناعية مع قدوم السنة الجديدة، ومع أن البضائع لم تكن مكومة في المخازن، إلا أن توفرها يزداد من سنة إلى سنة...

لم يعر أهل أم العواصف عيد رأس السنة أهمية خاصة ولم يكونوا ينتظرون منتصف الليل بتشوق. فالخدمة في صاروزيكي كانت مستمرة بغض النظر عن أي شيء والقطارات تتحرك غير آبهة ولا للحظة واحدة بموضوع متى وأين ستحصل السنة الجديدة. وفي الشتاء تعود مشاغل المقتنيات لتزداد. يجب إشعال المدافئ والعناية أكثر بالماشية في مرعاها وفي حظيرتها، لذا يرهق المرء خلال النهار وعندها يفضل أن يرتاح وينام مبكراً.

هكذا كانت تمر الأعوام واحداً تلو الآخر.

لكن عشية سنة ١٩٥٣ كانت في أم العواصف عيداً حقيقياً. أقامت هذا العيد طبعاً أسرة كوطيبايف. أما يديغاي فقد انضمّ إلى استعدادات للعام الجديد في أواخرها. بدأ كل هذا من أن كوطيبايف قرر أن ينصب لأبنائه شجرة رأس السنة، ولكن من أين الشجرة في صاروزيكي. إيجاد بيضة ديناصور أسهل من إيجاد شجرة في صاروزيكي. لقد اكتشف يليزاروف أثناء تجواله على الدروب الجيولوجية في صاروزيكي بيوض ديناصور متحجرة عمرها

مليون سنة. كل بيضة منها بحجم بطيخة كبيرة، وقد نقلوا هذه اللقية إلى متحف ألما – آنا. وكتبوا عن ذلك في الصحف.

اضطر أبو طالب كوطيبايف أن يسافر في الصقيع إلى قومبيل وهناك استحصل من لجنة الناحية في المحطة على إذن بأخذ إحدى الشجرات الخمس، التي وصلت إلى هذه المحطة الكبيرة، إلى أم العواصف. ومن هنا بدأ كل هذا.

كان يديغاي واقفاً عند المستودع ليستلم من رئيس المحطة قفازاً جديداً للعمل عندما توقف على الخط الأول بمكابح متجمدة، قطار شحن حولته رياح السهب إلى قطع متجمدة صلدة. كان القطار طويلاً وكله من العربات المختومة بالرصاص وذوات الأزواج الأربعة من العجلات وهبط من الفسحة المكشوفة للعربة الأخيرة أبو طالب وهو بالكاد يحرك رجليه المتيبستين في جزمة متجمدة من شدة الصقيع. وصار مراقب القطار الذي كان يرافقه والذي كان يرتدي فروة من جلد الخراف وعلى رأسه شدت قبعة من الفراء وقد حشر نفسه في هذه الفسحة حشراً، صار يناوله شيئاً ما ضخماً. حزر يديغاي أنها شجرة وأصيب بدهشة كبيرة.

صرخ المراقب الذي انحنى بكل جثته تقريباً فوق درجات سلم العربة.

- أي، يديغاي، أيها العاصف. تعال وساعد الرجل.

أسرع يديغاي وعندما اقترب انتابه الخوف على أبي طالب. كان أبيضاً حتى حواجبه، مغطى بندف الثلج وقد تخدر من البرد لدرجة أنه لم يستطع تحريك شفتيه، أو حتى رفع يده. وبجانبه شجرة عيد رأس السنة، هذه الشجرة الشائكة التي كاد أبو طالب يرحل إلى العالم الآخر بسببها.

وصرخ المراقب بصوت متهدج غاضب:

- لماذا يسافر الناس عندكم هكذا؟ في مؤخرة القطار شيء يزهق الروح. أردت أن أعطيه فروتي ولكنني سأتجمد أنا.

اعتذر أبو طالب وهو بالكاد يقدر على تحريك شفتيه:

- اعذرني. هذا ما حدث. الآن سأتدفأ. هنا قريب.

- قلت له – توجه المراقب وهو يدمدم إلى يديغاي – أنا في الفروة وتحت الفروة ثياب سميكة وجزمة لبادية وقبعة ومع ذلك لا أنتهي من ورديتي حتى تطلع عيوني من مكانها. أيجوز هذا.

ارتبك يديغاي.

- حسناً، سنأخذ هذا بعين الاعتبار يا تروفيم. شكراً. تابع طريقك، مع السلامة.

وحمل شجرة الشوح. كانت باردة، صغيرة بطول قامة الإنسان وشم من هذه الشجرة الصنوبرية رائحة الغابة الشتوية. خفق قلبه وتذكر غابات الجبهة. مثل هذه الشجار كانت هناك بأعداد هائلة. تدوسها الدبابات وتقتلهما القذائف. لكنه لم يفكر إذ ذاك أنه سيكون عزيزاً عليه استنشاق رائحة الشوح.

- هيا. – نظر يديغاي إلى أبي طالب وألقى شجرة الشوح على كتفه.

كانت تلتمع على وجه أب يطالب الرصاصي المشدود من البرد وقد تجمدت الدموع على وجنتيه، كانت تلتمع تحت حاجبيه المبيضين عينان حيتان مرحتان ظافرتان. وفجأة شعر يديغاي بالرهبة: هل سيقدر الأطفال هذه التضحية الأبوية؟ ففي الحياة كثيراً ما يحدث العكس. فعوضاً عن الامتنان يظهرون اللامبالاة وأحياناً الكراهية. «يا رب نجه من هذا. تكفيه المآسي الأخرى».

داول – الصبي الأكبر – كان أول من رأى الشجرة فصرخ بفرح واندفع عبر باب المنزل، واندفعت من هناك أيضاً بألبستها الداخلية ظريفة ومعها ارميك.

- شجرة رأس السنة، شجرة. انظروا هذه الشجرة – هلل داول وهو يقفز حولها بلا وعي.

ولم تكن فرحة ظريفة بأقل من فرحة ابنها:

- رغم كل شيء حصلت على الشجرة. أحسنت.

لكن ارميك – على ما يبدو – لم يكن قد رأى شجرة الشوح سابقاً. فصار ينظر إلى حمل العم يديغاي نظرة طويلة دون أن يحيد بصره عنه.

- ماما، هذه شجرة رأس السنة؟ جميلة، آ؟ ستعيش عندنا في البيت؟

- ظريفة – توجه يديغاي بالكلام إليها – بسبب هذه الشجرة العصا – كما يقول الروس – كنت ستستلمين زوجك متجمداً. أسرعي إلى البيت لتدفئيه. أولاً يجب نزع الجزمة.

الجزمة متجمدة. وأبو طالب يصر بأسنانه مقلصاً عضلات وجهه ويئن بينما يحاول الجميع سحب الجزمة من رجله. كان الأطفال يسعون قصارى جهدهم، محتارين كيف يمسكون بأيديهم الصغيرة الجزمة الجلدية الثقيلة التي تحجرت مطبقة على رجليه بسبب الصقيع. فأبعدتهم أمهم:

- يا أولاد، لا تزعجوني، دعوني أنا أنزعها.

لكن يديغاي وجد من الضروري أن يقول لها بصوت منخفض.

- دعيهم، يا ظريفة، دعيهم يعملون.

لقد أدرك بفطرته أن هذه هي أكبر مكافأة لأبي طالب. إنه حب وتعاطف الأطفال. هذا يعني أنهم أصبحوا بشراً وأنهم يفهمون بعض الأمور. كان النظر إلى الصغير مفرحاً ومؤثراً. لسبب ما كان ارميك ينادي أباه بابيكا، ولم يصحح له أحد هذه اللفظة، لأنها كانت «تحويره» الخاص لإحدى أول وأقدم الكلمات التي يتلفظ بها الإنسان.

- بابيكا، بابيكا – كان يتململ متهكِّماً وقد احمرّ وجهه لشدة ما يبذله من الجهد ونفش شعره وتوهجت عيناه برغبة جامحة إلى تحقيق شيء في غاية الأهمية. كانت تبدو عليه الملامِح الجديدة لدرجة تثير ضحك من يراه رغماً عنه.

طبعاً. هذا ما كان يجب عمله كي يحقق الصغار هدفهم. لقد وجد يديغاي الطريقة. في هذه الأثناء كانت الجزمة قد بدأت تلين وصار من الممكن سحبها، دون إيلام أبي طالب.

- يا أولاد، هيا، اجلسوا خلفي. سنفعل كالقطار – كل واحد يشد الآخر. داول، تمسك بي وأنت، ارميك، تمسك بداول.

فهم أبو طالب فكرة يديغاي فهز رأسه مؤيداً وابتسم من خلال الدموع التي جالت في عينيه بعد أن انتقلت من جو البرودة إلى الدفء.

جلس يديغاي قبالة أبي طالب وتمسك به الأطفال من الخلف، وعندما أصبحوا جاهزين، بدأ يديغاي بشد الجزمة.

- هيا يا أولاد، شدوا سوية وبشكل أقوى، وإلا فأنا وحدي لن أتمكن. قوتي لا تكفي. هيا، هيا، داول، ارميك، أقوى!

صار الأطفال يشدون جاهدين ويلهثون محاولين المساعدة بكل طاقتهم بينما وقفت ظريفة مشجعة، ويديغاي يتصنع صعوبة الموقف. وعندما نزعت أخيراً الفردة الأولى صرخ الصغار صرخة المنتصر، واندفعت ظريفة تدلك بطن قدم زوجها بقطعة صوفية، لكن يديغاي أوقف الجميع:

- ما هذا يا أولاد؟ ما هذا يا ماما؟ من سيشد الفردة الثانية؟ أم أننا سنترك أبانا هكذا رجل حافية والأخرى في الجزمة المتجمدة؟ هل سيكون هذا جيداً؟

فقهقه الجميع، وضحكوا وهم يتقلبون على الأرض، وخاصة الصغار ومعهم أبو طالب نفسه.

من يعرف – هكذا فكر يديغاي العاصف فيما بعد محاولاً أكثر من مرة اكتشاف سر هذه الاحجية العجيبة – من يعرف، ربما في هذه اللحظة بالذات عاد اسم أبي طالب كوطيبايف ليطفو في مكان ما بعيد جداً عن أم العواصف على سطوح الأوراق فاتخذ الناس الذين استلموا هذه الأوراق، استناداً إليها، قراراً حول تلك القضية التي لم يكن يفكر فيها أحد من أفراد هذه الأسرة أو من أهالي النقطة لا في الحلم ولا في اليقظة.

هبطت المصيبة كالماء البارد على الرأس. طبعاً. لو كان يديغاي أكثر خبرة وخبثاً في هذه الأمور لتولد لديه حس مبهم بالخطر، مع أنه قد لا يدرك نوع هذا الخطر.

ولكن ما هو سبب الخطر؟. عند اقتراب نهاية السنة كان يأتي عادة إلى النقطة مفتش المنطقة، وكان يتجول في النقاط والمحطات واحدة تلو الأخرى حسب مخطط مرسوم. كان يأتي ويمضي، يمكث يوماً أو يومين ويدقق في كيفية دفع الرواتب وإنفاق المواد وما شابه، ثم يكتب تقرير التفتيش بالاشتراك مع رئيس النقطة وأحد العمال ويغادر مع قطار عابر. غالباً ما كان يديغاي يوقع أيضاً على التقرير. في هذه المرة جاء المفتش وأمضى ثلاثة أيام في أم العواصف. كان يبيت في غرفة المناوبة في بناء النقطة الرئيسي التي كانت على اتصال بغرفة الرئيس الصغيرة التي تسمى مكتباً. كان رئيس النقطة دائماً يركض محضراً لهذا المراقب أباريق الشاي، وعرج يديغاي عليه ذات مرة أيضاً فوجد الرجل يجلس فوق أوراقه وهو ينفث الدخان. فكر يديغاي أنه ربما يكون أحد معارفه السابقين، ولكنه كان إنساناً لا يعرفه. كان ذا خدود حمراء وأسنان قليلة، أشيب يحمل نظارات على عينيه اللتين كانت تلتمع بهما ابتسامة لزجة غريبة.

في وقت متأخر من المساء التقى يديغاي والمفتش. كان يديغاي عائداً من ورديته عندما شاهد المفتش يتمشى أمام غرفة المناوبة تحت المصباح،

وقد رفع ياقة سترته المصنوعة من فرو الخراف وعلى رأسه قبعة من فرو الخراف أيضاً. كان يرتدي نظارتيه ويدخن ساهماً، ونعله يصر على الرمل.

- مساء الخير. خرجتم لتدخنوا؟ أتعبكم العمل؟ سأله يديغاي متعاطفاً معه.

- نعم، طبعاً. – وابتسم ابتسامة غير كاملة وتابع: عمل صعب. – وعاد إلى ابتسامته غير الكاملة.

فأجابه يديغاي للمجاملة:

- طبعاً، أمر واضح.

- غداً سأرحل منذ الصباح. سيأتي القطار السابع عشر وسأرحل عليه – وعاد يبتسم ابتسامة غير كاملة، بينما كان صوته خافتاً متكلفاً وعيناه تنظران، وقد زرهما، إلى وجه يديغاي – إذن أنت يديغاي جانغيلدين؟ - سأل المفتش.

- نعم، أنا هو بذاته.

- هذا ما توقعته – ونفث المفتش الدخان بثقة من بين أسنانه المتناثرة في فمه – حاربت على الجبهة، وتعمل في النقطة منذ سنة أربع وأربعين. عمال السكة الحديدية يسمونك العاصف.

- صحيح. – أجاب يديغاي ببساطة وبراءة وقد سره أن يعرف المفتش هذا القدر من المعلومات عنه، واستغرب في الوقت نفسه: كيف ولماذا استفسر المفتش عن هذه الأمور وحفظها؟

وتابع المفتش مع ابتسامته غير الكاملة وكأنه خمن ما يفكر به يديغاي:

- ذاكرتي طيبة. أنا أيضاً أكتب كعاملكم كوطيبايف – وأشار برأسه وهو يطلق من فمه حزمة من الدخان باتجاه النافذة المنارة التي كان يظهر من فتحتها رأس أبي طالب المنكب، كالعادة، على أوراقه فوق رفها – هذا ثالث

يوم وأنا أراقبه وهو يكتب ويكتب. مفهوم، فأنا نفسي أكتب. ولكنني أتعاطى الشعر. أنشر في مجلة المركز المطبوعة ما أكتبه شهرياً تقريباً. وعندنا أيضاً حلقة أدبية أديرها أنا. ونشرت كذلك في جريدة الناحية، مرة في الثامن من آذار وأخرى في أول أيار من هذه السنة.

وصمتا قليلاً. كان يديغاي قد هم بتوديعه عندما عاد المفتش إلى الكلام:

- هو يكتب عن يوغوسلافيا؟

- الحق، أنني لا أعرف تماماً. ربما. فهو قد حارب هناك مع الفدائيين عدة سنوات. إِنَّهُ يكتب من أجل أطفاله.

- سمعت بذلك. لقد سألت ايبليف. وكان أيضاً في الأسر. وعلم بضع سنوات. والآن يريد أن يثبت بمساعدة القلم – وضحك بصوت رفيع حاد – لكن هذا ليس بهذه البساطة، كما يبدو له. أنا أيضاً أفكر بأمور كبيرة. الجبهة والمؤخرة ستكونان مؤلفاً كبيراً. لكن لا وقت لدى أخينا أبداً. دائماً في مهمات...

- وهو أيضاً كذلك. يكتب في الليل فقط وفي النهار يعمل.

وعادا ليصمتا بعض الشيء، ولم يكد يديغاي يغادر حتى تابع المفتش وهو يبتسم ابتسامته غير الكاملة مكشراً وناظراً إلى شبح أبي طالب في النافذة:

- يكتب ويكتب دون أن يرفع رأسه.

أجابه يديغاي:

- يجب أن يشتغل بشيء ما. فهو إنسان متعلم. ولا يوجد حوله أحد. لذلك يكتب.

- آها. أيضاً فكرة. لا يوجد حوله أحد – قالها المفتش وهو يزر عينيه وكأنه أدرك شيئاً ما، وتمتم – هنا تأخذ حريتك، لا يوجد حولك أحد، أيضاً فكرة.... تأخذ حريتك...

وهكذا افترقا. في الأيام التالية لمعت في ذهن يديغاي فكرة إبلاغ أبي طالب بهذا الحديث العارض مع المفتش، لكن الفرصة لم تسنح، ثم نسي الموضوع بعد ذلك.

كانت أعمال الاستعداد للشتاء القادم كثيرة. والمهم أن قارانار دخل مرحلة الحركة الشديدة والنشاط. فيا له من عذاب. هنا العقاب المرير لصاحبه. منذ سنتين نضج قارانار وأصبح أتاناشا[١]، لكن شهوته لم تكن قد ظهرت خلال هاتين السنتين بشكلها العاصف الحالي، كانت السيطرة عليه وإفزاعه وإخضاعه بصيحات صارمة ما تزال ممكنة. إضافة إلى أن أكبر الذكور في قطيع أم العواصف – جمل قازانغاب – لم يكن يسمح له بالحركة. كان يضربه ويعضه ويبعده عن النوق. لكن السهب واسع. يطرده من جهة فيأتي من جهة أخرى. كان الفحل العجوز يطارده هكذا طوال اليوم إلى أن تنهار قواه. عندها كان الفحل الفتي الحار قارانار يصل إلى مبتغاه بشكل أو بآخر.

إلا أنه مع حلول الموسم الجديد وابتداء برد الشتاء، حيث يستفيق في دم الجمال نداء الطبيعة الأزلي، صار قارانار الأقوى في قطيع أم العواصف، إذ أحرز القدر والقوة المدمرة، فطارد جمل قازانغاب وحصره تحت المنحدر وصار يضربه ويرفسه ويعضه في هذا السهب الخالي، حتى أوصله إلى مشارف الموت، إذ لم يكن هناك من يفصل بينهما. في هذا القانون القاسي كانت الطبيعة منطقية – لقد جاء دور قارانار ليخلف ذرية من بعده.

في هذه الظروف تخاصم قازانغاب ويديغاي لأول مرة. لم يتمالك قازانغاب نفسه عندما رأى هذا المشهد المحزن حيث كان جمله يقبع تحت المنحدر مهشماً. فعاد من المرعى متكدراً واندفع إلى يديغاي:

---

(١) أتاناشا = ذكر الحيوان البالغ الفتي.

كيف تسمح بمثل هذا؟ إذا كانوا هم حيوانات، فنحن وإياك بشر. قارانارك هذا كاد يقتل جملي، وأنت تطلقه إلى السهب بكل هدوء.

- أنا لم أطلقه. هو نفسه ذهب. كيف تريدني أن أمسكه؟ أأقيده؟ يقطع القيد. أنت نفسك تعرف هذا وليس عبثاً قيل منذ القديم: «كوش أتاصين تانيمايدي»(١). لقد جاء دوره.

- وأنت مسرور بذلك. انتظر وسترى ما سيحصل. أنت تشفق عليه، ولا تريد أن تثقب له خياشيمه من أجل الشيش(٢) ولكنك ستبكي ندماً وستعدو وراءه. فهذا الوحش لن يرضيه البقاء في قطيع واحد، بل سيجوب صاروزيكي كلها. ولن يمنعه شيء. عندها ستذكر كلماتي...

ولم يشأ يديغاي أن يجادل قازانغاب، فقد كان محقاً، أضف إلى أنه كان يحترمه، فتمتم مهادناً:

- أنت نفسك أهديتني إياه حواراً، والآن تشتم. حسناً سأفكر فيما يجب فعله كي أضع له حداً.

غير أن يده لم تمتد لتشوه جملاً جميلاً كقارانار ولتثقب له أنفه وتلبسه شيشاً خشبياً. وكم مرة تذكر فعلاً، فيما بعد، كلمات قازانغاب، وكم مرة أقسم وهو في ذروة غضبه أنه لن يراعي أي اعتبار، ومع ذلك لم يمس الجمل. فكر مرة أن يخصيه ولكنه لم يجروء أيضاً ولم يستطع أن يقهر نفسه. ومرت الأعوام، وفي كل مرة كانت تبدأ مع بدايات برد الشتاء المصائب ويبدأ البحث المجنون عن قارانار الهائج...

بدأت الحكايا منذ ذلك الشتاء. ما زال يذكر. حل رأس السنة الجديدة وهو يروض قارانار ويجهز حظيرة يستطيع أن يحجزه فيها جيداً. كانت أسرة

---

(١) كوش أتاصين تانيمايدي = القوة لا تعترف حتى على أبيها. كازاخية.

(٢) الشيش = قطعة خشبية تغرز في خياشيم الجمل أو شفته العليا.

كوطيبايف قد أعدت شجرة رأس السنة. وكان هذا بالنسبة لكل أطفال أم العواصف حدثاً كبيراً. اوقوبالا وبناتها انتقلوا كلياً إلى منزل كوطيبايف. طوال النهار كانوا مشغولين بتجهيز وتزيين الشجرة. وأول ما فعله يديغاي وهو ذاهب إلى عمله وعند عودته من العمل هو أنه عرج ليرى كيف حال شجرة رأس السنة عند أسرة كوطيبايف. كانت تزداد جمالاً وهيبة، كانت تزهو بالشرائط واللعب المختلفة من الصناعة اليدوية. هنا يجب الإقرار بفضل النساء – لقد حاولت ظريفة واوقوبالا أن تصبا كل مهارتهما في هذا العمل من أجل الصغار. لم يكن السر في شجرة رأس السنة نفسها بقدر ما هو في أحلام رأس السنة وفي توقعات الجميع العفوية بحدوث تغيرات قريبة مفرحة.

لم يكتف أبو طالب بهذا، بل أخرج الأطفال إلى الفناء وصاروا يصنعون امرأة ثلجية. في البداية ظن يديغاي أن هذا لمجرد العبث، لكنه فتن بعد ذلك بهذه الفكرة. وانتصبت أمام النقطة، مستقبلة القطارات، امرأة ثلجية ضخمة بحجم الإنسان الطبيعي تقريباً، ذات شكل غريب مضحك لها عينان وحاجبان سوداوان من الفحم وأنف أحمر وثغر مبتسم وعلى رأسها قبعة قازانغاب القديمة التي تساقط وبر فرائها حتى صلعت، وقد حملت المرأة بإحدى «يديها» راية خضراء من رايات الطريق الحديدية – أي أن الطريق سالكة. وفي اليد الثانية حملت قطعة من الخشب المعاكس كتبت عليها عبارة تهنئة «عام سعيد - ١٩٥٢». كان المشهد جميلاً، وظلت هذه المرأة منتصبة فترة طويلة بعد الأول من كانون الثاني...

ظل أطفال أم العواصف يلعبون في الفناء حول شجرة رأس السنة طوال النهار وحتى المساء. كما انشغل بالشجرة الكبار الذين لم يكونوا مشغولين بالمناوبة. في الصباح قص أبو طالب على يديغاي كيف تسلل الصغار إلى سريره في الصباح الباكر وهم يهرجون ويلعبون وهو يتظاهر بالنوم العميق.

«انهض، انهض يا بابيكا – هزه ارميك – الآن سيأتي ديدموروز[١]. هيا نستقبله».

- حسن. الآن سننهض ثم نغسل وجوهنا ونرتدي ثيابنا ونذهب. لقد وعد بالمجيء.

فسأل الابن الأكبر.

- على أي قطار؟

- على أي قطار كان. كل القطارات تتوقف من أجل ديدموروز، حتى في نقطتنا.

- إذن يجب النهوض بسرعة.

واستعدينا بشكل احتفالي جدي.

وسأل داول:

- وماذا بشأن ماما؟ فهي أيضاً تريد رؤية ديدموروز.

- طبعاً، وكيف لا. نادوها.

خرجنا جميعاً من البيت. سبقنا الصغار ركضاً إلى غرفة المناوبة، ونحن تبعناهم. صار الصغار يركضون حول الغرفة لكن ديدموروز غير موجود.

- أين هو، بابيكا؟

وعيون ارميك – أنت تعرفها – تبرق برقاً.

- الآن. لا تستعلجوا. سأسأل المناوب.

دخلت غرفة المناوبة، حيث كنت قد خبأت من المساء رسالة من ديدموروز وكيس هدايا. عندما خرجت اندفعا إلي:

(١) ديدموروز = الجد – الصقيع. هكذا يسمى باللغة الروسية العجوز الخرافي الذي يوزع الهدايا على الأطفال عشية عيد الميلاد أو رأس السنة (بابا نويل).

- ماذا بابيكا؟

- لقد ترك لكم ديدموروز رسالة. هذه هي: «صغاري الأعزاء، داول وارميك! لقد وصلت إلى نقطتكم الشهيرة أم العواصف في الصباح الباكر – الساعة الخامسة، إذ كنتما ما تزالان نائمين، وكان البرد شديداً. وأنا نفسي بارد. لحيتي من الشعر الجليدي. لم يتوقف القطار إلا لدقيقتين فكتبت لكم هذه الرسالة وتركت الهدايا معها. في الكيس توجَد تفاحة وجوزتان لكل طفل من أطفال أم العواصف. لا تعتبوا. عندي أعمال كثيرة، وسأذهب إلى أطفال آخرين. فهم ينتظرونني أيضاً. في عيد رأس السنة التالي سأحاول المجيء إلى هنا في وقت نستطيع أن نلتقي فيه سوية. أما الآن فإلى اللقاء. ديدموروز – اياز أتا(١)». لحظة، لحظة. هنا توجَد أيضاً بعض الأسطر. إنّها مكتوبة على عجل وبشكل غير واضح. يبدو أن القطار بدأ يتحرك. آها، لقد قرأتها:/ «داول. لا تضرب كلبك. سمعته مرة وهو يبكي بصوت مرتفع، عندما ضربته بالحذاء. ولكني لم أسمع شيئاً فيما بعد. يبدو أنك صرت تعامله معاملة أحسن. هذا كل شيء. اياز أتا». لحظة وهنا توجد خربشة أيضاً. آه، لقد فهمتها: «المرأة الثلجية عندكم جميلة جداً. أحسنتم. لقد تصافحت وإياها بالأيدي».

وفرحا طبعاً. فقد أقنعتهما رسالة ديدموروز تماماً. ولم يعتبا. لكنهما اختلفا: من سيحمل كيس الهدايا؟. إلا أن أمهما حلت المشكلة:

- «أولاً يحمله داول عشر خطوات، فهو الأكبر، ثم تحمله أنت، يا أرميك، عشر خطوات، فأنت الأصغر»...

وضحك يديغاي من أعماقه: «لو كنت مكانهما لصدقت أنا أيضاً».

---

(١) اياز أتا = ديدموروز باللغة الكازاخية.

في النهار كان يديغاي الأكثر شعبية بالنسبة للأطفال. إذ رتب لهم جولة من التزلج على الثلج. وجد عند قازانغاب عربة تزلج قديمة، فشدها إلى جمل قازانغاب الهادئ الذي يسير بشكل جيد وقد شد النير إلى رقبته – طبعاً، لم يكن من الجائز أبداً استخدام قارانار في مثل هذه المهمة – شدوا العربة وركبوا كلهم. وارتفع الضجيج والصخب. يديغاي قام بدور الحوذي، والصغار التصقوا به. كلهم يريدون الجلوس بقربه. والجميع يرجونه: «أسرع، أسرع». أبو طالب وظريفة كانا يسيران تارة وتارة أخرى يعدوان بجانب العربة، وعند المنحدرات كانا يجلسان على حافتها. ابتعد الجميع عن النقطة حوالي الكيلو مترين والتفوا عند السفح عائدين. صار الجمل يلهث، فكان يجب تركه ليرتاح.

بدا النهار جميلاً. فوق صاروزيكي اللامتناهية الأطراف المكسوة بالثلوج البيضاء كانت تخيم سكينة، تشبه سكينة ما قبل الخليفة، سيطرت على الإبصار والإسماع. كان السهب بهضابه وسلاسله ووديانه ينبسط وقد غطاه الثلج كاللغز وكانت السماء فوق صاروزيكي تشع بنور معتم ودفء نهاري وديع، والريح تدغدغ الأذن بصوت يكاد لا يسمع، عندما بدا في الأمام على الطريق الحديدية قطار طويل أحمر اللون تجرانه قاطرتان بخاريتان سوداوان شدتا إلى بعضهما واحدة وراء الأخرى وهما تتنفسان من مدخنتين. كان الدخان الخارج من المدخنتين يعلق في الهواء على شكل حلقات سابحة بطيئة التبدد. أعطت القاطرة الأمامية صفرة طويلة قوية وهي تقترب من إشارة المرور، وكررتها مرتين منبئة بقدومها.كان هذا القطار عابراً سريعاً، أثار الضجيج في النقطة دون أن يخفض من سرعته، مر أمام شارات المرور ونصف دزينة من البيوت الملاصقة تقريباً وبشكل فظ، للطريق الحديدية، بالرغم من اتساع المساحات حولها. وعاد كل شيء إلى هدوئه وسكينته من جديد. لا حركة على الإطلاق إلا أعمدة دخان المدافئ المتلوية فوق بيوت أم

العواصف. صمت الجميع حتى الأطفال الذين رفع التزلج على الثلج من ضجيجهم هدؤوا في تلك اللحظة. وتمتمت ظريفة بصوت منخفض لزوجها فقط:

- ما أروع المنظر وما أرهبه.

- فعلاً. أنت على حق – أجاب أبو طالب بصوت منخفض أيضاً.

نظر يديغاي إليهما بطرف عينه دون أن يلتفت. كانا يقفان متشابهين. كلمات ظريفة التي قالتها خافتة ولكن بانفعال أزعجت يديغاي، مع أنها لم تمسه بشيء. لقد أدرك فجأة مدى الحزن والخوف اللذين تنظر بهما ظريفة إلى هذه البيوت ودخانها المتلوي. لكن يديغاي لم يكن يستطيع مساعدتها بشيء، إذ أن هذه الأشياء التي تكونت عند الخط الحديدي كانت المأوى الوحيد لهم جميعاً.

وحث يديغاي الجمل وضربه بالسوط فانزلقت عربة التزلج عائدة إلى النقطة...

في المساء قبيل ليلة رأس السنة اجتمع كل سكان أم العواصف عند يديغاي واوقوبالا – كما سبق وقرر يديغاي واوقوبالا منذ بضعة أيام، إذ قالت اوقوبالا:

- بما أن عائلة كوطيبايف التي قدمت مؤخراً أقامت لكل أطفال النقطة شجرة رأس السنة، فمن واجبنا تجاه الله وتجاههم ألا نبخل.

وفرح يديغاي لهذا الحدث جداً. الواقع أنه لم يستطع أن يحضر الجميع، فالبعض كانوا يناوبون على الخط والبعض كانت مناوبتهم ستبدأ في المساء. فالقطارات كانت تسير باستمرار، لا فرق لديها أهو عيد أم يوم عمل. لم يتمكن قازانغاب من الجلوس إلا في أول الأمسية وقبيل التاسعة مساء ذهب إلى نقطة التحويل، كما كان على يديغاي – حسب جدول الخدمة – أن يتواجد على الخط في الساعة السادسة من صباح يوم الأول من كانون الثاني. هذه

هي الخدمة. ورغم كل ذلك كانت الأمسية رائعة. الجميع كانوا في نشوة عارمة، ومع أنهم يشاهدون بعضهم البعض عشر مرات يومياً، إلا أنهم في المساء تأنقوا وكأنهم ضيوف قادمون من مكان بعيد. واوقوبالا متميزة – فقد أعدت كل أنواع المأكولات. كان يوجد كذلك ما يشربون – فودكا وشمبانيا. والشباط الشتوي كان موجوداً أيضاً للراغبين، وقد أعد من حليب النوق التي لم تعد صالحة للإنجاب، والتي كانت تحلبها زوجة قازانغاب بوكيي – هذه المرأة التي لا تكل ولا تمل.

لكن العيد لم يصبح عيداً إلا عندما بدؤوا بالغناء بعد أن أكلوا قليلاً، وبعد الأقداح الأولى. فقد حلت تلك اللحظة، عندما انتهت مشاغل المضيفين الأولية وزال توتر الضيوف وأصبح من الممكن الاستسلام، بلا استعجال ولا انشغال بالتوافه، لهذه المتعة الروحية النادرة – أصبح من الممكن الشرب والتحدث إلى أولئك الذين تعرفهم جيداً وتراهم كل يوم، ولكنك تجد فيهم الآن تجديداً، لأن من مزايا العيد أنه يغير الناس، وأحياناً في الاتجاه السَّيِّئ. لكن هذا لا يحدث هنا بين سكان أم العواصف. هل يمكن أن يعيش المرء في صاروزيكي وأن يتسم فوق ذلك بالمشاكسة والشغب... انتشى يديغاي بعض الشيء، لكن هذا بدا لائقاً به تماماً. أما اوقوبالا فكانت تذكر زوجها دون إظهار قلق زائد:

- لا تنس. غداً إلى العمل في السادسة صباحاً.

- واضح، أوقو. فهمت.

جلس يديغاي بجانب اوقوبالا معانقاً إياها لافاً ذراعه حول عنقها، وراح يغنى فلم يوفق دائماً في الأداء ولكنه يبذل قصارى جهده وهذا ما خلق لدى الحضور رد فعل صاخب. كان يديغاي يعيش هذه الحالة النفسية الممتازة عندما يمتزج وضوح التفكير وتأجج لمشاعر دون أن يسيء أحدهما للآخر. أثناء الغناء كان ينظر بانفعال كبير في وجوه ضيوفه مانحاً الجميع ابتسامة مرحة صادرة عن القلب وهو على ثقة تامة بأن الجميع مسرورون مثله

تماماً. كان يديغاي العاصف إذ ذاك جميلاً. حاجباه ما يزالان سوداوين وكذلك شارباه وعيناه عسليتان براقتان وله صف من الأسنان البيضاء المتينة، ولم يكن بمقدور أي خيال مهما كان واسعاً أن يتصور كيف سيكون يديغاي في شيخوخته. وزع يديغاي اهتمامه بين الجميع وبالقدر الكافي. دعا يديغاي بوكيي الطيبة المكتنزة الجسم وهو يربت على كتفها بأم أم العواصف. واقترح شرب نخب صحتها وصحة كل الشعب القاراقالباكي الذي يعيش على ضفاف نهر آموداريا ممثلاً بها. وصار يواسيها كي لا تحزن بسبب مغادرة قازانغاب للمائدة من أجل العمل.

فجاء جوابها متحمساً:

- لقد مللته.

في تلك الأمسية لم يدع يديغاي زوجته اوقوبالا إلا باسم مرمز كامل: اوقوبالا صي – فرخ البوم. كان يجد لكل واحد كلمة طيبة صادقة، فقد كان الجميع بالنسبة له في المحيط الضيق أخوة وأخوات، حتى رئيس النقطة ايبليف الذي بدأ الخدمة في صاروزيكي عاملاً صغيراً على الطريق الحديدية، وزوجته الشاحبة الحامل ساكين التي كان عليها أن تذهب بعد مدة قريبة إلى دار التوليد في محطة قومبيل. كان يديغاي يؤمن بصدق أن كل ما حوله يؤكد أنه محاط بأناس لا يرقى الشك إلى قرابتهم له، وكيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا. كان يكفيه أن يغمض عينه للحظة بين الأغاني ليرى صحراء صاروزيكي الهائلة المغطاة بالثلوج وليرى وسطها هذه الجماعة الصغيرة من الناس التي اجتمعت في بيته كأسرة واحدة. إلا أن فرحته الكبرى كانت من أجل أبي طالب وظريفة. هذان الزوجان يستحقان ذلك. كانت ظريفة تغني وتعزف على الماندولينا متنقلة بخفة بين أنغام الأغاني المتعاقبة بسرعة. كان صوتها رناناً نقياً، وأبو طالب كان يوجه الغناء بصوت مخنوق في الصدر. كانا يغنيان من القلب وبانسجام كبير وخاصة الأغاني ذات الأنغام التترية،

التي كانا يغنياها كَحِواريّات غنائية يرد كل منهما فيها على الآخر. كانا يقودان الأغنية والآخرون يرددون معهما. غنوا الكثير من الأغاني القديمة والحديثة ولم يتعبوا، بل على العكس، ازداد حماسهم مع كل أغنية. إذن الضيوف مسرورون. كان يديغاي الجالس قبالة ظريفة وأبي طالب لا يتوقف عن النظر إليها برقة وحنان – هكذا كان يجب أن يكونا دائماً لولا القدر المرير الذي لا يسمح لهما بالتقاط أنفاسهما. في قيظ الصيف الرهيب كانت ظريفة تبدو متوردة كشجرة حرقتها النار، شعرها القاتم بهت لونه حتى جذوره، وشفتاها متشققتان مسودتان. أما الآن، فيصعب التعرف عليها – عيون سود ذوات نظرات مشرقة ووجه واضح آسيوي النعومة والصفاء. إنها اليوم رائعة. كان حاجباها الدقيقان الحيويان يعبران أحسن تعبير عن نشوتها، كانا يغنيان معها مرتفعين حيناً عابسين حيناً، منفرجين في تحليق مع الأغاني القديمة حيناً آخر. أبو طالب كان يردد معها بحس متميز مبرزاً معنى كل كلمة تغنى، وهو يتمايل من جنب إلى آخر:

كأثر الحزام على خاصرة الرهوان

تتحفر في الذاكرة أيام الحب القديم

كانت يدا ظريفة تداعبان أوتار الماندولينا فتصدح الموسيقى وسط هذا الجمع الصغير في ليلة رأس السنة. في ليلة رأس السنة هذه حلقت ظريفة مع الأغاني وتصور يديغاي أنها في مكان بعيد تركض في ثلوج صاروزيكي بكنزتها الليلكية ذات الياقة البيضاء المقلوبة وهي تحمل الماندولينا الصداحة، والظلام ينقشع من حولها، ومع ابتعادها صارت تغيب وتغيب في الضباب وصوت الماندولينا ظل مسموعاً، ولكنها عندما تذكرت أن هناك، في نقطة أم العواصف يوجد أناس ستسوء أحوالهم من بعدها عادت ظريفة لتظهر مغنية وهي تجلس إلى المائدة...

ثم قام أبو طالب ليري الحضور كيف يرقص الفدائيون، وهم يضعون أذرعهم بعضهم على أكتاف بعض ويضبطون الإيقاع بأرجلهم. صارت

ظريفة تعزف وأبو طالب صار يغني أغنية حماسية صربية والجميع يرقصون مشكلين دائرة وأيديهم على الأكتاف وهم يصرخون: «أوبلا، أوبلا...».

بعد ذلك عادوا للغناء والشرب، دقوا الأقداح وهَنَّؤوا بعضهم بالعام الجديد. البعض غادر، وجاء آخرون... رئيس المحطة وزوجته الحامل غادرا المائدة قبل بدء الرقص. وهكذا مرت هذه الليلة.

أثناء الاحتفال خرجت ظريفة لتستنشق الهواء فتبعها أبو طالب. وكانت اوقوبالا تجبر الجميع على ارتداء شيء ما كي لا يخرجوا إلى البرد مباشرة بأجسامهم الحارة. تأخرت ظريفة وأبو طالب فقرر يديغاي أن يخرج لإعادتهما. فالعيد من دونهما ليس عيداً. صرخت اوقوبالا.

- يديغاي، اِلبِس، لا تخرج هكذا فتمرض.

- لحظة. – وخرج يديغاي إلى برودة منتصف الليل، وصار ينادي وهو يتلفت حوله: - أبو طالب، ظريفة.

لم يجبه أحد. لكنـــه سمع أصواتاً من وراء البيت، فتوقف حائراً، وهو لا يدري ماذا يفعل: أيعود أم يذهب إليهما ويقودهما إلى البيت لقد حدث بينهما شيء ما.

- لم أكن أريدك أن ترى – قالت ظريفة وهي تنشج – اعذرني. لقد تضايقت. اعذرني أرجوك.

- أنا أفهم – هدأها أبو طالب – أنا أفهم كل شيء. لكن القضية ليست قضيتي، ليست في كوني هكذا. ولو تعلق الأمر بي وحدي، يا إلهي، ما الفرق بين الموت والحياة. أيمكن أن نتمسك بها بهذه الشدة؟ - صمتا قليلاً، ثم تابع:
- أبناؤنا سيتخلصون... وهذا هو أملنا الوحيد...

تراجع يديغاي بحذر وهو لا يفهم ما القصة، وعاد دون أن يشعر به أحد وكتفاه ترتجفان من البرد. عندما دخل البيت أحس أن الجو أصيب بالخمول والكآبة وأن العيد قد انتهى. السنة الجديدة جديدة لكن أوان الختام قد آن.

في الخامس من كانون الثاني عام ١٩٥٣ في العاشرة صباحاً توقف في نقطة أم العواصف قطار للركاب، مع أن كل الطرقات كانت مفتوحة أمامه وكان بإمكانه متابعة سيره – كما يحدث دائماً – دون توقف. وقف القطار دقيقة ونصف الدقيقة فقط. كان هذا كافياً تماماً على ما يبدو. هبط على سلم إحدى حافلات القطار ثلاثة رجال بجزمات جلدية سوداء ذات طراز واحد، واتجهوا مباشرة إلى غرفة المناوبة، بصمت وثقة، دون أن يتلفتوا حولهم، لكنهم أبطؤوا لثانية واحدة عند المرأة الثلجية. نظروا إلى القبعة السخيفة القديمة، قبعة قازانغاب التي تساقط وبرها والتي شدت على رأس المرأة، وتابعوا سيرهم إلى غرفة المناوبة.

بعد بعض الوقت اندفع من الباب رئيس النقطة ابيلوف، وكاد أن يصطدم بالمرأة الثلجية فشتم وتابع سيره وكأنه يركض، وهذا ما لم يسبق أن حدث له. بعد حوالي عشر دقائق عاد وهو يلهث ويقود وراءه أبا طالب كوطيبايف، الذي أحضره من عمله بشكل طارئ. كان أبو طالب شاحب اللون يحمل قبعته بيده. دخل مع ابيلوف إلى الغرفة، ولكنه سرعان ما خرج برفقة اثنين من ذوي الجزمات الجلدية السوداء واتجه الثلاثة إلى البيت الخشبي الذي كانت تسكن فيه عائلة كوطيبايف. وبسرعة عادا من هناك وهما ملازمين تماماً لأبي طالب ويحملان أوراقاً أخذاها من بيته.

بعد ذلك هدأ كل شيء لم يدخل إلى غرفة المناوبة أحد ولم يخرج منها أحد.

عرف يديغاي بما حدث من اوقوبالا، التي ذهبت إليه بتكليف من ابيلوف إلى الكيلومتر الرابع حيث كانت تجري في ذلك اليوم أعمال الصيانة لتخبره، فنادت يديغاي جانباً وقالت له:

- إنهم يحققون مع أبي طالب.

- من يحقق؟

- لا أعلم. غرباء. أمرني ابيلوف أن أقول لك أنه إذا لم يستفسروا فلا تقل إننا كنا سوية مع أبي طالب وظريفة ليلة رأس السنة.

- ما القصة؟

- لا أعرف، طلب مني أن أقول لك هذا، وهو يقول أنك يجب أن تكون عنده في الثانية. يريدون أن يعرفوا منك بعض الأشياء أيضاً بشأن أبي طالب.

- أن يعرفوا ماذا؟

- من أين لي أن أعلم. جاء ابيلوف إلينا فزعاً وقال كذا وكذا، وأنا جئت إليك.

قبيل الثانية عاد يديغاي كالعادة إلى البيت لتناول غذائه، في طريقه إلى البيت حاول أن يفهم ما الذي يحدث. لكنه لم يجد جواباً. أهو بسبب الماضي؟، بسبب الأسر؟ لكنهم حققوا بذلك منذ زمن بعيد. ماذا هناك أيضاً؟. التهم بسرعة واضطراب ملعقتين من حساء الشعيرية ثم أزاحه جانباً. نظر إلى ساعته: الثانية إلا خمس دقائق. بما أنه أمر في الثانية، فليكن في الثانية. وخرج من بيته. كان ابيلوف يتمشى قرب غرفة المناوبة جيئة وذهاباً. منهكاً مسحوقاً يرثى لحاله.

- ما الذي جرى؟

- مصيبة، مصيبة يا يديكية – قالها ابيلوف وهو يسترق النظر إلى الباب بخوف، وشفتاه ترتجفان بعض الشيء –لقد أوقفوا أبا طالب.

- لماذا؟

- وجدوا عنده كتابات ممنوعة. كان طوال الليالي يجلس ويكتب. الجميع يعرف هذا. وهذه نتيجة كتابته.

- إنه يكتب لأطفاله.

- لا أعلم، لا أعلم لمن. لا أعلم شيئاً. اذهب إنهم في انتظارك. في غرفة رئيس النقطة الصغيرة المسماة مكتباً كان ينتظر يديغاي شخص في سنه

تقريباً أو أصغر منه – في حوالي الثلاثين من عمره، قوي البنية كبير الرأس قص شعره كالقنفذ، بدين، ذو أنف كبير متعرق بسبب توتر الأفكار، كان يقرأ شيئاً ما. مسح أنفه بمنديل وقد قطب جبينه العالي، وظل طوال فترة حديثه مع يديغاي يمسح أنفه المتعرق. سحب من علبة البابيروس[١] «كازبيك» لفافة، برمها بين أصابعه ثم أشعلها وبعد أن رَمَقَ يديغاي الواقف بالباب بنظرة من عينيه الصافيتين المصفرتين كعيني السنقر، قال له باختصار:

- اجلس.

وجلس يديغاي على كرسي صغير بلا مسند للظهر أمام الطاولة.

- على كل حال، كي يزول أي التباس – وسحب سنقري العينين من جيب سترته المدنية الرسمية الخارجي الصغير بطاقة بنية اللون مغلقة، فتحها وأعادها فوراً ودمدم بشيء يشبه «تانصيقبايف» أو «طيصيقبايف»، بشكل لم يمكن يديغاي من فهم هذه الكنية تماماً.

- فهمت؟ سأل سنقري العينين.

فاضطر يديغاي للإجابة:

- فهمت.

- إذن، ما دام الأمر كذلك، فلنبدأ. يقولون أنك أفضل صديق ورفيق لأبي طالب.

- ربما الأمر كذلك، ولكن ما الغلط في هذا؟

- ربما الأمر كذلك – كررها سنقري العينين وسحب نفساً من لفافته، وكأنه يتأكد مما سمع – ربما الأمر كذلك. لنفترض. واضح وألقى نظرة

---

(١) البابيروس – شكل من السكائر نصفها محشو بالتبغ ونصفها مصنوع من الورق المقوى هذا الشكل منتشر في الاتحاد السوفييتي.

ساخرة مفاجئة ملؤها الفرح والتلذذ بالرضى السابق لأوانه الذي تأجج في عينه الصافيتين كالزجاج:

- إذن أيها الصديق الطيب: فلنكتب؟

- فلنكتب ماذا؟ سأل يديغاي منزعجاً.

- هذا ما أريد أن أعرفه.

- لست أفهم. عن ماذا تتكلمون.

- معقول؟. آ؟ فكر جيداً.

- لست أفهم عم تتكلمون.

- ماذا يكتب كوطيبايف؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟ الكل يعرفون وأنت وحدك لا تعرف؟

- أعرف أنه يكتب، ولكن ماذا يكتب – من أين لي أن أعرف؟ ما شأني بذلك؟ يطيب له أن يكتب – فليكتب. ما علاقة الآخرين به؟

- كيف هذا: ما علاقة الآخرين؟ - انتفض سنقري العينين مدهشاً وصوب نظرة كطلقات خارقة إلى يديغاي – إذن فيلكتب كل واحد ما يحلو له؟ هو الذي أقنعك بهذا؟

- هو لم يقنعني بشيء.

لكن سنقري العينين لم يعر اهتماماً لجوابه. لقد كان مستاء:

- هذه هي الدعاية المعادية! هل فكرت ماذا سيحدث لو صار كل واحد يشتغل بالكتابة؟ هل فكرت ماذا سيحدث؟ عندها سيبدأ كل واحد بإعلان ما يجول في رأسه. أليس كذلك؟ من أين لك هذه الأفكار الغريبة؟ لا، يا عزيزتي، نحن لن نسمح بمثل هذا. الثورة المضادة لن تمر.

صمت يديغاي وقد حطمته الكلمات التي انهالت عليه. واستغرب جداً لماذا لم يتغير حوله شيء. وكأن شيئاً لم يحدث. ورأى من النافذة قطار طشقند يمر سريعاً وتخيل للحظة أن الناس مسافرون لقضاء أشغالهم وحاجاتهم، يشربون الشاي أو الفودكا ويتحدثون، ولا يشغل أحداً منهم أنه هو يجلس الآن في هذه اللحظة، في نقطة أم العواصف أما هذا السنقري العينين الذي لا يعرف من أين هبط عليه، فانتابته رغبة جامحة، لدرجة الألم المضني في الصدر، في أن يقفز من غرفة المناوبة ليلحق بالقطار المغادر وليذهب معه إلى جهنم الحمراء على ألا يبقى الآن هنا.

- ماذا؟ هل أدركت جوهر القضية؟ - سأله سنقري العينين.

- أدركت، أدركت. لكنني أريد أن أعرف شيئاً واحداً. إنَّهُ يكتب ذكرياته من أجل أطفاله. يكتب ما حدث معه على الجبهة وفي الأسر ومع الفدائيين فما هو السيء هنا؟

- من أجل أطفاله – تساءل ذاك – من يصدق هذا؟ من ذا الذي يكتب لأطفال عمرهم أقل من أسبوع بسنة. خرافات. هكذا يعمل العدو الخبير. اختبأ في الصحراء، حيث لا يوجد حوله أحد ولا يراقبه أحد وصار يكتب مذكراته.

- لقد أراد الرجل هذا – قال يديغاي معترضاً – أراد أن يقول على الأغلب، كلمة ذاتية صادرة عن نفسه، أفكاراً من ذاته كي يقرأها أطفاله عندما يكبرون.

- ما هذه الكلمة الذاتية؟ ما هذا؟ بلع سنقري العينين ريقه وهز رأسه لائماً – ما هذه الأفكار من الذات؟ وماذا تعني كلمة ذاتية؟ وجهة نظر خاصة، أليس كذلك؟ رأي ذاتي خاص؟ لا يجوز أن توجد أية كلمة ذاتية. كل ما يكتب على الورق لا يعود كلمة ذاتية. ما يكتبه القلم لا يقطعه الفأس. كل واحد سيبتدع أفكاراً من عنده. شيء عظيم هذه هي ما يدعى «دفاتر الفدائيين» التي كتبها، تحت عنوان «أيام وليال في يوغوسلافيا» - وألقى على الطاولة بثلاثة

دفاتر سميكة – ذات أغلفة من القماش المشمع – قلة أدب. أنت تحاول الدفاع عن صاحبك. أما نحن فقد كشفناه وأثبتنا جرمه.

- أي جرم أثبتم؟

ارتعش سنقري العينين على كرسيه وعاد ليرمي يديغاي بنظرة ساخرة فيها تلذذ وفرح خبيث وهو يرمش بعينه الصافيتين الشفافتين.

- اسمح لي، هذا نحن نعرفه، نحن نعرف أي جرم أثبتنا، هذا شأننا. ولن نخبر بذلك كل من يشاء. – قال هذا وهو يتلفظ بالكلمات متلذذاً بكل كلمة وقد أسكره فعلها.

ارتبك يديغاي.

- ما دام الأمر كذلك،..

- إن مذكراته العدائية لن تمر دون عقاب – ألقى سنقري العينين هذه الملاحظة وسارع إلى كتابة شيء ما وهو يتابع كلامه: - كنت أظن أنك أكثر ذكاء، أنك رجلنا، عامل طليعي ومحارب سابق، وأنك ستساعدنا على كشف العدو.

اِنشَدَّت أعصاب يديغاي وقال بصوت منخفض ولكن بوضوح وبلهجة لا تترك مجالاً للشك:

- أنا لن أوقع شيئاً. أقولها لكم مباشرة.

فرماه سنقري العينين بنظرة قاتلة.

- نحن لسنا بحاجة إلى توقيعك. أتظن أنه إذا لم توقع تنتهي القضية؟ أنت مخطئ. إنَّ المواد عندنا كافية لنحمله أقصى المسؤوليات حتى لو لم يكن توقيعك موجوداً.

سكت يديغاي وقد شعر بالاحتقار وبانهيار محرق. وفي الوقت نفسه كبرت في نفسه مشاعر الاستياء والاحتقار والرفض كما تكبر الأمواج في

بحر آرال. رغب فجأة بخنق سنقري العينين هذا ككلب مسعور، كان يعرف أنه قادر على ذلك. كم كانت رقبة ذلك الفاشي الذي اضطر لخنقه بيديه قوية منتفخة العروق؟ ومع ذلك لم يكن هناك مخرج آخر. لقد اصطدم به وجهاً لوجه بشكل مفاجئ في الخندق وذلك عندما اضطر العدو للتخلي عن خطوط دفاعه. اقتربوا من الجانب وأمطروا الخندق بالقنابل وصوبوا نيران الرشاشات إلى الممرات، وبعد أن طهروا الخط اندفعوا في متابعة الهجوم، وعندها اصطدموا مع العدو والتحموا به. يبدو أن هذا الفاشي كان رامياً من مدفع رشاش أطلق كل ذخيرته أمام الخندق. كان من الأفضل أسره. لقد لمعت هذه الفكرة في ذهن يديغاي، لكن ذلك تمكن من رفع خنجره فوق رأسه، فنطحه يديغاي بخوذته في وجهه وسقط الاثنان. لم يبق أمام يديغاي إلا أن يغرز يديه في حنجرته. والفاشي يحاول التملص وهو يشخر ويخمش الأرض بأصابعه في كل الاتجاهات محاولاً التقاط الخنجر الذي سقط من يديه. في كل لحظة كان يديغاي يتوقع طعنة في ظهره لذلك صار يضغط وهو يزمجر بقوة وحشية، لا إنسانية خارقة على الرقبة الغضروفية لهذا العدو الذي اسود لونه وكشر عن أسنانه، وعندما اخْتَنَقَ وفاحت رائحة البول الحادة بسط يديغاي أصابعه التي كانت تضغط متشنجة، وتقيأ في مكانه حتى أنه لوث ثيابه بالقيء، فزحف وهو يئن وعلى عينيه غشاوة. لم يرو هذا لأحد لا في حينه ولا فيما بعد. كان يأتيه هذا الكابوس أحياناً، فتضيق به الدنيا في اليوم التالي ويتمنى الموت... تذكر يديغاي هذا الآن باشمئزاز وقشعريرة لكنه يعرف أن سنقري العينين مسلح بالخبث وبالذكاء، وهذا ما أدمى قلبه. حاول يديغاي، بينما كان ذاك يكتب، حاول إيجاد نقطة ضعف في كلام سنقري العينين. هناك فكرة وردت فيما قاله سنقري العينين صعقت يديغاي بلا منطقيتها وعدم تطابقها الشيطاني: كيف يمكن إدانة أي كان بالذكريات العدائية؟ هل يمكن أن تكون ذكريات الإنسان عدائية أو لا عدائية؟ الذكريات هي ما سبق وكان ذات يوم في الماضي، هي ما لم يعد موجوداً الآن، هي ما كان في الزمن المنصرم. إذن الإنسان يتذكر ما كان في الواقع.

شعر يديغاي بجفاف حنجرته بسبب القلق والاضطراب ولكنه أجبر نفسه على نطق هذه الكلمات بهدوء كبير.

- أريد أن أعرف. أنت تقول... – تعمد هنا أن يخاطبه بصيغة المفرد كي يفهم ذلك أنه لا يوجد لدى يديغاي ما يتملق من أجله وما يخافه، فليس هناك أبعد من صاروزيكي إلى حيث يمكن إبعاده – أنت تقول – كرر يديغاي – ذكريات معادية. كيف يمكن فهم ذلك؟ أنا أرى أن الإنسان يتذكر ما كان وكيف كان ذات يوم وهو ما لم يعد له وجود منذ زمن. أم ترى أنه إذا كان الأمر جيداً فتذكره وإذا كان سيئاً وغير ملائم فلا تتذكره، انسَه؟ هذا لا يمكن أبداً. ينتج من هذا: إذا رأى المرء حلماً فهل يجب عليه إلا يتذكره إذا كان هذا الحلم مخيفاً أو لا يروق لأحدهم؟..

- إذن هذا هو أنت. أحم، يا للشيطان. استهجن سنقري العينين – تحب الجدل وتريد أن تناقش. وكأنك فيلسوف محلي.. إذن تعال – واتخذ وضعية معينة، واستعد للكلام وكأنه استسلم للواقع: في الحياة يمكن أن يقع كل شيء كحدث تاريخي. ولكن ما يحدث كثير جداً. المهم تذكر ورسم الماضي شفهياً أو كتابياً بالشكل الذي يتطلبه الحاضر، بالشكل اللازم لنا الآن. وكل ما لا فائدة منه لا يجوز تذكره وإذا لم تتقيد بهذا فإنك تدخل حيز العمل العدائي.

- أنا لا أوافق. هذا مستحيل.

- ليس هناك من هو بحاجة لموافقتك. هذا مجرد كلام. أنت تسأل وأنا أشرح لك بطيبتي غير أني، على العموم، لست ملزماً على الدخول معك في هذه الأحاديث. ولكن تعال ننتقل من الكلام إلى الفعل قل لي: ألم يذكر لك كوطيبايف، في جلسة مصارحة مثلاً، أو أثناء تناول قدح، ألم يذكر لك أية أسماء انكليزية؟

- ما الداعي لهذا؟ تعجب يديغاي بصدق.

سأقول لك لماذا؟ وفتح سنقري العينين صفحة من «دفاتر الفدائيين» الذي كتبه أبو طالب وقرأ ما وضع تحته خط أحمر: «في السابع والعشرين من أيلول جائت إلى موقعنا بعثة انكليزية – عقيد ورائدان سرنا أمامهم مسيرة الاستعراض فحيونا. ثم أقيم غداء عام في خيمة القيادة وقد دعينا، نحن الفدائيين الأجانب بين اليوغسلاف، إلى هذا الغداء. عندما قدموني إلى العقيد صافحني بلطف وصار يسألني بواسطة المترجم من أين أنا وكيف وصلت إلى هنا. فحدثته باختصار ثم سكبوا لي نبيذاً فشربت معهم وتحدثنا طويلاً. أعجبتني بساطة الانكليز وصراحتهم. قال العقيد إنّ حظنا الجيد، أو على حد تعبيره، قدرنا، هو الذي ساعدنا على التوحد جميعاً في أوروبا ضد الفاشية. ولولا هذا لكان النضال ضد هتلر أصعب بكثير، وربما كان سينتهي بشكل مأسوي بالنسبة لشعوبنا المتفرقة». الخ.. انتهى سنقري العينين من القراءة فوضع الدفتر جانباً، وأشعل لفافة أخرى ثم صمت قليلاً وهو ينفث الدخان، وتابع: - نستنتج أن كوطيبايف لم يعارض العقيد الانكليزي بأنه لولا عبقرية ستالين لكان النصر مستحيلاً، مهما فعلوا في أوروبا من مقاومة وغيرها. إذن لم يكن يضع الرفيق ستالين في اعتباره. هل فهمت هذا؟

حاول يديغاي أن يدافع عن أبي طالب:

- ربما تكلم عن هذا ولكنه نسي أن يكتبه.

- أين ورد هذا؟ لا يوجد أي دليل. أضف إلى أننا قارناها مع إفادة كوطيبايف أمام اللجنة بعد عودته من حركة المقاومة اليوغوسلافية عام ١٩٤٥. هناك لم يرد ذكر حادثة البعثة الانكليزية. إذن هنا شيء غير نظيف. من يضمن أنه لم يكن مرتبطاً بالاستخبارات الانكليزية وشعر يديغاي ثانية بالألم والمرارة. لم يفهم ما الذي كان يرمي إليه من وراء كل هذا سنقري العينين.

- تذكر. ألم يقل لك كوطيبايف شيئاً؟ ألم يذكر أمامك أسماء انكليزية؟ يهمنا أن نعرف من هم أعضاء البعثة الانكليزية هؤلاء.

- كيف تكون أسماء الانكليز؟

- مثلاً: جون، كلارك، سميث، جاك..

- لم أسمع مثلها في حياتي.

واستغرق سنقري العينين في التفكير ثم عبس. يبدو أن لقاءه مع يديغاي لم يكن مرضياً. ثم قال بضع كلمات بلهجة ملاطفة:

- افتتح هو مدرسة هنا وصار يعلم الأطفال، أليس كذلك؟

- أية مدرسة هذه؟ - وضحك يديغاي بغير إرادة منه – عنده طفلان وعندي أنا بنتان. هذه هي كل المدرسة. الكبار عمر كل منهم خمس سنوات وعمر الصغار ٣ سنوات. لا يوجد عندنا مكان يذهب إليه الأطفال، فنحن محاطون بالصحراء. صارا يلهيان الأطفال ويربيانهم، فهما على كل حال معلمان سابقان – هو وزوجته. يقرؤون، ويرسمون ويعلمانهم الكتابة الحساب. هذه هي كل المدرسة.

- ما هي الأغاني التي كانوا يغنونها؟

- متنوعة. أغان للأطفال. لم أحفظها.

- ماذا كان يعلمهم؟ وماذا كانوا يكتبون؟

- الأحرف، وبعض الكلمات العادية.

- أية كلمات مثلاً؟

- أية كلمات؟ لست أذكر.

- هذه – وجد سنقري العينين بين الأوراق ورقة من دفاتر التلاميذ عليها خربشات الأطفال – هذه هي أولى الكلمات – (كان مكتوباً على الورقة بيد طفل صغير «بيتنا») أترى أولى الكلمات التي يكتبها الأطفال: «بيتنا»،

ولماذا ليست «نصرنا»؟ أول كلمة يجب أن تكون على الشفاه الآن: ما هي؟ فكر. يجب أن تكون: «نصرنا» أليس كذلك؟. لماذا لم يخطر هذا بباله؟ النصر وستالين لا ينفصلان.

أصيب يديغاي بالحيرة. شعر بنفسه محتقراً إلى أقصى الدرجات بهذا الكلام، وشفق على أبي طالب وظريفة اللذين أعطيا وقتاً وجهداً كبيرين لهؤلاء الأطفال. فسيطر عليه حقد جعله يتجرأ ويقول:

- إذا كان الأمر كذلك، فكان يجب أن يكون أول ما يكتبونه «لينيننا». فلينين رغم كل شيء في المكان الأول.

أمسك سنقري العينين عن التنفس لحظة لشدة دهشته لهذه المفاجأة ثم زفر زفرة طويلة وهو ينفث الدخان من رئتيه. وقف عن كرسيه، يبدو أنه شعر بحاجة للحركة، لكن الغرفة ضيقة لا تسمح بذلك – وأعلن بشكل متقطع ومتقن.

- نحن نقول ستالين ونقصد بذلك لينين.

ثم تنفس الصعداء وكأنه قطع مسافة وهو يعدو وأضاف بهدوء:

- حسناً سنعتبر هذا الحديث وكأنه لم يكن.

جلس وعادت عيناه الصافيتان، كعيني السنقر، المصفرتان لتلمعان بوضوح ودون أي انزعاج على وجهه الصلد الذي يصعب استشفاف ما يفكر به.

- عندنا معلومات تفيد أن كوطيبايف عمل ضد تعلم الأطفال في المدارس الداخلية. ما رأيك، علماً أن الحديث دار بحضورك؟

- من أين هذه المعلومات؟ من أدلى بهذه المعلومات؟

صعق هذا الكلام يديغاي ولمع في ذهنه حل هذا اللغز: ابيلوف. رئيس النقطة. هو المذنب. هو الذي وشى به لأن هذا الحديث دار بحضوره.

ولم يكن سؤال يديغاي بالنسبة لسنقري العينين دعابة، إذ أغضبه جداً:

- اسمع. لقد أفهمتك: من أين المعلومات وما هي المعلومات – هذا شأننا، ونحن لسنا ملزمين بتقديم تقرير لأحد. تذكر هذا. قل لنا ماذا قال؟

- ماذا قال؟ يجب أن أتذكر. عند أكبر العاملين هنا في النقطة قازانغاب يوجد ابن يدرس في المدرسة الداخلية في محطة قومبيل. طبعاً صار الصبي يأتي ببعض الزعرنات، وأحياناً يحتال على والديه. في بداية أيلول صاروا يجهزون سابيتجان للذهاب إلى المدرسة. حمله أبوه على الجمل، أما أمه بوكيي، زوجة قازانغاب، فصارت تبكي وتشكو: «ما هذه المصيبة، منذ ذهب إلى المدرسة الداخلية صار إنساناً آخر. لم يعد قريباً بقلبه وروحه من بيته وأبيه وأمه كالسابق» امرأة جاهلة. طبعاً كان يجب تعليم الصبي وإن كان بعيداً دائماً...

قاطعه سنقري العينين:

- لا بأس. ماذا قال كوطيبايف إذ ذاك؟

- كان واقفاً معنا، وقال أن الأم تحس الشر بقلبها. لأن التعليم في المدارس الداخلية أمر اضطراري. المدرسة الداخلية تأخذ، أو الأصح، لا تأخذ، إنما تبعد الابن عن أسرته وعن أبيه وأمه. المسألة على وجه العموم معقدة، وصعبة على الجميع، عليه وعلى غيره. ولكن ماذا باليد إذا لم تكن هناك إمكانية أخرى. أنا أفهمه. أطفالنا أيضاً يكبرون، وقلبنا يؤلمنا منذ الآن وبالنا مشغول: ماذا سيحل بهم وماذا ستكون النتائج. طبعاً سيئة...

- هذا فيما بعد – قاطعه سنقري العينين – إذن هو قال أن المدرسة الداخلية السوفيتية شيء سَيِّئ.

- لم يقل «السوفييتية»: قال المدرسة الداخلية فقط. مدرستنا الداخلية.

- هذا ليس مهماً. قومبيل في الاتحاد السوفييتي.

- كيف، هذا ليس مهماً؟ - خرج يديغاي عن طوره وقد أحس بمحاولة تضليله – لماذا تلصق بالرجل ما لم يقله؟ أنا أيضاً هكذا أفكر. لو كنت أعيش في مكان آخر وليس في النقطة لما أرسلت أبنائي إلى أية مدرسة داخلية. هكذا أنا أفكر. إذن ماذا؟...

- فكر. فكر. – أوقف سنقري العينين الحديث وبعد أن صمت قليلاً أضاف: - وهاااكذا آن أوان الاستنتاجات. فهو. إذن، ضد التربية الجماعية، أليس كذلك؟

هو ليس ضد شيء. – لم يتحمل يديغاي – لماذا إطلاق التهم الكاذبة؟ كيف تبيح لنفسك هذا؟

- لا ضرورة لهذا الكلام. كفى – أشار سنقري العينين بيده إذ وجد من غير الضروري الدخول في التفسيرات – والآن قل لي. ما هو هذا الدفتر المسمى «الطير دونينباي»؟ كوطيبايف يؤكد أنه دونه عن رواية قازانغاب وأحياناً عن روايتك أنت. هذا صحيح؟

- صحيح تماماً. – أجاب يديغاي بحيوية – هذه القصة الأسطورة وقعت هنا في صاروزيكي. على مسافة غير بعيدة من هنا توجد مقبرة النايمان. كانت ذات يوم مقبرة النايمان، أما الآن فهي مقبرة عامة تدعى انابيت. هناك دفنت نايمان أنا التي قتلها ابنها المسلوب...

- يكفي، يكفي. هذا يمكننا أن نقرأه لنكتشف ماذا يختبئ وراء هذا الطير. – وبدأ سنقري العينين بتصفح الدفتر متأملاً بصوت مسموع ومعرباً بهذا عن موقفه: - الطير دونينباي، احم، ليس هناك أحسن من هذه البدعة. طير باسم إنسان. أديب جديد يطلع علينا. مختار اويزوف جديد. جميل، أديب الماضي الإقطاعي. الطير دونينباي، احم. يظن لن نفهمها... يقبع هنا ويكتب بصمت، لأطفاله، كما ترى. ولكن ما هذا؟ هذا أيضاً من أجل أطفاله برأيك؟ - وقرب سنقري العينين دفتراً آخر ذا غلاف مشمع من وجه يديغاي.

- ما هذا؟ - لم يفهم يديغاي.

- ما هذا؟ أنت الذي يجب أن يعرف. إنَّهُ يحمل عنوان: «نداء رايمالي آغا إلى أخيه عبد الخان».

- صحيح، هذه أيضاً أسطورة – بدأ يديغاي يتحدث: - هذه حكاية قديمة، والكبار يعرفون هذه القصة...

- لا تخف. أنا أعرفها أيضاً. – قاطعه سنقري العينين – سمعتها مرة. عجوز خرف يعشق فتاة في التاسعة عشرة من عمرها. ما هو الجيد في هذا؟ يبدو أن كوطيبايف هذا ليس مجرد شخص معاد بل هو أيضاً رجل فاسق لا أخلاقي. كيف يحاول هنا جاهداً وصف كل هذا الانحلال.

احمَرَّ وجه يديغاي. ليس خجلاً، بل لأن قلبه طفح بالحقد، إذ لا يمكن أن يظلم أبو طالب ظلماً أكثر من هذا. وقال محاولاً إمساك أعصابه:

- لا أدري أي مسؤول تكون أنت، ولكن لا تجرحه بهذا. ليت كل الرجال يكونون آباء ورجالاً مثله. أي واحد هنا بإمكانه أن يخبرك من هو أبو طالب. يمكن عدنا هنا على أصابع اليد الواحدة، وكل واحد منا يعرف الآخرين.

- لا بأس، لا بأس، اهدأ. لقد شوش لكم عقولكم. فالعدو يتصنع دائماً، ونحن نكشفه. كفى، بإمكانك أن تتصرف.

نهض يديغاي وارتدى قبعته مضطرباً.

- والآن، ماذا سيحل به؟ ستسجنون الرجل بسبب هذه الكتابات؟

ونهض سنقري العينين من وراء طاولته منتفضاً:

- اسمع. ها أنا أعيد عليك مرة أخرى: ليس هذا شأنك. لماذا نلاحق العدو، كيف نتصرف معه، ما هي العقوبة التي ننزلها به – أمور نعرفها نحن. لا تشغل رأسك بها. اعرِف طريقك وأمض فيه.

في ذلك اليوم مساء توقف في نقطة أم العواصف قطار المسافرين مرة أخرى، إلا أنه في هذه المرة كان متجهاً في الاتجاه المعاكس. وقف لمدة قصيرة أيضاً. حوالي ثلاث دقائق.

عند الطريق رقم واحد وقف في الظلام أولئك الثلاثة بجزماتهم الجلدية، وقفوا ينتظرون قدوم القطار، وقد احتجزوا أبا طالب كوطيبايف، وبعيداً عنهم وقف أهل أم العواصف: ظريفة وأبناؤها، يديغاي واوقوبالا، وقف هؤلاء وقد حالت بينهم وبين أبي طالب ظهور أولئك الثلاثة الكتيمة الصلدة، أما رئيس المحطة أبيلوف فقد كان يتمشى ذهاباً وغياباً وهو يتململ ذليلاً صغيراً، إذ إنَّ القطار تأخر نصف ساعة عن موعده. ولكن ما ذنبه في هذا؟ فليقف هادئاً ساكناً. قازانغاب الذي مر أيضاً عبر الاستجواب بسبب الأساطير المشؤومة التي اكتشفت عند أبي طالب كان يقف في تلك الساعة عند سهم التحويل. هذا يعني أنه هو الذي وجه بيديه القطار إلى ذلك الطريق الذي سيأخذون منه أبا طالب بعيداً عن صاروزيكي. أما بوكيي فقد ظلت في البيت مع بنات يديغاي.

كان أولئك الثلاثة بجزماتهم الجلدية، ذوو الياقات المرفوعة بشكل مميز اتقاء للريح، يفصلون أبا طالب بظهورهم وهم غارقون في صمت متوتر، وأهل أم العواصف المودعين وقفوا أيضاً صامتين.

عصفت الريح فحملت معها ذرات الثلج بحفيف وصفير يصعب تمييزه. يبدو أن عاصفة ثلجية على وشك الوقوع. كانت سماء صاروزيكي الحالكة السواد تتأهب وتحتقن وتبرد، وكان القمر يبدو بقعة وحيدة باهتة تضيء بنور متوحش كئيب فارغ، والصقيع يلسع الخدود.

بكت ظريفة بصمت وهي تحمل بين يديها صرة طعام وملابس كانت تنوي إعطاءها لزوجها. وفضحت حزم البخار الخارجة من فم اوقوبالا تنهداتها الثقيلة.

كانت اقوبالا تخبئ داول تحت طرف معطفها المصنوع من الفراء. كان داول يحس على ما يبدو بشيء ما، لذا صمت خائفاً ملتصقاً بالخالة اوقوبالا. لكن أصعب ما في الموقف كان حال ارميك الذي كان يديغاي يحمله على ذراعه ويحاول حمايته من الريح. لم يكن هذا الصغير ليحزر شيئاً. فنادى أباه:

- بابيكا، بابيكا تعال إلى هنا، تعال إلينا. نحن أيضاً سنذهب معك.

ارتعش أبو طالب حين سمع صوته وحاول بغير إرادة منه أن يلتفت ليجيب ابنه بشيء ما، لكنهم لم يسمحوا له بالالتفات إلى الخلف. لم يحتمل أحد الثلاثة الموقف فصرخ بهم:

- لا تقفوا هنا. أتسمعون؟ اذهبوا من هنا. يمكنكم الاقتراب فيما بعد.

واضطروا إلى التراجع.

بدت من بعيد أنوار القاطرة، فتحرك الجميع وتململوا في أماكنهم. لم تستطع ظريفة أن تمسك نفسها فارتفع صوت نشيجها وأجهشت معها اوقوبالا بالبكاء. هذا القطار يحمل معه الفراق. كان القطار يشق بأنوار جبهته غمامة الظلام الصقيعي الكثيفة ويتقدم نحوهم برهبة، ومع تقدمه يتحول عبر الضباب إلى كتلة مظلمة هادرة. مع اقترابه كانت أنوار القاطرة المشتعلة ترتفع فوق سطح الأرض أكثر وأكثر والريح الثلجية تشكل دوامات هائجة بين خُطى السكة الحديدية تزداد وضوحاً في المساحة التي تنيرها الأضواء كلما اقترب القطار، يزداد كذلك وضوحاً ورهبة صوت العجلات والمكابس العاملة بجد. ها هي ملامح القطار قد بدت واضحة الآن تماماً.

- بابيكا، بابيكا... انظر، القطار قادم – صرخ ارميك، ثم صمت مستهجناً لأن والده لا يلتفت إليه، وعاد ثانية إلى محاولة لفت انتباهه: - بابيكا، بابيكا.

اقترب ابيلوف رئيس النقطة من أولئك الثلاثة:

- عربة البريد ستكون في مقدمة القطار تفضلوا معي. إلى الأمام، إلى هناك.

وتحرك الجميع في الاتجاه الذي أشار إليه بخطى سريعة، وكان القطار قد أدركهم. في المقدمة كان يسير سنقري العينين دون أن يلتفت إلى الخلف، وهو يحمل محفظة وخلفه سار مساعداه ذوو الأكتاف العريضة المرافقان لأبي طالب، وعلى مسافة منهم أسرعت في إثرهم ظريفة وتبعتها اوقوبالا وهي تقود داول. يديغاي سار إلى جانبهم متخلفاً عنهم بعض الشيء وهو يحمل ارميك على ذراع. لم يكن بمقدوره أن يطلق لنفسه حرية البكاء أمام النساء والأطفال، فكان يكابر ويحاول السيطرة على نفسه وفي حلقه غصة مرة خانقة.

- أنت صبي ذكي يا ارميك، أليس كذلك؟ أنت ذكي ولن تبكي. حسناً؟
- تمتم يديغاي بهذه الكلمات بشكل متقطع وهو يضم الصغير إلى صدره.

في هذه الأثناء كان القطار قد خفف من سرعته وهو ينزلق نحو الموقف. وانتفض الصغير على ذراع يديغاي فزعاً عندما أطلق القطار، إذ أصبح بمحاذاتهما، وإلى أن تجاوزهما، البخار مصدرا ضجيجاً حاداً، وأطلق مراقب القطار صفرة حادة من صفارته.

- لا تخف، لا تخف. لا تخف شيئاً ما دمت أنا معك، وأنا سأظل دائماً معك.

توقف القطار بصرير وصليل ثقيلين فتسمرت في أماكنها العربات التي تصلدت من الصقيع وغبار الثلج، والتي تغطت نوافذها بغباشة من الجليد الرقيق على زجاجها، تسمرت العربات وساد الهدوء. لكن القاطرة نفثت في هذه اللحظات البخار مطلقة صوتاً يشبه الصفير، استعداداً للانطلاق في رحلتها من جديد. كانت عربة البريد العربة الثانية بعد عربة الشحن وراء القاطرة. كانت نوافذ عربة البريد مشبكة، وكان الباب ذو المصراعين في

منتصف العربية. فتحت الأبواب من الداخل، فبدا رجل وامرأة يرتديان قبعات عمال البريد، وسراويل قطنية وسترات سميكة. المرأة كانت تحمل مصباحاً، يبدو أنها الرئيسة. كانت امرأة بدينة عريضة الصدر.

- هذا أنتم؟ نحن بانتظاركم. المكان جاهز. – قالت المرأة هذه الكلمات وهي ترفع المصباح بمحاذاة رأسها كي تنير على الجميع.

كان أول من صعد إلى العربة سنقري العينين وهو يحمل محفظة كبيرة.

- هيا، هيا، لا تتلكّؤوا – قالت المرأة مستعجلة الباقين.

وقال أبو طالب مسرعاً:

- سأعود قريباً. هذا مجرد التباس. انتظروني، سأعود قريباً.

لم تحتمل اوقوبالا عندما صار أبو طالب يودع الأطفال فانفجرت بالبكاء ضم الأطفال إلى صدره بكل ما أوتي من قوة وقبلهم وقال لهم شيئاً ما وهم مرعوبين لا يدركون شيئاً. كانت القاطرة تستعد للانطلاق. وكل هذا جرى تحت أضواء المصباح اليدوي. وهنا دوى ذلك الصفير الحاد الثاقب الذي يقشعر منه البدن والذي اخترق القطار، كتيار كهربائي، من أوله إلى آخره.

- كفى، هيا، اركب، هيا. – وسحب أولئك الاثنان أبا طالب إلى درجات العربة.

وتمكن أبو طالب ويديغاي أن يتعانقا بقوة في الوداع فتسمرا للحظة وهما يدركان كل شيء بعقلهما وقلبهما وكل وجودهما، وألصقا خدودهما الصلبة الرطبة ببعضها البعض. وتمتم أبو طالب:

- حدثهم عن البحر.

هذه كانت آخر كلماته. فهم يديغاي. الأب يطلب أن أحدث أبناءه عن بحر آرال.

- كفى. هيا، هيا. اركب. – ودفعوا أبا طالب.

دفع أولئك الاثنان أبا طالب إلى العربة بكتفيهما، وعندها أدرك الصغار جوهر الافتراق الرهيب، فأجهشا بالبكاء دفعة واحدة وهما يصرخان معاً:

بابيكا! بابا! بابيكا! بابا!

واندفع يديغاي وارميك على ذراعه نحو العربة.

- إلى أين؟، إلى أين؟ لِيَشْفِكَ الله. – وصارت المرأة التي تحمل المصباح تدفعه بصدره وهي تسد بكتفها الثقيل الممر إلى الباب.

لكن أحداً لم يفهم في تلك اللحظة أن يديغاي كان مستعداً لو استطاع، أن يذهب بنفسه مع أبي طالب ليخنق بيديه سنقري العينين ذاك لشدة تألمه عندما بدأ الصغار بالصراخ.

وصرخت المرأة التي تحمل المصباح فانطلقت من فمها العابق برائحة التبغ حزمة من بخار أنفاسها المحملة برائحة البصل لتصطدم بوجه يديغاي:

- لا تقفوا هنا. انصرفوا من هنا. انصرفوا.

وتذكرت ظريفة أن الصرة ما تزال بين يديها.

- هاك. أعطه هذه. فيها طعام. – وألقت الصرة في العربة.

أغلقت أبواب عربة البريد. وصمت كل شيء. ثم أطلقت القاطرة شارتها وتحركت من مكانها. وسار القطار وعجلاته تدور باعثة صريراً شديداً وهو يكتسب ببطء سرعته المطلوبة في هذا الصقيع العظيم.

وانجذب أهل أم العواصف دونما إرادة منهم وراء هذا القطار المغادر فساروا بجانب العربة التي كانت كل أبوابها موصدة تماماً. كانت اوقوبالا أول من أفاق لنفسه، فأمسكت ظريفة وضمتها إلى صدرها بقوة. ووجهت تعليماتها بصوت عال محاولة التغلب على قعقعة العجلات المتدحرجة بجانبهم في تسارع كبير:

- داول. لا تذهب. قف، قف هنا. أمسك أمك من يدها.

لكن يديغاي ظل وهو يحمل ارميك على ذراعه يجري مع القطار ولم يتوقف إلا عندما تجاوزته آخر عربة. ومضى القطار مبتعداً ومعه ابتعد ضجيج الحركة المتناقص وابتعدت الأنوار المحمرة الشاحبة.. ثم تناهت إلى مسامعهم آخر صفرة طويلة...

عاد يديغاي على أعقابه وهو يحاول تهدئة الصبي الذي لم يكف طويلاً عن البكاء...

في البيت، بينما هو جالس في الليل قرب المدفأة كالأصم تذكر يديغاي ابيلوف. فنهض ببطء وأخذ يرتدي ملابسه. ففهمت اوقوبالا القصة.

- إلى أين؟ - وأمسكت بزوجها – لا تلمسه. إياك أن تمسه ولو برأس إصبعك. زوجته حامل. أضف إلى أنه ليس من حقك. كيف تبرهن على ذلك؟.

- لا تخافي – أجابها يديغاي بهدوء – لن أمسه، ولكنه يجب أن يعرف أن من الأفضل له الانتقال إلى مكان ما آخر. أعدك – بأن لا أمس شعرة واحدة من رأسه. صدقيني. شد يده وخرج من البيت.

كانت نوافذ بين ابيلوف ما تزال مضاءة، هذا يعني أنهم لم يناموا بعد.

اقترب يديغاي من الباب والثلج القاسي يصر تحت نعله على الأرض، وقرع قرعاً شديداً. فتح ابيلوف الباب.

- آ، يديكيه، ادخل، ادخل. – وتراجع إلى الخلف شاحباً فزعاً.

دخل يديغاي ودخلت معه هبات البخار الصقيعي، وتوقف عند العتبة وأغلق خلفه الباب.

- لماذا يتمت هؤلاء البؤساء؟ - قال هذه الكلمات وهو يحاول أن يضبط نفسه إلى أقصى الدرجات.

سقط ابيلوف على ركبتيه وصار يزحف ممسكاً بذيل معطف يديغاي النصفي.

- أقسم بالله، لست أنا، يا يديغاي. إن شاءَ الله لا تقوم زوجتي من مخاضها، إن كنت أنا. – أقسم ابيلوف هذا القسم المغلظ وهو متجه إلى زوجته الحامل التي سمرها الخوف في مكانها. وصار يتكلم بسرعة واضطراب: - أقسم بالله، لست أنا، يا يديكيه. كيف لي أن أفعل ذلك. إنه ذلك المفتش! أتذكر؟. هو الذي ظل يسأل ويستجوب، ماذا يكتب، ولماذا يكتب؟. إنه ذلك المفتش. كيف لي أن أفعل ذلك. عساها لا تقوم من مخاضها إن كنت أنا. أمس لم أعرف أين أذهب بنفسي، تمنيت لو تبتلعني الأرض، كي لا أرى ذلك. إنه ذلك المفتش الذي ظل يسأل ويستفسر عن كل شيء. وأنا من أين كان لي أن أعرف... لو كنت أعرف...

- حسناً. – قاطعه يديغاي – انهض.. لنتحدث كرجال. ها أنا أقول لك أمام زوجتك، إن شاءَ الله تقوم بالسلامة، ليس هذا موضوع حديثنا الآن. حتى لو كنت أنت غير مذنب، فالأمر بالنسبة لك سواء أينما عملت. أما نحن فسنظل هنا، ربما حتى نموت. فكر بالأمر وقد تجد من الأفضل لك أن تنتقل إلى عمل آخر. هذه نصيحتي لك. وهذا كل شيء. ولن نعود إلى هذا الحديث ثانية. هذا كل ما أردت قوله لك.

وخرج يديغاي مغلقاً وراءه الباب.

* * *

- ٨ -

كان الوقت في المحيط الهادئ، إلى الجنوب من جزر أليوت – بعد الظهر. كان هيجان المحيط ما يزال متوسط الشدة، وكانت سلاسل الموج المتراقصة تتدحرج كالسابق فوق كل المساحة المرئية واحدة تلو الأخرى، ممثلة حركة الماء غير المرئية من خط الأفق إلى خط الأفق. وحاملة الطائرات «كونفينتسيا» تتمايل بعض الشيء فوق الأمواج، وهي في مكانها السابق على بعدين مباشرين متساويين تماماً عن سان فرانسيسكو وفلاديفوستوك. كل أجهزة وطواقم سفينة البرنامج العلمي الدولي كانت في حالة من التأهب والاستعداد التام للعمل.

خلال هذا الوقت كان الاجتماع الطارئ للجان الخاصة مطلقة الصلاحية لبحث الوضع الاستثنائي الذي تولد نتيجة لاكتشاف حضارة لا أرضية في منظومة النجم الحامل، كان هذا الاجتماع يشرف على نهايته. وكان الرائدان الموازيان ١-٢ و٢-١ اللذان غادرا بملِء إرادتهما وذهبا مع سكان الكوكب الآخر، ما يزالان على كوكب صدر الغابة، بعد أن تم تحذيرهما ثلاث مرات من قبل اوبتسينوبر عن طريق الاتصال اللاسلكي من المحطة المدارية «باريتيت» بأن لا يقدموا على أي تصرف مهما كلف الأمر حتى ورود تعليمات جديدة من اوبتسينوبر.

لم تعكس تعليمات اوبتسينوبر القطعية في الواقع مجرد البلبلة في العقول، بل عكست أيضاً ذلك الموقف شديد التعقيد والمندفع بلا كوابح نحو الاحتدام، وعكست الخلافات المتوترة في العلاقات ما بين الأطراف التي

كانت تهدد بقطع التعاون قطعاً نهائياً، بل والأكثر من ذلك – بالمواجهة المعلنة.

وتراجع برنامج «ديمي اورغ» وهو الذي قرب منذ زمن قصير بين الأطراف لصالح القوة العلمية التقنية المتكاملة لدى الدولتين العظميين، تراجع الآن إلى الدرجة الثانية وفقد فوراً قيمته السابقة في مواجهة المشكلة العليا التي ظهرت بشكل غير متوقع مع اكتشاف حضارة لا أرضية. كان أعضاء اللجان يفهمون بشكل واضح أمراً واحداً: أن هذا الاكتشاف الذي لم يسبق له مثيل والذي لا تصح مقارنته بأي اكتشاف آخر يعرض أسس المجتمع العالمي المعاصر نفسها وكل ما وزع وتكون في إدراك الأجيال من قرن إلى قرن، يعرضه إلى اختبار جذري، يعرض لهذا الاختبار كذلك جملة قواعد وجوده. هل هناك من يجرؤ على الإقدام على مثل هذه الخطوة، دون أن يأخذ بعين الاعتبار أحكام أمن العالم الأرضي؟

وعادت الآن الخلافات الجذرية بين النظامين الاجتماعيين والسياسيين على الأرض، كعادتها – أثناء لحظات التأزم التاريخية – إلى الافتضاح بكل قوتها.

تحول بحث القضية إلى جدل حام، وصار اختلاف وجهات النظر واختلاف المواقف يتخذ أكثر وأكثر شكل المواقف المتعارضة مستحيلة التلاقي. وهوت القضية بسرعة إلى حافة الصدام وإلى التهديدات المتبادلة، إلى هاوية النزاعات التي كان من شأنها، لو خرجت عن نطاق المراقبة والضبط، أن تسفر حتماً عن حرب عالمية. لذلك كان كل طرف يحاول الابتعاد عن اتخاذ المواقف القصوى تجاه الخطر الشامل الذي يحمله تطور الأحداث بهذا الاتجاه، إلا أن العامل الكابح الأكبر كان عدم الرغبة بتفجير الوعي الأرضي، لا بل، الخوف من تفجير هذا الوعي، وهذا ما يمكن أن يقع بشكل عفوي لو تحولت أخبار اكتشاف حضارة مفاجئة إلى معلومة عامة... فليس هناك من يضمن نتائج مثل هذا التطور للأحداث...

تغلب العقل وتوصل الجانبان إلى حل وسط إجباري وعلى أسس متوازنة أيضاً. وبهذا الصدد أرسلت إلى المحطة المدارية «باريتيت» رسالة لاسلكية بالشيفرة موجهة من «وبتسينوبر»، هذا مضمونها:

إلى رائدي التقصي الفضائيين ١-٢ و٢-١ عليكما إقامة اتصال فوري لاسلكي بواسطة أجهزة الاتصال الموجودة على متن «باريتيت» مع الرائدين الموازيين ١-٢ و٢-١، الموجودين خارج المجموعة الشمسية، فيما يسمى مجموعة النجم «الحامل» على كوكب صدر الغابة. ومن الضروري إعلامهما فوراً أنه استناداً إلى قرارات اللجان الثنائية التي درست المعلومات الواردة حول الحضارة اللا أرضية التي اكتشفها الرائدان الموازيان ١-٢ و٢-١ فقد اتخذ اوبتسينوبر قراراً غير قابل لإعادة النظر فيه:

أ) عدم السماح بعودة رائدي الفضاء الموازيين ١-٢ و٢-١ إلى المحطة المدارية «باريتيت» وبالتالي إلى الأرض، باعتبارهما شخصين غير مرغوب فيهما في الحضارة الأرضية.

ب) إعلام سكان الكوكب المسمى صدر الغابة رفضنا لإقامة أي نوع من أنواع الاتصال معهم باعتبار هذه الاتصالات لا تتفق والخبرة التاريخية والمصالح المُلحّة وخاصيات التطور الحالي للمجتمع البشري على الأرض.

ج) تحذير الرائدين الموازيين السابقين ١-٢ و٢-١، وكذلك تحذير سكان الكوكب الآخر الذين هم على اتصال معهما بأن لا يحاولوا إقامة أي اتصال مع الأرض، وأن لا يحاولوا بطبيعة الحال اختراق الفضاء الأرضي، كما حدث عندما زار سكان الكوكب الآخر المحطة المدارية «باريتيت» على مدار «ترامبلين».

د) يعلن اوبتسينوبر عن إقامة نظام نقل فضائي استثنائي يطلق عليه اسم عملية «الحزام» وذلك بالسرعة القصوى بهدف حماية الفضاء الأرضي من احتمال اختراق الأجسام الطائرة التي يطلقها سكان الكوكب الآخر،

هذه العملية ستتم بعد برمجة سلسلة من الصواريخ – الروبوتات[1] القتالية للقيام بأعمال الدورية والمرابطة على مدارات محددة، قادرة على إبادة أي جسم يقترب من الفضاء نحو الكرة الأرضية بواسطة الإشعاعات النووية اللازرية.

هـ) إعلام رائدي الفضاء الموازيين السابقين اللذين أقاما من تلقاء نفسيهما اتصالاً مع المخلوقات غير الأرضية، أنه حفاظاً على الأمن والاستقرار القائم في البنية الجيوسياسية لسكان الأرض يستبعد أي احتمال لأي اتصال بهما. وبعد ذلك ستتخذ كل إجراءات السرية الصارمة الممكنة وكل الإجراءات التي تحول دون تجدد الاتصال. ولهذا سيغير فوراً مدار المحطة «باريتيت»، كما ستوضع شيفرة جديدة للاتصالات اللاسلكية في المحطة.

و) تحذير سكان الكوكب الآخر مرة أخرى من مغبة الاقتراب من مناطق «الحزام» حول الكرة الأرضية.

اوبتسينوبر – متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا»

مع التجائه إلى هذه الإجراءات الوقائية اضطر اوبتسينوبر لأن يجمد ولمدة غير محدودة وبشكل كلي برنامج «ديمي اورغ» لاستثمار كوكب اكس، وكان عليه أن يغير إحداثيات المحطة المدارية «باريتيت» في دورانها وأن يستخدمها من أجل المراقبة الفضائية. كما تقرر تسليم حاملة الطائرات «كونفينتسيا» المخصصة للبحث العلمي إلى فنلندا المحايدة لحفظها. وكان من المفروض أن تسرح كل الأجهزة الموازية وكل العاملين العلميين والإداريين وكل أجهزة الخدمات الخاصة بعد تعهدهم التام والقطعي بعدم فضح أسباب تقليص نشاط اوبتسينوبر حتى وفاتهم.

---

(١) روبوتات: استخدم المترجم هذه الكلمة بمثابة جمع لكلمة روبوت أي الرجل الآلي.

كان من المفروض الإعلان للرأي العام أن العمل في برنامج «ديمي اورغ» سيتوقف لمدة غير محدودة نظراً لضرورة إجراء بحوث ومعالجات جذرية على كوكب اكس.

كل شيء درس بشكل دقيق، وكل هذا كان يجب أن ينفذ فوراً بعد وضع «الحزام» على مداراته حول الكرة الأرضية.

قبيل ذلك، وبعد انتهاء اجتماعات اللجان مباشرة أتلفت كل الوثائق والشيفرات والمعلومات الواردة من رائدي الفضاء الموازيين السابقين وكل المحاضر والأشرطة والأوراق ذات العلاقة بهذه القصة المأساوية.

كان الوقت ينحدر تجاه نهاية النهار في المحيط الهادئ إلى الجنوب من جزر اليوت. الطقس كما كان، محتمل نسبياً، لكن اضطرابات المحيط كانت مع ذلك تقوى تدريجياً، وصار هدير الأمواج المتراقصة يسمع في كل مكان.

كان جناح الطيران ينتظر بقلق لحظة خروج أعضاء اللجان المطلقة الصلاحية الخاصة إلى الطائرات بعد انتهاء الاجتماع. وها هم يخروجون جميعاً. ودعوا بعضهم البعض. ذهب بعضهم للركوب في إحدى الطائرات واتجه الآخرون لركوب طائرة أخرى.

تم الإقلاع بشكل ممتاز رغم اهتزاز حاملة الطائرات. اتجهت إحدى الطائرات إلى سان فرانسيسكو واتجهت الأخرى إلى الاتجاه المعاكس – إلى فلاديفوستوك.

كانت الأرض تسبح في فلكها الأبدي، تحيط بها الرياح العلوية. كانت الأرض تسبح... كانت حبة رمل صغيرة في هذا الكون اللامتناهي. وكانت حبات الرمل الصغيرة هذه هائلة العدد. ولكن على هذه الحبة، على الأرض كان يا ما كان، كان يعيش الناس. كانوا يعيشون كما قدر لهم وكما استطاعوا أحياناً، كان يحدوهم الفضول إلى محاولة معرفة إذا ما كانت توجد في مكان ما آخر مخلوقات شبيهة بهم. كانوا يتناقشون ويبنون الافتراضات، نزلوا على

سطح القمر، وأرسلوا الآلات الأوتوماتيكية إلى بقية الأجرام السماوية، لكنهم كانوا يزدادون في كل مرة تأكداً – وبمرارة – من أنه لا يوجد في أي مكان في منطقة المجموعة الشمسية شيء شبيه بهم، ولا توجد أية حياة. ثم نسوا كل هذا إذ لم يعد هذا يهمهم، فحياتهم وتسوية الخلاف فيما بينهم لم تكونا بهذه السهولة، حتى أن الحصول على الخبز كفاف يومهم كان يحتاج إلى الجهد... كثيرون كانوا يرون أن هذا ليس شأنهم. والأرض كانت تسبح من ذاتها ولذاتها...

كان كانون الثاني ذاك بكامله شهراً صقيعياً معتماً. من أين اِنهالَ هذا البرد الشديد على صاروزيكي! القطارات تسير بصناديقها المتجمدة حتى الابيضاض بسبب كثافة الجليد. وكان من الغريب مشاهدة حتى الابيضاض بسبب كثافة الجليد. وكان من الغريب مشاهدة صهاريج البترول السوداء وقد وقفت في النقطة صفاً أبيض تراكمت عليه ذرات الجليد، إذ لم يكن من السهل على القطارات أن تتحرك من أماكنها، فتقوم أزواج خاصة من القاطرات بدفع القطارات دفعات متتالية ولمدة طويلة، وكأنها تتضافر معاً لاقتلاع العجلات المسمرة عن القضبان الحديدية. كانت أصوات القاطرات التي تدفع الحافلات تُسمَع إلى مسافات بعيدة عبر الهواء الحاد كقعقعة الحديد الرنان. وفي الليالي كان أطفال أهل أم العواصف يستيقظون فزعين بسبب هذه الأصوات.

في هذه الفترة هبت على الطريق الحديدية العواصف الثلجية، واحدة تلو الأخرى، كانت الرياح مذهلة، وصاروزيكي بالنسبة لها – ميداناً حقيقياً. بينما لم تكن صاروزيكي نفسها تعرِف من أين تأتيها العواصف. وقد بدا لأهل أم العواصف أن الرياح تسعى جهدها لحمل كل كثبان الثلوج إلى الطريق الحديدية، فتبحث عن أي منفذ تستطيع من خلاله إغراق وطمر الطريق بالثلج الثقيل.

يديغاي وقازانغاب وثلاثة آخرون من عمال الطريق الحديدية لم يكن لهم شغل إلا أن يسرعوا من طرف إلى طرف ليزيحوا الثلج عن الطريق مرة

هنا ومرة هناك ثم يعودوا ثانية إلى المكان السابق. ساعدتهم بذلك الجرافات التي تجرها الجمال، إذ أزاحوا الطبقة العليا الثقيلة من الثلج إلى جانب الطريق بواسطة الجرافات، أما الباقي فقد اضطروا إلى إكماله بالأيدي. لم يشفق يديغاي على قارانار، بل كان مسروراً لتوفر إمكانية إرهاقه وإخماد تلك القوة المتأججة فيه، فأشركه مع الجمال الأخرى في العمل مثلها تماماً، وصار يلهبها بالسياط وهي تسحب بواسطة لوح خشبي معترض كثبان الثلج، وقد ثبتت على اللوح قطعة أخرى لحفظ التوازن وقف عليها يديغاي نفسه كي يمنع بثقله هذه الجرافة من الارتفاع فوق الثلج. لم تكن تتوفر إذ ذاك أدوات أخرى غير هذه. كانت قد ترددت بعض الأقوال حول أن آلات خاصة لكنس الثلوج قد أنتجت في المصانع، آلات تزيح الكثبان جانباً، ووعدوهم بأن يرسلوا لهم قريباً مثل هذه الآلات. لكن الوعود ما زالت وعوداً.

إذا كان الصيف قد ألهبهم طوال ما يقارب الشهرين بقيظه حتى درجة الجنون، فإن استنشاق الهواء المتجمد الآن يبدو أمراً صعباً، إذ تشعر أن الرئتين ستنفجران. ورغم كل هذا كانت القطارات تسير وكان يجب إنجاز ما يجب إنجازه. طالت لحية يديغاي التي بدأت في هذا الشتاء ولأول مرة تبرق ببعض الشعيرات البيضاء، وتنفخت عيناه بسبب قلة النوم. كان النظر إلى وجهه في المرآة مفزعاً. فقد أصبح كالحديد الصلب. لم يخلع عنه معطف الفرو النصفي، بل ارتدى معطفاً آخر مطاطياً ذا قبعة، واحتذى جزمة من اللباد.

ولكن أياً كان العمل الذي يقوم به يديغاي ومهما لاقى من صعوبات لم تكن قصة أبي طالب كوطيبايف لتفارق تفكيره. لقد تركت هذه القصة أثراً عميقاً مؤلماً عند يديغاي. كان هو وقازانغاب كثيراً ما يفكران ويخمنان – كيف حدث كل هذا، وبم سينتهي. كان قازانغاب يزداد صمتاً وتقطيباً وهو يفكر مشدوداً إلى شيء ما يخصه. وذات مرة قال:

- هكذا هي الأمور دائماً. إلى أن تتوضح الأمور... ليس عبثاً ما قاله القدماء: «الخان ليس إله، فهو لا يعرف دائماً ما يفعله أولئك الذين يحيطون به. وأولئك الذين حوله لا يعرفون عن أولئك الذين يجمعون الأتاوة من الأسواق». دائماً هكذا.

فهزئ منه يديغاي مستاء:

- ما هذا الكلام. يا لك من حكيم. منذ متى خبطوا الخانات كُلّها على رؤوسهم. لا أظن أن المشكلة هنا.

فسأله قازانغاب بجدية:

- إذن أين المشكلة؟

- أين، أين... – دمدم يديغاي متوتراً، ولكنه لم يجب. وظل هذا السؤال يدور في رأسه وهو لا يعرف له جواباً.

وكما هو معروف، لا تأتي المصائب كل واحدة بمفردها. مرض ابن كوطيبايف الكبير داول مرضاً شديداً. فصارت تنتاب الصبي نوبات من الحمى والهذيان، صار السعال الشديد يؤرقه وصار بلعومه يؤلمه. قالت ظريفة أن عنده التهاب حنجرة، وصارت تعالجه بمختلف أنواع الحبوب، إلا أنها لم تكن تستطيع أن تظل طوال الوقت مع الصغار، إذ كانت تعمل على عقدة التحويل، فهي تريد أن تعيش. كانت ورديتها تأتي أحياناً في الليل وأحياناً أخرى في النهار. لذلك كان على اوقوبالا أن تتحمل هذا العبء. عبء طفلتيها وطفلي ظريفة. كانت تدبر شؤون الأربعة وهي تدرك ذلك الوضع الصعب الذي تعيشه أسرة أبي طالب. يديغاي كان يساعد أيضاً بقدر المستطاع. كان يحضر في الصباح الباكر الفحم إليهم من المخزن وكان يشعل المدفأة حين يمكنه الوقت من ذلك. أن إشعال الفحم الحجري يحتاج إلى مهارة ومعرفة. كان يضع في المدفأة سطلاً ونصف السطل أو سطلين من الفحم دفعة واحدة كي يظل الجو دافئاً طوال اليوم من أجل الصغار، ويحضر الماء

من الصهريج الواقف على الخط الفرعي المسدود، يكسر الحطب من أجل إشعال الفحم. كان يفعل كل ما يقدر عليه: يكسر الحطب ويحضر الماء وما إلى ذلك... لكن الصعوبة كانت في أمور أخرى. كان النظر في عيون أبناء أبي طالب والإجابة على أسئلتهم يعذبه ويؤلمه إلى درجة لا تطاق. كان الكبير يستلقي مريضاً، إذ كان بطبيعته متماسكاً ومتحفظاً، أما الصغير، ارميك، وهو الشبيه بأمه، الحيوي، البشوش مرهف الحس سريع التأثير، فقد كان الأمر معه صعباً. عندما كان يديغاي يحضر في الصباحات الفحم ويشعل المدفأة كان يحاول عدم إيقاظ الأطفال. ولكن نادراً ما كان يوفق إلى مغادرة البيت دون أن يحسوا به. ارميك ذو الشعر الأسود الأجعد كان يستيقظ فوراً. وكان أول سؤال يطرحه لمجرد أن يفتح عينيه:

- عمي يديغاي، هل سيأتي بابيكا اليوم؟

وينهض الصغير عارياً حافياً ويجري إلى يديغاي وعيناه مليئتان بأمل لا يزول، فيكفي أن يقول يديغاي كلمة «نعم» حتى يعود أبوه فوراً ليعيش معهم في البيت من جديد. فيحمل يديغاي بين ذراعيه الطفل النحيل ذا الجسم الدافئ ويعيده إلى الفراش ويحادثه وكأنه يحادث إنساناً راشداً:

- اليوم، لا أعرف يا ارميك أن كل سيحضر أبوك أم لا، ولكنهم يجب أن يعلمونا من المحطة بالهاتف عن القطار الذي سيعود فيه، لأن قطارات الركاب لا تتوقف عندنا، كما تعرف. إلا بناء على أمر من كبير منظمي الخط. أعتقد أنهم سيتصلون بنا قريباً، عندها نذهب أنا وأنت وداول، إذا تعافى حتى ذلك الوقت، لاستقبال القطار.

وطور الصبي بدعة يديغاي:

- وسنقول له: بابيكا، ها نحن هنا، أترى؟

- طبعاً. سنقول له هذا. – أيد يديغاي الصغير تأييداً نشيطاً.

لكنه لم يكن من السهل خداع هذا الصبي الفطن.

- عم يديغاي! تعال نفعل كما فعلنا سابقاً: نركب في قطار الشحن ونذهب معاً إلى كبير منظمي الخط هذا ونقول له أن يوقف عندنا القطار الذي سيأتي به بابيكا.

هنا اضطر يديغاي إلى اللف والدوران.

- ولكن إذ ذاك كان صيفاً، كان الطقس دافئاً. أما الآن كيف نستطيع أن نسافر على قطار شحن؟ الطقس بارد جداً. الهواء شديد. ألا ترى كيف تجمدت النوافذ. لن نصل إلى هناك. سنتجمد كقطعة جليد. هذا أمر خطير جداً.

فصمت الصبي حزيناً.

- اُمكُث أنت الآن هنا وأنا سألقي نظرة على داول – ووجد يديغاي سبباً فاقترب من فراش المريض ووضع يده الثقيلة المعقدة على جبين الصغير... ففتح ذلك عينيه بصعوبة وابتسم ابتسامة ضعيفة بشفتيه المحمرتين بسبب الحمى. كانت الحمى ما تزال شديدة – لا تلق الغطاء عنك، فأنت متعرق. أتسمعني داول؟ سيزداد مرضك. أما أنت يا ارميك فأحضر له الحوض عندما سيرغب بالتبول، أتسمعني؟ كي لا ينهض. قريباً ستأتي أمكم من المناوبة. والآن ستأتي الخالة اوقوبالا لتطعمكم. وعندما سيشفى داول ستأتون إلينا لتلعبوا مع ساوليه وشاربات. يجب أن أذهب إلى العمل فالثلج كثير وقد تتوقف القطارات. بهذه العبارات ودع يديغاي الأطفال قبل مغادرته.

لكن ارميك لا يرحم. فقد توجه إلى يديغاي الذي كان يقف عند العتبة:

- عم يديغاي، عندما سيتوقف بابيكا وسيكون الثلج كثيراً سأذهب أنا أيضاً لتنظيف الثلج. أنا عندي رفش صغير.

وتركهم يديغاي وقلبه يضج مثقلاً. لقد أضنته المرارة والضعف والشفقة. عندها كان حاقداً على العالم كله، فأفرغ غضبه كله في الثلج والريح

والعواصف وفي الجمال التي لم يرحمها أثناء العمل. صار يشتغل كالوحش وكأنه يستطيع بمفرده إيقاف عواصف صاروزيكي الثلجية.

مرت الأيام كالقطارات المتساقطة بتوازن محتوم قطرة أثر قطرة. ها هو ذا كانون الثاني ينقضي والبرد يبدأ بالتقهقر. لم تصل أية أخبار من أبي طالب كوطيبايف، وتاه يديغاي وقازانغاب في التخمينات. كان هذان الرجلان يفكران بكل شيء ويحللان بشتى الأشكال. وكل الأمور كانت تنتهي بهما إلى أنه يجب أن يخلى سبيله قريباً، إلى أنه لا شيء خطير فهو قد كتب لنفسه وليس لغيره. كان هذا أملهم وكانوا يحاولون بشتى الوسائل الإيحاء بهذا الأمل إلى ظريفة، كي تصمد ولا تنهار. وهي ذاتها كانت تدرك أن عليها أن تكون صامدة كالصخر في سبيل أبنائها. تكتمت وأطبقت شفتيها بشدة واكتفت بالنظر بعينيها نظرة قلقة. من يعرف كم كان سيكفيها تماسكها.

كان يديغاي العاصف في تلك الساعة غير مشغول بالعمل فقرر التجول في السهب ليلقي نظرة على قطيع الجمال وهو يرعى، والأهم من هذا، ليرى كيف يتصرف قارانار: ألم يؤذ أحداً من القطيع؟ هل عاد إلى رشده وهذا؟ ألم يحن أوان ذلك؟ ذهب على ألواح التزلج، فالمكان لم يكن بعيداً، وعاد في الوقت المناسب. كان ينوي الذهاب إلى قازانغاب لإبلاغه بأن كل شيء على ما يرام، فالجمال ترعى في وادي «ذنب الثعلب»، إذ لا يوجد هناك ثلج تقريباً، فقد نسفته الرياح بعيداً. لذلك انكشف كلأ الأرض، ولا شيء يثير القلق، لكنه قرر أن يعرج على بيته ليترك فيه الألواح. مدت ابنته الكبيرة ساوليه رأسها من الباب فزعة:

- بابا، ماما تبكي – واختبأت.

رمى يديغاي الألواح وأسرع إلى البيت قلقاً. كانت اوقوبالا تعول عويلاً قطع قلب يديغاي.

- ماذا؟ ماذا حدث؟

- اللعنة على كل شيء في هذا العالم الملعون. – صرخت اوقوبالا وهي تشهق بالبكاء.

لم يسبق ليديغاي أن رأى زوجته في هذه الحالة أبداً. فقد كانت اوقوبالا امرأة شديدة وعاقلة.

- هذا ذنبك، ذنبك أنت.

- في ماذا؟ فيم أنا مذنب؟ - اندهش يديغاي.

- أنت الذي لفقت لهؤلاء الأطفال البؤساء هذه القصة. فمنذ قليل توقف قطار الركاب ليمرر القطار المقابل، ولست أدري كيف التقيا في نقطتنا. وما كاد أبناء أبي طالب يريان أن قطار الركاب قد توقف، حتى اندفعا نحو القطار وهما يصرخان: «بابا! بابيكا! جاء بابيكا». وعدوت أنا وراءهما. وصارا يركضان من حافلة إلى حافلة وهما يطلقان الصرخات: «بابا، بابيكا! أين ابونا؟» تصورت أنهما قد يقعان تحت العجلات. وهما يركضان على طول القطار ويناديان أباهما. لكن باباً واحداً لم ينفتح. وهما يركضان. والقطار طويل كتيم. وهما يركضان. وإلى أن لحقتهما، وإلى أن أمسكت بالصغير وأمسكت يد الكبير كان القطار قد تحرك ومضى وهما يزعقان: «هناك أبونا، أبونا لم يستطع أن ينزل من القطار». وانفجرا بالبكاء. لقد تقطع قلبي وكدت أجن. كانا يصرخان ويبكيان بمرارة. أرميك في حالة سيئة. اذهب وهدئه. اذهب. فأنت الذي قلت لهما أن أباهما سيرجع عندما سيتوقف قطار الركاب. ليتك شاهدت. ما حل بهما عندما ذهب القطار دون أن يظهر والدهما. ليتك شاهدت. لماذا هي الحياة هكذا؟ لماذا يتعلق الأب بابنه والابن بأبيه إلى هذه الدرجة الرهيبة؟ لماذا هذه المآسي؟...

ومضى يديغاي إليهم وكأنه سائر إلى الموت. ولم يطلب من الله إلا شيئاً واحداً: أن يرحمه ويغفر له قبل الموت هذه الكذبة غير المقصودة التي كذبها

على هذه المخلوقات الصغيرة الصادقة. ماذا سيقول لهما الآن؟ كيف سيكون جوابه؟

عند ظهوره عاد ارميك وداول اللذان تورم وجهاهما لشدة البكاء، عادا إلى الصراخ من جديد واندفعا نحوه بالعويل والولولة وحاولا عبر النشيج والبكاء ومن خلال دموعهما أن يشرحا له على عجل مقاطعاً كل منهما الآخر أن القطار توقف في النقطة لكن أباهما لم يستطع النزول منه، ويرجواه أن يوقف القطار...

- ساغينديم، بابيكا، ساغنديم، ساغنديم(١). صرخ ارميك وهو يتوسل إليه بكل جوارحه وثقته وأمله ومأساته.

حاول يديغاي أن يهدئ من روع هذين الطفلين اللذين استغرقا في البكاء والنحيب:

- الآن سأعرف كل شيء. أهدأا، أهدأا ولا تبكيا. الآن سنذهب، سنذهب. – والأصعب من تهدئة روعهما كان ثباته وعدم استسلامه لموجة الحزن التي تنتابه، كي لا تتغير ملامح وجهه فيرى الأطفال فيه الرجل الضعيف العاجز – وفكر في نفسه: «إلى أين سنذهب؟ إلى من؟ ماذا سنفعل؟ وكيف؟». ووعد يديغاي الأطفال وعدا ضبابياً وهو يتمتم بكلام غير مترابط: الآن سنخرج، وعندها سنفكر ونتكلم.

اقترب من ظريفة. كانت مستلقية على سريرها بلا حراك وقد دفنت وجهها بالوسادة.

- ظريفة، ظريفة. – ولمس كتفها.

لكنها لم ترفع رأسها. فقال لها:

---

(١) أنه يتحرق شوقاً. كازخية.

- سنذهب الآن لنتمشى قليلاً حول البيت، وبعد ذلك سنمر على بيتنا. سأذهب أنا والصغار.

كان هذا كل ما استطاع أن يقترحه كي يهدئ الصغار ويلهيهم، وكي يستجمع أفكاره. حمل ارميك على ظهره وأمسك داول من يده. ومضى الثلاثة بلا هدف يسيرون بمحاذاة السكة الحديدية. لم يعان يديغاي العاصف قل الآن مثل هذا الإحساس بالألم تجاه مآسي الآخرين. جلس ارميك على ظهره وهو ما يزال ينشج وينفث نفسه الرطب بمرارة على رقبته. لقد وثق هذا المخلوق البشري الصغير الذي هده الحزن به، وتشبث بكتفيه، وكذلك أمسك المخلوق البشري الثاني بيده بثقة أيضاً لدرجة أن يديغاي كان مستعداً للصراخ ألماً وإشفاقاً عليهما.

وساروا بمحاذاة الطريق الحديدية عبر صاروزيكي الصحراوية ولم تمر إلا القطارات هادرة، تارة في هذا الاتجاه وتارة في الاتجاه الآخر... تجيء وتذهب.

واضطر يديغاي إلى الكذب على الصغار ثانية، فقد قال لهما أنهما أخطأا. فهذا القطار الذي توقف صدفة في نقطتهم كان ذاهباً إلى جهة، أما أبوهما فيجب أن يأتي من الاتجاه المعاكس. لكن أغلب الظن أنه لن يعود قريباً. يبدو أنهم أرسلوه بحاراً إلى أحد البحار، وعندما تعود السفينة من رحلتها الطويلة سيعود هو إلى البيت. يجب أن ينتظروا. كان يتصور أن هذه الكذبة يجب أن تساعدهما على الاحتمال إلى أن يتحول الكذب إلى حقيقة. لم يشك يديغاي بعد في أن أبا طالب كوطيبايف سيعود. سيمر وقت ما وستتوضح الأمور وسيعود فور إطلاق سراحه دون أن يتأخر ثانية واحدة. فالأب الذي يحب أبناءه هكذا لن يتمهل ولا للحظة واحدة... لذلك كذب يديغاي... كان يديغاي الذي يعرف أبا طالب حق المعرفة يستطيع أن يتصور أفضل من أي إنسان آخر حالة هذا الإنسان بعيداً عن أسرته. أي إنسان آخر

غيره ما كان ليعاني بنفس الحدة والشدة ما يعانيه أبو طالب من هذا الفراق المؤقت، وإِنْ كان بغير إرادة منه، ولكن على أمل أن يعود إلى بيته قريباً. يديغاي لم يشك في أن الأمر كذلك بالنسبة لأبي طالب، إذ كان هذا أشد أشكال العقاب. وفعلاً كان يديغاي يخاف عليه: هل سيحتمل؟ هل سينتظر إلى أن يبت القضاء في هذه القضية؟...

حتى ذلك الوقت كانت ظريفة قد وجهت عدة رسائل إلى الجهات المسؤولة تسأل فيها عن زوجها وتطلب فيها إعلامها إن كان باستطاعتهما مقابلته. ولكن لم تستلم بعد أي جواب. قازانغاب ويديغاي فكرا طويلاً أيضاً، ولكنهما كانا ميالين إلى عزو ذلك إلى أن نقطة أم العواصف لم تكن تمتلك اتصالاً بريدياً مباشراً. وكان يجب إرسال الرسائل عن طريق الغير أو حملها إلى محطة قومبيل. استلام البريد أيضاً كان يتم عن طريق قومبيل وبواسطة الخدمة الطبيعة الطوعية أيضاً... وطريقة المواصلات هذه، كما هو معروف، ليست أسرع الطرق.

وهذا ما حدث ذات يوم...

في الأيام الأخيرة من شهر شباط سافر قازانغاب إلى قومبيل ليطمئن على سابيتجان في المدرسة الداخلية. سافر على الجمل، فركوب قطارات الشحن العابرة مستحيل في الشتاء بسبب البرد الشديد، إذ يمنع الدخول إلى حافلات القطار، أما في فسحات القطار المكشوفة فالهواء لا يمكن احتماله. ولكن بإمكانك على الجمل إن تدثرت جيداً أن تسافر خلال يوم واحد ذهاباً وإياباً وأن تنجز أعمالك.

في ذلك اليوم عاد قازانغاب عند المساء. وبينما هو يترجل عن ظهر جمله فكر يديغاي: ما لقازانغاب، ليس على ما يرام؟ ما له عابس؟ ربما اقترف ابنه ذنباً ما في المدرسة الداخلية، أو ربما هو تعب، على ما يبدو، من الخض على ظهر الجمل في الذهاب وفي الإياب. فسأله يديغاي بصوت عال:

- كيف كانت سفرتك؟

- لا بأس. – أجابه قازانغاب بصوت مخنوق وهو منهك بحوائجه. استدار نحوه وفكر قليلاً، ثم قال: - أنت ستكون في البيت الآن؟

- نعم.

- سأمر عليك. هناك قضية.

- تفضل.

لم يجعل قازانغاب يديغاي ينتظر طويلاً إذ حضر مع بوكيي. هو في المقدمة وزوجته خلفه. كلاهما كان يحمل هَمّاً ما. كان مظهر قازانغاب مظهراً تعباً فقد تطاولت رقبته أكثر وهبط كتفاه وتهدل شارباه. أما بوكيي البدينة فقد كانت تتنفس لاهثة، وكأن قلبها يطرق حتى أنها لم تستطيع أن تلتقط أنفاسها.

- ما بكما؟ عساكما لم تتخاصما؟ - قالت اوقوبالا مازحة – جئتما للتصالح؟. اجلسا.

فأجابت بوكيي بصوت متهدج وهي ما زالت تتنفس بصعوبة:

- ليتنا كنا تخاصمنا.

نظر قازانغاب حوله وتساءل باهتمام:

- أين بناتكما؟

- عند ظريفة تلعبن مع الصبيان. ما حاجتك بهن؟

- الأنباء عندي سيئة. – صمت قازانغاب وهو ينظر إلى يديغاي واوقوبالا – الأفضل ألا يعرف الصغار شيئاً الآن. مصيبة كبيرة. لقد مات أبو طالب.

- ماذا تقول؟ - انتفض يديغاي، وصرخت اوقوبالا صرخة قصيرة، ثم أطبقت فمها بيدها وشحب لونها كلون الحائط.

أما بوكيي فصارت تنوح نصف هامسة ونصف ناشجة:

- مات. مات. يا لبؤسكم أيها الصغار، يا لبؤسكم أيها الأيتام. اقترب يديغاي من قازانغاب مرعوباً وهو مازال لا يصدق ما يسمع:

- كيف مات؟

- جاءت ورقة إلى المحطة.

وصمت الجميع فجأة وهم يحدقون بعضهم ببعض.

- يا مصيبتنا. يا مصيبتنا، أمسكت اوقوبالا رأسها بكلتا يديها وصارت تئن متمايلة إلى الجانبين...

- أين هي هذه الورقة؟ - سأل يديغاي.

- في مكانها. في المحطة – وصار قازانغاب يقص ما حدث: - زرت المدرسة الداخلية، ثم قلت لم لا أعرج على المحطة وأرى ماذا في المخزن الموجود في قاعة الانتظار، فقد طلبت مني بوكيي أن أشتري صابوناً. فما كدت أصل إلى المدخل حتى التقيت برئيس المحطة تشيرنوف نفسه. تبادلنا السلام – فنحن نعرف بعضنا البعض منذ زمن بعيد وقال لي «حسن أنني رأيتك، تعال معي إلى المكتب. هناك رسالة. خذها معك إلى النقطة». فتح مكتبه ودخلنا، وأخرج من درج طاولته مغلفاً كتب عليه بأحرف طباعية. سألني: «أبو طالب كوطيبايف كان يعمل عندكم؟». نعم وماذا هناك؟ هذه الورقة هنا منذ ثلاثة أيام، ولم يكن هناك من يوصلها إلى نقطة أم العواصف. خذ سلمها لزوجته. هذا جواب على أسئلتها. هنا مكتوب أنه توفي، وقال كلمة لم أفهمها. قال مات بسبب الاحتشاء. ما هو الاحتشاء؟ سألته فأجابني: بسبب تفجر القلب. إذن هكذا، انفجر قلبه. جلست مذهولاً ولم أصدق في البداية. أمسكت هذه الورقة وقد كتب فيها: على رئيس محطة قومبيل أن يرسل إلى نقطة أم العواصف جواباً رسمياً للمواطنة فلانة على استفسارها – وبعد ذلك كتب أن الموقوف أبا طالب كوطيبايف كذا وكذا، مات بسبب نوبة. هكذا كان

مكتوباً. قرأتها، ونظرت إليه وأنا لا أعرف ماذا أفعل. «هكذا هو الأمر – قالها تشيرنوف وهو يفرد ذراعيه مباعداً فيما بينهما – خذ، سلمها إياها.» قلت له: لا، هذا لا يجوز عندنا. لا أريد أن أكون حامل أخبار السوء. أبناؤه صغار، فكيف أجرؤ على تدميرهم. لا. قلت له: سنتشاور أولاً، نحن سكان أم العواصف، مع بعضنا البعض وبعدها نقرر. إما أن يأتي أحدنا خصيصاً من أجل هذه الورقة فيأخذها معه، كما يليق إحضار مثل هذا النبأ. فالميت ليس عصفور دوري، بل إنسان. أو – وهذا الأرجح – تأتي زوجته ظريفة كوطيبايف بنفسها ونستلمها من يدك. وأنت نفسك ستشرح لها وتحدثها كيف كان كل هذا. فقال لي: «الشأن شأنك. كما تريد. ولكن ما الذي سأشرحه لها وأحدثها به. فأنا لا أعرف أية تفاصيل. مهمتي هي إيصال هذه الورقة إلى أصحابها. هذا كل شيء». ولكنني قلت له: عفواً. لتبق الرسالة معك، وأنا سأنقل مضمونها وهناك عندنا سنتشاور. فقال «أنت تعرف أكثر مني. كما تشاء». وخرجت من عنده وطوال الطريق كنت أحث الجمل وقلبي منقبض واجف. كيف سنتصرف؟ من الذي ستكفيه الشجاعة ليقول لهم ذلك؟..

صمت قازانغاب وحنى يديغاي ظهره وكأنه يحمل عليه جبلاً. وتمتم قازانغاب دون أن يلقي أي جواب:

- ماذا سنفعل الآن؟

هز يديغاي رأسه حزيناً:

- كنت أعرف هذا. لم يحتمل الفراق مع الأطفال، وهذا أشد ما كنت أخافه. لم يحتمل الفراق. والشوق شيء فظيع. إِنَّ شوق أطفاله إليه عظيم لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يراهم وهم في هذه الحالة ولو كان هو إنساناً آخر، لو أدانوه، لنقل.. لست أدري بأي شيء، ولكن لو أدانوه، لكان قضى سنة أو سنتين، أو أية فترة كانت وعاد. ألم يكن أسيراً عند الألمان، وكم قاسى في معسكرات الاعتقال، ومع الأنصار عانى كثيراً أيضاً، وطوال تلك

السنوات كان يحارب في أرض غريبة ولكن إرادته لم تتحطم لأنه كان إذ ذاك وحيداً يعيش لنفسه، لم تكن عنده أسرة. أما الآن فقد فصلوه حياً عن أغلى شيء لديه، عن أطفاله. ولهذا حلت البليدة...

- فعلاً... أنا أيضاً أظن هذا. – رد قازانغاب – لم أكن أصدق أن الفراق يمكن أن يقتل الإنسان. ولولا وقوع ذلك لانتظر حتى يبتوا بالأمر ويطلقوا سراحه، فهو رجل شاب وذكي ومتعلم. هو لم يقترف ذنباً. كان يفكر بعقله، طبعاً. لكن قلبه لم يحتمل على ما يبدو. لقد كان حبه الشديد لأبنائه سبب بلواه.

وظلوا جالسين طويلاً وهم يدرسون الوضع، محاولين إيجاد طريقة يهيئون بها ظريفة لاستقبال هذا النبأ، ولكن رغم تفكيرهم الطويل لم يهتدوا إلى مثل هذه الطريقة، بل كانوا يعودون إلى نقطة واحدة وحيدة وهي أن هذه الأسرة فقدت أباها فتيتم الأطفال وترملت ظريفة. لا شيء يمكن إضافته إلى هذا. لكن الرأي الأكثر واقعية جاء، رغم كل شيء من اوقوبالا:

- دعوا ظريفة نفسها تستلم هذه الورقة من المحطة. ولنتلق هذه الصدمة هناك وليس هنا قرب أطفالها – وعندها ستقرر – هناك في المحطة وأثناء طريق العودة. سيكون الوقت كافياً لتدرس الأمر – هل يجب أن يعرف الصغار بهذا أم لا. ربما تنتظر حتى يكبروا بعض الشيء فينسون أباهم قليلاً. إذ يصعب القول...

وأيد يديغاي كلامها:

- أنت تتكلمين الحق. هي الأم، فلتقرر بنفسها إن كانت ستخبر أبناءها بموت أبي طالب أم لا. فأنا شخصياً لا أستطيع... – ولم يستطع يديغاي متابعة كلامه، إذ لم يعد لسانه يطاوعه، فتظاهر بالسعال كي يتخلص من غصة الحزن في حنجرته.

وعندما وصلوا جميعاً إلى رأي موحد أضافت اوقوبالا ناصحة قازانغاب:

- يجب أن تقول، يا قازاكيه، لظريفة أن هناك رسالة لها عند رئيس المحطة، فقد جاء جواب على تساؤلاتها. ولكنهم طلبوا حضورها شخصياً. يقولون: يجب أن تحضر. – وتابعت اوقوبالا – ومن ناحية ثانية لا يجوز إرسال ظريفة إلى هناك وحيدة. فهي لا تملك هناك أي قريب – وأصعب شيء في المصيبة هو الوحدة. اذهب معها يا يديغاي، وكن بجانبها في هذه الساعة. ما أدرانا بما يمكن أن يقع في مثل هذه المصيبة. قل لها أنك ذاهب بعمل إلى المحطة وسافر معها.

وافق يديغاي على آراء زوجته.

- حسن. غداً سأخبر ابيلوف أنه يجب أخذ ظريفة إلى المستشفى في المحطة، كي يوقف لنا القطار العابر لدقيقة.

وهكذا اتخذوا قرارهم. لكن يديغاي وظريفة لم يتمكنا من السفر إلى قومبيل إلا بعد يومين على قطار عابر توقف في النقطة بناء على طلب رئيس المحطة. وكان هذا اليوم يوم الخامس من آذار. لقد تذكر يديغاي العاصف هذا اليوم إلى الأبد.

ركبوا في العربة العامة التي كانت مليئة بالناس: أسر وأطفال يعيشون نمط حياة السفر الحتمي، روائح مشروبات رديئة وحركة غير منتظمة، لعب ورق ومواعظ النساء بعضهن لبعض حول مشاكل الحياة ومصاعبها، حول سكر الرجال وحول الطلاق والأعراس، وعن الجنائز كان هؤلاء الناس مسافرين بعيداً، وكان يرافقهم كل ما يدخل ضمن حياتهم اليومية. وانضمت ظريفة ويديغاي الذي يرافقها إلى هؤلاء الناس لمدة قصيرة بكل مأساتهما ومصائبهما.

لم تكن ظريفة. طبعاً، على ما يرام. كانت طوال الطريق تجلس متجهمة متوجسة، وهي تفكر صامتة، ربما بالأجوبة التي تنتظرها عند رئيس المحطة. وكذلك صمت يديغاي صمتا أكبر.

يوجد في الدنيا أناس مرهفو الحس، ذوو أفئدة رؤوفة، يلحظون من النظرة الأولى أن أمور هذا الإنسان ليست على ما يرام. فعندما نهضت ظريفة من مكانها وسارت باتجاه مدخل العربة لتقف هناك عند النافذة قالت عجوز روسية كانت تجلس على المقعد قبالة يديغاي، وهي تتابعها بعينيها الطيبتين اللتين كانتا زرقاوين، أما الآن فقد أطفأ بريق لونها الكبر.

- هل زوجتك مريضة يا بني؟

فارتعش يديغاي:

- ليست زوجتي، بل هي أختي يا أماه، أوصلها إلى المستشفى.

- إنني ألاحظ أن المسكينة تتألم، ووضعها سَيِّئ جداً. وعيناها مليئتان بحزن يائس. إنّها فزعة في أعماقها. تخاف أن يكتشفوا في المستشفى شيئاً فظيعاً لديها. آه من حياتنا. إن لم تولد لا ترى النور وإِنْ ولدت لا تنجو من الآلام. لكن الله رحيم، وهي ما تزال شابة.

- كانت العجوز تتكلم وهي تلتقط وتفهم بطريقة ما ذلك الحزن والتكدر اللذين سيطرا على ظريفة بشكل متزايد مع اقتراب القطار من المحطة.

يستغرق السفر إلى قومبيل حوالي ساعة ونصف. ركاب القطار لم يبالوا بالأماكن التي يمرون بها في ذلك اليوم. بل إنَّ كل ما كانوا يسألون عنه هو اسم المحطة المقبلة. بينما صاروزيكي العظيمة تنبسط مغمورة بالثلوج في مملكة الاتساع الصامت اللانهائي الخالية من الناس. لكن بعض ملامح تراجع الشتاء بدأت بالظهور. فقد بدت بعض البقع على السفوح سوداء بعد أن ذاب عنها الثلج، وبرزت حواف الوهاد غير المستوية من تحت الثلج وبدأ الثلج يهمد في كل الأماكن بسبب الرياح الدافئة الرطبة التي أيقظها قدوم الربيع إلى السهوب. إلا أن الشمس ما زالت تحتجب حتى عن الرؤية خلف الغيوم الداكنة المتلبدة المنخفضة. فالشتاء مازال حياً، وإمكانية تساقط الثلج الرطب ما زالت قائمة وكذلك كانت ما تزال قائمة إمكانية عاصفة ثلجية ختامية...

تسمر يديغاي في مكانه قبالة هذه العجوز الرؤوم وهو ينظر إلى النافذة متجاذباً وإياها أطراف الحديث بين الفينة والفينة، وظل هكذا دون أن يقترب من ظريفة وهو يفكر بينه وبين ذاته: فلتقف عند نافذة الحافلة ولتفكر في أمرها، ربما يوحي لها حسها الداخلي بشيء ما. ربما تتذكر تلك السفرة التي قمنا بها في بداية ربيع العام الماضي، عندما ركبنا جميعاً – الأسرتان مع صغارنا – في قطار شحن عابر وذهبنا إلى قومبيل لإحضار البطيخ، فسررنا جداً، بينما كانت هذه الرحلة بالنسبة للأطفال عيداً لا ينسى. يبدو للمرء أن هذا كان منذ فترة قصيرة جداً. إذ ذاك جلس يديغاي وأبو طالب عند باب العربة المفتوح للريح وهما يتحادثان بمختلف الأحاديث، بينما الصغار يدورون حولهما وهم يراقبون الأرض السابحة بالقرب منهم، أما النساء، ظريفة واوقوبالا، فقد كانتا أيضاً تتحادثان بأحاديث حميمة. وهناك تجولوا في المخازن وفي حديقة المحطة ودخلوا إلى السينما وذهبوا إلى الحلاق. وأكل الصغار المرطبات. ولكن المضحك المبكي كان عندما لم يستطيعوا جميعهم إقناع ارميك بقص شعره. لقد أخافته ملامسة آلة الحلاقة لرأسه، لسبب لا يعرفه أحد. وتذكر يديغاي كيف ظهر في تلك اللحظة أبو طالب عند باب دكان الحلاقة وكيف اندفع الطفل إليه بكل جوارحه بينما أخذه أبوه وضمه إلى صدره وكأنه يدافع عنه دفاعاً غريزياً من الحلاق، وقال إنهم سيستجمعون قواهم وسيقومون بالحلاقة في المرة القادمة، أما الآن فمازال الأمر يحتمل الانتظار. ومازال ارميك ذو الشعر الأسود حتى الآن دون أن يقص شعره منذ ولادته، ولكنه الآن من غير أب...

وها هو يديغاي العاصف يحاول وللمرة الألف أن يستوعب ويفهم ويدرك لماذا مات أبو طالب كوطيبايف دون أن ينتظر البت في قضيته، ولكنه يعود من جديد إلى نتيجة مفسرة واحدة – الشوق، الشوق اليائس وحده لأطفاله هو الذي فجر قلبه. الفراق وحده الذي لم يقدر للجميع أن يدركوا صعوبته،

والوعي المأساوي وحده لفكرة أن أبناءه، الذين ما كان ليتصور حياته من غيرهم، ما كان ليتصور أنفاسه من غيرهم، إنَّ هؤلاء الأطفال ظلوا منقطعين ومرميين تحت مشيئة القدر في نقطة سكة حديدية في سهوب صاروزيكي الخاوية الجافة، هذا الشوق وهذا الوعي هما اللذان قتلاه...

وظل يديغاي يفكر بنفس هذا الموضوع حتى وهو جالس على المقعد في باحة المحطة المنتظرة ظريفة. فقد اتفقا على أن ينتظرها هنا على هذا المقعد حتى تذهب إلى رئيس المحطة وتحضر الأوراق.

كان الوقت ظهراً لكن الطقس كان سيئاً. كانت السماء ملبدة بالغيوم المنخفضة، وكان يتساقط من الأعلى على الوجوه بشكل بسيط شيء لا هو بذرات الثلج ولا هو بقطرات المطر كانت الريح تهب رطبة من السهوب وهي تحمل رائحة الثلوج المتراكمة التي بدأ يحركها الذوبان. أحس يديغاي بالبرد وبعدم الارتياح. عادة كان يديغاي يحب التدافع بين جموع الناس في صخب المحطة وبهرجها، لم لا وهو الذي لا يسافر إلى أماكن بعيدة، فهنا ترى القطارات، ترى كيف يقفز منها المسافرون بسرعة وينطلقون مسرعين ذهاباً وإياباً على رصيف المحطة، وهم ينفذون في الحياة مشهداً سينمائياً: ها هو ذا القطار وصل، وها هو قد اختفى.

في هذه المرة لم تثره كل هذه الأمور. كان يستغرب لهذه الوجوه المخطوفة التي يحملها الناس، كم هي مسطحة عديمة الملامح، لا مبالية متعبة، وكم هي معزولة عن بعضها البعض... إضافة إلى ذلك تلك الموسيقى التي يبثها الراديو الذي يخر ويشخر كالمزكوم في كل أرجاء ساحة المحطة، والتي كانت تبعث الحزن والقنوط برتابتها المنسابة. ما هذه الموسيقى؟ وجدوا ما يبثون. ليست مسموعة أصوات المذيعين المفخمة. مجرد موسيقى فقط!..

مرت حوالي العشرين دقيقة، وقل أكثر، وظريفة ما تزال مختفية في المحطة. بدأ يديغاي بالقلق، وبالرغم من أنهما اتفقا اتفاقاً صارماً بأنه

سينتظرها على هذا المقعد، وبالذات على هذا المقعد، حيث جلسوا في المرة السابقة مع الصغار ومع أبي طالب وأكلوا المثلجات، بالرغم من اتفاقهما هذا قرر أن يذهب وراءها ويرى ماذا يحدث هناك.

وفي هذه اللحظة رآها عند الباب فارتعش دونما إرادة منه. لقد شاهدها بين جموع الداخلين والخارجين بسبب تفردها وانقطاعها عن كل ما حولها. كان وجهها شاحباً شحوب الموت، وهي تسير لا تلوي على شيء، تسير دون أن تصطدم بشيء أو بأحد وكأنها تسير في المنام، وكأنه لا يوجد حولها أي شيء على الإطلاق. كانت تسير وكأنها كفيفة في صحراء وهي ثانيةٌ رأسها بحزن شديد إلى الأمام، مطبقة شفتيها بقوة. عند اقترابها انتصب يديغاي: سارت طويلاً طويلاً وكأنه يراها في الحلم لشدة رهبة ذهولها وهي تقترب خافضة بَصَرَها. ربما يكون قد مر دهر كامل، وربما يكون قد مر هو عبر هوة سحيقة باردة مظلمة من الانتظار الصعب المتطاول باستمرار إلى أن وصلت إليه والتصقت به وهي تحمل بيديها تلك الورقة في مغلف كتب عليه بأحرف طباعية – كما وصفه قازانغاب -، وعندما وصلت إليه قالت له:

- كنت تعرف؟

فحنى رأسه ببطء.

تهاوت ظريفة على المقعد وغطت وجهها بكفيها وهي تعصر رأسها بقوة، وكأن رأسها يكاد يتفجر ويتطاير قطعاً، وبكت بمرارة وقد سيطر عليها الألم والخسارة كلياً. صارت تبكي وقد جلست القرفصاء وتكومت في كومة معذبة مرتجفة، وهي تتكفئ في ذاتها أكثر وأكثر، وتغوص في آلامها التي لا حدود لها. أما هو فقد جلس بجانبها مستعداً – كما كان إذ ذاك، عندما أخذوا أبا طالب – أن يكون مكانه، وأن يتحمل هو دون تردد أي عذاب كان، على أن يدافع عن هذه المرأة ويخلصها من الصدمة. لكنه كان يعرف أن لا شيء قادر على تعزيتها ولا على تهدئتها قبل أن تمر موجة الألم الصاعقة الأولى.

وهكذا جلسا على مقعد باحة المحطة. وظريفة تبكي وهي تنشج مرتعدة، وفي لحظة ما قذفت بعيداً بالمغلف الحاوي على ورقة الشؤم بعد أن كورتها بيدها. ما الحاجة الآن لهذه الورقة، ما دام هو لم يعد موجوداً بين الأحياء؟ لكن يديغاي التقط المغلف ووضعه في جيبه، ثم أخرج منديلاً وأجبرها بالقوة أن تمسك بالمنديل مطبقاً أصابع يدها عليه، كي تمسح دموعها. لكن هذا لم يفد في شيء.

والموسيقى تنصب من الراديو على المحطة حزينة ثقيلة بغير حدود. كانت سماء آذار تخيم رمادية رطبة فوق الرؤوس، والريح تضني النفوس بهيجانها. المارة ينظرون إلى هذين الاثنين شزراً، ينظرون إلى ظريفة ويديغاي وهم يفكرون في داخلهم: يبدو أنهما متخاصمان. يبدو أنه أزعجها إزعاجاً شديداً... ولكن ليس هذا ما كان يفكر به الجميع.

انطلق من جانبهما صوت متعاطف:

- ابكوا أيها الطيبون... ابكو. لقد فقدنا أبانا الحبيب. كيف سيكون حالنا الآن؟.

رفع يديغاي رأسه فرأى امرأة مارة من أمامهما وهي ترتدي معطفاً قديماً وتسير بمساعدة العكازات. أحد ساقيها بتر من الورك. عرفها يديغاي: أنها مقاتلة سابقة، تعمل الآن في شباك تذاكر المحطة. كانت قاطعة التذاكر هذه قد أنهكها البكاء، وهي تسير ناحية مرددة: «ابكوا، ابكوا، كيف سيكون حالنا الآن؟» وتابعت سيرها باكية وهي تنقل بشكل اعتيادي عكازيها اللذين استندت إليهما فارتفع كتفاها بشكل غير طبيعي وهي تشحط مع كل طرقتين من طرقات العكازين فردة الجزمة العسكرية القديمة التي احتذتها برجلها الوحيدة...

أدرك يديغاي مغزى كلماتها عندما شاهد تجمع الناس المفاجئ عند مدخل المحطة. وقف الناس وقد اشرأبت أعناقهم وهم ينظرون إلى مجموعة

من الرجال ينصبون سلماً ليعلقوا في مكان مرتفع فوق الباب صورة كبيرة لستالين باللباس العسكري مجللة بإطار الحداد الأسود.

فهم يديغاي لماذا يبث الراديو موسيقى حزينة. لو كان الوقت غير هذا لذهب إلى الناس واستفسر كيف وماذا حدث مع هذا الرجل العظيم، الذي لم يكن أحد يتصور دوران الأرض حول نفسها من غيره. لكن مأساته الآن تكفيه. ولم ينبس ببنت شفة. وظريفة أيضاً ما كان ليثير اهتمامها أحد.

وكانت القطارات تسير كما رسم لها أن تسير بغض النظر عن كل ما يحدث في هذا العالم. بعد نصف ساعة من الآن يجب أن يمر قطار المسافات الطويلة رقم ١٧. وهو كغيره من قطارات الركاب لا يتوقف في نقاط مثل أم العواصف. فهو يسير على هذا الأساس. لكن أحداً لم يخطر له ببال أن القطار السابع عشر سيضطر في هذه المرة أن يتوقف في أم العواصف. هذا ما صمم عليه في قرارة نفسه وبكل هدوء يديغاي، فقال لظريفة:

- قريباً سنرجع يا ظريفة. بقي لنا نصف ساعة يجب أن تفكري من الآن كيف ستجري الأمور – هل ستعلنين للصغار موت أبيهم أم ستتريثين في ذلك. لن أزعجك بتوجيهاتي، أنت فكري بنفسك. أنت الآن أمهم وأبوهم. يجب أن تفكري بهذا في الطريق. إذا قررت أن لا تقولي للصغار شيئاً تماسكي. يجب أن لا تذرفي الدموع أمامهم. هل تستطيعين ذلك، وهل لديك القوة عليه؟ نحن علينا أن نعرف كيف يجب أن نتصرف أمامهم. هذه هي القضية، أتفهمينني؟

- حسن. أنا فهمت كل شيء. – أجابته من خلال دموعها – حتى وصولنا سأستجمع أفكاري وأخبرك كيف سنتصرف، حالاً...، سأحاول ضبط نفسي، حالاً.

في طريق العودة كان الوضع في القطار تماماً كما في طريق الذهاب. ركاب يجلسون في القطار جمعا ضمن غيمة من دخان التبغ، يقطعون البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

اتفق أن ركب يديغاي وظريفة في حافلة ذات مقصورات. والركاب هنا أقل عدداً. تمركزا في الممر قرب إحدى النوافذ في طرف الحافلة كي لا يزعجا الآخرين وكي يتسنى لهما التحدث بقضاياهما. جلس يديغاي على المقعد الذي يطوى ويفتح في الممر، أما ظريفة فوقفت بجانبه وهي تنظر عبر النافذة، مع أنه اقترح عليها الجلوس على الكرسي، لكنها أجابته:

- هكذا أحسن.

والآن ما زالت ظريفة تنشج بين الفينة والفينة، مكابرة نفسها محاولة التغلب على المصيبة التي انهالت على رأسها. حاولت التركيز وهي تنظر عبر النافذة، وحاولت التفكير في كيفية حياتها الجديدة – حياة الأرملة – في الفترة الأولى على أقل تعديل. إذا كان الأمل موجوداً – سابقاً – في أن ينتهي كل هذا ذات يوم رائع، كما ينتهي الكابوس المزعج وفي أن يعود أبو طالب عاجلاً أم آجلاً، إذ لا يعقل أن يظل هذا الالتباس دون حل، فيلتئم جمع الأسرة كلها، وإذ ذاك يتغير كل شيء، فيجدون الأسلوب – مهما كان صعباً – ليصمدوا وليحيوا حياتهم وليربيا أطفالهما، إذا كان هذا الأمل موجوداً سابقاً، فإنه قد اختفى الآن. وها هي الآن نفكر في شيء هام...

حول الشيء نفسه كان يفكر يديغاي العاصف لأنه لا يستطيع إلا أن يكون قلقاً على مصير هذه الأسرة. إلا أنه يرى أنه الآن يجب أن يكون متماسكاً وهادئاً أكثر من أي وقت آخر، وبهذا يوحي لها ببعض الثقة. لم يستعجلها، وخيراً فعل، إذ أنها نفسها بدأت بالحديث بعد أن شبعت بكاء.

عَلَيَّ أن أخفي الآن عن الأطفال موت أبيهم – قالت ظريفة هذا بصوت متقطع، وهي تخنق موجات البكاء المتفجرة في داخلها – الآن لن أستطيع. وبشكل خاص ارميك... لم هذا التعلق، شيء فظيع... كيف يمكن أن نحرمهم من أحلامهم؟ ماذا سيحل بهم؟ فهم يعيشون بهذا فقط... ينتظرون وينتظرون يوماً بعد يوم، دقيقة فدقيقة... يجب أن نخرج من هنا مع الزمن وأن نبدل

المكان... فليكبروا بعض الشيء. أنا خائفة جداً على ارميك. ليكبر قليلاً... وعندما سأقول لهما، بل سيحزران هذا تدريجياً... أما الآن فهما أضعف من ذلك... دعني أنا نفسي... سأكتب إلى إخوتي وإخوته. ما الذي يخيفهم منا الآن؟ آمل أن يستجيبوا وأن يساعدوننا على الخروج من هنا... وعندها كل شيء سيتضح... مهمتي الآن أن أربي أبناء أبي طالب وحسب، ما دام هو غير موجود...

هكذا كانت تناقش الأمر، بينما يديغاي العاصف يصغي إليها صامتاً متفهماً وملتقطاً كل كلمة تقولها، مدركاً أن هذا ما هو إلا الجزء اليسير، مجرد الجزء السطحي لما كان يعصف ويتلاطم في ذهنها كالإعصار. في مثل هذه الحالات لا يقال كل شيء... لذلك قال لها محاولاً عدم توسيع مجال الحديث:

- نعم أنت على حق يا ظريفة... فلولا إنني أعرف هؤلاء الصغار لكنت شككت. ولكنني لو كنت مكانك لما تجرأت أيضاً على إعلامهم بهذا. يجب التريث قليلاً. وإلى أن يستجيب أقرباؤك فيجب ألا تشكي بشيء من ناحيتنا. فالأمور كما كانت ستظل. أعملي كما كنت، والصغار سيظلون عندنا مع أطفالنا. أنت تعرفين أن اوقوبالا تحبهم كأبنائها. وباقي الأمور سنرى كيف...

أضافت ظريفة مطلقة تنهداً ثقيلاً:

- هكذا هي الحياة وهكذا تصاريفها. ما أفظعها وما أكثر حكمتها وما أشد ترابطها. بداية ونهاية واستمرار... لولا الأطفال أقسم لك يا يديغاي أنني ما أبقيت على حياتي الآن، لولاهم لذهبت حتى إلى هذا الحد. لماذا أعيش؟ لكن الأطفال، هم الذين يجبرونني ويضطرونني للحياة، هم الذي يمسكونني. في هذا الخلاص وفيه الاستمرار. استمرار صعب ومرير، ولكنه استمرار... أنا الآن أفكر بجزع ليس بمتى سيعرفون الحقيقة – فهذا لا مهرب منه – بل بماذا سيكون بعد ذلك. سيظل هذا الذي حدث مع أبيهم يحز في نفوسهم

وتعتصر قلوبهم. ففي أي حال من الأحوال إن كانوا سيتعلمون أو سيعملون أو سيبرزون في عيون الناس بشيء ما، في أي حال لن يستطيعوا أن يشقوا طريقهم وهم يحملون هذه الكنية... وعندما أفكر بهذا أشعر بأن هناك حاجزاً كلي القدرة يقف في طريقنا. هربنا أنا وأبو طالب من هذه الأقاويل، ساعدته وساعدني. كنت معه واثقة من أن أبناءنا سيكبرون رجالاً محترمين، وهذا ما كان يدفع عنا الدمار والويلات... أما الآن فلست أعرف... أنا لا أستطيع أن أحل محله... لأن أبا طالب كان أبا طالب... كان بإمكانه أن يحقق أي شيء. كان يريد أن ينتقل، أن يتجسد في أبنائه. ولذلك مات، مات لأنه انفصل عنهم...

أصغى يديغاي إليها بانتباه – فكون ظريفة قد بثته أفكارها المكنونة هذه، باعتباره أقرب الناس إليها، قد ولّد عنده رغبة صادقة بالاستجابة لها، بحمايتها ومساعدتها، لكن إدراكه لعجزه كان يقهره، ويخلق عنده انفعالاً خفياً.

اقتربا من نقطة أم العواصف والقطار الآن يسير في أماكن معروفة عمل فيها يديغاي العاصف أعواماً طويلة صيفاً شتاء...

قال يديغاي لظريفة:

- استعدي إنّنا نقترب. إذن هكذا قررنا: لن نقول الصغار شيئاً. إذن هكذا. ظريفة، حاولي أن لا يفتضح أمرك، والآن رتبي نفسك. واذهبي إلى فسحة باب الحافلة، قفي عند الباب، ولمجرد توقف القطار اخرجي من الحافلة بهدوء، وانتظريني. وعندما أخرج نذهب معاً.

- ماذا ستفعل؟

- لا شيء. دعي هذا لي. إنَّ من حقك أن تنزلي من القطار.

وكالعادة كان القطار رقم ١٧ يسير مسرعاً عبر النقطة، والواقع أنه خفف السرعة قليلاً عند الشارة الضوئية. وفي هذه اللحظة بالذات، عند مدخل نقطة أم العواصف توقف القطار بشكل حاد مفاجئ مطلقاً صوت صرير

رهيب. وقفز الجميع من أماكنهم مرعوبين وانطلقت أصوات الصراخ والصفارات في كل أرجاء القطار.

- ما هذا؟

- لقد شد أحدهم كوابح الخطر الاحتياطية.

- من؟

- أين؟

- في الحافلة ذات المقصورات.

خلال هذه الفترة فتح يديغاي الباب لظريفة وخرجت من القطار، أما هو فانتظر إلى أن وصل المراقب والجابي إلى باحة الباب.

- قف. من شد كوابح الخطر؟

- أنا – أجابهم يديغاي العاصف.

- من أنت، وبأي حق؟

- لأنني بحاجة لذلك.

- كيف بحاجة لذلك؟ أتريد أن تقدم للمحاكمة؟

- لا عليكما. اكتبا في تقريركما الذي سترسلانه للقضاء أو إلى أي مكان آخر، هذه أوراقي، اكتبا أن المحارب القديم عامل السكة الحديدية يديغاي جانغيلدين شد مكابح الخطر وأوقف القطار في نقطة أم العواصف إعراباً عن حداده في يوم وفاة الرفيق ستالين.

- ماذا؟ ستالين مات؟

- نعم. لقد أذاعوا ذلك بالراديو. يجب أن تستمعوا إلى الراديو.

- إذن الموضوع مختلف – وعبر دهشتهم تركا يديغاي ينزل من القطار – اذهب، ما دام الأمر كذلك.

وبعد بضع دقائق تابع القطار رقم ١٧ مسيره...

وعادت القطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق. وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي نفس المساحات الصحراوية التي لم تمتد إليها منذ الأزل- صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

لم يكن للمطار الكوني صارى اوزيك - ١ إذ ذاك أي ذكر في هذه البقاع. ربما كان ما يزال يرتسم بعد في أذهان مبدعي التحليقات الفضائية المستقبلية.

صيف وخريف عام ١٩٥٣ كانا أعصب فترات حياة يديغاي العاصف. لا قبل ذلك ولا بعده لم يقاس يديغاي آلاماً كتلك التي قاساها في هذه الأيام. فلا العواصف الثلجية على الطريق الحديدية ولا قيظ صاروزيكي وجفافها ولا المآسي والمصائب، حتى ولا الحرب – علماً أنه وصل إلى كينيغسبرغ وكان ممكناً أن يموت ويجرح ألف مرة وأن تتهشم عظامه – جلبت له من المعاناة بقدر ما عاناه خلال هذه الفترة...

ذات مرة تحدث أفاناسي ايفانوفيتش يليزاروف ليديغاي العاصف عن أسباب الانهيارات. قال أنها تحركات لا عودة عنها تنهار أثناءها صخور بكاملها متحركة من أمكنتها، بل تهوي جبال بكليتها شاقة بذلك سطح الأرض. وتنتاب الناس الرهبة – ما أعظم المصيبة التي كانت كامنة تحت أقدامهم. خطر الانهيارات يكمن في أن هذه الكارثة تنضج بشكل غير ملحوظ يوماً فيوماً، إذ إنَّ المياه الجوفية تجرف أساس الصخور شيئاً فشيئاً. ويكفي حدوث هزة أرضية بسيطة، قصفة رعد أو انهمار مطر قوي حتى يبدأ الجبل بالانخساف ببطء. الانهيار العادي يحدث مرة واحدة وبشكل مفاجئ، والانهيارات الكبيرة تكون رهيبة ليست هناك قوة قادرة على إيقافها...

مثل هذا قد يحدث مع الإنسان، عندما يظل وحيداً وجهاً لوجه مع تناقضاته التي لا يمكن تجاوزها، فيجاهد مضنياً نفسه وهو عاجز عن البوح بهذا لأحد، إذ ليس هناك من يستطيع مساعدته ولا فهمه. إِنَّهُ يعرف هذا، وهذا ما يرهبه. وكل هذا يزحف نحوه.

وللمرة الأولى يحس يديغاي في نفسه بهذا التحرك، ويدرك بوضوح ما معنى هذا، وذلك عندما سافر لبعض الأعمال، مرة أخرى إلى قومبيل بعد سفره مع ظريفة بشهرين. وعد ظريفة بأن يعرج على البريد ليرى إن كانت هناك أية رسائل لها، وإذا لم توجد، فكي يرسل ثلاث برقيات إلى ثلاثة عناوين أعطته إياها. فهي حتى الآن لم تستلم جواباً على أية واحدة من رسائلها التي أرسلتها إلى أقاربها. وهي الآن تريد فقط أن تعرف، أن استلموا هذه الرسائل أم لا. وقد كتبت في البرقيات ما يلي: رجاء حار، أعلمونا هل استلمتم الرسائل. أريد الإجابة بنعم أو لا. الإجابة على الرسائل ليست ضرورية. ينتج من هذا أن الأخوة والأخوات لم يكونوا راغبين في الاتصال بأسرة أبي طالب حتى بالبريد.

وانطلق يديغاي منذ الصباح قاصداً المحطة على جمله قارانار العاصف على أمل أن يعود في المساء. عندما كان يسافر وحده دون حمولة كان أي سائق قطار من معارف يديغاي يأخذه معه بكل رحابة صدر، وبعد ساعة ونصف يجد نفسه في قومبيل. لكنه صار يتحفظ تجاه مثل هذه الرحلات على القطارات العابرة بسبب أبناء أبي طالب. فكلاهما، الكبير والصغير، كان ينتظر عودة والده عند السكة الحديدية كل يوم. في ألعابهما وأحاديثهما وألغازهما ورسومهما، وفي كل نمط حياتهما الطفولي العابث كان انتظار الأب جوهر هذه الحياة. ومن الطبيعي أن يكون العم يديغاي هو الشخصية المرموقة الموثوق بها بالنسبة لهما في تلك الفترة، فهو حسب قناعتهما يجب أن يعرف كل شيء وأن يساعدهما.

لقد أدرك يديغاي نفسه أن حال الأطفال في النقطة سيكون من غيره أكثر صعوبة وتيتماً، لذلك كان يحاول في معظم وقت فراغه أن يشاغلهم ويلهيهم تدريجياً عن الانتظار العقيم. تذكر وصية أبي طالب له بأن يحدث الصبيان عن البحر لذلك صار يتذكر تفصيلات متجددة دائماً حول طفولته ويفاعته في صيد السمك، وصار يتذكر كل ما كان وما لم يكن عند بحر آرال. وصار يصوغ هذه الحكايات بشكل يتناسب مع الصغار وفي كل مرة كانت تذهله مقدرتهما وذكاؤهما ودقة انطباعهما وذاكرتهما. وقد سر كثيراً لأن يرى فيهما انعكاساً لتربية أبيهما. عندما كان يديغاي يحدثهم كان يركز اهتمامه على الصغير ارميك، إلا أن الصغير لم يكن مقصراً عن الكبير أبداً وكان هو (أي ارميك) أقرب المستمعين الأربعة إلى قلب يديغاي (وهم أطفال الأسرتين)، مع أن يديغاي لم يحاول أن يميزه عنهم. لقد كان ارميك أكثر المستمعين اهتماماً وأفضلهم فهماً وتفسيراً للحكايات. فأي موضوع للحديث وأي حدث وأي تحول مثير في الحوادث كان يربطه بأبيه. فأبوه كان بالنسبة له حاضراً في كل شيء وكل مكان. وذات مرة كان هذا الحديث:

- عند شواطئ بحر آرال توجد بحيرات ينمو فيها قصب كثيف، وبين هذا القصب يختتبئ الصيادون مع بنادقهم. في الربيع يأتي البط إلى بحر آرال. في الشتاء يعيش البط عند بحار أخرى أدفأ. وعندما يذوب الجليد على بحر آرال يطير البط إليه بسرعة ليل نهار، لأنه يشتاق كثيراً إلى هذه الأماكن. يطير البط اسراباً ليسبح ويستحم بعد قطعه لهذه المسافات متقلباً في الماء، ويبدأ بالانخفاض شيئاً فشيئاً نحو الشاطئ وعندها ينطلق النار والدخان من بين القصب. طاخ، طاخ. إنهم الصيادون يطلقون النار على البط، ويتساقط البط في الماء وهو يطلق أصواته، ومنه من يطير هارباً نحو عرض البحر وهو لا يعرف ماذا سيحل به وأين سيعيش. ويدور البط الهارب فوق الأمواج وهو يبطبط. لقد اعتاد السباحة عند الشاطئ ولكنه يخاف الاقتراب منه.

- عمي يديغاي، لكن هناك بطة واحدة عادت فوراً إلى المكان الذي أتت منه.

- طارت إلى هناك؟

- طبعاً. فأبي هناك بحار يبحر على سفينة كبيرة. أنت نفسك قلت ذلك، عم يديغاي.

- طبعاً. صحيح – تذكر يديغاي وقد أسقط في يده – وماذا بعد؟

- طارت هذه البطة وقالت لبابيكا أن الصيادين يطلقون النار على البط من بين القصب. وأن البط يريد العيش.

- نعم، نعم. ما تقوله صحيح.

- وقال بابيكا لتلك البطة إنَّهُ سيعود قريباً، وأن له في النقطة صبيان: داول وارميك ويوجد أيضاً العم يديغاي. وعندما سيأتي سنجتمع كلنا ونذهب إلى بحر آرال ونطرد من بين القصب الصيادين الذين يطلقون النار على البط. وسيعود البط ليحيا هانئاً عند بحر آرال... وسيسبح في الماء و«سيتشقلب» هكذا...

عندما تنضب الأحاديث كان يديغاي العاصف يلجأ إلى التبصير بالحصى. لذا صار يحمل معه باستمرار إحدى وأربعين حصاة كل منها أكبر قليلاً من حبة الحمص. لقد كان لهذه الطريقة القديمة بالتبصير رموزها المعقدة، واصطلاحاتها العتيقة. عندما كان ينثر يديغاي الحصى كان يتمتم ويبتهل إليها كي تجيبه بصدق وإخلاص، هل مازال الرجل المدعو أبو طالب حياً؟ وأين هو؟ وهل سيفتح الطريق أمامه قريباً؟ وما هو الظاهر على الجبين وما هو المخفي في النفوس؟ والصغار كانوا يصمتون بتركيز مراقبين كيف ستتوضع الحصى. ذات مرة سمع يديغاي تمتمة وكلاماً خافتاً وراء المنعطف. فنظر بحذر، فشاهد أبناء أبي طالب. كان ارميك نفسه يبصر بالحصى. كان

ينثر الحصى كما يتفق له ثم يمسك كل حصاة على حدة فيقربها من جبينه وشفتيه ويوصيها:

- أنت أيضاً أحبك. أنت أيضاً حصاة ذكية وطيبة، لا تخطئين ولا تغلطين. قولي لي بصدق وصراحة، تماماً كما تتحدث حصى العم يديغاي: - ثم يأخذ بالشرح لأخيه الكبير حول مغزى كل وضعية مكرراً كلام يديغاي – داول، انظر، أترى؟، الصورة الاجمالية ليست سيئة أبداً. هذا هو الطريق. الطريق مظلم بعض الشيء. وهناك بعض الضباب. ولكن هذا ليس مهماً. العم يديغاي يقول أن هذه مجرد متاعب الطريق العابرة. فالسفر لا يخلو من هذا. الوالد يستعد للسفر باستمرار. يريد امتطاء السرج، لكن حزام السرج ليس مشدوداً تماماً. انظر، هذا هو الحزام غير مشدود. يجب شده أكثر وأقوى. إذن هناك ما يعيق الوالد. علينا يا داول أن ننتظر. والآن لنر ماذا على الضلع الأيمن وماذا على الضلع الأيسر. الأضلاع سليمة، وهذا جيد. وماذا على جبينه؟ على جبينه بعض التقطيب. إنَّهُ قلق جداً علينا يا داول. في قلبه... أترى هذه الحصى... في قلبه ألم وشوق. إنَّهُ مشتاق إلى البيت كثيراً. هل مازال السفر بعيداً. السفر قريب. لكن حذوة الحصان الخلفية ليست ثابتة. إذن يجب حذر الحصان من جديد. يجب أن ننتظر بعد. وماذا في مخلاة هذا المتردد. أوه. في مخلاته مشتريات من السوق. والآن هل سيكون وضع النجوم مناسباً؟ أترى هذه النجمة؟ - المربط الذهبي. منها تنطلق الآثار، والآثار ليست واضحة تماماً. إذن قريباً سيفك رباط الحصان وسيبدأ سفره...

غادر يديغاي العاصف دون أن يلحظ وقد هزه وأحزنة وأثار كل هذا استغرابه. ومنذ ذلك اليوم وهو يحاول التهرب من التبصير بالحصى...

الأطفال يظلون أطفالاً، ومن الممكن دائماً إيجاد ما يعزيهم ويبعث فيهم الأمل، وما دامت الأمور تسير بهذا الشكل فيمكن الإقدام على مثل هذه الخطيئة – وهي خداعهم لفترة من الزمن. لكن فكرة كئيبة أخرى عششت في

نفس يديغاي العاصف. كان يجب أن تظهر تلك الفكرة في خضم تلك الظروف وتلك السلسلة من الأحداث. كان يجب على هذه الفكرة أن تتحرك من مكانها في لحظة من اللحظات، مثل ذلك الانهيار، إلا أنه لم يعد بإمكانه إيقافها...

لقد تألم يديغاي كثيراً من أجل ظريفة، فمع أنه لم تدر بينهما أية أحاديث أخرى باستثناء المسائل الحياتية اليومية، ومع أنها لم تفسح هي مجالاً لذلك أبداً، فهو يفكر دائماً بها. هو لم يشفق عليها فقط، ولم يتعاطف معها مثل أي إنسان، وهو لم يشاركها فقط في معاناتها من كل ما رآه وما عرفه من المآسي التي اصابتها، فلو كان الأمر كذلك وحسب لما استحق ذلك الحديث. لكنه كان يفكر بها محباً، يفكر بها تفكيراً ملحاً لا يزول ولا يتراجع، ولديه استعداد داخلي لأن يصبح بالنسبة لها الرجل الذي يمكنها أن تعتمد عليه في كل ما يهم حياتها. وهو سيكون سعيداً لو يعرف أنها – لنقل – اعتقدت بأنه هو، يديغاي العاصف، بالذات أخلص الناس وأكثرهم محبة لها في هذه الدنيا.

كان التظاهر بأنه لا يكن نحوها أي شيء متميز، وأنه لا يجوز، بل ويجب ألا يكون بينهما أي شيء... عذاباً كبيراً بالنسبة له.

في طريقه إلى قومبيل كان ذهنه طوال الطريق مشغولاً بهذه الأفكار. كان يتعذب وكانت أفكاره متضاربة. لقد أحس بهذه الحالة النفسية الغريبة المتقلبة، وكأنه ينتظر عيداً قريباً تارة، وتارة أخرى يتوقع مرضاً عضالاً. وفي حالته هذه صار يتخيل أحياناً أنه عاد إلى البحر. والإنسان غالباً ما يشعر بنفسه وهو على البحر إنساناً آخر، ليس كالإنسان الذي على الأرض، حتى لو كان كل شيء حوله هادئاً ولا ينذر بأي خطر. ولكن مهما كان البحر فسيحاً، ومهما كان الغوص في الأمواج ممتعاً في بعض الأحيان، ومهما كانت جميلة انعكاسات الفجر والغروب على وجه الماء، فالمرء يجب أن يعود إلى الشاطئ، حتى لو كان ينفذ عملاً هاماً في إبحاره، فهو يجب أن يعود إلى أي

شاطئ كان... المهم العودة إلى الشاطئ. وأنت لن تستطيع أن تظل مبحراً إلى ما لا نهاية. على الشاطئ تنتظرك حياة مختلفة تماماً. البحر مؤقت واليابسة دائمة. وإذا كان النزول على الشاطئ مخيفاً فيجب أن تجد جزيرة تنزل إليها وتدرك أن هذا هو مكانك وأنك يجب أن تستقر هنا أبداً. حتى أنه تصور أنه لو وجد جزيرة لأخذ ظريفة والصغار إليها ولعاش هناك. لو حدث ذلك لعلم الأطفال على البحر ولقضى حياته حتى آخر أيامه على الجزيرة وسط البحر غير آسف على مصيره، بل سعيداً، ويكفيه أن يعرف أنه يستطيع رؤيتها في أي وقت وأنها تريده وتحتاج إليه وأنه أقرب الناس إليها...

وهنا بالذات خجل من نفسه بسبب هذه الرغبة – شعر بحمرة الخجل تصبغ وجهه مع أنه لا يوجد حوله ولمئات الكيلو مترات أي مخلوق بشري. لقد ابتعد بأحلامه كالصبي ويريد أن ينزل على جزيرة. ما مناسبة هذا؟. ما الداعي إليه؟ كيف يجرؤ على هذا الحلم وهو المقيد من يديه ورجليه مدى الحياة إلى أسرته وأطفاله وعمله والطريق الحديدية وفي نهاية المطاف – إلى صاروزيكي التي التحم بها جسداً وروحاً دون أن يحس هو بذلك... نعم. وهل ظريفة بحاجة إليه؟ وإن كان وضعها سيئاً، فهل هذا يعني أنه يجب أن يتوهم هذا؟ ولماذا يجب أن يكون عزيزاً عليها؟. لم يكن هو يشك بهذا بالنسبة للصغار، فهو مشغف بهم، وهم يميلون إليه، ولكن لماذا ستتمنى ظريفة ذلك؟ وفوق هذا، هل يحق له التفكير هكذا، وقد وضعته الحياة منذ زمن بعيد في مكانه هذا وشدته شداً وثيقاً إليه، وفيه سيبقى على الأغلب حتى نهاية العمر...؟

سار قارانار العاصف على درب يعرفه جيداً، سار عليه مئات المرات سابقاً، وهو إذ يعرف كم بقي من الطريق كان يغذ السير دون أي حث من صاحبه وهو يزمجر ويئن بتثاقل أثناء عدوه، وينهب مسافات صاروزيكي التي لا تقاس بخطواته الواسعة السريعة عبر الأخاديد الربيعية والوهاد، ماراً

قرب البحيرة الملحية التي كانت موجودة ذات يوم قبل أن تجف. أما يديغاي الذي كان جالساً على ظهره فقد كان مكتئباً مشغولاً بنفسه... لقد تزاحمت في داخله هذه المشاعر المتناقضة لدرجة أنه لم يعد يجد لنفسه مكاناً ولم تنعم نفسه بالهدوء في رحاب صاروزيكي الشاسعة هذه... كم كان ذلك أقوى منه...

بهذه الحالة وصل إلى قومبيل. كان يود لو تستلم ظريفة أجوبة من أقربائها على رسائلها، ولكنه عندما كان يفكر بأن أقرباء ظريفة قد يأتون ليأخذوا هذه الأسرة التي تيتمت إلى نواحيهم، أو أنهم قد يستدعونها إليهم كانت تسوء حالته. في كوة «لحين الطلب» في مكتب البريد أجابوه أنه لا توجد أية رسائل إلى ظريفة كوطيبايفا. ففرح بهذا بشكل لم يكن هو يتوقعه، حتى أن فكرة سيئة وحشية مناقضة للضمير لمعت في ذهنه: «حسن أنه لا توجد رسائل». ثم نفذ ما كلفته به بصدق وأرسل ثلاث برقيات إلى ثلاثة عناوين. وهكذا عاد في المساء..

في ذلك الوقت كان الصيف يحل محل الربيع، فصاروزيكي صارت تصفر محترقة، وزالت الأعشاب وكأنها الحلم الهادئ، وعاد السهب الأصفر إلى إصفراره، وصار ساخناً، وصار وقت القيظ يقترب يوماً بعد يوم، وما تزال الأخبار من أقارب أسرة كوطيبايف معدومة، فلا حس من عندهم ولا أنس. فهم لم يردوا لا على الرسائل ولا على البرقيات، والقطارات تمر عبر أم العواصف والحياة تسير سيرها..

لم تعد ظريفة تنتظر الأجوبة، فقد فهمت أنه لا مجال للاعتماد على مساعدة الأقارب وأنه لا داعي لإرهاقهم بالرسائل ونداءات المساعدة أكثر من ذلك... وبعد أن تيقنت المرأة من ذلك غرقت في بحر من الصمت اليائس – أين الذهاب بعد هذا، وما هو الحل؟.. كيف تخبر الأطفال عن أبيهم؟ وبم تبدأ؟ كيف تعيد بناء هذه الحياة المدمرة؟.. لم تجد بعد أجوبة على هذه الأسئلة..

ربما لم تكن معاناة يديغاي من أجلهم أقل من معاناة ظريفة نفسها، فقد كان الجميع في أم العواصف يتألمون من أجلهم ولكن مأساة هذه الأسرة تحولت إلى مأساة يديغاي الخاصة. لم يعد باستطاعته أن يميز بينه وبينهم. وفي كل يوم كان يعيش مأساة ظريفة وهذين الطفلين أكثر وأكثر. كان يعيش انتظاراً قلقاً ويأساً صامتاً: ماذا سيحل بهم؟ وإضافة إلى كل هذا كان يفكر باستمرار متعذباً: ماذا سيحل به؟ كيف سيخمد في ذاته ذلك الصوت الذي يدعوه إليها؟. وهو أيضاً لم يجد أي جواب... لم يفكر يديغاي قط في السابق أنه سيصطدم في حياته بمثل هذه المشكلة.

عقد يديغاي النية أكثر من مرة، وأراد أن يحزم أمره وأن يعترف لها، أراد أن يقول لها بصراحة ومباشرة أنه يحبها وأنه مستعد أن يتحمل كل أعبائها لأنه لا يتصور نفسه منفصلاً عنهم، ولكن كيف يفعل ذلك؟ بأي شكل؟ وهل ستفهمه؟ خاصة وأن المرأة مشغولة الآن عن هذا بعد أن انهالت على رأسها وحدها كل هذه النكبات، بينما هو ينحشر بعواطفه. هل يجوز هذا؟. مع تفكيره المستمر بهذا تكدر وتشتت وصار يحتاج إلى جهد ليس بالقليل ليحافظ على المظهر الخارجي الذي يجب أن يظهر به أمام الناس.

ذات مرة عندما كان عائداً من جولة على الطريق الحديدية لمح من بعيد ظريفة وهي ذاهبة بالسطول لتعبئة الماء من الصهريج. فشعر بما يدفعه نحوها، فاتجه إليها ليس لأن الفرصة كانت سانحة إذ يتذرع بمساعدتها في حمل السطول – فهما يعملان على الطريق معاً كل يوم تقريباً، وبإمكانهما أن يتحدثا ما طاب لهما، ولكنه في تلك اللحظة بالذات أحس برغبة لا تقاوم بالاقتراب نحوها وبقول ما بدا عليه ظاهراً. حتى أنه اعتقد لشدة حماسه أن هذا سيؤدي للأفضل – لا بأس أن لا تفهم. لا بأس أن تصده. ولكن ذلك سيبرد ويهدئ نفسه... لم تلحظ ظريفة اقترابه منها، فقد وقفت متجهة بظهرها نحوه بعد أن أدارت صنبور الصهريج. كان أحد السطلين قد ملئ بالماء

ووضع جانباً، بينما السطل الثاني كان تحت الصنبور والماء يطفح وينسكب من حوافه. كان الصنبور مفتوحاً حتى آخره والماء يفور ويقلب لينسكب ويشكل بركة حول السطل، أما هي فلم تعر انتباهها لشيء. كانت تقف مطرقة الرأس مستندة بكتفها إلى الصهريج. كانت مرتدية ثوباً من الشيت وهو الذي وقفت فيه في الصيف الماضي تحت المطر الشديد إذ ذاك. نظر يديغاي إلى خصلات الشعر المتموجة على صدغها ووراء إذنها. فارميك أجعد الشعر مثلها وجهها صغير ورقبتها نحيلة وكتفاها هابطان وقد أسبلت يدها على فخذها. أهو ضجيج الماء الذي سلب انتباهها وقد تذكرت السواقي الجبلية في منطقة سيميريتشيه (الأنهار السبعة)، أم أنها غاصت في أعماق ذاتها وقد فاجأتها في تلك اللحظات الذكريات المرة؟ الله وحده يعلم. لكن يديغاي أصيب بضيق في صدره لا يطاق عندما رآها لأن كل شيء فيها كان محبباً إليه بلا حدود ولأن لديه رغبة جارفة بملاطفتها وحمايتها ووقايتها من كل شيء يؤرقها. لكن القيام بهذا كان ممنوعاً لذلك اكتفى بأن برم مفتاح صنبور الماء بصمت وأوقف تدفق الماء فنظرت إليه نظرة فاحصة طويلة دون استغراب، وكأنه لم يكن يقف بقربها، بل في مكان ما بعيد عنها جداً.

تمتم يديغاي متعاطفاً معها:

- ما بالك؟ ماذا بك؟

لم تجب بل ابتسمت في زاويتي فمها ورفعت حاجبها فوق عينيها الدامعتين بشكل لا يوحي بأي معنى، وكأنها تريد أن تقول: لا شيء، فقط هكذا...

- أنت تعبة؟ - سألها يديغاي مرة أخرى.

- تعبة. – اعترفت مطلقة تنهداً ثقيلاً.

هز يديغاي كتفيه بعض الشيء محتاراً.

- لماذا تعذبين نفسك هكذا؟ - قال معاتباً إياها وآسفاً لحالها، مع أنه كان يهم بقول غير ذلك. – أيجوز هذا؟. أنت لا تساعدين نفسك بهذا. وضعنا

أيضاً صعب (كان يريد أن يقول: وضعي) حينما ننظر إليك، ووضع الأطفال صعب. افهمي هذا. هذا لا يجوز يجب أن نفعل شيئاً ما – قال هذا محاولاً انتقاء الكلمات التي يجب أن تقال لها، كما أراد هو. إنَّه يقاسي ويحبها أكثر من أي إنسان في الدنيا. فكري أنت بنفسك. لا يجيبون على الرسائل... فليسامحهم الله، فنحن لن نهلك بسبب هذا. إلى جانبك (وأراد أن يقول: أنا)، كلنا مثل أهلك. ولكن حافظي على معنوياتك. أعملي وتماسكي. والصغار سيقفون على أرجلهم، حتى هنا، بيننا (وأراد أن يقول: معي). كل شيء سيتحسن بالتدريج. لماذا تريدين الرحيل؟ كلنا هنا مثل أهلك. أما أنا، فأنت تعرفين أنني لا أقضي يوماً من غير صغارك. – وتوقف، لأنه فضح نفسه بالقدر الذي يسمح به وضعه.

- كل هذا أفهمه أنا يا يديكيه – أجابته ظريفة – شكراً لكم طبعاً. أنا أعرف أننا لن نظل في المصيبة وحدنا، ولكن يجب أن نخرج من هنا، كي ينسى الأطفال ماذا وكيف حدث ما حدث هنا. وعند ذلك سيكون علي أن أقول لهما الحقيقة. فأنت تعرف أن الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا طويلاً... وأنا أفكر ما هو الحل..

- نعم، فعلاً هكذا – اضطر يديغاي للموافقة – ولكن لا تستعجلي فكري أيضاً. إلى أين ستذهبين مع هؤلاء الصغار. أين وكيف ستعيشين؟ عندما أفكر بذلك يجن جنوني: كيف سأعيش هنا من غيركم..

فعلاً كان يخشى عليهم، عليها وعلى الصغار، ولذلك لم يكن يشأ أن ينظر إلى أبعد من الغد، مع أنه كان يعرف أن الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا طويلاً. بعد بضعة أيام من هذا الحديث حدث أمر فضح به نفسه وندم طويلاً وتعذب كثيراً بعد هذا الحادث، إذ لم يجد مسوغاً لفعلته.

لقد انقضت عدة أشهر منذ تلك الرحلة إلى قومبيل يوم خاف ارميك من الحلاق ولم يسمح له بقص شعره. وظل الصغير بشعره الطويل الأسود، ومع

أن شعره المسترسل كان يجمله فإن قص شعر هذا الجبان العنيد كان ضرورياً. كان يديغاي كثيراً ما يغرز أنفه في يافوخ الصغير الأسود مقبلاً إياه ومستنشقاً رائحة الرأس الطفولي. إلا أن الشعر طال حتى وصل إلى كتفي ارميك فصار يعيقه في اللعب والركض. لقد كانت هذه الضرورة غير مقبولة ومرفوضة وغير مفهومة بالنسبة للصغير، لذلك لم يستسلم لأحد، لكن قازانغاب استطاع إقناعه عندما رأى هذا المنظر، حتى أنه أخافه بعض الشيء وقال له أن الماعز لا تحب ذوي الشعر الطويل فتنطحهم.

كان هذا قضية كبيرة تهون أمامها المأساة العالمية. روت لنا ظريفة فيما بعد أنهم بدؤوا بقص الشعر ولكنهم لم ينتهوا منه إلا بصعوبة كبيرة لم يعودوا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا. صار ارميك يبكي وينحب ويحاول التخلص من قازانغاب الذي اضطر إلى استخدام القوة فعلاً: عصره بين رجليه وأعمل الآلة في رأسه، فسمع صراخه كل من في النقطة وعندما انتهت الحلاقة وضعت بوكيي الطيبة المرآة أمام الصبي كي تهدئه: هاك انظر كيف صرت جميلاً. نظر الصبي فلم يعرف نفسه فانفجر ببكاء أشد وأعلى. فحملته ظريفة وهو في هذه الحالة من العويل والصراخ من عند قازانغاب، فالتقت في طريقها بيديغاي.

بعد أن حلق شعر ارميك على الصفر تغير شكله كلياً. عند التقائهم بيديغاي صار يتملص من بين يدي أمه برقبته النحيلة المعراة من الشعر وإذنيه البارزتين وهو يبكي ملقياً بنفسه إلى يديغاي:

- عم يديغاي، انظر ماذا فعلوا بي.

لو قيل ليديغاي العاصف في الماضي أن مثل هذا سيحدث له لما صدق أبداً، تلقى الصبي على ذراعه وضمه إلى صدره مدركاً ومستوعباً بكل حواسه مأساته وضعفه وشكواه وثقته، وكأن هذا حدث له نفسه. صار يقبله ويهدئ من روعه بصوت متقطع من الألم والحنان وهو لا يفهم معنى لكلماته:

- اهدأ يا حبيبي. لا تبك. لن أدع أحداً يزعجك. أنا سأكون مثل أبيك. سأحبك كأبيك، ولكن لا تبك. - ونظر إلى ظريفة التي تسمرت أمامه مذهولة فأدرك أنه تجاوز الخط المحرم، فارتبك وأسرع في الابتعاد عنها والطفل على يده، وصار يتمتم بارتباك مردداً نفس الكمات. – لا تبك. الآن سأريه، قازانغاب هذا. الآن سأريه هذا القازانغاب. الآن سأريه..

بعد هذا الحدث ظل يديغاي عدة أيام وهو يتهرب من اللقاء بظريفة وهي أيضاً كانت تتجنب – كما فهم – اللقاء به. ندم يديغاي العاصف لأن لسانه فضحه بهذا الشكل غير اللائق، ندم لأنه أزعج هذه المرأة التي لا ذنب لها والتي من غير هذا الأمر، تكفيها همومها ومشاكلها. كيف يكون حال من في وضعها – كم من الألم أضافه إلى أحزانها. ولم يجد يديغاي أي عذر أو مغفرة لنفسه. بل سيظل يذكر لسنوات طويلة وربما حتى يلفظ آخر أنفاسه، هذه اللحظة، عندما أحس بكل كيانه التصاق هذا الطفل الضعيف المقهور به، ولن ينسى كيف اهتزت مشاعره من الحنان والألم وكيف نظرت إليه ظريفة التي أذهلها الموقف، كيف نظرت إليه وفي عينيها صرخة حزن خرساء.

صمت يديغاي العاصف لبعض الوقت بعد هذا الحدث وأظهر لأطفالها كل ما كان عليه أن يخفيه ويكتمه في نفسه، إذ لم يجد أسلوباً آخر. كلما كان يجد عنده بعض وقت الفراغ كان يشغله بهم، وظل يقص عليهم مكرراً الكثير ومتذكراً الكثير الجديد عن البحر. كان البحر الموضوع المحبب إليهم. حدثهم عن النوارس وعن الأسماك وعن الطيور المهاجرة وعن جزر بحر آرال التي ما زالت تعيش عليها حيوانات نادرة انقرضت في أماكن أخرى. لكن يديغاي في أحاديثه للصغار كان يتذكر بشكل أدق وأفضل ماضيه الخاص على بحر آرال. تذكر أمراً، كان الوحيد، الذي فضل أن لا يحدث به أحداً. فهذا لم يكن أبداً موضوعاً للأطفال. اثنان فقط عرفا هذا الموضوع – هم واقوبالا ولكنهما لم يتحدثا فيما بينهما حوله، إذ أنه يتعلق ببكرهم الذي مات – لو بقي حياً لكان

الآن أكبر بكثير من أطفال أم العواصف، بل أكبر من سابيتجان ابن قازانغاب بسنتين تقريباً. ولكنه مات. كل طفل ينتظر بأمل كبير، ينتظر أن يولد ويعيش طويلاً وطويلاً جداً، حتى ليصعب على المرء أن يتصور طول حياته، ولو لم يكن الأمر كذلك أكان الناس ينجبون الأطفال؟

في حياة صيادي الأسماك تلك، وفي سني الشباب، قبل الحرب بوقت قصير شهد يديغاي واوقوبالا حدثاً عجيباً. ومثل هذا يحدث مرة واحدة ولا يتكرر.

منذ تزوجا ويديغاي يشعر عندما يكون في البحر برغبة في العودة سريعاً إلى البيت. لقد أحب اوقوبالا، وكان يعرف أنها أيضاً تنتظره. إذ ذاك لم تكن هناك امرأة أشهى إليه منها. وكانت هذه الرغبة في العودة سريعاً إلى البيت ترهقه وتشغل كل أفكاره. كان يتصور أحياناً أنه وجد فقط من أجل أن يفكر بها دوماً، من أجل أن يجمع ويدخر قوة البحر وقوة الشمس ومن ثم يمنحها ذاته، وهي الزوجة التي تنتظره، إذ من هذا المنح كانت تتولد السعادة المشتركة، وهذا المنح هو لب السعادة، أما الأشياء الأخرى فكانت تكمل وتغني ظاهرياً سعادتهما وحبورهما المتبادل بما منحته إياه الشمس والبحر. وعندما شعرت اوقوبالا أن شيئاً ما حدث عندها، أنها حامل، وعما قريب ستصبح أماً، أضيف إلى الانتظار الدائم للقاء بعد البحر انتظار البكر المقبل. كانت تلك الفترة فترة صفاء في حياتهما.

في أواخر الخريف، وقبيل الشتاء بدأت تظهر على وجه اوقوبالا بقع سمراء تميزها النظرة المتفحصة، وبدأ بطنها بالبروز والتكور. سألته ذات يوم: «كيف تبدو سمكة الطين ميكريه»؟ «سمعت بها سمعاً ولكنني لم أرها أبداً» فقال لها أن هذه السمكة سمكة نادرة جداً من النوع الذي يسبح في المياه العميقة. سمكة كبيرة. لكن شهرتها تأتي من جمالها – هذه السمكة ذات لون أزرق مبقع، أما يافوخها وزعانفها وعرفها الغضروفي على ظهرها من

رأسها حتى نهاية ذنبها: فكلها تبدو وكأنها من الذهب الخالص. ما أبدع بريقها الذهبي ومن هنا تسميتها: «الطين ميكريه» - الميكريه الذهبية.

في مرة أخرى قالت اوقوبالا أنها رأت في المنام الميكريه الذهبية كانت السمكة تسبح حولها بينما هي تحاول الإمساك بها. كانت تشتهي ذلك جداً – كانت تشتهي الإمساك بتلك السمكة ثم إطلاقها، بعد أن تمسكها بيديها وتلمس جسمها الذهبي. كانت ترغب في الإمساك بهذه السمكة لدرجة أنها ركضت وراءها في الحلم، لكن السمكة لم تستسلم، وبعد أن استيقظت ظلت اوقوبالا وقتاً طويلاً، قبل أن تستعيد هدوءها وهي تعاني من حزن غريب وكأنها فعلاً قصرت عن تحقيق هدف هام. ضحكت اوقوبالا من نفسها، ولكن في الواقع كانت ترغب رغبة شديدة بالإمساك بسمكة الميكريه الذهبية.

فهم يديغاي هذا وفكر به وهو يسحب الشباك من البحر، وقد ثبت فيما بعد أنه فسر بشكل صحيح هذه الرغبة التي ظهرت في المنام ولم تختف في الواقع. أدرك أن عليه اصطياد الميكريه الذهبية مهما كلفه الأمر، إذ أن ما تعاني منه اوقوبالا الحامل هو «تالغاك»[١]. الكثير من النساء يشعرن أثناء الحمل بهذه الحاجة، ويتبدى تالغاكهن بالرغبة في أكل شيء ما حامض الطعم أو مالِح أو حار أو مر، وأخريات يتلهفن إلى أكل لحم حيوان مفترس أو طير مقلي. ولم يستغرب يديغاي تالغاك زوجته، فزوجة صياد محترف يجب أن تشتهي ما له علاقة بمهنة زوجها. فالله هو الذي أراد لها أن تشتهي مشاهدة ذهب هذه السمكة الكبيرة بعينها ولمسها بيدها. يديغاي كان يعرف مما كان يسمعه، أنه إذا لم يرو تالغاك المرأة الحامل فإن هذا قد يترك آثاراً ضارة على الجنين في بطن أمه.

لكن تالغاك اوقوبالا كان غريباً لدرجة أنها لم تجرؤ على الاعتراف به صراحة، إلا أن يديغاي لم يسع إلى التأكد والسؤال لأنه لم يكن يعرف أن كان

---

(١) تالغاك – بالكازاخية – الوحام.

سيستطيع التقاط هذه السمكة النادرة أم لا، لذا قرر الإمساك بها أولاً وبعد ذلك يعرف إن كانت هذه هي شهوتها.

في تلك الفترة كان موسم الصيد في بحر آرال يكاد ينتهي، فذروة الموسم هي ما بين تموز وتشرين الثاني. كان الشتاء قد بدأ ينفث أنفاسه في الوجوه. والتجمع التعاوني بدأ يستعد للأعمال الشتوية وهو الصيد تحت الجليد، حيث يغطي الجليد السميك سطح بحر آرال ذي الألف وخمسمائة كيلو متر محيطاً، فيلجؤون إلى فتح ثغرات كبيرة في الجليد يدخلون فيها شباكاً مثقلة ويشدونها عبر قاع البحر بالجنازير من ثغرة إلى أخرى بواسطة الجمال – الجرارات الصحراوية التي لا بديل عنها... في تلك الأوقات تعصف الرياح ولا يقوى ما يعلق في الشباك من السمك حتى على التململ عندما يلقون به إلى السطح، إذ يتجمد فوراً، ويتغلف بغلاف جليدي في برد آرال المكشوف... ما أكثر ما اصطاد يديغاي مع التجمع التعاوني صيفاً وشتاء من السمك بأنواعه الثمينة والبخسة إلا أنه لا يذكر أن سمكة ميكريه الذهبية علقت مرة في الشباك. ونادراً ما كانت هذه السمكة تعلق. لا تصطاد إلا بالشص والصنارة فقط، وكان اصطيادها حدثاً هاماً للصياد. عند حدوث مثل هذا كانوا يتحدثون أن فلاناً أسعده الحظ واصطاد ميكريه الذهبية.

في ذلك الصباح الباكر ذهب إلى البحر بعد أن قال لزوجته أنه سيتصيد من أجل البيت قبل أن يحل الجليد. حاولت اوقوبالا إقناعه بعدم الخروج:

- في البيت توجد كل أنواع السمك. هل يستحق ذلك الخروج إلى البحر؟ الطقس بارد.

لكن يديغاي أصر على موقفه:

- ما هو في البيت، فهو للبيت. أنت نفسك قلت أن العمة ساغين طريحة الفراش، يجب مداواتها بحساء السمك الطازج. وهذا أحسن دواء. فمن سيصطاد السمك لهذه العجوز المسكينة؟

بهذه الحجة تحرك يديغاي منذ الصباح الباكر لاصطياد ميكريه الذهبية. جهز كل اللوازم وكل المعدات الضرورية سلفاً، ووضعها في مقدمة القارب. وارتدى ثياباً دافئة وفوقها ارتدى واقياً من المطر ذا قبعة وأبحر.

كان ذلك اليوم غائماً غير واضح بين الخريف والشتاء. قاد يديغاي قاربه بواسطة المجاذيف متجنباً دفع الماء باتخاذ اتجاه مائل نحو عرض البحر، إلى حيث افترض أنه يمكن أن يكون مرتع الميكريه الذهبية. كل شيء يتوقف طبعاً على الحظ. إذ لا شيء أصعب منالاً في حرفة الصيد من صيد السمك البحري بالشص والصنارة. على اليابسة – مهما كان الأمر – فإن الإنسان وطريدته موجودان في نفس الوسط الطبيعي، وبإمكان الصياد ملاحقة الفريسة والاقتراب منها والتسلل إليها متربصاً ثم منقضاً. أما تحت الماء فليس في يد الصياد شيء من هذا. بعد أن يرمي بصنارته عليه أن ينتظر: ستظهر السمكة أم لا، وإن ظهرت فهل ستعلق؟.

كان يديغاي يأمل في قرارة نفسه أن يحالفه الحظ، إذ أنه لم يخرج إلى البحر بهدف الاصطياد وحسب، كما العادة، بل، في هذه المرة من أجل رغبة تنبأ بها لدى زوجته الحامل. وبهذا الهدف كان يجذف. كان يديغاي الشاب قوياً وشديداً في تعامله مع المجاذيف. دفع يديغاي القارب بدأب واتزان من منطقة المياه الرجراجة المتقلبة نحو عرض البحر عبر الأمواج المتهادية المترنحة. صيادو آرال يسمون مثل هذه الأمواج «ايريك تولكون» أي الأمواج المقوسة. والأمواج المقوسة هذه هي نذير الهيجان المقبل، ولكنها هي بحد ذاتها ليست خطيرة، وبالإمكان المضي قدماً في عرض البحر دون خوف.

مع ابتعاده عن الأرض صار الشاطئ بمنحدراته الترابية وكذلك الخط الصخري لالتقاء الماء بالشاطئ يتضائل بالتدريج ليصبح قليل التمايز وليتحول سريعاً إلى خط مبهم يختفي عن الرؤية أحياناً. كانت الغيوم تنتشر في الأعالي دون حراك وفي الأسفل كانت تهب ريح واضحة تحرك الماء من سكونه.

بعد حوالي الساعتين أوقف يديغاي القارب ورفع المجاذيف. رسا وبدأ يعد العدة. كانت معه لفافتان من الخيطان مع جهاز من صنع ذاتي للإمساك بخيط الصنارة. ثبت أحداهما في مؤخرة القارب، فأنزل الخيط مع ثقل مربوط به عبر قصبة الصيد إلى عمق حوالي المائة متر وأبقى حوالي العشرين متراً احتياطية. والثانية أقامها بنفس الطريقة في مقدمة القارب. ثم عاد ليمسك المجاذيف بيديه بقصد تثبيت القارب والحفاظ على استوائه في الوضع اللازم وسط التيارات والريح. المهم أن لا تتشابك خيوط الصيد مع بعضها.

وهكذا جلس ينتظر. هو يفترض أن هذه السمكة النادرة يجب أن تتواجد هنا. لم تكن لديه براهين على ذلك، بل كان هذا مجرد حس داخلي. ولكنه، من ناحية أخرى، كان واثقاً من أن هذه السمكة يجب أن تظهر. يجب أن تظهر حتماً ومن كل بد. فهو لا يقدر أن يعود إلى البيت من دونها. أنه بحاجة إليها ليس لمجرد التسلية، بل من أجل أمر هام جداً في حياته.

بعد بعض الوقت بدأ السمك ينبه إلى قدومه ولكن تلك الأسماك لم تكن المطلوبة. علقت أولاً سمكة «جيريخ» وعندما سحبها يديغاي أدرك أنها ليست ميكريه الذهبية. يستحيل أن تعلق سمكة ميكريه الذهبية من المرة الأولى. فلو علقت لأصبحت الحياة في هذه الدنيا بسيطة وممتعة. لكن يديغاي كان مستعداً للعمل والانتظار. بعد ذلك علقت سمكة «اوساتش» كبيرة وهي إحدى أفضل الأسماك في آرال، إن لم تكن أحسنها على الاطلاق. بعد أن ضربها على رأسها ألقى بها إلى قعر القارب. وهي على كل حال تزيد عن الحاجة من أجل حساء السمك للعمة ساغين. ثم علقت سمكة «تران» من سمك «ابرميس» الآرال. أي شيطان ساقها إلى هنا؟. سمك «تران» عادة يسبح قريباً من السطح. هذا قدرها. على نفسها جنت «تران». بعد ذلك حلت فترة ثقيلة طويلة دون أن يعلق شيء... «كلا، سأنتظر حتى النهاية – فكر يديغاي – مع أنني لم أقل لها، إلا أنها تعرف أنني خرجت لاصطياد ميكرية الذهبية.

ويجب أن أصطادها كي لا يتعذب الطفل في بطن أمه. الطفل هو الذي يريد أن ترى أمه وتمسك بيديها الميكريه الذهبية. أما لماذا يريد هذا، فلا أحد يعرف. كما أن الأم متشوقة لهذا، وأنا الأب، ويجب أن أعمل لكي أقضي لهما شهوتهما».

تحركت ايريك تولكون ودارت بالزورق لأنها أمواج مقوسة ومخادعة ومتقلقلة. بدأ يديغاي يشعر بالبرد لقلة الحركة، وهو يجلس يراقب بانتباه حركة لفافات الخيوط. ألم تهتز؟ ألم ينسحب الخيط المشدود إلى القصبة؟ كلا... لا في مقدمة الزورق ولا في مؤخرته. لكن صبر يديغاي لم ينفذ. كان يعرف ويثق أن سمكة الميكريه الذهبية ستحضر إليه، شرط أن ينتظر البحر قليلاً – لقد بدأت أمواج ايريك تولكون تشتد. لم هكذا؟. كلا يجب ألا تأتي العاصفة سريعاً، فأمواج العاصفة – آلاباسا – المندفعة حادة الرؤوس يجب ألا تأتي قبل حلول المساء أو الليل. عندها سيبدأ بحر آرال الغاضب بالغليان من أقصاه إلى أقصاه، وسيغطيه الزبد الأبيض. وعندها لن يستطيع أحد أن يلج هذا البحر. ولكن الوقت حتى الآن كاف ويمكن التواجد في البحر...

جلس يديغاي متكاسلاً متلفتاً حوله، رغم إحساسه بالبرد، ينتظر سمكة في البحر. «مالك تتباطئين. قسماً بالله لا تخافي، صدقيني لا تخافي، فأنا سأعيدك إلى البحر. تقولين أن هذا لا يحدث؟ مع ذلك، تصوري أن مثل هذا يحدث. أنا لا أنتظرك من أجل الطعام. عندي في البيت من الطعام والسمك الكثير، وها هي ذي ثلاث سمكات في قعر القارب. فهل يعقل أن أنتظر من أجل الطعام ميكريه الذهبية. بكرنا سيأتي، وزوجتي حلمت بك منذ أيام، ومنذ ذلك الحين وهي مضطربة، ومع أنها لا تتكلم حول هذا، فأنا أرى كل شيء. لا استطيع أن أفسر سبب هذا، ولكن من الضروري جداً أن تراك وأن تمسكك بيديها، وأنا أعدك أن أعيدك طليقة إلى البحر فوراً. القصة أنك سمكة متميزة ونادرة. يافوخك وذيلك ذهبيان، وكذلك زعانفك وظهرك. افهمي وضعنا: إنها

مشتاقة لرؤيتك على الطبيعة، تريد أن تلمسك، أن تحس بك بين يديها، أن تعرف ملمسك أيتها الميكريه الذهبية. لا تظني أنك إذا كنت سمكة فلا شأن لك بنا. مع أنك سمكة تشتاق زوجتي لسبب ما إليك كشوقها إلى أختها أو إلى أخيها وتريد أن تراك قبل أن يولد الطفل، عندها سيسر الطفل في بطنها أيضاً. هذه هي القصة. ساعدينا، يا صديقتنا، ميكريه الذهبية. اقتربي فلن أزعجك. أعدك بذلك. لو كانت عندي أية نية سيئة لأحسست أنت بذلك. عندي شصان، اختاري واحداً منها – لقد علقت على كل منهما قطعة لحم كبيرة، تفوح منها بعض الشيء رائحة اللحم كي تشميها عن بعد. اقتربي دون أن تراودك الأفكار السيئة، لو كنت دسست لك الصنارة لكان هذا غير نزيه، مع أنك كنت ستسرعين إليها، فتبلعينها، فكيف ستعيشين بعد ذلك والحديد في بطنك عندما سأطلقك في البحر؟ لو فعلت ذلك لكان خداعاً أما أنا فأعرض عليك الشص بنزاهة، ستجرح شفتاك جرحاً بسيطاً، وهذا كل شيء. لا تخافي، لقد أحضرت معي قربة كبيرة، سأملأها بالماء. ستمكثين في القربة المليئة بالماء، وبعد ذلك تعودين إلى السباحة. ولكنني لن أذهب من هنا من غيرك، والوقت لا ينتظر. ألا تشعرين كيف تقوى الأمواج وتشتد الريح، أيعقل أنك تريدين أن يولد بكري يتيماً، بلا أب؟ فكري، وساعديني...»

هبط الأصيل على رحاب البحر الأزرق البارد في هذا اليوم من أيام أعتاب الشتاء، والقارب يتجه نحو الشاطئ بارزاً أحياناً من بين ذؤابات الأمواج ومختفياً أحياناً أخرى وسطها. كان القارب يسير بصعوبة مصارعاً تلاطم الأمواج، إذ بدأ البحر بالصخب والغليان شيئاً فشيئاً والعاصفة بدأت تشتد. صار الرذاذ الصقيعي يتطاير على وجهه، ويداه على المجاذيف قد تورمتا من البرد والرطوبة.

كانت اوقوبالا تتمشى على الشاطئ، وقد سيطر عليها القلق منذ زمن. خرجت إلى الشاطئ تنتظر زوجها. عندما وافقت على الزواج من صياد سمك

قال لها أقرباؤها مربو الماشية من أهل السهوب: فكري قبل أن تعطي كلمتك. إنك تذهبين إلى حياة قاسية، إنك تتزوجين البحر وستضطرين مراراً، لا مرة ولا مرتين، للاغتسال بدموعك عند البحر، وللتضرع إليه. ولكنها لم ترفض يديغاي، بل اكتفت بالقول: سأكون كما سيكون زوجي...

وحصل ما حصل. في هذه المرة لم يخرج مع التجمع، بل خرج وحيداً، وها قد بدأ الظلام بالهبوط بسرعة، والبحر هائج.

ها هي تلويحة المجاذيف تظهر وسط تلاطم الأمواج، وها هو القارب يبدو على إحدى الأمواج. واقتربت اوقوبالا التي تلفحت بمنديل وقد برز نتوء بطنها، اقتربت من الأمواج المتلاطمة وصارت تنتظر وصول يديغاي إلى الشاطئ. قذف الموج بدفعة قوية بالقارب إلى مكان ضحل. وبلمح البصر قفز يديغاي إلى الماء وسحب القارب إلى الشاطئ جاراً إياه وكأنه يجر ثوراً. وعندما انتصب مبتلاً مالحاً اقتربت اوقوبالا وطوقت رقبته المبتلة تحت المعطف البارد المتجمد بيديها.

- لقد عميت عيوني وأنا انظر وأحدق، لماذا تأخرت؟

- انتظرتها طوال النهار ولم تأت إلا في نهايته.

- ماذا؟ أنت خرجت من أجل الميكريه الذهبية؟

- نعم. لقد رجوتها. بإمكانك أن تنظري إليها.

وتناول يديغاي من القارب قربة جلدية ثقيلة مليئة بالماء، فك رباطها وأفرغ ما بها على حصى الشاطئ، ومع الماء سقطت سمكة الميكريه الذهبية. كانت سمكة كبيرة. قوية وجميلة. كانت تضرب بقوة بذيلها الذهبي وهي تتلوى وتقفز وتدور على الحصى الرطب فاغرة فاهاً وردي اللون، وتوجهت نحو البحر محاولة الوصول إلى بيئتها الحبيبة، إلى الشاطئ الذي تتكسر عليه الأمواج. وللحظة قصيرة تسمرت السمكة فجأة وهدأت متوترة محاولة التكيف وهي تنظر بعينيها المستديرتين الصافيتين اللتين لا ترمشان إلى ذلك العالم

الذي وجدت نفسها فيه فجأة. وأبهر النور غير العادي، حتى في أصيل هذا اليوم الشتوي عينيها، ورأت السمكة عيون الناس المنحنين فوقها البراقة، ورأت حافة الشاطئ والسماء، ورأت في الأفق البعيد وراء البحر وخلف الغيوم عند خط الأفق نور غروب الشمس المنطفئة، الذي لم تألفه ولم تطقه. وقفزت السمكة ودارت بقوة جديدة محاولة الوصول إلى الماء. رفع يديغاي سمكة ميكريه الذهبية من تحت غلاصمها. وقال لاوقوبالا:

- مدى يديك. احمليها.

وحملت اوقوبالا السمكة على يديها وكأنها طفل صغير وضمتها إلى صدرها.

- يا لها من مخلوق مرن – قالت اوقوبالا هذا وقد أحست بقوتها الداخلية الشبيهة بقوة النوابض -. إنها ثقيلة كأرومة شجرة. ما أقوى رائحة البحر فيها. ما أجملها. هاك يديغاي أنني مسرورة وراضية جداً. لقد تحققت رغبتي. أطلقها بسرعة إلى الماء...

حمل يديغاي لميكريه الذهبية إلى البحر. وبعد أن خاض قليلاً في الأمواج ترك السمكة تنزل إلى الأسفل. وللحظة قصيرة، بينما كانت السمكة تسقط في الماء لمع في زرقة الجو الكثيفة بريق ذهبي لف السمكة كلها من رأسها حتى ذنبها. وبعد أن لمعت شقت الماء بجسمها المندفع وغاصت إلى الأعماق...

وهبت عاصفة كبيرة على البحر. هاج البحر وماج وراء الجدران، تحت المنحدر وتأكد يديغاي مرة ثانية أن ظهور نذير العاصفة – أمواج ايريك تولكون – ليس عبثاً. الوقت الآن هو أعماق الليل. وتذكر يديغاي، وهو يصغي نصف نائم إلى ضجيج الأمواج على الشاطئ، الميكريه العتيدة كيف حال سمكته الآن؟ المفروض أن لا تكون الأعماق الكبيرة مضطربة كالسطح. الأسماك أيضاً تستمع في ظلام الأعماق – على الغالب – إلى حركة الأمواج

على السطح. وابتسم يديغاي بسرور، ووضع يده وهو يغفو على خاصرة زوجته، وفجأة أحس بدفعات من بطنها. هذا بكره المقبل يعلن عن وجوده. لهذا ابتسم يديغاي سعيداً وغفا.

لو كان يعرف أنه قبل انقضاء سنة ستنشب الحرب وسيتغير كل شيء في حياته، وأنه سيهجر البحر إلى الأبد ولن يبقى منه إلا الذكرى... وخاصة عندما تحل الأيام القاسية...

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء...

في هذه السنة الفظيعة بالنسبة ليديغاي، سنة ١٩٥٣ جاء الشتاء مبكراً. لم يسبق أن حدث هذا في صاروزيكي. في نهاية تشرين الثاني بدأ الثلج يتساقط واشتد البرد. لحسن الحظ أنه جلب البطاطا من قومبيل لبيته ولظريفة وأطفالها في وقت مبكر. لقد عجل بذلك وكأنه كان يعرف. في هذه المرة الأخيرة اضطر للسفر على الجمل، إذ خشي أن تصاب البطاطا بالصقيع إذا حملها في الباحة المكشوفة لقطار شحن عابر. عندئذ لن تنفع في شيء. وهكذا ركب قارانار العاصف بعد أن حزم إلى ظهره كيسين كبيرين، كان من الصعب عليه تدبر أمرهما لولا أن بعض الناس ساعدوه عليهما. حزم أحدهما إلى أحد الجانبين والثاني إلى الجانب الثاني وغطى الأكياس من الأعلى باللباد وسد الأطراف كي لا تنفخ الريح فيها، ثم تربع هو بين الأكياس وانطلق مطمئناً على ظهر قارانار العاصف عائداً إلى بيته. كان يجلس على قارانار وكأنه جالس على ظهر فيل. هكذا تصور يديغاي نفسه. حتى في ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف شيئاً عن أفيال الركوب. في ذلك الخريف عرضوا في

المحطة أول فيلم هندي. كل سكان قومبيل من كبيرهم إلى صغيرهم تسابقوا لمشاهدة فيلم سينمائي غريب، عن بلد غريب. عرضوا في الفيلم إضافة إلى الأغاني والرقصات التي لا نهاية لها أفيالاً. وصيادين يصطادون النمور في الغابات وهم ممتطين الأفيال. يديغاي أيضاً شاهد هذا الفيلم. كان مع رئيس النقطة في اجتماع نقابي عام باعتبارهما مندوبين عن أهل أم العواصف، وهناك بعد انتهاء الاجتماع عرضوا عليهم في نادي المحطة الفيلم الهندي. ومن هنا كانت البداية. صاروا يخرجون من السينما فتدور أحاديث مختلفة وصار عمال السكك الحديدية يستهجنون كيف يركب الهنود الفيلة. وقد قال أحدهم معلقاً بصوت عال:

- ما لكم تستهجنون لهذه الفيلة. بماذا يقل قارانار يديغاي العاصف عن هذه الفيلة؟ حمل عليه وتراه كيف يندفع مثل الفيل.

فعلقوا من حوله:

- فعلاً. بالضبط.

- ما هو الفيل – إضافة صوت آخر – الفيل لا يعيش إلا في البلاد الحارة. ليجرب الشتاء عندنا في صاروزيكي. أنه سيولي الأدبار. أين هو من قارانار.

- اسمع يديغاي. اسمع يا عاصف. لماذا لا تنصب على قارانار حجرة كالتي ينصبونها في الهند على الأفيال؟ هكذا ستركب الجمل وكأنك ثري محلي.

ضحك يديغاي. كان الأصدقاء يمرحون معه. ومع ذلك كان يسره سماع هذه الكلمات عن فحله الشهير...

ولكن يديغاي قاسى وتألم في ذلك الشتاء بسبب قارانار هذا نفسه...

حدث هذا أثناء البرد. في ذلك اليوم باغته أول سقوط للثلج في الطريق. كان الثلج قبل ذلك قد تساقط عدة مرات ولكنه ذاب بسرعة أما في هذه المرة

فقد كان الثلج شديداً أيما شدة. لقد أطبقت السماء فوق صاروزيكي بغيوم داكنة وصارت الريح تعصف، والثلج صار يتساقط ندفاً أبيض كثيفاً وثقيلاً. ملتفاً كالزوبعة. لم يكن الجو بارداً، بل كان رطباً ثقيلاً. والمهم أنه لم يكن بالإمكان تمييز أي شيء بسبب الثلج. ما العمل؟ وفي صاروزيكي لا توجد أية محطات على الطريق يمكن للمرء أن ينتظر فيها انقضاء الطقس السيء. لم يبق إلا شيء واحد، وهو الاعتماد على نباهة قارانار العاصف. فهو يجب أن يوصله إلى البيت. لذا أعطى يديغاي فحله مطلق الحرية، ورفع هو ياقته وشد قبعته ورفع فوقها قبعة المعطف وجلس بصبر محاولاً تمييز الأشياء حوله: ستار من الثلج لا يمكن للبصر اختراقه، ولا شيء غيره... وقارانار يسير في هذه الدوامة دون أن يقلص خطواته يبدو أنه فهم أن صاحبه ليس الآن سيده، ولذلك جلس بصمت وهدوء على الرحل وهو لا يأتي بأية حركة تعلن عن وجوده. كان يجب أن يتمتع قارانار بقوة جبارة حتى يستطيع أن يعدو في السهب بهذا الحمل عبر الثلوج. لقد حمل صاحبه على ظهره بجبروت وهو يتنفس أنفاساً حارة قوية ويرغي ويزأر كالوحش، وأحياناً يطلق أنيناً طويلاً وهو يسير بلا كلل ولا توقف عبر الثلج المتطاير بعكس اتجاه سيره...

بدا الطريق ليديغاي طويلاً جداً: «ليتنا نصل بسرعة». فكر بهذا وصار يتصور لحظة وصوله، وقلقهم عليه في البيت: ماذا حل به في هذا الطقس السيء. اوقوبالا تخاف عليه ولكنها لا تعلن عن ذلك بصراحة. فهي ليست من النساء اللواتي يصرحن بكل ما في أفكارهن. ربما ظريفة تفكر أيضاً: ماذا جرى له؟ حتماً تفكر. لكنها طبعاً لا تنبس بكلمة حول هذا، وتحاول بقدر المستطاع أن لا تقع عيناه عليها وتتهرب من أي لقاء أو حديث منفرد معه. مم تتهرب؟ وما هو الشيء السَّيِّئ الذي حدث؟ يديغاي لم يقل كلمة ولم يأت تصرفاً يمكن أن يكون سبباً لأن يظن أي شخص كان أن هناك شيئاً ما غير طبيعي. فالأمور كما كانت في السابق، كذلك هي الآن. كل ما في الأمر أنهما،

وقد التقيا وترافقا في الحياة التفتا فجأة لِينظُرا إن كانا يسيران في الطريق الصحيح أم لا... وتابعا سيرهما. هذا كل شيء. أما ما يقاسيه أثناء ذلك، فهذه مأساته... هذا قدره – يبدو أنه كتب له أن يقع بين نارين. يجب ألا يقلق هذا أحداً، فما يحدث له وما تعانيه روحه المعذبة هو من شأنه. ما شأن الآخرين به وبما ينتظره في المستقبل. فهو ليس طفلاً صغيراً، وهو نفسه سيتدبر أمره وسيحل هذه العقدة المستعصية التي عقدها هو أشد وأمتن...

كانت هذه الأفكار أفكاراً فظيعة معذبة ولا مخرج منها. ها هو الشتاء قد بدأ في صاروزيكي، وهو ما يزال لا يستطيع أن ينسى ظريفة ولا يستطيع أن يتخلى ولو بأفكاره عن اوقوبالا. ولشفائه كان بحاجة إلى الاثنتين معاً، وهما، وقد أدركتا على ما يبدو هذا ولحظتاه، لم تحاولا استعجال الأمور مساعدة منهما كي يحسم أمره بسرعة. كانت الأمور في ظاهرها كما كانت دائماً علاقات طبيعية بين نساء البيتين وأطفالهما، وكأنهما أسرة واحدة تكبر معاً. أطفالهم يلعبون سوية في النقطة – في هذا البيت تارة وفي البيت الآخر تارة أخرى... هكذا مر الصيف وهكذا انقضى الخريف...

أحس يديغاي العاصف بنفسه يتيماً بائساً في وحدته وسط هذه العاصفة الثلجية. ولا أحد حوله. قارانار وحده كان ينفض عن رأسه الثلج المتراكم ويحطم أثناء عدوه الصمت برغائه وزئيره. كان وضع صاحبه في هذا الطريق بائساً. لم يستطع يديغاي أن يفعل شيئاً ولم يستطع أن يهدأ وأن يقف عند قرار حاسم غير مشروط. لم يكن يستطيع أن يكاشف ظريفة بصراحة ولم يستطع أن يتخلى عن اوقوبالا، فبدأ يلوم ويؤنب نفسه بأقذع الكلام: «حيوان مثل جملك. حقير، كلب، مجنون» وبنفس الروح مزج هذه الكلمات بشتائم بذيئة معنفاً نفسه مهدداً إياها ولائماً كي تعود إلى رشدها وتستفيق وتتوقف... لكن شيئاً لم يفد معها... فكان مثل ذلك الانهيار الذي يتحرك من مكانه... والفرحة الوحيدة التي كانت تنتظره هي الأطفال. لقد قبلوا به كما هو

دون جدال، ولم يطرحوا عليه أية مشاكل. كيف يساعدهم، ماذا يحضر لهم، ماذا يفعل في البيت – أنه مستعد لفعل كل شيء من أجلهم بكل سرور، إنه هو من يجلب لهم الآن البطاطا من أجل الشتاء في كيسين كبيرين محمولين على قارانار. وقد مونهم بالوقود أيضاً...

كان التفكير بالأطفال ملاذاً ليديغاي. عند التفكير بهم كان يحس بالانسجام التام مع نفسه. صار يتصور كيف سيصل إلى أم العواصف وكيف سيخرج الصبيان من البيت عندما سيسمعان بوصوله، ولن يعيقهما شيء رغم الثلج المتساقط، كيف سيقفزان حوله بصراخهما العالي: «جاء العم يديغاي، على قارانار، وجلب معه البطاطا!». صار يتخيل كيف سيأمر الجمل بصرامة وجبروت كي يستنيخ، وبعد ذلك يهبط عن ظهر قارانار وهو مغطى بالثلج، فينفض الثلج ويجد الفرصة من خلال انشغاله ليمسح بيده على رؤوس الصغار. أفلن تخرج ظريفة في هذه الأثناء، إذا كانت في البيت؟ لن يقول لها شيئاً متميزاً وهي لن تقول شيئاً. سينظر إلى وجهها فقط وسيرضيه ذلك، ومن ثم سيعود إلى مرضه وإلى حزنه. لكن أين المهرب من هذا. والصغار يدورون حوله لا يفارقونه، أو يحتمون به إذا كان الأمر خطيراً إذ يخافون من رغاء الجمل، وعندما يزول الخوف يحاولون مساعدته. وهذه مكافأته على كل عذاباته...

كان ضمنياً يستعد للقاء القريب مع أطفال أبي طالب ففكر سلفاً: ماذا سيقص عليهم في هذه المرة، ماذا سيقص على مستمعيه الذين لا يشبعون، كما أسماهم هو. هل سيحدثهم ثانية عن بحر آرال؟ إن أحب الحكايات هي أي حدث من أحداث البحر التي يقومون هم فيما بعد بتأويلها ليشركوا بها والدهم، وبذلك يتابعون، دون أن يعرفوا، إقامة الصلة به وبذكراه... لكن كل ما عرفه يديغاي وسمعه عن حياة البحر قد نضب، ورواه لهم أكثر من مرة باستثناء قصة سمكة الميكريه الذهبية. ولكن كيف يقص عليهم هذه القصة؟ من سيفهم هذه القصة مثله هو العارف بما كان يقف وراء هذه الحادثة القديمة.

هكذا قطع طريقه في هذا اليوم المثلج. طوال الطريق لم تفارقه الشكوك والأفكار... وطوال الطريق كان الثلج يتساقط.

وابتداء من هذا الثلج حط الشتاء رحاله في صاروزيكي مبكراً قارساً منذ خطواته الأولى.

مع بداية البرد عاد قارانار العاصف إلى جنونه وإلى عنفه، واستفاقت عنده ثانية قوة الذكورة، فلا شيء ولا أحد يقدر الآن أن يتجرأ على حريته. حتى صاحبه – فقد آن الأوان ليتراجع أمامه، فكل خطوة قد يتخذها هي مغامرة محكوم عليها بالفشل.

في اليوم الثالث بعد سقوط الثلج كنست ريح صقيعية عاصفة الثلج عن صاروزيكي وحل مباشرة على السهب جو ضبابي معتم قارس البرودة. كان صرير الخطى على صفحة الصقيع يسمع وبوضوح لمسافة بعيدة، وأي صوت أو حفيف كان ينتقل بوضوح كامل، وكانت أصوات القطارات تسمع لمسافة بضعة كيلو مترات. عندما سمع يديغاي عند الفجر وهو بين النائم واليقظ رغاء قارانار العاصف وصوت سياج الحظيرة ذي الصرير الذي كان يهزه قارانار ويكسره، أدرك المصيبة التي عادت لتزوره في داره. ارتدى ملابسه بسرعة وخرج في الظلام واتجه نحو الحظيرة وصار يصرخ بصوت تجرح له بلعومه بسبب الهواء الصقيعي.

- ماذا بك؟ ماذا بك؟ أقامت القيامة؟ أعدت لتنشف دمي من جديد آه يا حيوان. اخرس. أقول لك اخرس. أراك في هذا الشتاء قررت ممارسة هذا الفعل باكراً. لا تشمت الناس بنا.

لكن كلماته ذهبت مع الريح عبثاً. فالجمل الذي هيجته شهوته المستيقظة لم يكن ينوي سماعه. كان يطالب بماله، ويزمجر وينخر ويصر أسنانه مرهباً وهو يكسر السياج.

وبدل صاحبه لهجته من الغضب إلى العتاب:

- إذن، شممت الرائحة؟ الأمر واضح. وتريد الآن فوراً أن تسرع إلى القطيع. شممت أن ناقة فتية قد جاءتها الرغبة. أيه، أيه. ولكن لماذا جعلكم الله، يا معشر الجمال، تتذكرون فجأة ومرة واحدة في السنة ما يمكنكم القيام به كل يوم بلا ضجيج ولا فضائح؟ وفي هذه المرة لا يعود لأحد شأن بكم وكأن القيامة قد قامت!..

قال يديغاي العاصف كل هذا لمجرد الشكليات، لكي لا يكون مغلوباً على أمره. فهو يعرف جيداً عجزه إذ ليس بيده شيء يفعله، ولن يقارع الهواء – وفتح الحظيرة. ما كاد يحرك بابها الثقيل العالي المصنوع من العيدان الذي كن مربوطاً بسلسلة حديدية متينة، حتى اندفع قارانار ضارباً الباب وجرى يعدو في السهب برغاء وزمجرة عنيفين مطلقاً سيقانه الشديدة للريح، هازاً سناميه المتينين السوداوين. وبلحظة واحدة اختفى عن الأنظار مطيراً وراءه غيوماً من الثلج – تفو. بصق صاحبه في إثره وأضاف بحرقة: اركض، أركض أيها المجنون، وإلا تأخرت.

كان على يديغاي أن يخرج إلى العمل صباحاً. لذلك اضطر للخضوع العربدة قارانار. ولو كان يعرف إلى ما سينتهي كل هذا ما كان ليطلقه مهما كلف الأمر، حتى لو انفجر. ولكن من كان يستطيع أن يتدبر أمور البيت وفيه قارانار المجنون من دونه؟ فليذهب. وكان يديغاي يأمل أن يسرح الجمل حراً فيبرد دمه الحار ويهدأ...

عند الظهر جاءه قازانغاب وقال له وهو يضحك متعاطفاً:

- حالك سيئة يا باي. لقد كنت لتوي في المرعى. وقارانارك قد ذهب، كما أظن، في رحلة طويلة. فالنوق المحلية قليلة عليه.

- هرب؟ إلى أين؟ لا تهزأ مني. وقل لي بجد.

- ما هو غير الجدي في هذا؟ أقول لك أنه اتجه إلى القطعان الأخرى لقد شم شيئاً ما. ذهبت لألقي نظرة وأرى كيف الأحوال هناك فما كدت اجتاز

البركة الكبيرة حتى رأيت شيئاً يعدو والأرض ترتج من تحته – إنه قارانار. عيونه محملقة، يرغي بكل ما أوتي من قوة، لعابه يسيل من فمه وهو مندفع كالقطار. وخلفه عاصفة كاملة. قلت سيدوسني، لكنه مر من جانبي وكأنه لا يرى أمامه إنساناً. ذهب باتجاه مالاقومديتشاب. فهناك في المنحدر يوجد قطيع أكبر من قطيعنا وهو لا يجد المتعة هنا. الآن يحتاج إلى التوسع، فالحيوان في ذروة قوته.

انزعج يديغاي بحق. وتصور كم من الإزعاجات والعذاب سيسبب له هذا الجمل.

هدأ قازانغاب من روعه:

- لا تهتم ولا تنزعج. سيجد هناك فحولاً جيدين، فيوقفونه عند حده، ويعود إلى بيته كالكلب المضروب. أين سيذهب.

في اليوم الثاني صارت تتوارد الأخبار وكأنها بلاغات صادرة عن الجبهة حول أعمال قارانار العاصف القتالية. لم تكن الصورة المتشكلة مطمئنة. فلا يكاد يتوقف قطار في أم العواصف حتى يتسابق السائق والوقاد والمفتش ليرووا القصص عن عبث وتخريب ومذابح قارانار التي يلحقها بقطعان النقاط الأخرى. قالوا أن قارانار ضرب في نقطة مالاقومديتشاب فحلين من الجمال حتى الموت وساق أمامه إلى السهب أربع نوق، لم يستطع أصحابها تخليصها من قارانار إلا بشق الأنفس، وكان الناس يطلقون العيارات النارية في الهواء. وفي مكان آخر اقتاد مع إحدى النوق صاحبها الذي كان يمتطيها. وانتظر صاحبها الأبله حوالي الساعتين معتقداً أن هذا الفحل سيطلق الناقة من نفسه بسلام بعد أن يقضي وطره، بينما هي لم تشأ أن تتخلص بنفسها من هذا الشقي. وعندما بدأ الرجل بالاقتراب من الناقة ليذهب بها إلى بيته هجم عليه قارانار كالوحش وطرده وكاد يعفسه لولا أن الرجل استطاع أن يقفز إلى حفرة عميقة، فاختبأ هناك كالفأر لا حياً ولا ميتاً. وعندما استعاد

وعيه وخرج من الوهدة في مكان بعيد عن مكان لقائه مع قارانار العاصف أسرع إلى بيته سعيداً لبقائه حياً.

ووصلت بواسطة هاتف صاروزيكي الشفهي أنباء مماثلة عن غزوات قارانار العنيفة، ولكن أكثر الأنباء خطورة ورهبة وصلت بشكل مكتوب من نقطة آك – موريناك. لقد وصل هذا الشيطان إلى هناك. آك – مورريناك وراء محطة قومبيل. وقد أرسل من هناك شخص اسمه قوسبان رسالة. وهاكم ما كتب في هذه الرسالة المشهودة:

«سلام عليك، يديغاي آغا. أنت رجل مشهور في صارى اوزيكي إلا أن عليك أن تستمع إلى أشياء غير سارة. كنت أظنك رجلاً أكثر عزماً. لماذا أطلقت وحشك الكاسر قارانار؟ ما كنا لنتوقع منك ذلك. لقد نشر بيننا رعباً شديداً، وآذى فحول جمالنا وخطف ثلاثاً من أفضل النوق، إضافة إلى أنه لم يأت إلى هنا وحده، بل ساق معه ناقة وعليها رحلها، ويبدو أنه طرد صاحبها في طريقه، وإلا فلماذا الرحل على هذه الناقة القادمة. اختطف قارانار النوق الثلاث وذهب بهن إلى السهب ولا يسمح لأحد بالاقتراب منهن – لا لإنسان ولا لحيوان. هل يجوز هذا؟ لقد مات أحد فحولنا الفتيان إذ هشمت أضلاعه. أردت أن أرهب قارانار بإطلاق عيارات نارية في الهواء لاستعادة نوقنا ولكن هيهات. فهو لا يخاف شيئاً، مستعد لنهش من يشاء حتى الموت، إذا كان سيمنعه من ممارسة عمله. أنه لا يأكل ولا يشرب ويمتطي هذه النوق واحدة تلو الأخرى، والأرض تهتز من تحته. النظر إليه وهو يقوم بذلك بوحشية شيء مقرف. يقوم بذلك وهو يزأر ليسمع السهب كله، وكأن القيامة قد قامت. إنني أتصور أنه مستعد لممارسة ذلك مئة سنة متلاحقة دون راحة. أنا لم أر في حياتي مثل هذا الوحش. الجميع في قريتنا خائفون، فالنساء والأطفال يخافون الابتعاد عن بيوتهم. لذلك أطلب منك الحضور دون إبطاء لأخذ قارانار. وأعطيك مهلة. إذا لم تحضر خلال يوم واحد وتخلصنا من هذا

الوسواس الشيطاني فلا تغضب يا عزيزي آغا. بندقيتي من العيار الكبير. تقتل دباً. سأطلق النار على رأسه البغيض بحضور شهود وتنتهي القضية، وسأرسل لك جلده مع قطار بضاعة عابر. ولن أقول هذا قارانار العاصف. وأنا لا أتراجع عن كلامي. تعال ما دام لدينا ما يكفي من الوقت.»

أخوك الصغير من آك – موريناك

قوسبان

هكذا سارت الأمور. ومع أن كاتب الرسالة رجل غريب، إلا أن التحذير فيها جدي تماماً. تشاور يديغاي مع قازانغاب وقررا أن على يديغاي التوجه إلى نقطة آك – موريناك فوراً.

الكلام سهل، لكن الفعل ليس بهذه البساطة. كان يجب الوصول إلى آك – موريناك والقبض على قارانار في السهب والعودة في هذا البرد، بينما كان يمكن أن تهب العاصفة الثلجية في أي وقت. أسهل شيء أن يرتدي ملابس دافئة ويركب قطار شحن عابر ومن هناك على جمل. ولكن من يعرف كم ابتعد قارانار مع حريمه في السهب. بناء على الرسالة يمكن الحكم أن أهل آك – موريناك على درجة من الغضب لدرجة أنهم لن يعطوه جملاً، لذلك قد يضطر أن يلاحق قارانار في السهب سيراً على الأقدام.

في الصباح انطلق يديغاي في رحلته. جهزت له اوقوبالا زوادة الطريق، وارتدى هو ملابس دافئة، ففوق السروال المبطن والمدروز والسترة السمكية ارتدى فروة من جلد الغنم ولف ساقيه باللباد وعلى رأسه ارتدى قبعة من جلد الثعالب ذات واقية للأذنين والرقبة، بشكل يمنع الهواء من الجانبين ومن الخلف، فكل رأسه ورقبته ملفوفة بالفراء وعلى يديه قفازات من جلد الغنم. عندما كان يشد الرحل على الناقة التي قرر الذهاب إلى آك – موريناك عليها ركض إليه أبناء أبي طالب وأعطاه داول تلفيعة عنق صوفية من صنع يدوي، وقال له:

- عم يديغاي، قالت أمي خذ هذه كي لا تبرد رقبتك.

- رقبة؟ قل حنجرة.

واحتضن يديغاي لشدة فرحة الصغيرين وقبلهما بانفعال شديد لدرجة أنه لم يجد كلمات أخرى يقولها. فرح فرحاً شديداً كطفل صغير إذ كان هذا أول إشارة اهتمام من جانبها.

عند مغادرته قال للصغار:

- قولوا لأمكم أنني سأعود قريباً، غداً إن شاء الله. لن أتأخر أبداً. وسنجتمع معاً ونشرب الشاي سوية.

كم كانت رغبة يديغاي العاصف شديدة بالوصول سريعاً إلى آك – مويناك المشؤومة وبالعودة، لكي يرى ظريفة في أسرع وقت، وكي ينظر إلى عينيها ليتأكد من أن هذه التلفيعة التي طواها بعناية وخبأها في جيب السترة الداخلي لم تكن مجرد تلميح عرضي. عندما انطلق وبعد أن قطع مسافة لا بأس بها، بالكاد أمسك نفسه عن العودة إلى الوراء. فليتدبروا أمرهم مع قارانار المجنون وليكن الله معهم. فليقتله قاسبان وليرسل جلده. فكم يمكن مدارة جمل متوحش؟. فلينل عقاب القدر. فليكن. الواقع أن مثل هذه الانفعالات الحارة قد تكون موجودة ولكنه يجب أن يخجل قليلاً. لقد أدرك أنه سيكون مجنون المجانين، وسيكون عاره كبيراً بين الناس، وأمام اوقوبالا بالدرجة الأولى، بل وأمام ظريفة، وبرد. اقنع نفسه أن أمامه طريقة واحدة فقط للتغلب على نفاذ صبره وهي الوصول بسرعة والعودة بسرعة.

وهكذا حث الخطى. كان الجو بارداً جداً، وكانت الريح قاسية غير متقلبة، فصار الرذاذ المتجمد بتراكم على وجهه ويغطي فرو قبعته المصنوعة من جلد الثعلب بمسحوق جليدي. وإلى ما يشبه هذا المسحوق الأبيض الجليدي كانت تتناهى أنفاس الناقة السمراء لتغطي كل رقبتها بهذا الرذاذ المتجمد. هذا يعني أن الشتاء في ذروة قوته. المساحات يغطيها الضباب. عن قرب لا يبدو

الضباب واضحاً ولكن إذا نظرت إلى البعيد، ترى الضباب يحد من رؤيتك. وتشعر أن هذا الضباب يسير دائماً وبنفس سرعتك. فكلما اقترب المسافر منه، يبتعد هو عنه. موحشة وقاسية صاروزيكي في الشتاء وهي مكسوة بهذا البياض البارد.

سارت الناقة السريعة رغم فتوتها سيراً حسناً تحت راكبها، سارت تنهب الأرض نهباً. لكن هذا المسير بالنسبة ليديغاي وهذه السرعة كانا غير كافيين. لو كانت قارانار لكانت الرحلة مختلفة تماماً أنفاس قارانار أقوى وخطواته أوسع بما لا يقارن. فليس عبثاً ما قالوه منذ قديم الزمان:

بم يمتاز الجواد عن الجواد؟

بخطواته الأفضل يمتاز

بم يمتاز البطل عن البطل؟

بعقله الراجح يمتاز

الرحلة طويلة جداً والمسافر وحيد. كان يمكن أن يضجر يديغاي في طريقه لولا وجود التلفيعة التي أهدته إياها ظريفة. طوال الطريق كان يحس بوجود هذا الشيء الذي قد يبدو شيئاً سخيفاً. طوال حياته التي عاشها ما كان يتصور أن مثل هذا الشيء الصغير سيدفئ قلبه إذا ما جاءه من امرأة يحبها. طوال طريقه كان يديغاي راضياً وفرحاً بهذا. كان يمد يده إلى عبه ويتلمس التلفيعة ويبتسم سعيداً. وفكر بعد ذلك: كيف سيعيش بقية الحياة؟ فوجد أمامه طريقاً مسدوداً تماماً ما العمل؟ الإنسان يجب أن يعيش وهو يرى هدفاً نصب عينيه ويرى الطريق إلى هذا الهدف، ولكن عنده لم يكن يوجد لا الهدف ولا الطريق.

غشت سحابة قاتمة نظر يديغاي العاصف، مثل مساحات صاروزيكي الموحشة التي تخيم عليها غشاوة صقيعية قاتمة. لم يجد يديغاي الجواب، فتألم وتحسر وانهارت معنوياته، وعاد ليؤمل نفسه بأمل مستحيل المنال...

أحياناً كان يشعر بالخوف الحقيقي في هذه الوحدة الموحشة، لماذا كتبت له هذه الحياة؟ لماذا جاء إلى صاروزيكي؟ ولماذا ظهرت في أم العواصف هذه الأسرة البائسة التي يطاردها القدر؟ لو لم يحدث كل هذا، لما عرف أية هزات ولعاش حياة مريحة مطمئنة.

ولكن لا. فهو إنسان غير قادر على تحمل المسؤولية، ويريد المستحيل... إضافة إلى ذلك جاءت قصة قارانار المجنون هذا. هذا أيضاً عبء ثقيل. جزاء من الله. حظ. فعلاً، وبلا مزاح، حظه سيء في الحياة...

وصل يديغاي إلى آك مويناك في المساء تقريباً. لقد أرهق الطريق الناقة، فقد كان طويلاً والطقس شتوي.

آك مويناك نقطة مثل أم العواصف، إلا أن ماءهم من أرضهم – ماء بئر. وليست هناك أية مميزات أخرى – صاروزيكي نفسها.

عندما اقترب يديغاي من آك – مويناك سأل شخصاً صادفه عند مدخل القرية عن مكان قاسبان. فأجابه ذلك أن قاسبان الآن في العمل مناوب النقطة. فاتجه يديغاي العاصف إلى هناك. وصل إلى حجرة المناوبة وكان يهم بالترجل عندما ظهر – وكأنه كان ينتظره على العتبة شخص متوسط القامة حيوي يبتسم بخبث، كان يرتدي معطفاً من الفرو بدا وكأنه لرجل آخر، ويحتذي لباداً مهترئاً وعلى رأسه قبعة قديمة من تلك التي تغطي الأذنين والرقبة وقد أمالها على أحد الجانبين.

- آ - يديغاي آغا. عاصفنا آغا العزيز. – تعرف إلى يديغاي فوراً حال هبوطه عن العتبة – وصلت إذن، ونحن كنا ننتظرك، نفكر ونخمن سيأتي أم لن يأتي...

- حاول ألا تأتي – ضحك يديغاي – عندما تستلم مثل هذه الرسالة الرهيبة.

- وهل هناك حل آخر؟ الرسالة نصف مصيبة، يديغاي آغا. الرسالة مجرد ورقة. أما هنا فالقضية أن عليك تخليصنا فوراً من قارانار، إذ أننا هنا وكأننا في حصار. ليس لنا أي مخرج إلى السهب. ما أن يرى أحداً من بعيد حتى يركض كالمسعور مستعداً لسحقه. يا له من طفيلي. اقتناء مثل هذا الفحل شيء مخيف – صمت قليلاً وهو ينظر إلى يديغاي الذي ما زال على ظهر الناقة، ثم أضاف: - ولكني لست أدري كيف ستتدبر أمره، بأيد عزلاء؟

- كيف بأيد عزلاء؟ هذا هو سلاحي. – وتناول يديغاي من كيس محمول على الناقة سوطاً ملفوفاً على قبضته.

- هذا السوط؟

- وهل ترى أنه يجب حمل مدفع قبالة جمل؟

- نحن هنا بالبنادق لا نتجرأ عليه. طبعاً، ربما يتعرف عليك باعتبارك صاحبه وعندئذ... ولكن أشك. فهو لا يميز شيئاً...

- سنرى. لماذا نضيع الوقت. المفروض أنك أنت قوسبان. إذا كنت قوسبان فأوصلني وأرني أين هو وأترك الباقي علي.

- ليس المكان قريباً – أجابه قوسبان وصار ينظر حوله، ثم نظر إلى ساعته – يديغاي آغا، الوقت الآن متأخر. ستظلم قبل أن نصل إلى هناك، بعد ذلك ماذا سنرى في الليل. لا. هكذا لا يجوز. فمثلك من الناس لا يمكن أن تكسبهم ضيوفاً عندك متى تشاء. كن ضيفنا. وفي الصباح – كما تشاء.

لم يتوقع يديغاي هذا التحول. فقد رتب حساباته أن يعود في نفس الليلة – إذا وجد قارانار – إلى قومبيل. وهناك يبيت ليلته عند معارفه قرب المحطة، وفي الصباح الباكر يتجه إلى البيت. عندما لاحظ قوسبان أن يديغاي ينوي الذهاب عارضه بإصرار.

- لا، يديغاي آغا. هذا غير ممكن. عفواً على الرسالة. ولكن لم يكن أمامنا مخرج آخر. لم يبق لنا عيش. إلا أنني لن أتركك. فقد يقع لك شيء –

لا سمح الله – ليلاً في هذا السهب المقفر، وأنا لا أريد أن يسود وجهي في صاروزيكي كلها. ابق، وفي الصباح أفعل ما تشاء. هذا بيتي، في الطرف. أنا ما زال أمامي ساعة ونصف من المناوبة. كن كما في بيتك. خذ راحتك. اربط الناقة في الحظيرة. هناك يوجد علف. والماء عندنا متوفر، بقدر ما تشاء.

أظلمت الدنيا بسرعة في ذلك اليوم الشتوي. لقد كان قوسبان وعائلته أناساً متميزين: أنه العجوز وزوجته وصبي في الخامسة من عمره (البنت الكبرى تدرس في مدرسة قومبيل الداخلية)، وقوسبان مشغول فقط بإرضاء الضيف. كان البيت مدفأ أكثر مما يجب وحيوي بشكل متميز. في المطبخ كانوا يطهون لحم ذبيحة شتوية، وفي هذه الأثناء جلسوا يشربون الشاي. الأم العجوز نفسها كانت تسكب الشاي ليديغاي العاصف وهي تسأله عن أسرته وأطفاله وعن حياتهم ومعاشهم وعن الطقس، ومن أين هو ومن هم قومهم، وكانت هي بدورها تقص عليه متى وكيف جاؤوا إلى نقطة آك – مويناك. كان يديغاي يتجاوب بسرور مع حديث العجوز ويمتدح السمن الأصفر الذي كان يغمس به قطع الخبز الساخن ويلتهمه. سمن البقر في صاروزيكي شيء نادر، سمن الغنم والماعز والجمال أيضاً شيء لذيذ، لكن سمن البقر يظل ألذ. أرسل لهم سمن البقر أقرباؤهم من الورال. كان يديغاي وهو يغمس الخبز الساخن بالسمن يؤكد أنه يشم رائحة أعشاب المروج، وأعجبت العجوز بكلامه فأخذت تحدثه عن وطنها وعن يايتسكي(١) وعن الأراضي وعن الأعشاب والغابات والأنهر الموجودة هناك...

في هذه الأثناء جاء رئيس النقطة – إرليبيس، وقد دعاه قوسبان بمناسبة قدوم يديغاي العاصف. ومع قدوم إرليبيس بدأ طبعاً حديث الرجال عن العمل

---

(١) بايتسكي – من كلمة «جايك» (واسع، فسيح). هكذا كان الكازاخيون يدعون في الماضي نهر اورال.

والنقل وعن الثلج الذي يتراكم على الطريق الحديدية. كانت ليديغاي معرفة سابقة بسيطة بارليبيس، فقد كان هذا الأخير يعمل على الطريق الحديدية، والآن قدر له أن يتعرف عليه عن كثب. كان إرليبيس أكبر من يديغاي وقد أصبح منذ نهاية الحرب رئيساً لنقطة آك – موريناك، ويبدو أنهم يحترمونه في النقطة.

كان الليل يسدل ستوره خلف النوافذ، وكما هو الحال في أم العواصف كانت القطارات تمر بضجيجها والزجاج يطرق بين الفينة والفينة والريح تصفر عبر شقوق النوافذ. الطريق الحديدية هي نفسها وفي صاروزيكي ذاتها إلا أن المكان مكان آخر. ويديغاي كان وسط أناس آخرين. فهو هنا ضيف مع أنه جاء من أجل قارانار المهووس. ولكن مع ذلك استقبلوه وكرموه.

مع مجيئ إرليبيس أحس يديغاي نفسه في مكانه المناسب. إرليبيس محدث ماهر، يعرف التاريخ الكازاخي بشكل جيد، وسرعان ما انتقل الحديث إلى الأزمنة القديمة، إلى مشاهير الناس وإلى القصص المعروفة. انسجم يديغاي في تلك الأمسية مع أصدقائه الجدد في آك – موريناك، وما خلق هذا الانسجام ليس فقط الأحاديث، بل كذلك طيبة المضيف والمضيفة والضيافة والشراب. كانت توجد عندهم فودكا. شرب منها يديغاي بعد البرد والطريق نصف كأس وأكل من القاورما المملحة – شحم سنام جمل فتي – التي قدمت على مائدة مستديرة منخفضة، فانسابت في جسمه الغبطة فهنئت وانبسطت نفسه. انتشى يديغاي العاصف بعض الشيء فدبت فيه الحيوية وصار يبتسم. وإرليبيس أيضاً سمح لنفسه بشرب قدح إكراماً للضيف وأحس بالانتعاش، لذلك طلب من قوسبان:

- قوسبان، كرمى لله، اذهب وأحضر لي الدومبرا من بيتي.

- هذا تمام – أيد يديغاي – منذ صغري أحسد أولئك الذين يحسنون العزف على الدومبرا.

- لا تتوقع عزفاً جيداً. لا أعدك بذلك، يديكيه. لكنني سأتذكر شيئاً ما كرمى لك – قالها إرليبيس وهو يخلع سترته ويشمر سلفاً أكمام قميصه.

خلافاً لقوسبان كثير الحركة وكثير الكلام كان إرليبيس أكثر تحفظاً. بدينا، ذا وجه كبير. يوحي بالثقة. عندما أمسك الدومبرا بيديه ركز تفكيره وكأنه ابتعد عن الحياة اليومية مسافات كبيرة. هذا ما يحدث عندما يستعد الإنسان لإبراز ميوله المكنونة. نظر إرليبيس وهو يضبط آلته إلى يديغاي نظرة طويلة ذكية، وفي عينيه الواسعتين الجاحظتين السوداوين لمعت نقاط ضوء منعكس، وكأنها تنعكس على سطح البحر. وعندما ضرب على الأوتار وجرت أصابعه الطويلة القابضة على عنق الدوبرا الطويل طول امتداد الذراع استطاع أن يصدر مرة واحدة عنقوداً كاملاً من الأصوات، وفي نفس الوقت صار يشد مفاتيح عناقيد جديدة سيقطفها من أوتار الدومبرا بسخاء مع تطويره للعزف. أثناء ذلك أدرك يديغاي العاصف أن سماع هذه الموسيقى لن يكون سهلاً عليه، إذ أنه التهى قليلاً ونسي نفسه بعض الشيء عند مضيفيه، لكن أصوات الموسيقى الأولى أعادته إلى ذاته وقذفت به من جديد في لجة من الهموم والأحزان. لماذا حدث معه هذا الشيء؟ أيعني هذا أن أولئك الناس الذين وضعوا هذه الموسيقى يعرفون منذ القديم ما الذي سيحدث ليديغاي العاصف، وأية عذابات وقهر كتب عليه؟ وإلا فكيف استطاعوا أن يعرفوا بماذا سيحس عندما سيسمع ذاته في عزف إرليبيس؟. خفق قلب يديغاي وحلقت روحه وصارت تتألم وانفتحت أمامه فجأة كل أبواب العالم – الفرح والحزن والتأمل والرغبات الغامضة والشكوك...

كان إرليبيس يعزف على الدومبرا بشكل ممتاز حقاً. فقد أحيى في الأوتار معاناة الناس القدامى وهو يلقي أنغامه كالحطب الجاف في النار، ليؤجج حرائق الروح. وفكر يديغاي في تلك الساعة وهو يتلمس الملفعة الهدية المخبأة في جيب السترة الداخلي، فكر بأن في هذه الدنيا توجد امرأة يحبها،

ومجرد التفكير بها يشكل بالنسبة له لذة وعذاباً، فكر أن الحياة من غيرها مستحيلة، لذلك سيظل يحبها أبداً حباً مكتوماً غير معلن، حباً لا نهائياً، مهما كلفه ذلك. عن هذا كانت تتكلم الدومبرا بين يدي إرليبيس برنينها وثورتها وسكونها. كانت الأنغام تتالى واحداً إثر الآخر، كل لحن كان يذوب وينسكب في اللحن الذي يليه وروح يديغاي تسبح وكأنها قارب وسط الأمواج – ها هو ذا بأفكاره عند بحر آرال من جديد، تذكر التيارات غير المرئية على طول الشاطئ، يخمن اتجاهاتها من خلال انسياب الماء – وكأنه شعر امرأة طويل كثيف – يسبح مع التيار ويستطيل وهو في مكانه. لقد كان لاوقوبالا ذات يوم مثل هذا الشعر، ينسدل حتى أسفل ركبتيها. عندما كانت تستحم كان شعرها يسبح مبتعداً عنها، مثل انسياب الماء في التيارات البحرية. وهي سعيدة تضحك. لقد كانت سمراء جميلة.

ابتهج يديغاي العاصف واهتزت مشاعره. فقد راقه جداً سماع الدومبرا. وهذا وحده سبب كاف لقطع هذا الطريق الشتوي الطويل في صاروزيكي. «جيد أن قارانار هرب إلى هنا. جاء هو إلى هنا وجرني وراءه. اضطرني إلى المجيء. لكن روحي تتمتع ولو لمرة واحدة بالدومبرا. عظيم إرليبيس. معلم ماهر وأنا لم أكن أعرف...»

جلس يديغاي وهو يستمع إلى عزف إرليبيس يفكر بشؤونه محاولاً النظر إلى حياته من خارجها والارتفاع فوقها كعقاب ينعق فوق السهب ويحلق عالياً بجناحين منشورين على تيار الهواء المتصاعد، فيرى ما في الأسفل. لقد رأى لوحة صاروزيكي الشتوية الرهيبة، وهناك عند منعطف خط السكة الحديدية ترامت كيفما اتفق بضعة بيوت وبعض النيران المشتعلة – إنها نقطة أم العواصف. في أحد هذه البيوت كانت اوقوبالا مع بناتها، وهم الآن نيام. وربما اوقوبالا لم تنم بعد. إنها تفكر وقلبها يحدثها بشيء ما. وفي بيت آخر ظريفة مع أولادها. وهي ليست نائمة على الأغلب. أوضاعها صعبة، وكم

أمامها من المعاناة بعد. الصغار لا يعرفون بعد عن أبيهم. ولكن أين المفر. ليس بالإمكان اجتناب الحقيقة...

تخيل كيف تجري القطارات هادرة في هذه اللحظات من أعماق الليل. أنوارها مشتعلة وخلفها تنطلق سحائب من الثلج. غير بعيد عن ذلك المكان الذي يحل فيه الآن ضيفاً مصغياً إلى عزف الدومبرا، في فراغ هذا السهب المظلم الموحش بين الثلوج والرياح يعبث قارانار المجنون، لا نوم ولا راحة. هذه هي حال الطبيعة. يستجمع القوة طوال العام، كل العام يجمع العلف ويجتره يوماً بعد يوم، وهو يمضغه باستمرار بين فكيه الجبارين، ومن أجل هذا ركبت معدته بشكل ملائم، إذ تجمع أولاً العلف الخشن، ثم تعيده للطحن ثانية، وهذا ما يفعله الجمل في كل أوقاته، إذ يجتر الطعام وهو واقف، وهو جالس، حتى أثناء نومه. وهذا كله من أجل جمع القوة وتركيزها في السنامات، وكلما كانت السنامات أكبر وأسمن وأصلب، كان الشحم فيها أكثر وكان الذكر أقوى في فترة الهيجان الشتوي. عند ذلك لا يؤثر فيه لا الثلج ولا البرد ولا حتى صاحبه، فكم بالأحرى الآخرون. عند ذلك يصبح ضارياً تسكره قوته الجبارة. عندها يكون ملكاً وسيداً لا يتعب ولا يخاف، لا يهمه شيء في الوجود، لا الطعام ولا الشراب، لا شيء سوى إشباع شهوته الكبيرة الجامحة. فمن أجل هذا عاش طوال العام ومن أجل هذا كان يستجمع القوة يوماً بعد يوم، وفي هذه الساعة يجلس يديغاي العاصف ضيفاً في الدفء والراحة يصغي. وفي مكان ما من هذه المنطقة وسط الليل العاصف والثلوج يهوج ويموج قارانار العاصف مخلصاً لنداء الدم، يحرس معشوقاته من كل غريب وبغيرة كبيرة، لا يسمح بالاقتراب منهن لحيوان أو لطير، يزأر بهم زئيراً مدوياً ويخيفهم بلبدة لحيته السوداء.

بلحظة واحدة نقلت الموسيقى أفكاره من الماضي إلى الحاضر ثم عادت بها إلى الماضي، ثم إلى ما ينتظر في الغد. ظهرت عنده أثناء ذلك رغبة

غريبة وهي رد الخطر ودرؤه عن كل ما هو عزيز عليه، عن كل العالم الذي يتصوره لكي لا يصيب السوء أحد. فخلق شعوره الضبابي بالذنب تجاه كل من ارتبط بحياته، خلق لديه حزناً دفيناً...

- هيه، يديغاي – صرخ إرليبيس وهو يبتسم مختتماً عزفه بلمسات رقيقة على الأوتار – أنت تعب حتماً من الطريق. يجب أن ترتاح، وأنا هنا أطنطن على الدوبرا.

- لا أبداً – أجابه يديغاي بصدق، ثم كتف ذراعيه – على العكس. فأنا لم أعش لحظات سعيدة كهذه منذ زمن بعيد. إذا لم تتعب أنت تابع وأكمل هذا المعروف. اِعزِف.

- ماذا تريد أن تسمع؟

- أنت أعرف، يا إرليبيس. فالمعلم يعرف ما يخرج من بين يديه. طبعاً أشياء قديمة فهي أحب إلى النفس، ولست أدري لماذا تأسر الروح وتحث على التفكير.

هز إرليبيس رأسه وقد فهم المراد.

- ها هو قوسبان – وضحك إرليبيس لقوسبان الذي جلس ساكناً على غير عادة منه – عندما يسمع الدومبرا يذوب ويصبح إنساناً آخر. أليس كذلك يا قوسبان؟ ولكن اليوم عندنا ضيوف. لا تنسى. اسكب لنا قليلاً.

- في الحال. – أجاب قوسبان بحيوية، وسكب في قعر الكؤوس جرعة جديدة.

شربوا وأكلوا بعد لحظة انتظار، ثم أخذ إرليبيس الدومبرا بيديه ثانية، واختبر أوتارها أن كانت ما تزال مشدودة كما يجب. وقال ليديغاي:

- ما دمت تحب الأشياء القديمة فسأذكرك بهذه القصة، يا يديكيه. الكثير من الشيوخ يعرفونها وأنت أيضاً تعرفها. بالمناسبة عندكم قازانغاب،

فهو يجيد رواية هذه القصة. هو يرويها، أما أنا فسأعزفها وأغنيها. سأقيم مسرحاً كاملاً. إكراماً لك يا يديكيه. «نداء رايمالي آغا إلى أخيه عبد الخان».

هز يديغاي رأسه شاكراً، بينما مر إرليبيس بأصابعه على الأوتار عازفاً مقدمة للقصة بتقاسيم على الدومبرا، وعادت روح يديغاي المتوثبة إلى أنينها إذ إنَّ كل ما في هذه القصة عاد ليحيى في نفسه بحزن وتفهم متميزين في هذه المرة.

كانت الدومبران ترن وفي أثرها صوت إرليبيس المغني رخيماً منخفضاً مناسباً تماماً لقصة مصير الجيراو[١] الشهير رايمالي آغا المأساوية. كان رايمالي آغا قد جاوز الستين عندما أحب فتاة شابة. مغنية جوالة في التاسعة عشرة من عمرها، اسمها بيغيماي، كانت تبرق كالنجم على طريقه. والأصح هي أحبته. لكن بيغيماي آغا. ومذ ذلك الزمان وقصة الحب هذه تجد أنصارها وخصومها فليس هناك محايدون فيها. البعض لا يتقبلون وينكرون تصرف رأيمالي آغا ويطلبون بأن ينسى اسمه، وآخرون يتعاطفون معه يؤيدونه يتناقلون من فم إلى فم ومن جيل إلى جيل قصة مأساة هذا العاشق المرة، هكذا تعيش حكاية رايمالي آغا. وفي كل الأزمنة يوجد لرايمالي آغا مدينون ومؤيدون.

تذكر يديغاي في تلك السهرة كيف ثار وشتم سنقرى العينين عندما اكتشف بين أوراق أبي طالب كوطيبايف نص «نداء رايمالي آغا إلى أخيه عبد الخان». لقد قيم أبو طالب تقييماً عالياً هذه الحكاية التي أسماها ملحمة غوته السهوب. يبدو أنه عند الألمان، كان يوجد أيضاً شيخ عظيم وذكي أحب فتاة شابة. لقد سجل أبو طالب كلمات أغنية رايمالي آغا عن رواية قازانغاب على أمل أن يقرأها لأبنائه عندما يصبحون شباباً. كان أبو طالب يقول أنه

---

(١) جيراو – مغني السهوب.

توجد بعض الحوادث وبعض أقدار الناس التي تصبح ملكاً للكثيرين، إذ إنَّ السعر المرتفع الذي دفع ثمناً لمثل ذلك الدرس وما تحتويه تلك القصة من الأحداث التي عاشها إنسان واحد يجعلها تهم كل من عاش في ذلك الزمن ومن سيأتي بعدهم بزمن طويل...

كان إرلييبس يجلس أمامه وهو يعزف على الدومبرا بإلهام ويغني وراءها بصوته الجميل. قد يتساءل المرء ما حاجة رئيس النقطة الذي يفترض به أن يعرف أكثر من الجميع الطرق في منطقة معينة من السكة الحديدية، ما حاجته ليحفظ هذه القصة القديمة المحزنة، قصة رايمالي آغا البائس. ما حاجته للتألم وكأنه هو نفسه كان مكانه... هذه هي الموسيقى وهذا هو الغناء الحقيقي. وفكر يديغاي: لو قالوا لي مت وعد إلى الحياة ثانية فأنا في هذه اللحظات مستعد لذلك... أيه. كم أود لو تظل هذه النار متوقدة في نفسي المنيرة الآن، هذه النار التي تجعل الإنسان يفكر بنفسه بوضوح وحرية وعلى أفضل شكل...

لم يستطع يديغاي في هذا المكان الجديد أن يغفو فوراً، مع أنه خرج قبل ذلك ليستنشق الهواء، ومع أن مضيفيه قد أعدوا له مضجعاً مريحاً ودافئاً، ومدوا له فرشاً نظيفاً جديداً، كل بيت يحتفظ بمثله لمثل هذه الحالات. اضطجع قرب النافذة وهو يستمع إلى أزيز الريح وصريرها وإلى أصوات القطارات المارة في هذا الاتجاه أو ذاك... كان ينتظر الفجر كي يقبض على قارانار المجنون وينطلق مبكراً في طريق العودة، فيصل بأسرع ما يمكن إلى أن العواصف حيث ينتظره أطفال بيته، إذ أنه يحبهم جميعاً بدرجات متساوية ولأنه يعيش على هذه الأرض، فقط كي يكونوا سعداء... لقد فكر يديغاي بالطريقة التي ستهدئ فيها قارانار. هذه هي المهمة. وهي ليست كمهام بقية الناس. فالجمل هائج كاسر والناس يخافون حتى من شكله، بل أنهم مستعدون لرميه بالرصاص... ولكن كيف لك أن تفهم حيواناً ما هو الجيد وما هو

السيء... فما جاء به إلى هنا ليس أمراً بسيطاً – هكذا هي الطبيعة. وقارانار ضخم وقوي وليس هناك ما يقف في وجهه، فهو سيدمر كل من يعترض سبيله... ما الحل؟ وكيف يمكن ترويض قارانار؟ يجب تقييده بسلاسل وإبقاؤه طوال الشتاء في الحظيرة وإلا فإن رأسه الأهوج سيطير. إن لم يكن قوسبان فغيره سيقتله، وعندها لن تفعل شيئاً... تذكر يديغاي وهو يغفو، غناء إرليبيس وعزفه على الدومبرا مرة أخرى وفرح جداً لقضائه سهرة كاملة معه. لقد بعثت روحه، عن طريق تلك الدومبرا – واقتحمتها آلام المغني رايمالي آغا الذي قدر له ذات يوم – لشقائه – أن يحب. ومع أنه لم يكن يوجد أي شيء مشترك فيما بينهما، أحس يديغاي في قصة رايمالي آغا أن بينه وبين رايمالي آغا توافقا ما بعيداً وآلاماً متشابهة. فما قاساه رايمالي آغا منذ حوالي مئة سنة يتردد اليوم كالصدى في يدغاي العاصف الذي يعيش في صاروزيكي الصحراوية. وتنهد يديغاي بعمق، وتقلب في فراشه، وهو حزين يتألم بسبب كل هذا الغموض والإبهام في نفسه. أين سيذهب بنفسه وما هو الحل؟ ماذا سيقول لظريفة وبماذا سيجيب اوقوبالا؟ لا. لم يجد مفترق الطرق. لقد ضل وتاه، وعندما غفا أحس بنفسه عند بحر آرال ثانية... دار رأسه من الريح والزرقة التي لا تحتمل... وكما في ذلك الزمان، كما في طفولته اندفع إلى البحر ليتخيل نفسه نورساً يحلق طليقاً فوق الأمواج المتلاطمة. فرح بهذا كثيراً وانتشى وحلق فوق رحاب البحر وهو يسمع طوال الوقت أنين ورنين الدومبرا وغناء إرليبيس عن حب رايمالي آغا البائس، ورأى في حلمه كيف أطلق سمكة ميكريه الذهبية في البحر. كانت سمكة ميكريه مرنة وثقيلة، وعندما كان يحملها إلى الماء أحس بجسد السمكة الحي، أحس كيف كانت تتلهف للإفلات والانطلاق إلى عالمها. سار نحو أمواج الشاطئ والبحر يتدحرج للقائه، وهو يضحك للريح التي تضرب وجهه، ثم فتح يديه، فتألقت السمكة في زرقة الهواء الكثيفة بنور حيوي ملون بألوان قوس قزح وظلت تنزلق طويلاً وهي تسقط في الماء... وعادت لتنساب إليه من مكان ما أصوات الموسيقى... كان هناك من يبكي ويندب حظه.

في هذه الليلة كانت تجوب السهوب ريح صقيعية شديدة، والبرد القارس في ذروة شدته. كان قطيع النوق المؤلف من أربعة رؤوس اختارها لنفسه قارانار العاصف وصار يحرسها، كان هذا القطيع يقف ساكناً في وهدة تحت تلة قليلة الارتفاع، وقد غمر الثلج من جهة الرياح النوق. كانت تقف متراصة في كومة واحدة، يدفئ بعضها بعضاً وقد ألقت برؤوسها على رقاب بعضها. لكن سيدها المجنون الأشعث قارانار لم يتركها بهدوء. فهو طوال الوقت يعدو ويدور حولها وبالقرب منها يرغي حانقاً وكأنه يغار عليها من شيء ما مجهول. هل يغار عليها من القمر الذي كان ينير في الأعالي عبر الغيوم السابحة؟ كان قارانار لا يجد لنفسه مكاناً، يخبط في قشرة الثلج المتجمد وكأنه وحش أسود ذو سنامين ورقبة طويلة ورأس ضخم. ما أكبر الطاقة التي كان يمتلكها. حتى في هذه الحالة كان لا يمتنع عن ممارسة الحب، ولا ينفك يزعج هذه ويتحرش بتلك، عاضاً إياها عضاً شديداً من أفخاذها وكواحلها، مبعداً إياها واحدة عن الأخرى. لكن هذا كان مبالغة منه. فالنهار كان كافياً، حيث كانت النوق تستجيب برضى لرغباته، أما في الليل فهي ترغب في الهدوء. لذلك كانت ترغي هي الأخرى حانقة عليه، وتتهرب من تحرشاته التي لم تأت في وقتها، ولم تنوي التراجع أمامه. كانت تريد أن ترتاح ليلاً.

عند اقتراب الفجر هدأ قارانار العاصف وسكن. وقف قرب إناثه ليزعق بين الفينة والفينة وينظر حوله بوحشية وكأنه بين النوم واليقظة. عند ذلك استلقت النوق على الثلج واحدة بجانب الأخرى وقد مطت رقابها وألقت برؤوسها على الأرض وسكنت لتغفو قليلاً. حلمت النوق بجمال صغيرة، بتلك التي كانت، والتي ستولد من هذا الفحل الأسود الذي جاء إلى هنا من مكان لا تعرفه، فحازها بعد معركة مع الذكور الآخرين. حلمت بالصيف، وبالشيح ذي الرائحة الفواحة وبمداعبات الرضع اللطيفـــة للضروع. والضروع تدغدغها وتخزها في الأعماق المبهمة معلنة عن الحليب القادم... أما قارانار العاصف فظل يحرس، والريح تصفر في لبدته...

الأرض تسيح في فلكها تحدها الرياح العلوية. تسيح حول الشمس وعندما دارت حول نفسها اتخذت أخيراً وضعاً حل فيه الصباح على صاروزيكي، فرأى قارانار العاصف كيف اقترب منه شخصان على ناقة. هذان الرجلان كانا يديغاي وقوسبان، وقد حمل قوسبان معه البندقية.

هاج قارانار العاصف وماج، أرغى وأزبد وتفجر غضبه –كيف تجرأ البشر على خرق حرمة حدوده، كيف استطاعوا الاقتراب من قطيعه، أي حق لهم في خرق حرمته؟ وبدأ قارانار يزأر بصوت حاد وحشي وصار يصر بأسنانه كالتتين وهو يهز رأسه على رقبته الطويلة وقد فغر فاه الجبار، والبخار يخرج في هذا الجو البارد كأنه الدخان من فمه الحار، فيتوضع رذاذاً صقيعياً أبيض على شعر ذقنه السوداء. وبدأ قارانار لشدة حنقه التبول ووقف مفرجاً ما بين رجليه ليطلق سهم بوله بعكس اتجاه الريح، فانتشرت في الجو رائحة البول المتطاير، وحطت بضعة قطيرات متجمدة على وجه يديغاي.

قفز يديغاي إلى الأرض وألقى بمعطفه على الثلج، فأصبح بالسترة السميكة والسروال المبطن أخف وأرشق. حل السوط عن مقبضه الذي أمسكه بيده.

- انظر، بيديكه، إذا حصل شيء سأرميه. – قالها قوسبان وقد صوب بندقيته تجاه الجمل.

- لا أبدا، ولا بأي حال. لا تخف علي. أنا صاحبه، وأتحمل المسؤولية. احتفظ بها للدفاع عن نفسك، إذا هاجمك فالموضوع يختلف.

- حسن. – وافق قوسبان وظل على ظهر الناقة.

وذهب يديغاي وهو يضرب بالسوط ليصدر صفقات حادة مدوية، ذهب لملاقاة قارانار. عندما رأى قارانار اقتراب يديغاي منه جن جنونه، وصار يرغي يزيد للقاء يديغاي. في هذه الأثناء نهضت النوق من مضجعها وصارت تعدو خائفة.

سار يديغاي في الثلج وهو يضرب بسوطه الذي يستخدمه عادة لقيادة الجمل أثناء جر الزحافة عند إزالة الثلج المتراكم، وهو ينادي من بعيد قارانار بصوت عال، آملاً أن يتعرف ذلك على صوته:

- أي، قارانار. لا تجن، أقول لك لا تجن. هذا أنا. هل عميت؟ أقول لك هذا أنا.

لكن قارانار لم يصدر أي رد فعل على هذا الصوت، فخاف يديغاي عندما رأى نظرة الجمل الغاضبة، ورآه يهجم عليه بكتلته السوداء الضخمة وبسناماته المهتزة على ظهره. عندها شد يديغاي قبعته على رأسه وأعمل السوط. كان السوط طويلاً يقارب السبعة أمتار، ثقيلاً مصنوعاً من الجلد المدبوغ بالقطران. صرخ الجمل وهجم على يديغاي محاولاً عضه بأسنانه، أو رميه على الأرض والدوس فوقه، لكن يديغاي لم يسمح له بالاقتراب منه وساطه بالسوط بكل ما أوتي من قوة، ودار وكر وفر وهو يصرخ على قارانار كي يعود إلى رشده ويتعرف عليه: تعاركا كل كما يستطيع، وكل واحد منهما كان محقاً من وجهة نظره لقد هز عناد هذا الفحل وإصراره على سعادته يديغاي، الذي كان يعرف أنه يحرمه من هذه السعادة، ولكن ليس هناك مخرج آخر. لم يخش يديغاي إلا شيئاً واحداً: أن يؤذي عيون قارانار، وكل الأمور الأخرى بسيطة. وأخيراً كسر عناد يديغاي وإصراره شوكة هذا الحيوان. وتمكن يديغاي، وهو يضرب الجمل بالسوط ويهاجمه من الاقتراب منه والانقضاض عليه، ومن ثم الإمساك به من شفته العليا حتى كاد يقتلعها. أمسكه بهذه القوة، وانتهز الفرصة ليلقي عليه عقالاً كان قد أعده سلفاً. خار قارانار وأنَّ من الألم الشديد الذي سببه له العقال، ورأى يديغاي في عينيه الجاحظتين اللتين لا ترمشان من شدة الخوف، رأى انعكاساً دقيقاً لصورته وكأنها في المرآة، وكاد أن يرتد فزعاً من منظره نفسه. لقد شوه وجهه المتعرق الملتهب ومنظر الثلج الذي حفرته الأقدام حوله صورته الإنسانية

بشكل كبير. لقد شهد كل هذا في لحظة واحدة من خلال عيني قارانار المجنونة. كان يفضل أن يلقي بكل شيء إلى الشيطان وأن يولي بعيداً على أن يعذب بهذا الشكل هذا المخلوق الذي لا ذنب له، لكنه عاد إلى رشده: إنهم ينتظرونه في أم العواصف ولا يجوز أن يعود من غير قارانار، إذ إن جيرانه في آك موينالك سيقتلونه. فسيطر على نفسه. صرخ صرخة الظافر وهو يهدد الجمل حتى أجبره على الارتماء على الأرض. كان يجب شد الرحل عليه، لكن قارانار العاصف ظل يقاوم ويرغي ويزعق وهو ينفث في وجه صاحبه أنفاسه الرطبة من فمه الصارخ، لكن صاحبه ظل صامداً وأجبر الجمل على الخضوع. وصرخ يديغاي لقوسبان:

- قوسيان، الق إلي بالرحل، وأبعد هذه النوق، وراء التلة كي لا يراها.

رمى قوسبان مباشرة الرحل من فوق الناقة التي كان يركبها، ومضى مسرعاً ليبعد قطيع قارانار. خلال ذلك انتهى كل شيء. وضع يديغاي الرحل على قارانار بسرعة. وعندها اقترب قوسبان من يديغاي ومعه المعطف الذي كان قد رماه يديغاي على الثلج، أخذ يديغاي المعطف وارتداه دون إبطاء، وامتطى ظهر قارانار الذي شد لجامه.

حاول الجمل الطائش العودة مرة أخرى إلى الإناث التي فرق عنها، حتى أنه أراد أن يمد رأسه فيمسك بأسنانه صاحبه ويرميه. لكن يديغاي كان يعرف واجبه. ورغم الرغاء والصراخ الغاضب ورغم العويل الجنوني الذي كان يطلقه قارانار، ظل يديغاي يقوده بإصرار عبر الصحراء الثلجية وهو يثابر على محاولة توعيته.

- كفى، توقف – قال له يديغاي – اخرس. مهما حدث فلن تعود. أيها الرأس المجنونة. أتظنني أنوي لك السوء؟ لولاي لقتلوك كحيوان مسعور. ما رأيك؟ لقد جننت فعلاً. توحشت وتتصرف كأحمق. ولكن لماذا جئت إلى هنا؟، ألم تكفك النوق عندنا؟ فليكن بحسابك: سنصل إلى بيت وهناك سينتهي كل

عبثك في القطعان الغريبة. ساقيدك بالسلاسل، ولن تخطو حراً خطوة واحدة ما دمت كذلك.

كان يديغاي العاصف يهدده كي يبرئ نفسه. وهكذا أبعد قارانار بالقوة عن نوق آك موييناك. لقد كان هذا ظلماً. لو كان حيواناً هادئاً لما كانت هناك مشكلة. ترك يديغاي الناقة التي كان يركبها عند قوسبان الذي وعده بإرسالها إلى أم العواصف – ليست هناك أية مشكلة. كل شيء مر بسلام وعلى أحسن وجه. ولكن هذا اللعين ليس منه إلا المتاعب.

بعد مرور بعض الوقت استسلم قارانار العاصف لكونه تحت الرحل ولكونه عاد إلى أمرة صاحبه. صار رغاؤه أقل، واعتدل وصار يسرع خطاه وسرعان ما أدرك أقصى سرعته. صار يخب راكضاً، ينهب بخطاه مسافات صاروزيكي. هدأ يديغاي، وجلس جلسة مريحة بين السنامين المرنين وتلفع اتقاء للريح وشد القبعة على رأسه وصار ينتظر اقتراب أم العواصف.

لكن البيت ما زال بعيداً بما فيه الكفاية، وكان هذا النهار محتملاً قليل الرياح، قليل الغيوم، لا تخوف من عواصف ثلجية في الساعات المقبلة. مع أنه كان من الممكن جداً أن تهب الزوابع الثلجية خلال الليل. لقد عاد يديغاي مرتاحاً لأنه تمكن من القبض على قارانار وكبحه، وبشكل خاص أرضته سهرة الأمس عند قوسبان وأفرحته الدومبرا وعزف وغناء إرليبييس.

وعاد يديغاي، دون رغبة منه، إلى التفكير بحياته الفاشلة. إنها مصيبة حقاً. ما العمل كي لا يتألم أحد وكي لا يخفي هو ألمه، بل كي يعلن صراحة كذا وكذا: ظريفة أنا أحبك. وإذا لم يكن لأبناء أبي طالب، وهم يحملون كنية أبيهم، طريق في هذه الحياة فهو مستعد إذا ناسب هذا ظريفة، أن يسجلهم على اسمه وأن يعطيهم كنيته – كنية يديغاي. سيكون سعيداً جداً إذا كانت كنيته نافعة لداول وارميك، على أن لا تقف في طريقهم أية عراقيل أو مزعجات.

وليحققوا النجاح بقواهم وقدراتهم. وهل يبخل بكنيته في سبيل ذلك؟.. وخيمت الأفكار على يديغاي العاصف طوال طريقه.

ها هو النهار يميل نحو الانقضاء. وها هو قارانار رغم كل معارضته وثورته يسير تحت راكبه بكل إخلاص. ها هي وهاد أم العواصف قد بدت للنظر، وبدت المنحدرات المعروفة المغمورة بالثلوج. هذه هي التلة الكبيرة. وعند المنحنى كانت نقطة أم العواصف تلتصق بالطريق الحديدية. أعمدة الدخان تتصاعد من المداخن. كيف هم هناك أفراد أسرة؟ لم يغب إلا يوماً واحداً ولكن قلقه كبير وكأنه غاب سنة كاملة. لقد اشتاق إليهم كثيراً وبشكل خاص للأطفال. عندما شاهد قارانار البيوت زاد من سرعته، وصار يسير دافعاً بقوائمه إلى الأمام ومطلقاً من فمه حزماً من البخار، وجسمه الساخن يتعرق. وبينما كان يديغاي يقترب من بيته في النقطة التقى بقطاري شحن. أحدهما اتجه نحو الغرب والثاني نحو الشرق...

توقف يديغاي في فناء بيته الخلفية كي يحجز قارانار مباشرة في الحظيرة. أمسك السلسة الثخينة المثبتة بالأرض مسرعاً وقيد بها قائمة الجمل الأمامية وتركه هادئاً. «فليبرد أولاً وبعد ذلك أفك الرحل». كان مسرعاً جداً. خرج يديغاي من الحظيرة وهو يعالج ظهره ورجليه المتخدرين فاندفعت نحوه ابنته الكبرى ساوليه، فحضنها يديغاي بحركة ثقيلة بسبب المعطف، وقبلها وقال لها:

- ستبردين – فقد كانت ترتدي ثوباً خفيفاً – اركضي إلى البيت، سآتي حالاً.

- بابا – قالت ساوليه ملاطفة أباها – لقد سافر داول وارميك.

- إلى أين سافروا؟

- سافروا نهائياً، مع أمهما. ركبوا القطار وسافروا.

- سافروا؟ متى سافروا؟ - مازال لا يدرك عم يدور الحديث فكرر السؤال وهو ينظر إلى عيني ابنته.

- اليوم صباحاً.

- إذن هكذا! – قالها بصوت مرتجف – اركضي إلى البيت، اركضي – وترك الفتاة – وأنا سآتي الآن...

اختفت ساوليه وراء الزاوية. أما يديغاي فمضى مسرعاً حتى دون أن يغلق خلفه باب الحظيرة، وكما هو بالمعطف والسروال المبطن، إلى بيت ظريفة. كانت يسير غير مصدق، فقد تكون الطفلة أخطأت. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. كان على العتبة آثار أقدام كثيرة. شد يديغاي الباب نحوه بقوة من رزته، وعندما خطا عبر العتبة رأى غرفة مهجورة قد بردت منذ زمن وتناثرت فيها الأشياء غير اللازمة، ولا وجود لظريفة أو للصغار.

- كيف يمكن هذا؟ - همس يديغاي في هذا الخواء وكأنه لا يريد أن يدرك حتى النهاية ما حدث – إذن سافروا؟ - قالها مستهجناً حزيناً، مع أنه كان واضحاً أنهم غادروا فعلاً.

أحس بحزن عميق لم يحس بمثله طوال حياته التي عاشها. وقف بمعطفه وسط الغرفة عند المدفأة الباردة وهو لا يعرف ما العمل وكيف سيكون الحال بعد ذلك، كيف سيوقف صراخ الحزن والمرارة الظاهرين عليه. على رف النافذة رأى حصيات التنجيم التي نسيها ارميك. تلك الحصيات الواحدة والأربعون التي تعلموا التنجيم بها ليعرفوا متى سيعود أبوهم غير الموجود منذ زمن بعيد، حصيات الأمل والحب. جمع يديغاي الحصيات في قبضة يده وشدها عليها – هذا كل ما بقي. لم تسعفه قواه، فاتجه نحو الجدار وضغط وجهه الدافئ الحزين إلى ألواح الخشب الباردة وأجهش بالبكاء المرير إذ لا عزاء له. وبينما هو يبكي سقطت الحصيات من يده واحدة تلو الأخرى، وعبثاً حاول الإمساك بها في يده المرتجفة، لكن يده لم تطاوعه فصارت

الحصيات تتساقط مصدرة نقرات كتيمة عند اصطدامها بالأرض، صارت تتساقط وتتدحرج باتجاهات مختلفة على أرض الغرفة الخاوية...

ثم استدار وسار ملتصقاً بالجدار ونزل ببطء ليجلس القرفصاء بمعطفه وبالقبعة المشدودة على رأسه، وسند ظهره إلى الجدار وصار ينشج. سحب من جيبه الملفعة التي أهدته إياها ظريفة ومسح بها دموعه.

جلس في البيت المهجور وهو يحاول فهم ما حدث. إذن سافرت ظريفة وأطفالها أثناء غيابه متعمدة ذلك. فهي إذن كانت تريد ذلك أو كانت تخشى ألا يدعهم يرحلون. وفعلاً، ما كان هو ليدعهم يرحلون مهما كلف الأمر ومهما كانت النهاية لو كان موجوداً. ولكن تخمين ما كان يمكن أن يحدث لو لم يكن هو غائباً متأخر الآن. فقد رحلوا، رحلت ظريفة ورحل الصبية. أيعقل أن يوافق هو على فراقهم! إنها ظريفة التي أدركت أن من الأفضل الرحيل في غيابه. لقد سهلت على نفسها الرحيل ولكنها لم تفكر به، لم تفكر كم سيكون مريراً عليه أن يجد البيت خاوياً.

هناك حتماً من أوقف لها القطار في النقطة. حتماً. طبعاً معروف من هو: إنه قازانغاب، ومن غيره. ولكنه طبعاً لم يشد ذراع التوقف الطارئ، كما فعل يديغاي يوم موت ستالين، بل اتفق مع رئيس النقطة وطلب منه أن يوقف أحد قطارات الركاب. إنه من هذا النوع... لا بد أن لاوقوبالا يداً في هذا أيضاً، كي تبعدهم من هنا بأسرع ما يمكن. ولكن انتظروا. وغلى دم الثأر فيه أسود وأعمى فالتهب رأسه – تمنى لو يستجمع الآن قواه ويدمر كل شيء في هذه النقطة اللعينة، المسماة أم العواصف، فلا يبقى منها شيء، ثم يركب قارانار ويمضي في صاروزيكي ليموت هناك وحيداً من الجوع والبرد. جلس في هذا المكان المهجور عاجزاً ضعيفاً وقد أذهلته الواقعة. لم يبق إلا هذا السؤال الذي لا جواب له: «لماذا رحلت؟ وإلى أين رحلت؟ لماذا رحلت وإلى أين رحلت؟».

ثم جاء إلى البيت. أخذت اوقوبالا صامتة معطفه وقبعته وحملت الجزمة اللبادية إلى الزاوية. كان من الصعب أن يفهم المرء من وجه يديغاي العاصف الشاحب البارد كالحجر ماذا يفكر وماذا ينوي أن يفعل. كان يبدو وكأنه لا يرى بعينيه، فهما لا تعبران عن شيء، وتخفيان جهداً خارقاً لا إنسانياً بذله يديغاي كي يبقى متماسكاً. كانت اوقوبالا قد أشعلت النار تحت السماور عدة مرات بانتظار زوجها. لذا كان موقده ممتلئاً بالجمر وهو يغلي. قالت اوقوبالا:

الشاي ساخن. عن النار مباشرة.

نظر يديغاي إليها صامتاً وتابع عب الماء الساخن. لم يكن يشعر بحرارة الماء. وكلاهما كان ينتظر الحديث مشدود الأعصاب.

- ظريفة رحلت من هنا مع الأولاد. –تكلمت اوقوبالا أخيراً.

فتمتم يديغاي دون أن يرفع رأسه عن الشاي.

- أعرف. – وبعد صمت قصير سألها دون أن يرفع رأسه أيضاً: - إلى أين رحلت.

- هذا ما لم تخبرنا به.

وصمتا عند هذا الحد. ومع أن الشاي الثقيل كان ساخناً لاذعاً فإن يديغاي كان مشغولاً بشيء واحد فقط: أن لا ينفجر، أن لا يحول كل شيء هنا إلى نتف صغيرة، أن لا يخيف الأطفال، أن لا يصنع مأساة..

انتهى من شرب الشاي وبدأ يستعد للخروج، فارتدى الجزمة اللبادية والمعطف والقبعة. فسألته اوقوبالا:

- إلى أين؟

- سألقي نظرة على الجمل. قالها وهو خارج من الباب.

حتى ذلك الوقت كان النهار الشتوي القصير قد انقضى. انطفأ بسرعة، وعلى مرأى من العين أظلم الجو المحيط، وأصبح الصقيع أشد وبدأت الرياح

السطحية تتحرك متلوية كالأفعى بما تحمله من الثلج عن سطح الأرض. سار يديغاي إلى الحظيرة متجهماً. وعندما دخلها زر عينيه متوتراً وصرخ على قارانار الذي أفلت من السلسلة:

- أما زلت ترغي؟ ألا تستطيع أن تهدأ؟ سأريك أيها الحقير. حديثي معك الآن قصير. لا قيمة عندي الآن لأي شيء.

وضرب يديغاي قارانار غاضباً على جنبه وقذفه بأقذع كلمات الشتائم وفك الرحل، وألقى به بعيداً عن ظهر الجمل وفك السلسلة التي كان مقيداً بها من رجله، ثم اقتاده من مقوده وفي اليد الأخرى أمسك السوط بقوة وقد لفه على قبضته وذهب نحو السهب وهو يجر الجمل الذي كان يصرخ متألماً ويئن ضجراً. وخلال سيره كان يديغاي يتلفت إلى قارانار العاصف ملوحاً بيده مهدداً إياه، كي يكف عن أنينه وعويله وبما أن هذا لم يكن له أثر فعال، فقد بصق وسار متجهماً، محتملاً عويل الجمل دون اكتراث، سار بعناد وسط الثلج السميك وطبقاته المتجمدة، وسط السهب وقت الأصيل والجو يزداد إظلاماً فتمحي المعالم تدريجياً. كانت أنفاسه ثقيلة ولكنه سار دون توقف. سار طويلاً مطئطئاً رأسه غاضباً. عندما ابتعد عن النقطة وتجاوز المرتفعات أوقف الجمل وأنزل به عذاباً شديداً. فبعد أن خلع معطفه ربط بسرعة مقود الجمل بخصره فوق السروال القطني كي لا يتمكن الجمل من الإفلات والهرب وكي يحرر يديه، ثم قبض على مقبض السوط بكلتا يديه وانبرى يسوط الفحل صاباً عليه جام غضبه. صار يضرب قارانار العاصف بشدة ودون رحمة ويسوطه السوط إثر السوط وهو يشخر ويشتم ويلعن:

- خذ، خذ، أيها الحيوان السافل. كل هذا بسببك، بسببك. كله ذنبك، والآن سأتركك، اركض إلى أين يتجه بصرك، ولكن قبل ذلك يجب أن أهرئ جلدك أولاً. خذ، أيها المهووس. كله قليل عليك. تريد أن تذهب إلى هنا وهناك. وأثناء ذلك رحلت مع أطفالها. هذا لا يهم أحداً منكم مثلما يهمني أنا.

كيف سأعيش في هذه الدنيا؟ كيف سأعيش من غيرها؟ إذا كان الأمر بالنسبة لكم سواء فكذلك بالنسبة لي سواء. إذن خذ، خذ، أيها الكلب.

صار قارانار يرغي ويعول، هاج وماج تحت ضربات السوط، ولما فقد رشده من الخوف والألم أوقع صاحبه وهرب جاراً إياه على الثلج. جر صاحبه بقوة ووحشية غريبة، وكأنه يجر جذعاً خشبياً، المهم أن يتخلص منه، أن يتحرر يهرب إلى هناك، من حيث أجبروه على العودة.

- قف. قف – صار يديغاي يصرخ وهو يغوص في الثلج ويلتقط أنفاسه التقاطاً.

طارت القبعة عن رأسه، وصارت كثبان الثلج تلفح رأسه حراً وبرداً، تعفر وجهه بالثلج الذي تسرب أيضاً تحت الثياب إلى رقبته وبطنه وصدره وتشابك السوط على يده، ولم يكن بيده أن يصنع شيئاً كي يوقف الجمل أو كي يفك المقود عن خصره. وذلك يجره بشكل هستيري مجنون وقد وجد الخلاص في الركض. من يعرف إلى ما سينتهي هذا لو لم يوفق يديغاي بمعجزة إلى فك الحزام وإفلات الإبزيم وبذلك أنقذ نفسه، ولولا ذلك لاختنق في كثبان الثلج. عندما أمسك المقود جره الجمل بضعة أمتار أخرى ثم توقف إذ شده صاحبه بكل ما أوتي من قوة.

- آه منك – تمتم يديغاي وهو يستعيد وعيه وقد وقف يترنح ويلتقط أنفاسه – هكذا أنت إذن. خذ، يا حيوان. هيا، اغرب عن وجهي، اركض أيها اللعين. لا تدعني أراك. اختف. اذهب، فليقتلوك وليعذبوك ككلب مسعور. كله بسببك. أفطس في السهب. لا أريد أن أرى أثراً لك – وانطلق قارانار راكضاً باتجاه آك – موييناك ويديغاي يجري وراءه ويضربه بالسوط، يطرده وينكره ويلعنه ويشتمه بكل ما في الدنيا من كلام بذيء. لقد حلت ساعة العقاب والفراق لذلك صرخ يديغاي في أثره:

- إلى جهنم وبئس المصير. اركض. أفطس هناك أيها المهووس. فليغرزوا رصاصة في رأسك.

هرب قارانار مبتعداً في السهب المظلم وسرعان ما اختفى في ظلام الثلج المتطاير، إلا أن صوت رغائه الحاد كان يتردد بين الفينة والفينة وكأنه صادر عن بوق. وتخيل يديغاي كيف سيظل قارانار يركض طوال الليل دون تعب عبر العاصفة إلى نوق آك – مويناك.

- تفو. – بصق يديغاي وعاد أدراجه على الأثر العريض الذي تركه جسمه على الثلج والذي كان يشم منه رائحته الخاصة. عاد بلا قبعة وبلا معطف، بشرة وجهه ويديه تلتهب بالحرارة. سار وهو يصرخ في الظلام ويضرب بسوطه، وفجأة شعر بالعجز التام والضعف. فسقط على ركبتيه في الثلج وجثا ممسكاً رأسه بقوة وانفجر بالبكاء بمرارة وصمت. جثا على ركبتيه وحيداً وسط صاروزيكي، فسمع كيف تتحرك الريح في السهب وتصفر وتئن حاملة معها الثلج عن سطح الأرض، وسمع كيف يتساقط الثلج من الأعلى. كل حبة ثلج وملايين الحبات كانت تصدر حفيفاً وهي تحتك بالهواء، فبدا له وكأنها كانت تتحدث عن أنه لن يتحمل عبء الفراق، وأنه لا معنى لحياته من غير المرأة التي يحب ومن غير أولئك الأطفال الذين ارتبط بهم أشد من ارتباط أي أب. كان يريد أن يموت هنا كي يدفنه الثلج هنا.

- لا وجود للرب. بل هو لا يفهم شيئاً في الحياة. فماذا يمكن الانتظار من الآخرين؟ الرب ليس موجوداً، ليس موجوداً. – قالها وهو يشعر بالغربة في هذه الوحدة المريرة وسط صحراء صاروزيكي الليلية هذه. لم يسبق له أن قال مثل هذه الكلمات بصوت مرتفع، حتى عندما كان يليزاروف يؤكد في حينه – عندما يذكر هو الرب – أن الرب، من وجهة النظر العلمية غير موجود. لم يكن هو يصدق هذا. والآن صدق.

وسبحت الأرض في فلكها، تحدها الرياح العلوية. سبحت حول الشمس، وخلال دورانها حول محورها كانت تحمل في تلك الساعة رجلاً جاثياً في

الثلج على ركبته وسط الصحراء المكسوة بالثلوج. ما كان أي ملك أو إمبراطورية أو أي سيد ليسجد على ركبتيه أمام الدنيا حزناً على فقدان دولته وحكمه بمثل هذا اليأس الذي يسجد به يديغاي العاصف في يوم افتراقه مع محبوبته... والأرض تسبح...

بعد حوالي ثلاثة أيام أوقف قازانغاب يديغاي عند المستودع حيث كانوا يستلمون مسامير تثبيت القضبان الحديدية بالعوارض وسنادات للقضبان من أجل الصيانة.

- ما لك صرت قليل المعشر يا يديغاي – وكأنه يقولها بشكل عرضي، بينما يضع رزم المسامير على النقالة – لست أدري لماذا تتهرب وتتجنبني فلا أستطيع أن أحدثك.

نظر يديغاي إلى قازانغاب نظرة حادة حاقدة.

- إذا بدأنا بالحديث فسأخنقك في مكانك. وأنت تعرف ذلك.

- وأنا لا أشك بأنك مستعد لخنقي، وربما خنق آخرين أيضاً. ولكن لماذا كل هذا الغضب؟

- أنتم أجبرتموها على الرحيل. – وصرح يديغاي بما كان يعذبه ويحرمه السكينة كل هذه الأيام.

- أتعرف – هز قازانغاب رأسه وقد احمرَّ وجهه أما من الغضب أو من الخجل – إذا كان هذا ما يدور في رأسك، فأنت تفكر تفكير أحمق ليس فقط فينا، بل وفيها أيضاً. قل شكراً لأن المرأة كانت كبيرة العقل وليست مثلك. هل فكرت إلى ما سينتهي كل هذا؟ ألم تفكر؟ أما هي فقد فكرت وقررت الرحيل قبل أن يفوت الأوان. وأنا ساعدتها على الرحيل عندما طلبت مني ذلك. ولم استفهم منها إلى أين ستذهب مع الصغار وهي لم تقل، فليعرف ذلك القدر وحده ولا أحد غيره. فهمت؟ رحلت دون أن تجرح كرامتك أو كرامة زوجتك بكلمة واحدة. لقد تودعنا كما يتودع الناس. يجب أن تسجد أمام

أقدامهما لأنهما حمتاك من مأساة محتومة. لو بحثت طوال عمرك لن تجد زوجة مثل اوقوبالا. لو كانت أية امرأة أخرى في مكانها لرتبت لك ما يجعلك تهرب إلى آخر الدنيا أنظف من جملك قارانار...

صمت يديغاي – وبماذا كان سيجيب؟ كلام قازانغاب كان صحيحاً. ولكن لا. قازانغاب لم يفهم ما لا يمكن أن يفهمه. وسلك يديغاي طريق الفظاظة المباشرة:

- طيب. – قالها وبصق جانباً دون احترام – استمعت إليك أيها الذكي الذي أمضى هنا بسبب ذكائه ثلاثاً وعشرين سنة على رجل واحدة دون أية حركة كالصنم. من أين لك أن تعرف هذه الأمور. طيب. لا وقت عندي للإصغاء. – وذهب.

فسمع من خلفه:

- رأيك. القضية قضيتك.

بعد هذا الحديث فكر يديغاي بالرحيل عن نقطة أم العواصف المملة. فكر جدياً لأنه لم يجد فيها الطمأنينة ولم يجد في نفسه القوة على النسيان ولم يستطع أن يتغلب على الحنين الذي يعذب روحه. كل شيء أظلم وهزل وأصبح خاوياً حوله من غير ظريفة وأبنائها. وعندها قرر يديغاي جينغلدين – كي يتخلص من هذا العذاب – أن يتقدم رسمياً إلى رئيس النقطة بطلب استقالة وأن يذهب بأسرته إلى حيث تقوده رجلاه، ولكنه لا يريد أن يبقى هنا. فهو ليس مقيداً بالسلاسل إلى هذه النقطة التي نسيها الله. وأكثرية الناس يعيشون في أماكن غير هذه النقطة – في المدن والقرى، وهم لا يمكن أن يوافقوا على الحياة هنا ساعة واحدة. لماذا يفترض به أن «يوقوق» العمر كله في صاروزيكي؟ تكفيراً عن أية خطايا؟ لا، يكفي، سيرحل، سيعود إلى بحر آرال أو يذهب إلى كازاغاندا أو إلى آلما – آتا، فالدنيا واسعة. إنه عامل جيد، يداه ورجلاه في مكانهما الصحة متوفرة، رأسه مازال بين كتفيه. سيبصق على

كل شيء ويرحل ماذا هنا ليفكر به؟ وخطط يديغاي كيف سيفاتح اوقوبالا بهذا الحديث، كيف سيقنعها، أما الأشياء الأخرى فليست صعبة. بينما هو يستعد ويتحين اللحظة المناسبة للحديث مر أسبوع كامل وفجأة ظهر قارانار العاصف الذي سبق وطرده صاحبه ليعيش طليقاً.

لفت نظر يديغاي أن الكلب ينبح خلف البيت قلقاً. يعدو ويعدو ثم ينبح قليلاً ويعود. خرج يديغاي ليرى ما الأمر فشاهد غير بعيد عن الحظيرة جملاً لا يعرفه. جمل غريب، يقف دون حراك. اقترب يديغاي أكثر وعندها عرف جمله قارانار.

- هذا أنت، إذن إلى أية حالة وصلت يا بيتشارا[١]، وكيف أصبحت؟ صرخ يديغاي مشدوهاً.

لم يبق من قارانار العاصف السابق إلا الجلد والعظم. كان رأسه الكبير بعينيه الحزينتين الذابلتين يتحرك على رقبته الهزيلة، كان شعره يبدو وكأنه ليس شعره الحقيقي بل شعر مستعار ألصق به للضحك، كان يتدلى حتى أسفل ركبتيه. لم يعد من سنامات قارانار السابقة المنتصبة كالأبراج السوداء ما يذكر بها الآن – فقد تهدل السنامان إلى الجانب وكأنهما ثديان متهدلان لامرأة عجوز. لقد ضعف الفحل بشكل لم يعد يقوى به على الوصول إلى الحظيرة، فوقف هنا ليلتقط أنفاسه. لقد أنهكه الجماع حتى آخر رمق، حتى آخر خلية من خلايا جسمه وعاد الآن ككيس أفرغوه مما فيه، عاد زحفاً.

- هيه هيه هيه – استهجن يديغاي بما لا يخلو من الشماتة وهو يتفحص قارانار من كل جوانبه – انظر إلى أين وصلت أمورك، حتى الكلب لم يتعرف عليك. كنت فحلاً... آخ، آخ. ومع ذلك عدت. لا خجل ولا ضمير. خصيتاك في مكانهما؟ أحضرتهما معك أم أضعتهما في الطريق؟ أما رائحتك.

---

(١) بيتشارا = فقير، مسكين.

بولت على سيقانك. لم تعد تقوى على غير ذلك. انظر إلى مؤخرتك كيف تراكم عليها الجليد. أيها البيتشارا. كيف أصبحت.

وقف قارانار عاجزاً عن الحركة. لم تعد فيه لا القوة السابقة ولا العظمة الماضية. وقف حزيناً ضعيفاً. كل ما كان يفعله تحريك رأسه ومحاولة البقاء منتصباً على قوائمه.

أشفق يديغاي على الجمل، فذهب إلى البيت وعاد يحمل طستاً مليئاً بالقمح وقد ملح سطحه بنصف حفنة من الملح. وضع العلف أمام الجمل: - هاك كل. ربما تتعافى وبعد ذلك أدخلك إلى الحظيرة، حيث ترقد وتستعيد قوتك.

في ذلك اليوم تحدث مع قازانغاب. ذهب إليه بنفسه وفتح معه الحديث التالي:

- لقد جئت إليك يا قازانغاب بشأن ما يلي: لا تستغرب. بالأمس لم أشأ أن أحدثك واليوم جئت بنفسي. الموضوع جدي. أريد أن أعيد إليك قارانار. جئت أشكرك. أهديتني إياه ذات يوم رضيعاً. شكراً لك. لقد خدمني جيداً. ومنذ مدة طردته لأن صبري قد نفذ، واليوم عاد، وهو يجر أرجله جراً. والآن يرقد في الحظيرة. لم يمر أسبوعان إلا ويستعيد مظهره القديم، فيصبح قوياً معافى. لا يحتاج إلا للعلف.

- انتظر – قاطعه قازانغاب – ما الذي ترمي إليه؟ لماذا قررت فجأة أن تعيد إلي قارانار؟ هل طلبت أنا ذلك منك؟.

عند ذلك طرح يديغاي الأمر كما أراد: القضية أنني أفكر بالرحيل من هنا مع العائلة. لقد مللت صاروزيكي وحان الوقت لتغيير مكان الإقامة. ربما تتحسن الأمور.

استمع إليه قازانغاب بانتباه ثم قال له:

- الشأن شأنك. ولكن يبدو لي أنك أنت نفسك لا تعرف ماذا تريد. حسن. لنفترض أنك هربت من هنا، لكنك لن تهرب من نفسك أينما اختبأت.

لن تهرب من المأساة. ستلازمك دائماً. لا يا يديغاي. إذا كنت رجلاً فحاول أن تتغلب على نفسك هنا. أما الرحيل – فهو ليس شجاعة. كل إنسان يستطيع أن يهرب، ولكن ليس كل واحد قادر على أن يقهر نفسه.

لم يوافقه يديغاي ولكنه لم يناقشه، بل جلس يفكر متنهداً تنهداً ثقيلاً. «ومع ذلك. لم لا أرحل إلى نواح أخرى؟، ولكن هل سأنسى؟ - فكر يديغاي – ولماذا يجب أن أنسى؟، ولكن كيف ستكون الأمور؟. التفكير صعب وعدم التفكير مستحيل. كيف حالها. أين هي الآن مع حمقاها الصغار؟ هل هناك من يفهمها ويساعدها عند الحاجة؟. وضع اوقوبالا ليس سهلاً أيضاً. كم مر من الأيام وهي تحتمل صامتة جفائي وتجهمي... من أجل ماذا؟».

أدرك قازانغاب ما يدور في ذهن يديغاي العاصف، ولكي يسهل عليه الأمر قال له بعد أن سعل بقصد لفت انتباهه، وبعد أن رفع ذلك رأسه متجهماً:

- على كل، لماذا أحاول إقناعك يا يديغاي، وكأن لي مصلحة ببقائك. أنت نفسك فكر وقرر. وإذا حاولت إقناعك فلا أنت رايمالي آغا ولا أنا عبد الخان. المهم أنه لا توجد حولنا ولمئات الفراسخ شجرة واحدة يمكنني أن أوثقك إليها. أنت حر. تصرف كما يحلو لك. ولكن فكر قبل أن تتحرك من مكانك.

وظلت كلمات قازانغاب هذه محفورة زمناً طويلاً في ذاكرة يديغاي.

كان رايمالي آغا مغنياً شهيراً في زمنه، وقد اشتهر منذ صباه. فبفضل من ربه أصبح مغني السهوب الذي جمع في ذاته بين بدايات ثلاث: كان شاعراً وموسيقياً يلحن أغانيه ومغنياً متميزاً ذا نفس طويل. كان رايمالي آغا يدهش معاصريه. كان يكفيه أن يضرب الوتر حتى تنساب الأغنية في أثر موسيقاه التي تولد بحضور المستمعين. وفي اليوم التالي تنتشر هذه الأغنية من فم إلى فم إذ كان كل واحد، لمجرد سماعه غناء رايمالي، يحمل معه هذا

الغناء ويجوب به في القرى والمضارب. أغنيته هذه كان يغنيها شباب ذلك الزمن:

لا يعرف مذاق الماء البارد إلا الجواد الحار

عندما يهبط إلى النهر عدواً من الجبال.

وعندما آتي إليك ممتطياً جوادي

لألقي بنفسي عن سرجه إلى شفتيك

عندها أعرف سعادة الحياة في هذه الدنيا...

كان رايمالي آغا يرتدي ثياباً جميلة زاهية وهذا إلهام له من الله. وكان يحب بشكل خاص القبعات الثمينة المصنوعة من أجود الفراء، وكانت عنده أنواع منها: للشتاء وللصيف وللربيع. كان عنده أيضاً جواده الذي لا يفارقه – سارالا ذو العرف والذنب الشقراوين الذي يعرفه الجميع، والذي أهداه إياه التركمان أثناء وليمة خاصة. لم يكن المديح الذي ينهال على سارالا بأقل مما ينهال على صاحبه. فذوو الخبرة كانوا يستمتعون بالنظر إلى مشيته الجميلة المفعمة خيلاء. لذلك كان أولئك الذين يحبون المزاح يقولون: كل ثروة رايمالي هي صوت الدونبرا ومشية سارالا.

وفعلاً هذا ما كان. لقد أمضى رايمالي آغا كل حياته ممتطياً صهوة جواده والدومبرا بين يديه. لم يجمع ثروة رغم شهرته الهائلة. عاش حياته كالبلبل الربيعي، من وليمة إلى وليمة ومن فرح إلى فرح، في كل مكان يلقى التكريم والترحاب وجواده يلقى العناية والعلف ولكن يوجد أناس آخرون أغنياء ولا يحبونه – فهو – برأيهم – يحيى حياته فاسقاً عابثاً، كالريح في الحقول. هكذا كانوا يغمزون من قناته في غيابه.

عندما كان رايمالي آغا يحضر الولائم العامرة، كان كل شيء يسكن ويهدأ لمجرد انبعاث أول صوت من آلته الدومبرا، فتتسمر عيون الجميع على

يديه وعينيه ووجهه، حتى عيون أولئك الذين لا يروق لهم نمط حياته. كانوا ينظرون إلى يديه لأنه لم يكن في قلب الإنسان إحساس واحد لم تجد تلك اليدان على الأوتار ما يحركه. كانوا ينظرون إلى عينيه لأن كل قوة الفكر والروح كانت تبرق في عينيه التي تتبدل تعابيرها باستمرار. كانوا ينظرون إلى وجهه لأنه كان جميلاً وملهماً. عندما كان يغني كان وجهه يتغير كالبحر يوم تهب الريح... كانت الزوجات تتركنه بعد أن ييأس وينفذ صبرهن، لكن الكثير من النساء كن يسترقن البكاء في الليالي وهن يحلمن به.

وهكذا كانت تجري حياته من أغنية إلى أغنية، من عرس إلى عرس ومن وليمة إلى وليمة، والشيخوخة تتسلسل غير ملحوظة. في البداية لمع الشيب في شاربيه، ثم ابيضَّت ذقنه. حتى أن سارالا لم يعد ذاك الجواد المعهود. لقد نحل جسمه وصار يتقصف شعر ذيله وعرفه. مشيته وحدها كانت تشير إلى أن هذا الحصان كان ذات يوم جواداً جيداً. ودخل رايمالي آغا شتاء عمره كشجرة الحور الشاهقة تيبس وحيدة في عنفوان... وهنا اكتشف أنه بلا أسرة ولا بيت ولا قطعان ولا أية ثروة أخرى، وقد آواه أخوه الأصغر عبد الخان، الذي أعرب قبل ذلك بين جمع من الأقرباء عن عدم رضاه. ولكنه أمر بإقامة خيمة خاصة به وأمر بإطعامه وبغسل ثيابه.

صار رايمالي آغا يغني عن الشيخوخة، وصار يفكر بالموت. في تلك الأيام ولدت عنده أغان عظيمة وحزينة. وجاء دوره ليتطاول في أوقات فراغه على أفكار المفكرين القديمة جداً: - لماذا يولد الإنسان في هذه الدنيا؟ ولم يعد رايمالي آغا يتنقل كالسابق بين الولائم والأعراس، بل صار يقضي معظم وقته في البيت وصار يكثر من عزف الأنغام الحزينة على الدومبرا، وهو يعيش على الذكريات، وصار يطيل من جلساته مع الشيوخ وهم يتحادثون عن فناء العالم...

يشهد الله أن رايمالي آغا كان سيقضي بهدوء بقية أيامه لو لم يقع ذلك الحادث الذي هز كيانه هو على سفح حياته الهابط.

ذات مرة سئم رايمالي آغا الجلوس فامتطى صهوة جواده العجوز سارالا وذهب إلى عيد كبير ليروح عن نفسه، وأخذ معه الدومبرا احتياطياً. فقد رجاه أناس محترمون رجاء حاراً أن يحضر عرسهم، لا ليغني، بل ليكون ضيفاً عليهم. وذهب رايمالي آغا على هذا الأساس وهو عاقد العزم على العودة بسرعة.

واستقبل رايمالي آغا بتكريم كبير فاقتادوه إلى خيمة الشرف ذات القبة البيضاء، وهناك جلس وسط مشاهير الناس، حيث شرب الكوميس(١)، وتحدث بأحاديث مهيبة وطرح آراء قيمة.

وفي القرية كان الاحتفال دائراً على أشده. أصوات الأغاني والضحك وأصوات الشباب والتسلية والمرح تتناهى إليه من كل حدب وصوب. كان يسمع كيف كانت تجري الاستعدادات لسباق الخيل على شرف العروسين، وكان يسمع أصوات الطهاة عند المواقد، وضجيج الخيل ونباح الكلاب، كان يسمع صوت الريح الآتية من السهب تحمل معها عبق الحشائش المزهرة.. وفوق كل هذا كان رايمالي آغا يلتقط بشوق كبير أصوات الموسيقى والغناء الصادرة عن الخيام المجاورة، وأصوات ضحك الصبايا الذي كان يتفجر حوله فيضطره للتنصت والإصغاء.

تألمت روح المغني العجوز وتعذبت. لم يظهر هو ذلك أمام مجالسيه ولكنه كان يبحر بأفكاره في أعماق الماضي، فوصل إلى تلك الأيام التي كان هو فيها شاباً وسيماً، عندما كان يطير على ظهر جواده الفتي الرائع سارالا فوق الدروب، عندما كانت الأعشاب تبكي وتضحك إذ تدوسها الحوافر، وكانت الشمس تسرع للقائه عندما تسمع غناءه، عندما لم يكن صدره ليتسع للريح، وعندما كان يفور الدم في قلوب الناس من أصوات موسيقاه، عندما

---

(١) كوميس: لبن الخيل.

كانوا يتخاطفون كلمات أغانيه الطائرة، عندما كان قادراً على المعاناة والحب، وعلى الألم وذرف الدموع وهو يودع من فوق الركاب... لماذا كان كل ذلك؟ لكي يندم فيما بعد وتخبو جذوته في الشيخوخة، كالجمرة تحت الرماد؟

حزن رايمالي آغا فصار يطيل الصمت منكفئاً على نفسه، وفجأة سمع صوت خطوات ورنين أطواق تقترب من الخيمة، والتقطت أذناه حفيف أثواب معهود، ورفع أحدهم عالياً الستار المطرز المعلق على باب الخيمة فظهرت عند العتبة فتاة تحمل دومبرا وقد ضمتها إلى صدرها. كانت الفتاة سافرة الوجه ذات نظرة جريئة أنوفة. لها حاجبان مشدودان كالأوتار يفضحان الحسم والصرامة في طبعها. كل شيء في هذه الفتاة سوداء العينين كان على درجة كبيرة من الحسن وكأنها شكلت بيدي صانع ماهر – قدها وملامحها ولباسها. وقفت في الباب منحنية باحترام ومعها صديقاتها وبعض الشباب، تطلب معذرة الوجوه الأفاضل. وما كاد أحدهم يتفوه بكلمة حتى ضربت أوتار الدومبرا وانبرت متوجهة إلى رايمالي آغا تغني له أغنية تحية:

«كما تأتي القافلة من البعيد إلى النبع لتروي عطشها، جئت إليك أنا أيها المغني المجيد رايمالي آغا. جئت أقول كلمة تحية. لا تلمنا لأننا تدافعنا إلى هنا جمهرة صاخبة – فنحن في احتفال، والمرح هو السائد في الأعراس. لا تستهجن جرأتي يا رايمالي آغا: لقد تجرأت على المثول أمامك مغنية، وبي من الارتعاش والخوف المكنون، ما يجعلني أشبه بفتاة تريد أن تفصح لك عن حبها. اعذرني رايمالي آغا، أنا محشوة بالجرأة كما البندقية – بالبارود المحبب. ومع أنني أعيش حرة في الولائم والأعراس، فقد بقيت طوال حياتي أتهيأ لهذا اللقاء، كتلك النحلة التي تجمع العسل قطرة فوق قطرة. أتهيأ كبرعم الزهرة الذي قدر له أن يتفتح في ساعة معينة. وقد حانت هذه الساعة...».

«عفوك، ولكن من أنت أيتها القادمة الرائعة؟» - أراد أن يعرف رايمالي آغا، ولكنه لم يتجرأ على مقاطعة هذه الغريبة وهي تغني. غير أنه

استسلم بكليته للدهشة والإعجاب بهذه الفتاة. فاضطرب كيانه وغلى الدم في جسده. ولو كان لدى الناس بصر نافذ في تلك اللحظات لرأوا كيف كان يرتعش، كيف رفرف بجناحيه كالعقاب عند الانطلاق. عيناه صارتا تبرقان، وتيقظت أعصابه وكأن نداء محبباً قد تناهى إلى مسامعه وهو في السماء. ورفع رايمالي آغا رأسه وقد نسي السنين...

والفتاة المغنية مستمرة في الغناء:

«استمع إلى قصتي يا أيها الجيراو العظيم، بما أنني صممت على هذه الخطوة. أنا أحبك منذ سني يفاعتي يا رايمالي آغا، المغني ذو الموهبة الإلهية. كنت ألاحقك في كل مكان، أينما غنيت وحيثما رحلت يا رايمالي آغا. لا تلمني. كل أملي هو أن أصبح آقين[١] مثلما كنت أنت، وكما أنت حتى الآن، معلم عظيم في الغناء يا رايمالي آغا. أثناء ملاحقتي لك كظلك غير الملحوظ لم أدع كلمة واحدة من كلماتك أو لحناً من ألحانك يفوتني دون أن أردده كالصلاة. حفظت أشعارك كالتعاويذ. كنت أحلم، وقد توسلت إلى الله أن يمنحني القوة العظيمة كي أقدر على تحيتك ذات يوم سعيد. وكي أعترف لك بحبي، ولكي أغني وأنا خاشعة أمامك أغاني التي أؤلفها بحضورك. وليغفر لي ربي هذه الجسارة فأنا أحلم أن أباريك في الفن يا سيده العظيم، حتى ولو كنت سأنهزم. آه يا رايمالي آغا. لقد حلمت بهذا اليوم، كما تحلم غيري من البنات بعرسها. لكنني كنت صغيرة وأنت عظيم يحبك الجميع، محاط بالمجد والتكريم، فلم يكن من المعقول أن تلحظني، أنا الفتاة الصغيرة وسط الجميع، ولم يكن بمقدورك أن تميزني وسط حشود الولائم. كنت أنهل من أغانيك وأحمر خجلاً وأحلم بك سراً وأتمنى أن أصبح امرأة بسرعة كي آتي إليك وأعلن عن نفسي بكل صراحة.

---

(١) آقين = شاعر ومغني السهوب - كازاخية.

قطعت عهداً على نفسي أن أتعلم فن الكلمة، وأن أتعرف على طبيعة الموسيقى بعمق وأن أتعلم الغناء مثلك يا معلمي، لكي آتي إليك بلا تردد ولا رهبة من نظرتك التي تحملني المسؤولية، لكي أقول لك سلاماً، وأفصح عن حبي وعن تحديَّ دون أي خجل. وها أنا هنا. كلي هنا أمام بصرك وقضائك. بينما كنت أنا أكبر، بينما كنت أسرع لأصبح امرأة دون تأخير، كان الزمن يمر بطيئاً وأخيراً أكملت في هذا الربيع التاسعة عشرة. وأنا يا رايمالي آغا ما زلت في عالمي – أنا الفتاة – كما أنت، مع شيب بسيط. لكن هذا ليس مانعاً من أن أحبك بشكل يمكن ألا أحب به أحداً غيرك حتى ولو كان دون شيب. ها أنا ذا هنا. والآن اسمح لي أن أقول لك بتصميم وصراحة: بإمكانك أن ترفضني كفتاة ولكن كمغنية. لن تستطيع رفضي، لأنني جئت لأباريك في بلاغة القول... أنا أتحداك، يا معلم والآن الكلمة لك».

- ولكن من أنت؟ ومن أين؟ - انتفض رايمالي آغا ونهض من مكانه.

- ما اسمك؟

- اسمك بيغيماي.

- بيغيماي؟ أين كنت قبل الآن؟ من أين ظهرت يا بيغيماي؟ خرجت هذه الكلمات من فم رايمالي آغا على غير إرادة منه، ووقف مطاطئ الرأس متجهماً.

- قلت لك يا رايمالي آغا. كنت صغيرة، كنت أكبر.

- فهمت كل شيء – أجابها رايمالي آغا – إلا شيئاً واحداً لم افهمه. أنا لا أفهم قدري! لماذا كتب عَلَيَّ القدر أن تكبري بهذه الروعة عندما أكون أنا في مغيب عمري؟ لماذا؟ لكي تقولي لي أن ما كان في الماضي لم يكن كل شيء، وأن حياتي في هذه الدنيا كانت فارغة إذ لم أحرز أن السماء ستكافئني بهذا العذاب حين أتعرف إليك وأسمعك وأرى وجهك؟ لماذا قسوة القدر هذه؟

- عبثاً تتأسف بهذه المرارة، رايمالي آغا – قالت له بيغيماي – فإذا كان القدر يتبدى من خلالي، فلا تشك بي يا رايمالي آغا. فلن يكون أعز علي من أن أعلم أنني قادرة أن أجلب لك السعادة بحناني وبأغاني وحبي المتفاني. لا تشك بي يا رايمالي آغا. ولكن إذا كنت عاجزاً عن التغلب على شكك، وإذا كنت ستغلق الباب إليك دوني، فسأعتبر المباراة معك – وأنا أحبك حباً لا حدود له – شرفاً كبيراً لي، فأنا مستعدة لتقبل أي اختبار.

- ماذا تقولين! ما قيمة الاختبار بالكلمة يا بيغيماي، ما قيمة المباراة في المهارة إذا كان هناك اختبار أكثر رهبةً. وهو اختبار الحب الذي لا يتفق مع النظام الذي نعيش فيه. لا، بيغيماي، أنا لا أعدك بأن أتبارى في البلاغة معك. ليس لأنني أعجز عن ذلك، وليس لأن الكلمة قد ماتت في، وليس لأن صوتي قد هرم، لا. كل ما أستطيعه هو أن أعجب بك يا بيغيماي، كل ما أستطيعه – أن أحبك لشقائي، وأن أتبارى معك في الحب فقط، بيغيماي.

ومع هذه الكلمات أمسك رايمالي آغا الدومبرا ودوزن أوتارها من جديد وانطلق يغني أغنية جديدة. انطلق يغني كما في الأيام الخوالي – كنسمات تكاد لا تسمع بين الأعشاب تارة، وتارة أخرى كرعد يقصف مدوياً في السماء. ومنذ ذلك الحين ظلت على الأرض هذه الأغنية، أغنية «بيغيماي».

«... إن كنت جئت من البعيد كي ترتوي من النبع، فأنا كالريح المعاكسة أعدو إليك وأسقط عند أقدامك يا بيغيماي. وإذا كان هذا اليوم آخر يوم كتبه القدر لي منذ مولدي، فأنا لن أموت اليوم يا بيغيماي. ولن أموت أبداً، يا بيغيماي. سأحيى وأظل أحيى، كي لا أبقى من دونك يا بيغيماي، فأنا من غيرك وكأنني من غير عيون يا بيغيماي...

وهكذا غنى أغنية «بيغيماي» هذه.

وظل ذلك اليوم في ذاكرة الناس طويلاً ودارت الأحاديث الحامية حول رايمالي آغا وبيغيماي. عندما جرى توديع العروس إلى عريسها كان رايمالي

آغا وبيغيماي ينتظران في مقدمة القافلة وسط خيام الاحتفال البيضاء، وسط الفرسان والخيول المزينة، وسط الجمهور المرح المحتفل، وهما يغنيان أغاني التمنيات الطيبة. كانا يركبان جنباً إلى جنب، وركبا بركب، مزهوين بتجاورهما، وهما يبتهلان إلى الله وإلى القوة الخيرة متمنين للعروسين السعادة ويعزفان على الدومبرا والمزامير مغنين الأغاني، تارة هو وتارة هي، تارة هي وتارة هو...

واندهش الناس حولهم لما يسمعون من الغناء وضحكت الأعشاب حولهم، وانتشر دخان المواقد حولهم، وحلقت العصافير حولهم، وعربد الشباب وانتشوا على الجياد الفتية القافزة حولهم...

لم يعرف الناس المغني العجوز رايمالي آغا. لقد عاد صوته ليصدح كما كان. وأصبح من جديد مرناً حاذقاً كما كان، وعيناه صارتا تلمعان كمصباحين في خيمة بيضاء على مرج أخضر، حتى أن جواده سارالا مال برقبته مزهواً.

لكن هذا لم يعجب الجميع. فقد كان بين الجمع من كان يبصق عندما ينظر إلى رايمالي آغا. لقد انزعج أقرباؤه وأبناء قبيلته، وكانوا يسمون «باراقباي». غضب الباراقباي أثناء وجودهم في العرس. ما هذا العيب. لقد جن رايمالي آغا في آخر أيامه. وصاروا يهمسون في أذن أخيه عبد الخان: كيف سنختارك سيدا، والكلب الهرم رايمالي يجلب لنا العار؟ سيهزؤون منا عند الاختيار. أتسمع ماذا يغني وكيف يقهقه وكأنه فحل خيل فتي؟ وتلك الفتاة أتسمع بماذا تجيب؟ يا للعار ويا للخجل. إنها تميل له رأسه أمام الجميع. ليس في هذا أي خير. لماذا يربط نفسه بهذه الفتاة؟ يجب توبيخه، لكي لا تنتشر هذه الشائعة السيئة في القرى...

كان عبد الخان يحمل منذ زمن بعيد الحقد تجاه أخيه الفاسق الذي عاش حتى المشيب من مهنة فاسقة. ظن عبد الخان أنه شاخ وثاب إلى رشده لكن ها هو الآن يجر العار عليه وعلى كل الباراقباي.

عند ذلك ساط عبد الخان جواده شاقاً طريقه عبر الحشد إلى أخيه. وصرخ مهدداً بالسوط «عد إلى رشدك واذهب إلى البيت». لكن أخاه الأكبر لم يسمعه ولم يره، فقد كان مشغولاً بالأغاني الرخيمة. أما أنصاره الذين كانوا يحيطون المغنين بجيادهم والذين كانوا يلتقطون كل كلمة تقال في الأغاني فقد دفعوا بلحظة واحدة عبد الخان بعيداً وتمكنوا من إلهاب رقبته ببضعة سياط. وهيهات أن تعرف هنا من هي اليد الفاعلة. ففر عبد الخان...

والأغاني ظلت تصدح. في تلك اللحظات ولدت على الشفاه أغنية جديدة غناها رايمالي آغا... «عندما ينادي الوعل العاشق صديقته في الصباح، يردد الوادي أصداء صوته الجبلية»

فجاوبته بيغيماي بأغنية ثانية: «وعندما ينظر التم الذي فارق محبوبته إلى الشمس صباحاً، فإنه يرى الشمس قرصاً أسود».

وهكذا غنيا إكراماً للشباب تارة هو وتارة هي.

لم ير رايمالي آغا الذي كان نسي نفسه في تلك الساعة كيف كان أخوه عبد الخان يبتعد على جواده وقد أوغر صدره حقداً وكيف تبعه أقرباؤه وكل الباراقباي غاضبين تحدوهم رغبة غير مؤجلة بالثأر. ولم يعرف رايمالي آغا بذلك العقاب الذي اتفقوا عليه في الخفاء ضده...

والأغاني ظلت تصدح. تارة هو وتارة هي...

وهكذا رافقا موكب العرس إلى المكان اللازم. وعند الوداع غنيا أيضاً «أغنيات التهاني والتمنيات، وقال رايمالي آغا متوجهاً إلى الناس أنه سعيد لأنه عاش حتى يشهد هذه الأيام الرائعة المشهودة، حيث أرسل له القدر كمكافأة هذه الشاعرة الكفء والمغنية الشابة بيغيماي وقال أن الشرر لا يقدح ولا تشتعل النار إلا إذا ضرب الصوان بالصوان. كذلك هو الحال في فن الكلمة. فعندما يتبارى الشعراء في المهارة يدركون سر الكمال. ولكن إضافة إلى كل هذا وإضافة إلى السعادة التي يمكن فهمها، هو سعيد لأنه الآن، في

آخر أيامه، عرف الحب، عرف هذه القوة الروحية التي لم يسبق له أن عرف مثلها منذ ولادته، كالشمس عند الغروب، تشع بأقصى طاقتها الممنوحة لها منذ بداية الخليقة.

فقالت له بيغيماي – في الجواب:

- رايمالي آغا. لقد تحقق حلمي وأنا سأتبعك. فكما تقول سأفعل وأينما تأمر ستجدني فوراً «مع الدومبرا»، لكي تقترن الأغنية بالأغنية، لكي أحبك وأكون محبوبتك. على هذا الأساس سأسلم حياتي للقدر دون تردد.

هكذا صدحت الأغاني.

واتفقا هنا أمام شعب السهب كله أن اللقاء سيكون بعد الغد في السوق الكبير حيث سيغنيان لكل القادمين من كل مكان.

وفي الحال حمل أولئك الذين حضروا الوداع، حملوا إلى كل بقاع المنطقة نبأ اتفاق رايمالي آغا وبيغيماي على الحضور إلى السوق للغناء. وشاع النبأ:

- في السوق.

- أسرجوا الخيول إلى السوق.

- تعالوا إلى سوق الشعراء.

وكان لكلام الناس أصداؤه:

- عيد وأي عيد.

- هناك سيكون اللهو.

- يا للجمال.

- يا للعار.

- يا للروعة.

- يا لقلة الحياء.

وافترق رايمالي آغا وبيغيماي في منتصف الطريق:

- إلى اللقاء في السوق عزيزتي بيغيماي!

- إلى اللقاء في السوق رايمالي آغا!

وبعد أن ابتعدا قليلاً صَرَخا:

- إلى اللقاء في السوق.

- إلى اللقاء في السوق رايمالي آغا.

كان النهار في نهايته. والسهب الكبير يغوص في فيض من أصيل صيف السهوب الأبيض. لقد نمت الأعشاب وبدأت تفوح منها رائحة الذبول بعض الشيء وصارت تنتشر رطوبة باردة بعد هبوط الأمطار في الجبال. وكانت عقبان تحلق قبل الغروب متباطئة على ارتفاع منخفض، والعصافير تزقزق مخلدة هذه الأمسية الآمنة...

وتمتم رايمالي آغا وهو يمسح بيده عرف جواده:

- يا لهذه الروعة وهذا الهدوء. آه يا سارالا، آه أيها العجوز. يا حصاني الرائع. أهي رائعة الحياة لدرجة أن أحب هكذا في آخر أيامي؟...

وسارالا كان يخطو خطواته المعتادة أثناء السفر وهو يضطرد، مسرعاً «إلى البيت كي يريح قوائمه. لقد أمضى يوماً «مضنياً» وهو يسير مسرجاً» فاشتاق أن يشرب الماء من أحد الغدران وأن يخرج ليرعى في الحقول تحت ضوء القمر.

ها هي القرية عند منحنى النهر. هذه هي الخيام وها هي المواقد تبعث دخانها بمرح.

وكان رايمالي آغا مستعجلاً. ترك الجواد عند مربطه في الحظيرة وقبل أن يدخل إلى مسكنه جلس يرتاح عند الموقد خارجاً. فاقترب منه أحدهم وهو ابن أحد الجيران.

- رايمالي آغا. الناس يدعونك إلى الداخل.

- أي ناس؟

- كلهم من جماعتنا كلهم من باراقباي.

عندما اجتاز رايمالي آغا العتبة رأى زعماء القبيلة جالسين متراصين على شكل نصف دائرة، وبينهم، في الطرف تقريباً كان أخوه عبد الخان. كان عبد الخان متجهماً. لم يرفع عينيه وكأنه كان يخفي شيئاً ما قد تفضحه نظرته.

- السلام عليكم – حيى رايمالي آغا قومه – عسى ألا يكون قد حصل سوء؟

- نحن بانتظارك. أجابه رئيسهم.

- إذا كنتم تنتظروني، فها أنا هنا وأبحث عن مكان أجلس فيه معكم.

- انتظر. قف بالباب، على ركبتيك. – هكذا جاء الأمر.

- ما معنى هذا؟ فأنا ما زلت صاحب هذا البيت.

- كلا أنت لست صاحبه. لا يمكنك أن تكون أيها العجوز فاقد العقل صاحبه.

- عم تتكلمون؟

- نتحدث عن أنك يجب أن تقسم بأن لا تعود إلى الغناء أبداً في أي مكان وأي زمان، وأن لا تتسكع من وليمة إلى وليمة، وأن تنزع من فكرك كلياً تلك الفتاة التي كنت تغني معها اليوم أغان مشينة ناسياً لحيتك البيضاء قليلة الخجل، ناسياً كرامتنا وكرامتك. أقسم ألا تريها وجهك أبداً.

- عبثاً تهدرون الكلام. بعد غد سأغني معها أمام الشعب كله في السوق.

فارتفع الصراخ.

- إنَّه سيطمرنا بالعار.

- تخل عن هذا ما دام الوقت لم يفت بعد.

- لقد جن.

- حقاً إنَّ به مس.

- هدوء. اصمتوا. – أنهى القاضي الرئيسي هذا الهرج –بهذا تكون قد قلت كل ما تريد قوله يا رايمالي؟

- قلت كل شيء.

- أتسمعون يا أحفاد البارافباي ما يقوله ابن قبيلتنا رايمالي الكافر هذا؟

- نعم سمعنا.

- إذن اسمعوا ما سأقوله أنا. أولاً سأقول لك يا رايمالي الكافر، أنك قضيت حياتك في الفقر والعربدة والغناء في الحفلات والطنطنة مع الدومبرا، فكنت مهرجاً ومهزلة. استخدمت حياتك لتسلية الآخرين. وكنا نغفر لك فسقك. فقد كنت شاباً. أما الآن فأنت عجوز ومضحك ونحن نحتقرك. لقد آن الأوان لتفكر في الموت والتوبة، لكنك أنت تعرض نفسك للسخرية ولكلام القرى المحيطة عنك وعن هذه الفتاة. فقد انتهكت الأعراف والعادات بطيش وخفة عقل ولا تريد أن تصغي لنصيحتنا، لذا فليجازيك ربك، فأنت الجاني على نفسك. والآن الكلمة الثانية. انهض يا عبد الخان، فأنت أخوه من دمه ولحمه، من أب واحد وأم واحدة، وأنت سندنا وأملنا. نريد أن نراك باسم كل البارافباي زعيماً لكن أخاك فقد عقله تماماً، فهو نفسه لا يدرك ماذا يفعل، وقد يكون عائقاً في هذه القضية. لذلك أنت صاحب الحق بالتصرف معه بشكل لا يسمح لرايماي المجنون أن يلحق بنا العار أمام الناس، وبشكل لا يفسح المجال لأحد أن يبصق في وجوهنا وأن يضع البارافباي موقع السخرية.

فسبق رايمالي آغا عبد الخان إلى الكلام:

- ليس بينكم نبياً أو قاضياً لي. إنني أشفق عليكم أيها الجالسون هنا وغير الجالسين، فأنتم في ضلال أكيد، إذ إنكم تبحثون أمراً لا يجوز بحثه في اجتماع عام. فأنتم لا تفهمون أين هي الحقيقة وأين هي السعادة في هذه الدنيا. هل من المعيب أن نغني عندما يحضرنا الغناء؟. وهل من المعيب الحب إذا أتانا الحب الذي أنعم الله علينا به منذ الأزل؟ إن أكبر سعادة على الأرض هي أن نفرح بالمحبين ولكن بما أنكم تعتبروني مجنوناً لمجرد أنني أغني ولأنني لا أتنكر لذلك الحب الذي جاء على غير ميعاد، بل أفرح به، فأنا سأرحل عنكم. سأرحل والدنيا واسعة. سأمتطي الآن سارالا وأذهب إليها أو أذهب وإياها إلى نواح أخرى، كي لا أثير حفيظتكم بأغاني ولا بتصرفاتي.

- كلا، لن تذهب. اعترض بصوت أجش مخيف عبد الخان الذي كان صامتاً حتى الآن – لن تخرج من هنا إلى أي مكان. لن تذهب إلى أي سوق. سنعالجك حتى يعود عقلك إليك.

ومع هذه الكلمات اختطف الأخ الدومبرا من يد الشاعر المغني.

- هكذا – وألقى على الأرض بهذه الآلة الهشة وصار يهشمها بقدميه وكأنه ثور هائج يعفس راعيه – منذ الآن ستنسى الغناء. احضروا سارالا. – وأعطى إشارة بيده.

واقتاد أولئك الذين كانوا يقفون في الفنان على أهبة الاستعداد سارالا من مربط الخيل.

- انزعوا السرج، وأرموه إلى هنا – أعطى عبد الخان أوامره بعد أن سحب الفأس الذي كان يخفيه.

حطم السرج بنفسه مفتتاً إياه إلى قطع صغيرة وقطع الأحزمة وحطم الركاب إلى قطع صغيرة وراح ينثرها في كل الاتجاهات ثائراً غاضباً.

وبدأ سارالا بالتململ فقرفص على عقبيه وبدأ ينخر وهو يحاول قضم اللجام وكأنه أدرك أن مصيره سيكون نفس الشيء.

- إذن هكذا؟ تنوي الذهاب إلى السوق؟ وعلى سارالا؟ إذن انظر – وتوحش عبد الخان.

بلمح البصر ألقى جماعة عبد الخان سارالا أرضاً وقيدوه فوراً بحبل من الشعر وأمسك عبد الخان بكفه القوية الحصان من رقبته وشد رأسه إلى الوراء وغرز سكينة فوق الحنجرة العزلاء الضعيفة.

أفلت رايمالي آغا بكل ما أوتي من قوة من بين أيدي من كانوا يمسكون به.

- قف، لا تقتل الحصان.

ولكنه لم يلحق، إذ اندفع الدم سهماً حاراً من تحت الجلد وتدفق إلى العيون، كالظلام وسط النهار. وانتصب رايمالي آغا مضرجاً بدماء سارالا وهو يترنح أثناء نهوضه.

- عبث. فأنا سأذهب سيراً على الأقدام، سأزحف على ركبتي – صرخ المغني المهان وهو يمسح وجهه بطرف قميصه.

- لا، حتى سيراً على الأقدام لن تذهب – ورفع عبد الخان بحدة وجهه المكشر ذا الأشداق المفتوحة والشفاه المتدلية –لن تخطو من هنا خطوة واحدة – قالها بهدوء، ثم صرخ فجأة: - أمسكوه. إنه مجنون، اِربطوِه. سيقتلني.

وارتفعت الصيحات واضطرب الجميع وهم يتدافعون:

- هاتوا حبلاً.

- اكسر له يديه.

- شد وثاقه أكثر.

- أقسم لكم بالله أنه جن.

- انظر إلى عينيه، كيف هي.

- يه يه، لقد فقد عقله.

- احمله إلى هنا، إلى الشجرة.

- هيا جروه.

- احمله بسرعة.

وكان القمر يقف في الأعالي فوق الرؤوس. كانت السماء والأرض هادئتين تماماً. ثم جاء بعض المشعوذين وأشعلوا بعض المواقد وصاروا يطردون برقص متوحش الأرواح التي عتمت على عقل هذا الشاعر العظيم.

أما هو فقد وقف موثوقاً إلى الشجرة ويداه مربوطتان وراء ظهره.

وبدأ رايمالي آغا يغني متوجهاً إلى أخيه عبد الخان:

«ينقضي الليل حاملاً معه آخر خطوط الظلام ومن جديد سيعود النهار المقبل، لكن لا نور لي منذ الآن. أنت أخذت شمسي يا أخي الجاحد عبد الخان. أنت سعيد تتباهى بأنك فرقت بيني وبين الحب الذي أرسله الله في أواخر أيام حياتي، لكن ليتك تعرف مدى السعادة التي سأظل أحس بها ما دامت أنفاسي تخفق، وما دام قلبي يدق. أنت قيدتني وأوثقت رباطي إلى الشجرة، لكنني الآن لست هنا – يا أخي البائس عبد الخان. هنا فقط جسدي الفاني. لكن روحي كالريح – تقطع المسافات، كالمطر – يتحد مع الأرض، في كل لحظة أنا معها كشعرها كأنفاسها لا تفترق عنها.

عندما تستيقظ في الفجر سأنحدر إليها من الجبال كذكر ماعز وحشي، سأظل أنتظر عند الصخرة العالية إلى أن تخرج من خيمتها في الصباح. وعندما ستشعل النار سأكون أنا الدخان الذي سيدخنها عندما ستعدو على الحصان وتبدأ باجتياز النهر، سأكون الرذاذ المتطاير من تحت الحوافر، أنا سأبلل وجهها ويديها. وعندما ستغني سأكون أنا الأغنية...»

واهتزت فوق رأسه عند الفجر الأغصان مصدرة حفيفاً بسيطاً.

حل النهار. فجاء الجيران، يدفعهم الفضول، ليروا رايمالي المجنون، وتجمعوا بعيداً عنه دون أن يترجلو عن جيادهم.

أما هو فقد وقف في ثيابه الممزقة، موثوقاً إلى الشجرة ويداه مربوطتان وراء ظهره، وهو يغني تلك الأغنية التي اشتهرت بعد ذلك:

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال السود.

فك يدي يا أخي عبد الخان.

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال الزرق.

أعطني حريتي، يا أخي عبد الخان.

لم يخطر لي ولم أحزر.

أنني على يديك سأقيد من يدي ورجلي.

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال السود.

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال الزرق.

فك يدي يا أخي عبد الخان.

فأنا سأصعد إلى السماوات بطيب خاطر.

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال السود.

لن أكون في السوق يا بيغيماي.

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال الزرق.

لا تنتظريني في السوق يا بيغيماي.

لن نغني وإياك في السوق.

فجوادي لن يلحق، وأنا لن استطيع الوصول.

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال السود،

عندما تهبط مضارب الرحل من الجبال الزرق،

لا تنتظريني في السوق يا بيغيماي،

فأنا سأصعد إلى السماوات بطيب خاطر.

هذه هي القصة.

والآن وفي الطريق إلى انابيت لتوديع قازانغاب إلى مثواه الأخير ما تزال هذه الأفكار تلح على يديغاي.

*   *   *

- ٩ -

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق. وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية واسعة – صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء...

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

بعد أن قطعوا مسافة طويلة على امتداد المنحدر ذي الرمال الحمراء «مالاقومديتشاب» حيث دارت في عصر من العصور نايمان أنا بحثاً عن ابنها المسلوب، بعد أن قطعوا هذه المسافات وجدوا أنفسهم على مشارف انابيت. واعتبر يديغاي العاصف الذي كان ينظر باستمرار تارة إلى ساعته وتارة إلى الشمس في سماء ساروزيكي، إنَّ الأمور حتى الآن تسير على ما يرام. وبعد الدفن سيتمكنون حتماً من العودة إلى البيت في الوقت المناسب كي يؤبنوا قازانغاب سوية. طبعاً سيكون المساء قد حل، لكن المهم أن ينطبق حسابهم على يومهم. إيه أيتها الحياة ها هو قازانغاب سيرقد في انابيت، أما هم فسيتذكرونه بعد أن يعودوا إلى البيت بكلمة طيبة..

بنفس الترتيب السابق: في المقدمة يديغاي على قارانار المزين بالغطاء ذي الشراشيب، وخلفه جرار يجر عربة مقطورة به وخلف العربة حفارة «بيلوروس» - خرجوا من «مالاقومديتشاب» إلى سهل انابيت يرافقهم الكلب

الأصهب جولبارس الذي يعدو لوحده كيفياً وقد تدلى لسانه من فمه. هنا، عند خروجهم من «مالاقومديتشاب» وقعت أول مشكلة. فقد اصطدموا بشكل مفاجئ، بعائق كبير وهو سياج من الأسلاك الشائكة.

كان يديغاي أول المتوقفين. هاك هذا الخازوق. حتى إنّه نهض واقفاً على الركابين، ومن أعلى قارانار نظر إلى اليمين ونظر إلى اليسار فرأى على مد عينه والنظر خطا يتلوى على الأرض كالحية صعوداً وهبوطاً من الأسلاك الشائكة المثبتة على أعمدة مربعة من الإسمنت المسلح غرزت في الأرض على مسافات متساوية، عمود كل خمسة أمتار. لقد كان هذا السياج متيناً راسخاً. الله يعلم أين يبتدئ وأين ينتهي. لم يعد هناك مجال لمتابعة المسير. ما الحل إذن؟ وأي طريق يسلكون.

أثناء ذلك توقف الجرار أيضاً، وكان أول الخارجين من قمرته سابيتجان وخلفه اديلباي الطويل.

- ما هذا – وأشار سابيتجان بيده إلى السياج ثم سأل يديغاي: - أخطأنا الطريق؟

- لماذا أخطأنا؟ لم نخطئ ولكن هذا الشريط لست أدري من أين جاء، ليحمله الشيطان؟

- ألم يكن موجوداً سابقاً؟

- لم يكن.

- ما هو الحل الآن؟ كيف سنتابع سيرنا؟

صمت يديغاي بعض الشيء فهو نفسه لم يكن يعرف ما هو الحل.

- هيه أنت. أوقف هذا الجرار، كفاه قرقعة – قالها سابيتجان بحدة لكاليبيك الذي كان قد أخرج رأسه من قمرة القيادة.

فأوقف ذلك المحرك، وبعده صمتت الحفارة. وساد الهدوء التام جلس يديغاي العاصف متجهماً على جمله، وبالقرب منه وقف سابيتجان واديلباي الطويل. أما السائقان كاليبيك وجوماغالي، فقد ظلا في حجرتي القيادة، والمرحوم قازانغاب المكفن بكفن أبيض مستلق في العربة المقطورة وبجانبه جلس صهره السكير زوج آيزادا، أما الكلب الأصهب جولبارس فقد وقف عند عجلة الجرار ورفع رجله عالياً عليها منتهزاً فترة التوقف هذه.

وامتد سهب صاروزيكي العظيم تحت السماء من أقصى الأرض إلى أقصاها. ولكن ليس فيه معبر إلى مدفن انابيت. ووقف الجميع حائرين أمام جدار الأسلاك الشائكة هذا.

أول من حطم الصمت هو اديلباي الطويل:

- يديكيه، هذا السياج لم يكن موجوداً في الماضي؟

- أبداً هذه أول مرة أراه فيها.

- إذن هذه المنطقة مسورة بشكل خاص، ربما من أجل المطار الكوني هكذا افترض اديلباي الطويل.

فأجاب يديغاي:

- هذا هو الظاهر. وإلا فما الضرورة لبذل كل هذه الجهود من أجل تسييج السهب. من الذي ابتدع هذا؟ إنهم يفعلون كل ما يخطر ببالهم. عليهم اللعنة.

فارتفع صوت سابيتجان غاضباً.

- ما فائدة اللعنات هنا. كان من الأفضل أن تعرف سلفاً قبل أن تقطع هذه المسافة الكبيرة للدفن.

حل صمت ثقيل، ونظر يديغاي من على ظهر قارانار نظرة كراهية إلى سابيتجان الواقف بالقرب منه مستعرضاً إياه من رأسه إلى قدميه وقال له بما قدر عليه من الهدوء.

- أما أنت، يا حبيبي فانتظر قليلاً ولا تتململ. الأسلاك الشائكة لم تكن موجودة هنا في السابق. فمن أين لنا أن نعرف.

- هذا هو حديثنا. –تمتم سابيتجان وأدار ظهره.

وصمت ثانية. لكن اديلباي الطويل فكر بشيء ما.

- ما هو الحل الآن، يديكيه؟ ماذا ستفعل؟ هل يوجد طريق آخر إلى المقبرة؟

- يجب أن يكون. لم لا؟ يوجد طريق ثان على بعد خمسة كيلو مترات إلى اليمين. – أجاب يديغاي وهو يتلفت حوله – هيا. لنذهب إلى هناك.

يستحيل أن يكون الطريق إلى هناك مقفلاً، لا ذهاب ولا إياب.

- هل يوجد هناك طريق حقاً؟. حاول سابيتجان التأكد – أم أن الطريق مقفل فعلاً، لا ذهاب ولا إياب؟

- يوجد، يوجد – أكد يديغاي – اركبوا، ولنذهب لن نضيع الوقت.

ومضى من جديد، ومن جديد بدأ الجرار يقرقع خلفه. وانطلقوا يسيرون بمحاذاة الأسلاك الشائكة.

تألم يديغاي كثيراً فقد ثبط هذا من عزيمته. كيف يمكن أن يغلقوا ويطوقوا هذه المنطقة دون أن يشيروا إلى طريق المقبرة.

هكذا هي الأمور وهكذا هي الحياة. لكن كان عنده أمل – لابد أن تكون هناك شارة ما في هذه الناحية الجنوبية. وفعلاً وجدوا هذه الشارة إذ وصلوا إلى حاجز على الطريق.

اقتربوا من الحاجز، فلفت نظر يديغاي متانة بناء نقطة العبور وكونها مبنية بناء راسخاً: على الجانبين عمودان ضخمان من الإسمنت، وبجانب الطريق غرفة من الأجر كل نوافذها العريضة من الزجاج – من أجل المراقبة، وعلى سطحها المنبسط نصب مصباحان كبيران للإنارة الموجهة،

وذلك على ما يبدو من أجل إنارة المعبر في الليل. بعد هذا الحاجز كان يمتد طريق معبد إسفلتي. اضطرب يديغاي وانتابه القلق عند رؤية هذه الترتيبات. عند اقترابهم خرج من المحرس جندي أشقر صغير السن، يحمل بندقية على كتفه وقد وجه فوهتها نحو الأسفل. خرج وهو يشد قميصه القطني ويصحح وضع عمرته على رأسه من أجل اكتساب أهمية أكبر ووقف بمظهره الصارم عند منتصف العارضة المخططة ومع ذلك كان هو البادئ بالتحية عندما اقترب يديغاي كثيراً من العارضة التي تسد الطريق.

- السلام عليكم – وحيى الحارس بالتحية العسكرية، وهو ينظر إلى يديغاي بعينين طفوليتين زرقاوين – من تكونون؟ وإلى أين طريقكم؟

- نحن من هنا أيها الجندي – أجابه يديغاي وهو يبتسم للقسوة الصبيانية التي أظهرها الحارس – نحن نحمل أحد عجائزنا لندفنه في المقبرة.

- ممنوع، دون إذن بالمرور – هز العسكري الفتي رأسه بالسلب مبتعداً بشكل لا يخلو من الخوف عن فم قارانار المليء بالأسنان الذي يمضغ ما يجتره. وقال شارحاً – هذه المنطقة محمية، يمنع الدخول إليها.

- فهمت، ولكننا نريد الذهاب إلى المقبرة، فهي ليست بعيدة جداً ندفن المرحوم ونعود دون أي تأخير.

فأجاب الحارس.

- لا أستطيع. هذه ليست صلاحيتي.

انحنى يديغاي لكي يستطيع الجندي أن يري بشكل أفضل الأوسمة والميداليات الحربية المعلقة على صدره، وقال:

- اسمع، يا حبيبي. نحن لسنا غرباء، نحن من نقطة أم العواصف ربما سمعت بها. نحن منكم وفيكم. يجب أن ندفنه. سنصل إلى المقبرة ونعود.

- فهمت قصدك. – بدأ الحارس بحديثه وهو يرفع كتفيه بكل طيبة، ولكن في هذه اللحظة اقترب دون أي مبرر سابيتجان وهو يتصنع مظهر رجل الأعمال الهام المسرع.

- ماذا هنا؟ أنا من مجلس المحافظة النقابي – أعلن سابيتجان عن نفسه – لماذا توقفتم؟

- لأنه ممنوع.

- قلت لك أيها الرفيق إنني من مجلس المحافظة النقابي.

- لا يهمني من أين أنت. كله سواء.

- كيف هذا؟ - ذهل سابيتجان.

- هكذا. هذه منطقة محمية.

فغضب سابيتجان:

- إذن لماذا الكلام؟

- من الذي يتكلم؟ أنا اشرح احتراماً للرجل الجالس على الجمل وليس لك. أريد أن أفهمه. وعلى كل حال، أنا لا يحق لي أن أدخل في حوار مع الغرباء. أنا أؤدي عملي.

- إذن، لا يجوز المرور إلى المقبرة؟

- كلا. وليس فقط إلى المقبرة، بل المرور هنا ممنوع منعاً باتاً.

- إذن. – وثار غضب سابيتجان – لقد حسبت هذا الحساب. – قالها متوجهاً إلى يديغاي – حسب أن الأمر سيكون سخيفاً. لم تقبلوا إلا انابيت، انابيت. هاك انابيت – وبهذه الكلمات ابتعد منزعجاً وهو يبصق بانفعال وغضب.

بعد هذا صار موقف يديغاي أمام الفتى الحارس محرجاً.

- معذرة يا بني – قالها بلهجة أبوية – الأمر واضح فأنت تنفذ مهماتك ولكن أين نذهب الآن بالمرحوم؟ فهو ليس جذع شجرة ترميه وتمضي.

- أنا أفهم هذا، ولكن ماذا بمقدوري؟ أنا يجب أن أنفذ ما يقولونه لي. فأنا هنا لست مسؤولاً.

- نعم. هكذا – مط يديغاي هذه الكلمة وهو لا يعرف ماذا يقول. – وأنت، من أين؟

- أنا من فولوغدا يا أبت – تمتم الفتى مرتبكاً ومبتسماً، فرحاً كالأطفال وهو لا يخفي سروره بالإجابة على هذا السؤال.

- عندكم في فولوغدا يقف، أيضاً، حراس على المقابر؟

- لماذا؟ طبعاً لا. عندنا تدخل إلى المقبرة متى تشاء، لكن المشكلة ليست هنا. المشكلة أن هذه المنطقة منطقة مغلقة. أنت نفسك يا أبت خدمت في الجيش وحاربت، كما أرى، وأظنك تعرف أن الخدمة هي الخدمة. شئت أم أبيت، هذا واجب، لا مهرب منه.

- هكذا، نعم هكذا. – وافق يديغاي – ولكن أين سنذهب الآن بالميت؟

وصمتا. ولكن بعد تفكير عميق هز الجندي الصغير رأسه ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين بأسف وقال:

- لا، يا أبت، لا أستطيع. ليس هذا من صلاحيتي.

- طيب – نطق بها يديغاي وهو شارد الذهن.

كان من الصعب عليه أن يلتفت إلى رفاقه، لأن سابيتجان قد بدأ ينضح لؤماً أكثر وأكثر فاقترب من اديلباي الطويل، وسمع عند الحفارة رغاؤه وهديره:

- قلت لكم، لا ضرورة لأن نجر أنفسنا إلى هذا المكان النائي. هذه خرافات. تسببون ألم الرأس لنفسكم ولغيركم. أي فارق في أن تدفن الميت هنا أو هناك. وأنتم لا: تفجر ولكن هات لنا انابيت. وأنت أيضاً تقول لي: اذهب. سندفنه من غيرك. تفضلوا، ادفنوه.

وابتعد اديلباي الطويل عنه صامتاً. ثم اقترب من الحاجز وقال للحارس:

- اسمع يا صديقي. أنا أيضاً خدمت وأعرف بعض الأنظمة. هل يوجد عندك هاتف؟

- طبعاً يوجد.

- إذن هكذا: اتصل برئيس الحرس. وقل له إنَّ سكاناً محليين يطلبون السماح لهم بالمرور إلى مدفن انابيت.

- ماذا؟ ماذا؟ انابيت؟ - سأل الحارس مستفسراً.

- نعم. انابيت. هكذا يسمى مدفننا. اتصل يا صديقي. فليس أمامنا مخرج آخر، فليحصل هو على إذن لنا بذلك، ونحن من جهتنا – كن على ثقة لا يهمنا شيء هنا إلا المقبرة.

فكر الحارس وهو يحول ثقل جسمه من ساق إلى ساق ثم قطب حاجبيه. فقال اديلباي الطويل:

- لا تخف: هذا منسجم مع النظام. لقد حضر إليك غرباء وأنت تعلم رئيس الحرس. هذه كل العملية. ما بالك؟ مفروض فيك أن تعلمه – حسن – هز الحارس رأسه – سأتصل به. لكن رئيس الحرس يتجول دائماً في سيارته على المواقع. والمسافات عندنا طويلة.

فطلب منه اديلباي:

- ربما أبقى بجانبك، لكي ألقنك ماذا تقول عند الضرورة؟

- تعال. – قال الحارس موافقاً.

واختفيا في غرفة الموقع التي ظل بابها مفتوحاً، وهذا ما مكن يديغاي من الاستماع إلى كل شيء. كان الحارس يتصل بالهاتف إلى مكان ما ويسأل عن رئيس الحرس. وذلك مجهول المكان.

- لا. أريد رئيس الحرس. – كان الحارس يشرح طلبه – أريده شخصياً... لا. هنا توجد قضية هامة.

توترت أعصاب يديغاي. أين اختفى رئيس الحرس هذا؟ المنحوس منحوس.

وأخيراً عثروا عليه. فصار الحارس يتكلم بصوت رنان مضطرب.

- الرفيق الملازم. الرفيق الملازم.

وأعلمه أن سكاناً محليين جاءوا ليدفنوا شخصاً في المقبرة القديمة. كيف يجب أن يتصرف؟ وتيقظ يديغاي منصتاً: الآن سيقول الملازم أدخلهم. وينتهي كل شيء. أحسنت اديلباي الطويل. إنَّهُ شاب فطن. إلا أن حديث الحارس صار يطول وصار يجيب على الأسئلة فقط:

- نعم.. كم؟ ستة رجال. ومع الميت سبعة. مات عندهم رجل عجوز. كبيرهم على جمل، ثم جرار وعربة مقطورة ووراء الجرار حفارة أيضاً... يقولون ضروري من أجل حفر القبر.. كيف؟ ماذا أقول؟ إذن ممنوع؟ هذا غير مسموح؟ حاضر.

وهنا دوى صوت اديلباي الطويل يبدو أنه أمسك بالسماعة.

- الرفيق الملازم قدر وضعنا، أيها الرفيق الملازم. لقد جئنا من نقطة أم العواصف. أين سنذهب الآن؟ قدر وضعنا. نحن من السكان المحليين، ولن نقوم بأي عمل سَيِّئ. سندفن الرجل ونعود فوراً... حسن؟ ماذا؟ ولكن أيعقل هذا؟ تعال، تعال وستتأكد بنفسك. معنا كبيرنا وهو محارب قديم، اشترك في الحرب وهو سيشرح لك.

خرج اديلباي الطويل من غرفة الحراسة منزعجاً، لكنه قال إنَّ الملازم سيحضر وسيحل المسألة هنا. وفي أثر اديلباي اقترب الحارس وقال نفس الشيء. لقد أحس الحارس الآن بالارتياح لأن رئيس الحرس هو نفسه الذي

سيتخذ القرار في هذه القضية، وصار يتمشى جيئة وذهاباً أمام العارضة المخططة.

استغرق يديغاي العاصف في أفكاره. من كان يتوقع هذا التحول في هذه المسألة؟ يجب انتظار قدوم الملازم. في هذه الأثناء أسرع يديغاي وقاد الجمل إلى الحفارة وربطه بمجرفتها، ثم عاد إلى الحاجز. بينما وقف السائقان كاليبيك وجوماغالي يدخنان ويتحدثان بصوت منخفض. وسابيتجان يذرع المكان بعيداً عن الجميع ذهاباً وإياباً متوتر الأعصاب أما صهر قازانغاب، زوج آيزادا فقد ظل جالساً كما كان، عند جثمان المتوفى في العربة المقطورة.

- ماذا، يديكيه، هل سيسمحون لنا بالمرور؟ سأل الصهر يديغاي.

- يجب أن يسمحوا. الآن سيحضر الرئيس نفسه، الملازم. لماذا لا يسمحون؟ وهل نحن جواسيس. ليتك تنزل من العربة. امش قليلاً. حرك جسمك بعض الشيء.

كانت الساعة الثالثة، وهم لم يصلوا بعد إلى انابيت، رغم أن المسافة الباقية ليست كبيرة.

عاد يديغاي إلى الحارس.

يا بني، هل سيطول انتظارنا لرئيسك؟

- لا سيصل الآن. معه سيارة. المسافة هي مسير عشر أو خمس عشرة دقيقة.

- طيب. سننتظر. منذ متى أقاموا الأسلاك الشائكة هنا؟. منذ زمن بعيد؟

- منذ زمن لا بأس به، نحن الذين أقمناها. أنا أخدم هنا منذ سنة وهذا يعني أنهم أقاموا هذا الطوق منذ ستة أشهر.

- هكذا إذن. أنا لم أكن أعرف أيضاً أن هذا الحاجز موجود ولهذا حصل ما حصل. وأنا الآن أبدو بمظهر المذنب لأنني أنا الذي دبرت المجيء إلى هنا للدفن. هنا توجد مقبرة قديمة، مقبرة انابيت. والمرحوم قازانغاب كان رجلاً ممتازاً. عملنا معاً في النقطة ثلاثين سنة. وأردت دفنه على أحسن شكل.

يبدو أن الجندي صار كلي التعاطف مع يديغاي العاصف.

- اسمع يا أبت – قالها منهمكاً – عندما يحضر رئيس الحرس تانصيقبايف قل له كل شيء كما هو. فهو أيضاً إنسان. فليعلم رؤساءه. وهناك ربما سيسمحون.

- شكراً على النصيحة. إلا فماذا سنفعل؟ كيف قلت؟ تانصيقبايف؟ كنية الملازم تانصيقبايف؟

- نعم. تانصيقبايف. لم يمض زمن طويل على وجوده هنا. ماذا؟ أنت تعرفه؟ هل هو من جماعتكم؟ ربما يكون أحد أقربائكم؟

- - وضحك يديغاي – فكنية تانصيقبايف عندنا مثل كنية ايفانوف عندكم. ولكنني تذكرت إنساناً يحمل مثل هذه الكنية.

في هذه اللحظات رن جرس الهاتف في الموقع فأسرع الحارس إليه. وظل يديغاي وحيداً. وعاد حاجباه ليرتفعا باستغراب. تلفت يديغاي حوله متجهماً ومتفحصاً: ألم تظهر سيارة ما على الطريق وراء الحاجز؟. وهز رأسه. «ماذا لم ثبت أن هذا هو ابن سنقري العينين ذاك؟ فكر يديغاي بهذا ثم أنب نفسه في نفسه – هذا ما ينقص. أن يعشش في ذهني. ما أكثرهم أصحاب هذه الكنية. لا يمكن. مستحيل. لقد جازوا ذلك التانصيقبايف فيما بعد جزاء وفاقاً.. ومع ذلك توجد على الأرض حقيقة! توجد! مهما كان ستنتصر الحقيقة..».

ابتعد جانباً، سحب منديله ومسح به باهتمام أوسمته وميدالياته وشارات العمل الطليعي، لكي تزداد لمعاناً ولكي يلحظها الملازم تانصيقبايف مباشرة.

* * *

- ١٠ -

أما تانصيقبايف ذاك، سنقري العينين، فهذا ما حدث له:

عقد في نهاية ربيع عام ١٩٥٦ مهرجان خطابي كبير في مرآب محطة قومبيل، وقد دعي إليه الجميع، وجاء الكثيرون من كل المحطات والنقاط ولم يبق في مكانه إلا من كان في ذلك اليوم منشغلاً بالعمل على الخط. كم شهد يديغاي العاصف من الاجتماعات المختلفة، لكن لم ينس هذا المهرجان أبداً.

تم الاجتماع في قسم إصلاح القاطرات البخارية. وكان المكان يغص بالناس، حتى أن البعض تسلقوا السطح وجلسوا على الشرفات. لكن الأهم من هذا هو تلك الكلمات التي ألقيت. لقد فضحت كل أمور بيريا حتى العظم، لقد رذل هذا الجلاد اللعين ولم يجد من يأسف عليه ظلوا يلقون الخطابات بحرارة حتى المساء. عمال المرآب أيضاً صعدوا إلى المنصة وتكلموا ولم يغادر أحد الاجتماع ، وكأن الجميع كانوا مسمرين في أماكنهم، ولم يكن يسمع في المكان إلا هدير الأصوات الذي كان يضج كالغابة تحت قناطر البناء.

ما زال يديغاي يذكر أن واحداً من الجمهور كان يقف بالقرب منه أعلن بلهجة روسية خالصة: «كالبحر قبيل العاصفة». وفعلاً هكذا كان صار قلب يديغاي يطرق صدره، كما كان يدق على الجبهة قبيل الهجوم، واشتهى شربة ماء، فقد جف ريقه، ولكن من أين له أن يحصل على الماء في هذا الازدحام. لا ضرورة للماء. يجب أن يحتمل. في الاستراحة استطاع يديغاي أن يصل إلى المسؤول الحزبي في المرآب – تشيرنوف – الذي كان رئيساً للمحطة. وكان تشيرنوف يجلس على المنصة.

- اسمع، اندريه بيتروفيتش، هل يمكنني أن أتكلم؟

- هيا، إذا كانت لديك الرغبة.

- الرغبة موجودة، بل رغبة شديدة. ولكن يجب أن نتشاور أولاً. أتذكر كوطيبايف الذي كان يعمل عندنا في النقطة. أبو طالب كوطيبايف. وتذكر أن المفتش كتب بحقه تقريراً يتهمه بأنه يكتب المذكرات اليوغوسلافية. لقد حارب أبو طالب هناك مع الفدائيين الأنصار. وكتب ذلك المفتش ما هب ودب فجاء رجال بيريا وأخذوا الرجل. وقد مات بسبب ذلك. ضاع من غير سبب. أتذكر؟

- نعم، أذكر وامرأته جاءت وأخذت الورقة.

- صح، صح. وبعد ذلك رحلت أسرته. وها أنا الآن استمع وأفكر. توجد بيننا وبين يوغوسلافيا صداقة، وليست هناك أية خلافات. فلماذا يعاني الأبرياء؟ لقد كبر أطفال أبي طالب، ويجب أن يذهبوا إلى المدرسة. يجب أن يتم هذا وصفحتهم نظيفة، وإلا فكل من هب ودب سيغرز إصبعه في عينهم. ويكفي الأطفال عذاباً أنهم ظلا بلا أب.

- لحظة، يديغاي. أنت تريد أن تتكلم عن هذا؟

- نعم.

- ما هي كنية ذلك المفتش.

- بالإمكان معرفتها. الواقع أنني لم أره بعد ذلك.

- من سيدلك على كنيته؟ ثم هل هناك براهين موثقة؟ وماذا كتب بالضبط؟ هنا تحتاج إلى شواهد واقعية يا عزيزي العاصف. فماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ القضية لا مزاح فيها. اسمع نصيحتي يا يديغاي: اكتب حول كل هذا رسالة إلى آلما – آتا – اكتب كل شيء كما وقع، اكتب القصة كلها وأرسل رسالة إلى لجنة الحزب المركزية في الجمهورية. وهناك يبتون بالأمر دون تأخير. فالحزب تولى هذا الأمر بجدية، كما ترى أنت.

في ذلك المهرجان الخطابي هتف يديغاي العاصف مع الجميع بصوت عال ومصمم «المجد للحزب. نحن نؤيد خط الحزب» بعد ذلك، عند نهاية المهرجان، انطلق بعضهم من الصفوف الخلفية ينشد «النشيد الأممي». فتبعتهم بعض الأصوات، وبعد دقيقة كان الحشد كله ينشد كرجل واحد تحت قناطر البناء نشيد كل العصور العظيم، نشيد كل من كان مضطهداً اضطهاداً أزلياً. لم يقدر ليديغاي أن ينشد سابقاً ضمن هذا الجمع الغفير من الأصوات. حمله وحلق به كالموج أدركه الظافر الفخور والمر في آن واحد لهذا الاتحاد مع أولئك الذين هم ملح الأرض وعرقها. بينما نشيد الشيوعيين يكبر ويسمو وهو يؤجج في الصدور الفداء والتصميم على الدفاع عن حق الكثيرين من أجل سعادة الكثيرين وتأكيده. وكما يحدث غالباً مع يديغاي في حالات الانفعال الشديد – أحس أنه عند بحر آرال، وهناك حلقت روحه نورساً طليقاً فوق ذؤابات الأمواج البيضاء – آلاباشا.

مع مشاعر الابتهاج هذه عاد إلى البيت، وصار يقص على اوقوبالا وهو يشرب الشاي بتفصيل وحيوية كل ما حدث في المهرجان وحدثها أيضاً كيف أراد هو أن يخطب وماذا قال له حول هذا تشيرنوف المسؤول الحزبي الحالي. كانت اوقوبالا تصغي إلى زوجها وهي تسكب الشاي من السماور فنجاناً إثر فنجان، وهو يشرب ويشرب.

- ماذا حل بك. لقد أفرغت السماور. – قالت عبارة الاستغراب هذه ممازحة.

- هناك في المهرجان الخطابي شعرت بحاجة شديدة للشرب. لقد انفعلت كثيراً. ومن أين هناك الماء. الازدحام لا يسمح لك بالتحرك. بعد ذلك خرجت وأردت الشرب، ولكنني شاهدت قطاراً يتحرك إلى ناحيتنا، فركضت إلى السائق وإذ به من أصدقائي: جاندوس من توتغريك – تاما. في الطريق شربت ماء من عنده. ولكن هل يعتبر هذا شرباً؟

- أرى أن هذا شرباً. – وسكبت اوقوبالا له الشاي من جديد، ثم قالت:

- حسن يديكيه أنك فكرت بهم، بأبناء أبي طالب. وما دام الأمر كذلك، وقد جاء وقت لن يتعرضوا به لهؤلاء الأيتام أرنا شهامتك الرسالة شيء لا بأس به، ولكن إلى أن تكتب وإلى أن تصل ويقرؤوها. وإلى أن يفكروا فيها سيمر الكثير من الوقت. اذهب بنفسك إلى آلما – آتا أحسن. وهناك تقص عليهم كل شيء.

- هكذا تظنين؟ يجب أن أذهب إلى آلما – آتا؟ إلى القيادة العليا مباشرة؟

لم لا؟ زيارة عمل. فكم مرة دعاك صديقك يليزاروف دون جدوى في كل مرة يترك لك العنوان. أنا لن أذهب. اِذهَب أنت. أنا لا أستطيع ترك البيت. لمن أترك الأطفال؟ أما أنت فلا تؤجل السفر. خذ إجازة. خذ ولو مرة واحدة. عندك الكثير من الإجازات التي لم تستخدمها خلال كل هذه السنوات. وهناك تقص القصة كلها على الشخصيات الكبيرة.

أعجب يديغاي بكلام زوجته المعقول.

- أرى يا امرأة أنك تتحدثين بأشياء عملية. تعالي نفكر.

- لا تفكر طويلاً، لا وقت للتفكير. كلما أسرعت كان أحسن. سيساعدك افاناسي ايفانوفيتش فهو يعرف أحسن منك إلى أين وإلى من يجب أن تذهب.

- هذه أيضاً فكرة.

- وأنا أقول لك. المسألة لا تستأهل التأجيل. وفي الوقت ذاته تشاهد وتتعرف وتشتري بعض الحاجات للبيت. لقد كبرت بناتنا، في الخريف ساوليه ستذهب إلى المدرسة. هل فكرت بهذا؟ سنسجلها في المدرسة الداخلية أم ماذا؟ هل فكرت بهذا؟

- فكرت، فكرت، وكيف لا؟ - انهمك يديغاي العاصف، محاولاً إخفاء دهشته لتلك السرعة التي كبرت بها ابنته الكبرى لدرجة أنها بلغت سن المدرسة.

- إذن، إذا كنت تفكر – تابعت اوقوبالا – فسافر وضع الناس في صورة ما قاسيناه في تلك السنين. فليساعدوا الأيتام ولو بتبرئة أبيهم وبعد ذلك، إذا بقي لديك وقت كاف، تجول وشاهد وأحضر شيئاً للبنات، إنْ أحضرت لي شيئاً فلا مانع. فأنا أيضاً لم أعد صبية. – قالتها مع تنهيدة مكبوتة لسبب ما.

نظر يديغاي إلى زوجته. غريب، أن ترى المرء دائماً ولا تلاحظ ما تراه إلا فجأة ودفعة واحدة. طبعاً لم تعد هي صبية، ولكن ما زال الوقت باكراً حتى الشيخوخة. غير أنه أحس بشيء ما جديد فيها، لم يكن يعرفه سابقاً، ثم أدرك: لقد اكتشف الحكمة في عيني زوجته، ولاحظ أول خطوط الشيب عندها. كان على صدغيها ثلاثة أو أربعة خطوط بيضاء ليس إلا، ومع ذلك فقد كانت هذه الخطوط تتحدث عما عاشوه وعانوه...

بعد يوم من هذا كان يديغاي في محطة قومبيل كمسافر. لقد اضطر أن يتراجع خطوة إلى الوراء من نقطة أم العواصف كي يركب قطار آلما – آتا. ولم يأسف يديغاي لهذا. ففي كلا الحالين كان يجب إرسال برقية إلى بلزاروف يعلمه فيها بقدومه، ولم يكن بإمكانه القيام بهذا إلا في المحطة.

بعد إرسال البرقية وصل قطار موسكو – آلما – آتا، فسافر يديغاي فيه ماراً عبر نقطته «أم العواصف». كان مكانه في السرير العلوي في إحدى المقصورات. بعد أن وضع حاجاته خرج يديغاي إلى الممر فوراً ووقف عند النافذة لكي لا يفوته النظر إلى النقطة من القطار، باعتباره الآن مسافراً، وبعد ذلك سيكون بإمكانه الصعود إلى سريره العلوي لينام، إذ إنَّ أمامه يومين من السفر. هكذا تصور هو الرحلة رغم أنه لم يعد يعرف منذ اليوم الثاني أين يذهب بنفسه هرباً من البطالة المفروضة عليه. واستغرب من أمر أولئك الضجعة في القطار الذين لم يكن يشغلهم إلا الأكل والنوم.

إلا أن روحه كانت في اليوم الأول، وخاصة في الساعات الأولى تعيش عيداً، وكانت قلقة بسبب قلة اعتياده على ترك أسرته لمدة طويلة. وقف عند النافذة مضطرباً ومشدوداً، وعلى رأسه قبعة جديدة اشتراها خصيصاً من مخزن المحطة لهذه المناسبة، وقف مرتدياً قميصاً نظيفاً وسترة رسمية، كان قازانغاب قد حافظ عليها بوضع جيد منذ أيام الحرب، وقد فك يديغاي الآن نصف أزرارها – لقد فرض قازانغاب عليه هذه السترة الرسمية، وقال: سيكون الأمر أفضل مع الأوسمة والميداليات على صدرها، وقف أمام النافذة بسراول الغولف والجزمة الجلدية اللماعة المصنوعة من جلد أحذية الضباط الممتاز. كان يديغاي العاصف معجباً جداً بهذه الجزمة، مع أنه قلما كان يحتذيها. فيديغاي يرى أن الوجاهة تفترض أن يكون عند الإنسان قبل كل شيء – جزمة جيدة وقبعة رأس جديدة. وعنده توجد هذه وتلك.

هكذا وقف يديغاي عند النافذة. كان العابرون في العربية يمرون بجانبه باحترام ويتلفتون إليه. لقد تميز يديغاي العاصف بمظهره وبتعابير الهيبة والوقار والاضطراب على وجهه.

والقطار يسير، مندفعاً بأقصى سرعته عبر رحاب صاروزيكي الربيعية، وكأنه يستعجل ليلحق أهداب الأفق الشفافة الجارية أمامه لم يكن يوجد في الدنيا إلا طبيعتان السماء والسهب المكشوف، وهما تتلامسان في المدى البعيد، هناك إلى حيث كان يسرع هذا القطار.

ولكن ها هي أرض أم العواصف تسرع للقاء. إنَّه يعرف هنا كل ثنية أرض وكل حجر. مع اقتراب أم العواصف صار يديغاي يتحرك عند النافذة بحيوية، وابتسم من تحت شاربيه، وكأن سنيناً طويلة قد مرت دون أن يأتي إلى هذا المكان. وها هي النقطة. مرت أمام ناظريه بسرعة. الشارات الضوئية والبيوت وملحقاتها وأكوام القضبان الحديدية والعوارض عند المستودع. كل هذا بدأ له ملتصقاً بالطريق الحديدية وسط هذا الفراغ

الصحراوي الهائل المحيط به. حتى أن يديغاي استطاع أن يرى ابنتيه. يعتقد أنهما استقبلتا اليوم كل قطارات الركاب المتجهة من الغرب إلى الشرق. كانت ساوليه وشرابات تقفزان وتلوحان بأيديهما كي تلفتا الانتباه إليهما، وهما تبتسمان لنوافذ القطار المارة أمامها بسرعة. كانت ضفائرهما تتراقص بشكل مضحك أثناء ذلك وعيونهما تشع بفرح. التصق يديغاي بالنافذة بحركة عفوية ولوح بيده لهما وتلفظ ببضع كلمات تحبب، ولكنهما لم ترياه، أو لم تعرفاه. ومع ذلك سره أن تكون بناته منتظرات مروره. لم يعرف أحد من المسافرين أن ما تركوه وراءهم للتو هو بناته وبيته ونقطته. إضافة إلى أن أحداً لم يفترض أن مع قطيع الجمال في السهب وراء النقطة كان يسرح جمله الشهير قارانار. لقد عرفه يديغاي فوراً من بعيد فأنس لرؤياه.

بعد ذلك، عندما ابتعد القطار لبضعة محطات عن البيت، غفا يديغاي، نام نوماً طويلاً وعميقاً على صوت قعقعة القطار الرتيب، وعلى صوت حديث جيرانه الخافت في العربة.

عند ظهيرة اليوم التالي ظهرت فجأة جبال آلاطاو – من تشيمكينت وعلى امتداد سميريتشيه (الأنهار السبعة) – أجل هذه جبال، وهذا منظر. ومهما أطال يديغاي العاصف النظر إلى مشهد سلسلة الجبال الثلجية الرهيب الذي رافق الطريق الحديدية حتى آلما – آتا، لم يستطع أن يشبع نظره. فقد كان هذا بالنسبة له – ابن سهوب صاروزيكي – مشهداً عجيباً ومنظراً خالداً. لم تثر لديه جبال آلاطاو مجرد الإعجاب بعظمتها بل أثارت كذلك الحاجة إلى التفكير أثناء النظر إليها. لقد أعجبه هذا، أعجبه أن يفكر بصمت وهو يرى الجبال. واستعد معنوياً للقاء أولئك المسؤولين الذين لا يعرفهم بعد، والذين أعلنوا أن أخطاء السابق لن تتكرر أبداً، ولهذا أراد أن يطلعهم على قصة أسرة أبي طالب المريرة. فليبتوا في الأمر، وليقرروا كيف يمكن إصلاح الحال. لن يعود أبو طالب حياً طبعاً، ولكن يجب ألاّ يضايق أحد الأطفال، وأن

تفتح في وجههم كل الدروب. الابن الأكبر داول سيذهب في هذا الخريف إلى المدرسة فليذهب دون أن يخشى أو يخجل من شيء. ولكن أين هم الآن؟ كيف يعيشون؟ وما هي أحوال ظريفة؟

أحس يديغاي بثقل بارد عندما تذكر هذا. آن الأوان لنسيان الماضي. لقد خبت تلك الفورة. فظريفة لم تسافر إلا كي تقطع كل تفكير بها. لكن الله وحده هو العليم بما طواه النسيان وما لم يطوه. وحزن يديغاي العاصف. تسمر في مكانه مستسلماً لقدره. إلى من ستفضي بذلك، ومن ذا الذي سيفهمك؟ أهِيَ جبال الثلج هذه التي تدعم السماء؟ لا، إذ إنها في الأعالي لا تلتفت إلى مآسي الإنسان الأرضية ولهذا هي آلاطالو العظيمة إنها آلاطاو العظيمة كي يأتي الفانون ويذهبوا وتبقى هي أبدية؟ كي يفكر الكثيرون وهم ينظرون إليها وتصمت هي بجبروت...

تذكر يديغاي، أن أبا طالب طرح عليه، بعد أن كتب «نداء رايمالي آغا إلى أخيه عبد الخان» - ويبدو أنه فكر طويلاً بهذه الحكاية التي دونها – طرح فكرة أن هؤلاء الناس، مثل رايمالي آغا وبيغيماي، يسببون لبعضهم من المآسي بقدر ما يجلبون من السعادة، فكل واحد منهم يجر الآخر إلى مأساة لا مخرج منها وهي عدم تحرر الإنسان من حكم الآخرين. ولهذا تصرف أقرباء رايمالي آغا معه بهذا الشكل مفترضين أن هذا لصالحه. لم تكن هذه الكلمات الذكية، بالنسبة ليديغاي، إذ ذاك إلا مجرد كلمات ذكية لم يتحقق هو نفسه من صحتها بعد، ولم يذق هو هذه المأساة. ولكن مع أنه وظريفة بعيدان عن مثل هذه القصة بعد السماء عن الأرض، ولم يحدث بينهما أي شيء، سوى أنه فكر بها وأحبها بشدة، فإن ظريفة هي التي تلقت الضربة الأولى، لكي تتخلص من ذاك الأمر الحتمي الذي لا حل له. لقد اتخذت قرارها وقطعت الأمر كما يقطع الدم المتدفق من الوريد، إلا أنها لم تفكر به، لم تفكر كم سيكلفه قرارها هذا. من حسن الحظ أنه ما يزال على قيد الحياة. والآن تأتيه لحظات من

الشوق، يكون فيها مستعداً للعدو إلى آخر الدنيا كي يراها فقط، وكي يسمع صوتها ولو مرة واحدة فقط.

وتذكر يديغاي أيضاً – وهو يسخر من نفسه – أنه استهجن عندما عرف من أبي طالب أنه، كان يوجد – في ألمانيا – على ما يذكر – رجل مشهور جداً، وشاعر عظيم وهو غوته. اسمه باللغة الكازاخية يحمل معنى غير لطيف – ولكن ليس هذا هو المهم، فكل امرء يحمل اسماً يكتبه له القدر. هذا العجوز غوته كان عمره أكثر من سبعين عاماً عندما أحب – على ما يبدو – فتاة شابة وأحبته هي من كل قلبها. كل الناس علموا بهذا، لكن أحداً لم يقيد غوته من يديه ورجليه، ولم يصفه بالمجنون.. ولكن كيف تصرفوا مع رايمالي آغا؟ لقد أهانوه وأبادوه، وهم يريدون له الخير... وظريفة أيضاً أرادت له الخير على طريقتها وتصرفت بالشكل الذي أملاه عليها ضميرها.. لذلك لم يغضب هو عليها. وهل يمكن أن تغضب على محبوبتك. الأولى أن تدين نفسك وأن تعتبر نفسك مذنباً. فليسؤ حالك على ألا يمسها سوء... وإذا كان بمقدورك فتذكّرها وأحبها عندما تهجرك...

ومع هذا التذكر والحب سافر يديغاي العاصف، سافر وهو يتذكر أبا طالب وأبناءه اليتامى.

عندما اقترب من آلما – آتا فكر يديغاي بشكل مفاجئ: ماذا لو لم أجد يليزاروف في مكانه؟ خازوق. لماذا لم يخطر هذا على باله في البيت؟. حتى أوقوبالا لم تفكر بهذا. لقد ناقشنا الأمر انطلاقاً من ذاتهما ما داما هما يعيشان في صاروزيكي دون أن يغادراها، فإنهما يظنان أن الجميع مثلهما. ولكن من المحتمل جداً أن لا يكون افاناسي ايفانوفيتش في بيته. إنَّه إنسان يعمل في الأكاديمية نفسها، وينتظرونه في كل مكان، قليلة هي مشاغل هذا العالم؟. قد يسافر في مهمة ولفترة طويلة. عندها ستكون مهمتي شاقة. قلق يديغاي، وصار يفكر أنه في هذه الحالة سيضطر للجوء إلى إدارة الكازاخية، فعنوان

الجريدة مكتوب على كل عدد من أعدادها. هناك سيدلونه – على الأغلب – كيف وإلى أين يجب أن يتوجه. من يعرف أكثر من العاملين في الجريدة إلى أين يجب التوجه بمثل هذه المسائل. في البيت كان كل شيء يبدو بسيطاً جهز نفسه وانطلق. والآن، مع الاقتراب من المكان المطلوب: بدأ يديغاي العاصف يقلق – ليس عبثاً أنهم قالوا: «الصياد الفاشل يحلم بالصيد وهو في بيته». وهكذا هو. ولكنه طبعاً يعتمد على يليزاروف. فيليزاروف صديقه منذ القديم، زاره عدة مرات في النقطة وهو يعرف قصة أبي طالب كوطيبايف. من كلمة واحدة سيفهمه. ولكن كيف سيروي لأولئك الذين لا يعرفهم، وبم سيبدأ وكيف سيدور الحديث. هل سيشهد كما في المحكمة أو سيقدم تقريراً، أم كيف؟ هل سيصغون إليه؟ وماذا سيجيبونه؟ قد يقولون له: من أنت، ولماذا أنت متحمس أكثر من أي إنسان آخر لإعادة اعتبار إلى أبي طالب كوطيبايف؟ ما علاقتك به؟ من تكون بالنسبة له: أخ أم حم أم عديل؟

في هذه الأثناء كان القطار يسير على أطراف ضاحية آلما – آتا، وقد استعد الركاب للنزول فخرجوا إلى الممرات منتظرين توقف القطار. ويديغاي كان مستعداً أيضاً. ها هي المحطة أصبحت مرئية، وها هي نهاية الطريق. كان رصيف المحطة مزدحماً بالناس – ناس مختلفون، مستقبلون ومسافرون. وصار القطار يتوقف شيئاً فشيئاً. وفجأة رأى يديغاي رصيف، من النافذة، وسط الوجوه المارة من أمامه وهي واقفة على رصيف المحطة، رأى يليزاروف وفرح بشدة كالأطفال. لوح له يديغاي أن يحضر يليزاروف نفسه لاستقباله. منذ الخريف الماضي لم يلتقيا. لا. لم يتغير افاناسي ايفانوفيتش مع أنه صار مسناً. فهو ما يزال كما كان نحيلاً كثير الحركة. لقد اسماه قازانغاب «آرغاماك» أي الجواد الأصيل. وكانت هذه التسمية مديحاً كبيراً – آرغاماك افاناسي. علم يليزاروف بذلك ووافق بطيبة خاطر – فليكن كما تشاء يا قازانغاب. وأضاف آرغاماك عجوز، ولكن آرغاماك. شكراً حتى على هذا.

عادة كان يأتي إلى صاروزيكي بلباس العمل: في جزمة من تلك التي يرتديها الجنود وقبعة قديمة شهدت أحداثاً كثيرة، أما هنا فهو بربطة عنق وبذلة رمادية اللون قاتمة جميلة. هذه البذلة تلائمه تماماً، تلائم قامته، والأهم من هذا، تلائم لون شعره الذي شاب نصفه.

ظل افاناسي ايفاتوفيتش يسير بمحاذاة القطار، إلى أن توقف تماماً، متلفتاً إلى الجانب وهو يبتسم ليديغاي المطل من النافذة. كانت عينا يليزاروف المبتلتان ذوات الرموش الفاهية، تشعان بفرح صادق لهذا اللقاء الغالي، وقد منح هذا يديغاي الدفء فوراً فزال ذلك الشك الذي كان موجوداً قبل قليل دفعة واحدة. «بداية طيبة – فكر يديغاي بسرور – إن شاء الله ستكون الرحلة موفقة».

استقبله يليزاروف:

- وأخيراً شرفتنا بعد طول انتظار. مرحباً يديغاي، مرحباً أيها العاصف.

وتعانقا بحرارة، ارتبك يديغاي بعض الشيء بسبب ازدحام الناس حوله وبسبب الفرحة. وبينما هما يشقان طريقهما إلى باحة المحطة انهال عليه يليزاروف بسيل من الأسئلة. سأل عن الجميع، عن كل واحد، كيف يعيش، كيف أحوال قازانغاب واوقوبالا وبوكيي والأطفال، ومن هو الآن رئيس النقطة... ولم ينس السؤال عن قارانار.

- كيف حال قارانار؟ - سأل باهتمام وقد أسبق السؤال بضحكة مرحة.
– ورغم كل شيء فهو أسد زأار.

- ما زال يسير. ماذا سيحل به. إنه يزأر – أجابه يديغاي – حر طليق في صاروزيكي. ماذا يريد أكثر من هذا.

كانت تقف قرب المحطة سيارة سوداء كبيرة طلاؤها جميل لماع. لأول مرة يرى يديغاي مثلها. كانت سيارة «زيم» - أفضل سيارة في الخمسينات.

- هذا قارانار – قال يليزاروف مازحاً – اركب يديغاي. – قال هذا وهو يفتح له الباب الأمامي. –ولنذهب.

- من سيقود السيارة؟. سأل يديغاي.

- أنا بنفسي. – أجابه يليزاروف وهو يأخذ مكانه خلف المقود – بعد الكبرة جبة حمراء، كما ترى. وهل نحن أسوأ من الأميريكان؟

أدار يليزاروف المحرك بثقة، وقبل أن يقلع نظر إلى ضيفه وعلى وجهه ابتسامة تساؤل.

- إذن جئت. هات تكلم فوراً –زيارتك طويلة؟

- جئت بعمل، يا افاناسي ايفانوفيتش، سأظل بقدر ما يحتاج العمل. ولكن أريد التشاور معك أولاً.

- لقد حزرت أنك جئت بعمل، وإلا فلا يمكن أن تسحب نفسك من صاروزيكي. كيف سنتصرف الآن؟ تعال نعمل على الشكل التالي: الآن سنذهب إلينا، ستنزل عندنا. لا تعارض. ليست هناك أية فنادق. أنت عندي ضيف متميز. كما أكون أنا عندكم في صاروزيكي، كذلك ستكون أنت عندي هنا. صيضين صبي بار – هكذا عند الكازاخيين – الاحترام من الاحترام.

- أجل، هكذا يقولون. –قال يديغاي مؤكداً.

- إذن انتهينا. هكذا أنا سأكون مسروراً. زوجتي يوليا سافرت إلى ابنها في موسكو، لقد ولد حفيدنا الثاني. لذلك أسرعت فرحة إليهم، إلى الشباب.

- الحفيد الثاني. مبروك.

- نعم. الثاني. – قالها يليزاروف وهو يرفع كتفيه مستغرباً. – عندما ستصبح جداً ستفهمني. مع أنه مازال الوقت باكراً بالنسبة لك. عندما كنت في سنك كانت الريح ما تزال تعصف في رأسي. والغريب أنني وإياك يفهم بعضنا البعض رغم فارق السن. إذن هيا. سنسير عبر المدينة كلها. إلى

الأعلى. إلى هناك. أترى تلك الجبال والثلج على قممها؟. على سفح تلك الجبال في ميديو، وأظنني حدثتك بذلك –يوجد بيتنا في ضاحية تشبه القرية.

- اذكر، افاناسي ايفانوفيتش – حدثتني أن بيتكم عند النهر، وأنتم تسمعون باستمرار خرير الماء.

- الآن ستتأكد بنفسك. لنذهب. ما دام الوقت نهاراً تعال نرى المدينة. الآن ربيع، والمناظر عندنا جميلة، كل شيء مزهر.

كان الشارع ينطلق من محطة القطار مستقيماً، وكأنه لا نهائي، يخترق المدينة كلها ليمتد وسط أشجار الحور والحدائق صاعداً إلى الأعلى شيئاً فشيئاً. كان يليزاروف يقود السيارة دون إسراع وهو يحدث يديغاي عن الأماكن التي يرونها – كان هناك الكثير من المؤسسات المختلفة والمخازن والبيوت السكنية. وفي مركز المدينة انتصب في ساحة مكشوفة من كل الجهات بناء عرفه يديغاي مباشرة من الصور – أنه مقر الحكومة.

- هنا اللجنة المركزية. – قال يليزاروف وهو يهز رأسه موافقاً.

مرا أمام هذا البناء وهما لا يتوقعان أن سيكون عليهما نهار غد الحضور إليه بعمل. وهناك بناء آخر عرفه يديغاي العاصف عندما انعطفا من الشارع المستقيم نحو اليسار – أنه مسرح الاوبرا الكازاخي. وبعد بناءين انعطفا مرة أخرى نحو الجبل على الطريق المؤدية إلى مديو وخلفا مركز المدينة وراءهما. سارا في طريق طويلة وسط الفيلات المحاطة بحدائق خاصة بها، ومرا أمام السواقي الاصطناعية التي يتدفق فيها الماء المنحدر من الجبال غزيراً ذا خرير مرتفع والبساتين المزهرة حولهما.

- جميل. – قال يديغاي.

فأجابه يليزاروف:

- ما يسرني أنك جئت إلينا في هذه الفترة بالذات لا يوجد الآن أفضل من آلما – آتا. في الشتاء جميلة أيضاً، ولكنها الآن تفرح القلب.

- إذن مزاجك طيب. – أعرب يديغاي عن سعادته لسرور يليزاروف.

فنظر هذا إليه بعينين جاحظتين جديتين، هز رأسه واتخذ وجهه تعابير الجدية، فعبس، ثم عادت لتنطلق من حول عينيه تجاعيد الابتسام.

- هذا الربيع متميز يا يديغاي. فيه تغيرات. لذلك ترى الحياة جميلة مع أن الأعوام تجري. لقد أفاقوا ونظروا إلى الوراء. هل أصابك ذات يوم مرض عدت بعده لتتذوق طعم الحياة؟

- لست اذكر. – أجاب يديغاي بشكل مباشر تماماً – ماذا أكثر من الرض الدماغي...

- أنت معافى كالثور. – وضحك يليزاروف – أنا على كل لا أتكلم عن هذا. هذا لمجرد الكلام... القضية هكذا: الحزب نفسه هو الذي نطق بالكلمة الأولى. وهذا ما يريحني تماماً، مع أنه لا توجد عندي شخصياً أسباب لذلك. ولكنني سعيد مفعم بالأمل وكأنني في سن الشباب. وهل سبب هذا هو أنني أشيخ فعلاً؟. آ؟.

- أنا يا افاناسي ايفانوفيتش جئت من أجل هذا الموضوع.

- كيف؟. – لم يفهمه يليزاروف.

- ربما تذكر؟ لقد حدثتك عن أبي طالب كوطيبايف.

- آ، طبعاً، طبعاً. اذكر جيداً. إذن هكذا. وأنت تبحث عن الجذور. أحسنت وجئت فوراً دون تأخير.

- لست أنا الذي أحسن. اوقوبالا هي التي فكرت بهذا. ولكن من أين أبدأ؟ وإلى أين أذهب؟

- من أين تبدأ؟ هذا يجب أن نبحثه معاً. في البيت، ونحن نشرب الشاي، سنبحث بهدوء ماذا وكيف. – وبعد أن صمت يليزاروف قليلاً قال بما يقبل أكثر من تأويل: - كيف يتغير الزمان يا يديغاي – منذ ثلاث سنوات ما

كان ليخطر ببالك الحضور من أجل هذه القضية، أما الآن – فدون خوف. مبدئياً، هذا ما يجب أن يكون. يجب أن نتمسك جميعاً وكل واحد منا، بهذه العدالة. لا امتيازات لأحد. هذا ما أفهمه.

- أنتم هنا ترون الأمور بشكل أحسن، عدا عن أنك إنسان عالم. في المهرجان الخطابي في المرآب عندنا دار الحديث حول هذا أيضاً. وعندها فكرت فوراً بأبي طالب. فهذا الوجع يسكن فيَّ منذ زمن طويل. حتى إنني أردت أن أخطب في المهرجان الخطابي، وأن لا أتحدث فقط عن العدالة. أبناء أبي طالب ما زالوا أحياء وهم يكبرون. الكبير سيذهب في هذا الخريف إلى المدرسة...

- أين هي الآن هذه الأسرة؟

- لست أدري، يا افاناسي ايفانوفيتش. قريباً سيكون قد مضى ثلاث سنوات على رحيلهم، ونحن لا نعرف عنهم شيئاً.

- هذا ليس مهماً. سنجدهم. المهم الآن، بلغة الحقوقيين، إعادة فتح ملف أبي طالب.

- بالضبط، تمام. لقد وجدت الكلمة المناسبة فوراً. ولذلك جئت إليك.

- ولا أظنك أخطأت إذ أتيت إلي.

وكان ما توقعه يديغاي. إذ سرعان ما وصلت إلى أم العواصف – بعد ثلاثة أسابيع من عودة يديغاي إلى النقطة – ورقة من آلما – آتا وقد كتب فيها صراحة أن العامل السابق في نقطة أم العواصف أبو طالب كوطيبايف، الذي مات أثناء التحقيق قد أعيد إليه الاعتبار كلياً بسبب عدم توفر العناصر الجرمية. هذا ما جاء في الورقة. وقد أرسلت هذه الورقة للإعلان عن مضمونها بين الجماعة التي كانت تعمل فيها الضحية.

وفي نفس الوقت الذي وصلت فيه هذه الوثيقة تقريباً جاءت رسالة من افاناسي ايفانوفيتش يليزاروف. كانت هذه الرسالة رسالة مشهودة. وقد حفظها يديغاي طوال حياته مع أهم وثائق الأسرة – وهي شهادات ميلاد بناته وأوسمته العسكرية ووثائق الجراح على الجبهة وشهادات العمل...

في تلك الرسالة الكبيرة أعلمه افاناسي ايفانوفيتش أنه سعيد جداً لإعادة النظر السريعة في قضية أبي طالب وسعيد لإعادة اعتباره إليه. فهذا الواقع بحد ذاته هو علامة منيرة من علامات هذا الزمن. وقال: هذا انتصار لنا على أنفسنا.

ثم كتب بعد ذلك أنه ذهب مرة ثانية – بعد مغادرة يديغاي – إلى تلك الإدارات التي زاراها معاً وحصل على معلومات هامة. أولاً – المحقق تانصيقبايف أزيح عن عمله وجرد من رتبه ونزعت منه الأوسمة التي حصل عليها وقد حَمِّل مسؤولية أعماله. وثانياً – كتب يليزاروف – أنهم أبلغوه أن أسرة أبي طالب كوطيبايف تعيش الآن في بافلودار (إلى أين أوصلتهم الأيام!). ظريفة تعمل معلمة في مدرسة، وضعها العائلي الآن: متزوجة. هذه هي المعلومات الرسمية التي وصلت من مكان إقامتها. وكتب يليزاروف أيضاً: شكوكك أيضاً، يا يديغاي، حول ذلك المفتش أثبتت صحتها من خلال إعادة النظر بالقضية. فهو بالذات الذي نمق تلك الوشاية بحق أبي طالب كوطيبايف. «لماذا فعل هذا؟، ما الذي دفعه إلى مثل هذه الفعلة الشريرة؟ فكرت كثيراً في هذا وصرت أتذكر ما عرفته من مثل هذه القصص وما حدثتني به أنت يا يديغاي، وأنا أتصور في نفسي كل هذا، محاولاً فهم دوافع تصرفه. لا. من الصعب علي أن أجيب. لا استطيع أن أفسر الدافع لذلك الحقد تجاه إنسان بعيد عنه كل البعد وهو أبو طالب كوطيبايف. ربما هذا مرض أو وباء يصيب الناس في بعض مراحل التاريخ، وربما تكون هذه السمة القاتلة كامنة في الإنسان منذ البداية، ألا وهي سمة الحسد وهي التي تفرغ الروح

شيئاً فشيئاً من كل شيء وتؤدي بها إلى الوحشية. ولكن أي حسد يمكن أن تثيره شخصية أبي طالب؟ ما يزال هذا الموضوع بالنسبة لي لغزاً. أما طريقة الانتقام هذه، فهي قديمة قدم العالم. في إحدى الفترات كان يكفي الوشاية بأي إنسان والقول أنه هرطقي مرتد حتى يرمى هذا الإنسان بالحجارة في أسواق بخارى، أما في أوروبا فيحرق بالنار. لقد تحدثنا معاً حول هذه المواضيع كثيراً، أثناء زيارتك يا يديغاي. والآن بعد التأكد من الوقائع نتيجة لإعادة النظر في قضية أبي طالب كوطيبايف، تترسخ لدي قناعة بأن الناس يحتاجون إلى زمن طويل قبل أن يتمكنوا من استئصال هذه العلة، وهي علة الحقد على التميز لدى الإنسان. هل سيطول هذا الزمن؟ - من الصعب التكهن. ورغم كل هذا فأنا أمجد الحياة لأن العدل لا يمكن مسحه عن سطح الأرض. وفي هذه المرة عاد لينتصر. وإن كان الثمن غالياً، المهم أنه انتصر. وهكذا ستكون الأمور ما دام العالم موجوداً. أنا مرتاح لأنك تمكنت من تحقيق العدل بنزاهة...»

ظل يديغاي واقعاً تحت تأثير هذه الرسالة عدة أيام. استغرب يديغاي من نفسه – كيف تغير هو نفسه وكأن شيئاً ما أضيف إليه، وكأن الأمور في داخله أصبحت واضحة. إذ ذاك فكر لأول مرة أن الأوان قد آن على ما يبدو للاستعداد للشيخوخة المقبلة التي لم تعد بعيدة...

لقد كانت رسالة يليزاروف بالنسبة له حداً فاصلاً بين حياتين الحياة قبل الرسالة والحياة بعدها. كل ما كان قبل الرسالة انقضى ولفه الدخان وابتعد كما يبتعد الشاطئ عن المسافر في عرض البحر، وكل ما هو بعدها صار يجري بهدوء يوماً بعد يوم مذكراً أنه سيستمر طويلاً ولكن ليس إلى ما لا نهاية. إلا أن المهم أنه عرف من هذه الرسالة أن ظريفة تزوجت. لقد دفعه هذا النبأ من جديد ليعيش لحظات ثقيلة، فصار يعزي نفسه بأنه كان يعرف وكان يحس بشكل من الأشكال أنها قد تزوجت مع أنه لم يكن يعرف أين هي وماذا حل

بالصغار وكيف تحيا مع الناس الآخرين. لقد ألح عليه هذا الشعور بحدة وإصرار خلال طريق عودته بالقطار – إلى بيته... من الصعب معرفة سبب ما يخطر على باله، ولكن هذا ليس أبداً بسبب انزعاجه. فهو، على العكس من ذلك، قد غادر آلما – آتا بمزاج طيب ممتاز. في كل مكان زاره هو ويليزاروف كانوا يستقبلونهما بتفهم وتعاطف دعاه، وهذا بحد ذاته زرع في نفسه القناعة بحصة التفاؤل والأمل بأن القضية ستسير سيراً حسناً. وهذا ما كان فعلاً. في ذلك اليوم الذي غادر فيه يديغاي آلما – آتا يليزاروف إلى الغداء في مطعم محطة القطارات. كان الوقت حتى موعد انطلاق القطار كافياً، فجلسا وشربا وفتحا صدريهما لبعضهما قبل الوداع. في ذلك الحديث صرح افاناسي ايفانوفيتش – كما فهمه يديغاي – عن أفكاره المكنونة. فهو الكومسومولي المسكوفي الذي جاء منذ العشرينات إلى تركمانيا والذي قاتل ضد الباسماتش(١)، ثم استقر نهائياً هنا وهو يشتغل في العلوم الجيولوجية – يرى أنه لم يكن عبثاً أن يعلق العالم كله هذا القدر الكبير من الآمال على ما بدأته ثورة أكتوبر. ومهما كان ثمن الأغلاط والإخفاقات قاسياً، إلا أن السير على طريق لم يسبق لأحد أن سار عليها لم يتوقف. وهذا هو جوهر التاريخ. قال يليزاروف أيضاً أن السير الآن سيكتسب قوة جديدة، وضمان ذلك هو الإدارة الذاتية وتنقية المجتمع ذاتياً. «ما دمنا قادرين أن نتكلم عن هذا مع أنفسنا فهذا يعني أننا نملك القوة من أجل المستقبل» - هكذا أكد يليزاروف. نعم. لقد تحدثا حديثاً جيداً أثناء ذلك الغداء.

وبهذا المزاج عاد يديغاي العاصف إلى بيته في صاروزيكي.

وعادت لتمر أمام ناظريه جبال آلاطاو الثلجية الزرقاء الممتدة سلسلة كثيفة وطويلة عبر منطقة «سيميربتشيه» كلها. أثناء ذلك، وبينما هو يفكر في

---

(١) الباسماتش هم أعضاء عصابات الثورة المضادة في آسيا الوسطى بعد انتصار ثورة أكتوبر وأثناء الحرب الأهلية ١٩١٨-١٩٢٠.

زيارته لآلما – آتا أدرك يديغاي أن ظريفة يجب أن تكون قد تزوجت، إذ إنَّ صوتاً داخلياً أوحى له بذلك.

أثناء نظره إلى الجبال وإلى هذه الرحاب الربيعية خطر لبال يديغاي أنه ما يزال يوجد في الدنيا أناس مخلصون قولاً وفعلاً، مثل يليزاروف، وأن حال الإنسان على الأرض قد يكون أصعب بكثير لولا وجود مثل هؤلاء. عندما أنهى جولاته كلها في قضية أبي طالب كان يديغاي قد فكر بتصاريف الزمان المتقلب الذي يمر بسرعة – لو ظل أبو طالب حياً لرفعوا الآن عنه الاتهامات الموجهة إليه زوراً، وربما تمكن من التمتع بالسعادة والهدوء من جديد مع أطفاله. لو كان حياً! – قول يعبر عن كل شيء. لو كان ما يزال حياً لانتظرته ظريفة طبعاً حتى آخر يوم. هذا أكيد. مثل هذه المرأة كانت ستنتظر زوجها مهما كلفها الأمر. وبما أنه لم يبق من تنتظره فلا داعي للانتظار، ليس هناك ما يضطر امرأة شابة لأن تعيش وحيدة. وبما أن الأمر كذلك، فإنها ستتزوج إذا صادفت رجلاً مناسباً، ولم لا؟. استاء يديغاي من هذه الأفكار وحاول تحويل انتباهه إلى شيء ما آخر، وحاول ألا يفكر وألا يطلق العنان لتخيلاته. لكنه لم يستطع، فذهب إلى عربة المطعم.

في بداية الطريق كان الناس في عربة المطعم قلائل وكل شيء كان هناك نظيفاً وجديداً. جلس يديغاي عند النافذة وحيداً. طلب في البداية زجاجة بيرة كي يشغل نفسه. كان حقل الرؤية الواسع من نافذة حافلة المطعم يسمح بمشاهدة الجبل والسهب في وقت واحد، والسماء المنبسطة فوقهما. لقد سما هذا الامتداد الأخضر الموشى بحمرة شقائق النعمان من جهة، ورهبة السلاسل الجبلية المكسوة بالثلوج من جهة أخرى، سميا بالروح ورفعاها إلى مستوى أمنيات لا تتحقق، وأديا بها إلى حالة من الانسحاق المرير. فاشتهى المر بسبب المرارة لديه، فطلب فودكا. بعد أن شرب عدة أقداح لم يبد عليه أنه شرب شيئاً، عند ذلك طلب البيرة ثانية وظل جالساً وقد استسلم بكليته

لتأملاته وأفكاره. مال النهار إلى نهايته، فبدت الأرض في شفافية المساء الربيعي تجري على جانبي الطريق الحديدية. كانت تمر بشكل خاطف القرى والبساتين والطرق والجسور والناس والقطعان، لكن كل هذا ما كان ليمس مشاعر يديغاي، إذ إنَّ الحزن الثقيل الذي هاجمه وبقوة جديدة أزعجه وأرهق روحه فانتابه حس مبهم بنهاية ما لكل ما كان.

وهكذا جلس حتى أظلمت، وإلى أن غصت العربة – المطعم بالرواد وصار التنفس صعباً بسبب دخان التبغ. لم يستطع يديغاي أن يدرك لماذا هؤلاء الناس لا مبالون، وما هي تلك الأحاديث السخيفة التي تشغلهم على المائدة، ولماذا يجدون المتعة في الفودكا والتبغ؟. أثارت اشمئزازه كذلك النساء اللواتي كن في المطعم مع أزواجهن، وبشكل خاص ضحكهن. وقف متهادياً، وذهب إلى المضيفة التي كانت تسير لاهثة وهي تحمل طبقاً بين الموائد الصاخبة في مطعم السفر هذا، وبعد أن دفع حسابه ذهب إلى عربته. كان عليه أن يجتاز عدة حافلات. وبينما هو يسير متمايلاً مع تمايل القطار كان شعوره بالوحدة التامة والغربة يزيد من الثقل والوحشة في نفسه.

لماذا يحيا، ولم يسافر؟...

بالنسبة له أصبح الأمر الآن سواء: من أين وإلى أين ولماذا يسافر، وإلى أين يسرع في الليل هذا القطار السريع. في إحدى الفسحات الفاصلة بين عربتين توقف وضغط جبينه الملتهب إلى زجاج الباب البارد، ووقف دون أن يتلفت حوله، ودون أن يعير أي اهتمام للركاب المارين بالقرب منه ذهاباً وإياباً.

والقطار يسير متمايلاً. كان بإمكانه فتح الباب، إذ إنَّ يديغاي من عمال الطرق الحديدية ويحمل مفتاحه الخاص. كان بإمكانه فتح الباب وتجاوز الخط... في الظلام استطاع يديغاي أن يميز في مكان ما من السهب شعلتين بعيدتين تشدان الانتباه وظلت هاتان الشعلتان باديتين للنظر فترة طويلة. فهما

إما نافذتان مضاءتان لمسكن منعزل، أو موقدان صغيران. من المفروض أن أحداً كان موجوداً قرب هاتين الشعلتين. من هو؟ ولماذا هو هناك؟ آه، لو كانت ظريفة والصغار هناك. لو كانت هي هناك لقفز الآن من القطار وجرى نحوها، ولارتمى عند قدميها وبكى دون خجل، حتى يفرغ بالبكاء كل الألم والحزن المتراكمين...

أنّ يديغاي العاصف أنيناً مكبوتاً وهو ينظر إلى الشعلتين اللتين كانتا قد اختفتا جانباً. وقف عند باب الفسحة وهو ينشج بصوت غير مسموع دون أن يلتفت إلى الخلف ودون أن ينتبه إلى ضجيج الركاب المارين في القطار. كان وجهه مبللاً بالدموع... وكان بإمكانه فتح الباب واجتياز الخط...

والقطار يسير متمايلاً.

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق...

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة – صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

في هذه النواحي كل المسافات كانت تقاس نسبة إلى الطريق الحديدية، وكأنها خط طول غرينتش.

والقطارات تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.

انطلق من وكره على منحدر مالاقومديتشاب عقاب كبير أبيض الذنب ليستطلع المكان. وحلق مرتين فوق أملاكه مرة قبل الظهر ومرة بعد الظهر.

كان العقاب يحلق صامتاً فوق صاروزيكي مراقباً بدقة سطح السهب، وملاحظاً كل ما يتحرك في الأسفل حتى الخنافس الزاحفة والحراذين السريعة الحركة، يحرك جناحيه بين الفينة والفينة صاعداً أعلى وأعلى كي يرى أرضاً

أوسع وأكبر من تحته، وفي نفس الوقت يقترب بحركة حلزونية انسيابية من مكان قنصة المفضل، وهو أرض المنطقة المغلقة. فمنذ أحيطت هذه المنطقة الواسعة بالأسلاك الشائكة صار يزداد بشكل ملحوظ عدد المخلوقات الحية الصغيرة ومختلف أنواع الكائنات ذوات الريش لأن الثعالب وغيرها من الحيوانات المفترسة لم تعد تتجرأ على الدخول إلى هذه المنطقة دون عوائق. لكن السياج لم يكن يساوي شيئاً بالنسبة للعقاب، وهذا ما كان يستفيد منه، فقد كان وجود السياج من مصلحته. ولكنه عندما ألقى بنفسه كالحجر على أرنب صغير ظل يلمحه في السهب ثلاثة أيام متتالية استطاع هذا الأرنب أن يقفز إلى تحت السور، فكاد العقاب يسقط، بسبب اندفاعه، على أشواك الأسلاك، وبالكاد التف وانحرف وانطلق إلى الأعلى بشكل حاد عنيف ماسحاً رؤوس الأشواك الحادة بريشه، فتناثرت منه بضعة أرياش في الهواء وصارت تطير على هواها. منذ ذلك الحين والعقاب يحاول البقاء بعيداً عن هذا السياج الخطير.

وهكذا، كان في تلك الساعة يطير كما يجدر بالسيد أن يطير، بأنفة ومهابة، لا يلفت انتباه المخلوقات الموجودة على الأرض بأية حركة زائدة. في هذا اليوم لاحظ منذ الصباح، أثناء تحليقه الأول والآن في تحليقه الثاني، حركة كبيرة للناس والسيارات على باحات المطار الكوني الإسمنتية. كانت السيارات تروح وتجيء، وكانت تدور بشكل خاص حول قواعد الصواريخ. هذه الصواريخ موجهة إلى السماء وهي منذ زمن طويل تقف على قواعدها في مكان جانبي. لقد اعتادها العقاب منذ زمن، ولكن شيئاً ما كان يحدث اليوم. السيارات كثيرة جداً والناس كثيرون جداً، والحركة كثيرة جداً...

لاحظ العقاب أن الجرارين اللذين كانا يتبعان الرجل الراكب على ظهر الجمل والكلب الأشعث الأصهب كلهم يقفون الآن عند الأسلاك الشائكة من الخارج وكأنهم لا يستطيعون تجاوزها... لقد أثار الكلب الأصهب حفيظة

العقاب بمظهره اللامبالي وخاصة لأنه كان يدور حول الناس، ولكنه لم يعرب عن موقفه نحو الكلب الأصهب، فهو لن ينحدر إلى هذا الدرك، واكتفى بالتحليق فوق هذا المكان مراقباً ببصر حاد ماذا سيحصل، وماذا ينوي أن يفعل هذا الكلب الأصهب الذي يهز ذيله بالقرب من الناس...

رفع يديغاي وجهه الملتحي فرأى في السماء العقاب يحوم، ففكر بينه وبين نفسه «أبيض الذنب، كبير أيه لو كنت عقاباً، من كان يستطيع أن يوقفني. لو كنت كذلك لطرت وحططت على قومبيز[1] انابيت!..»

في هذه الأثناء تناهى إليه صوت سيارة مقتربة. فرح يديغاي العاصف. «إنه قادم. إن شاء الله ستحل القضية». كانت سيارة «غاز» تقترب مسرعة من الحاجز ثم توقفت بحدة إلى جانب باب غرفة المحرس. كان الحارس ينتظر اقتراب السيارة. وقف باستعداد فور خروج رئيس الحرس الملازم تانصيقبايف من السيارة، وأدى التحية العسكرية وباشر فوراً بالكلام:

- الرفيق الملازم. أريد أن أعلمكم...

لكن رئيس الحرس أوقفه بإشارة منه، وعندما صمت الحارس دون أن يكمل كلامه وأخفض يده عن سيدارته استدار الملازم نحو أولئك الواقفين في الجانب المقابل من الحاجز.

- من منكم الغريب؟ من ينتظرني؟ أنتم؟. – وجه سؤاله إلى يديغاي العاصف.

- بيز، بيز غوي، كاراغيم. أنا بيتكيه جيتبيي توريب كالديك. قالاي دو بولسا، جاردامديش، كاراغيم. – قالها يديغاي محاولاً إبراز أوسمته المعلقة على صدره ليراها الضابط الشاب.

---

(١) قومبيز - مدفن.

لكن هذا لم يترك أي انطباع على الملازم تانصيقبايف، إلا أنه سعل بشكل جاف، وعندما عزم العجوز يديغاي على الكلام ثانية نبهه الملازم ببرود:

- الرفيق الغريب. كلمني باللغة الروسية. فأنا الآن أقوم بتنفيذ مهمات الخدمة. – شرح له ذلك وقد قطب ما بين حاجبيه السوداوين فوق عينيه الحولاوين.

انزعج يديغاي العاصف انزعاجاً شديداً.

- أيه، عفواً، عفواً. اعذرني إن كنت قد أخطأت. – وصمت محرجاً وقد فقد ملكة الكلام وتلك الفكرة التي كان يريد عرضها.

وانبرى اديلباي الطويل لينقذ العجوز:

- الرفيق الملازم، اسمح لي أن أعرض عليك طلبنا.

- اِعرِضه ولكن بإيجاز. –نبهه رئيس الحرس.

- دقيقة واحدة. فليحضر ابن المرحوم حديثنا. – استدار اديلباي نحو سابيتجان. –سابيتجان، هيه، سابيتجان. اقترب إلى هنا.

لكن ذلك أشار بيده وهو يتمشى بعيداً إشارة حاقدة:

- اتفقوا أنتم مع بعضكم.

فاحمرَّ وجه اديلباي الطويل خجلاً:

- عفواً أيها الرفيق الملازم. إنَّه غاضب بسبب ما حصل. أنه ابن عجوزنا المتوفى قازانغاب. وهنا أيضاً يوجد صهره. إنَّه في العربة.

يبدو أن الصهر ظنهم يستدعونه فهم بالنزول من العربة.

- هذه التفاصيل لا تهمني. قل لي جوهر القضية.

- حسناً.

- بإيجاز وترتيب.

وأخذ اديلباي الطويل يعرض القضية كما هي – من هم، من أين جاؤوا، من أجل ماذا ولماذا قدموا إلى هنا. بينما هو يتكلم كان يديغاي يراقب وجه الملازم تانصيقبايف وأدرك أنه يجب أن لا يتوقعوا خيراً. كان ذلك يقف على الجانب المقابل للحاجز فقط ليستمع – شكلياً – لشكوى هؤلاء الغرباء. أدرك يديغاي هذا واغتمَّ داخله. وتحول كل ما كان متعلقاً بموت قازانغاب، كل استعداداته لهذه المسيرة، كل ما فعله ليقنع الشباب بالموافقة على دفن الراحل في انابيت، كل أفكاره، كل ما كان يرى فيه خيط الصلة بتاريخ صاروزيكي، كل هذا تحول بلحظة واحدة إلى لا شيء، كل هذا أثبت عدم جدواه، أثبت أنه شيء سخيف أمام تانصيقبايف. ووقف يديغاي وقد طعن في أسمى مشاعره. كان وضع سابيتجان مضحكاً ومؤلماً حتى البكاء بالنسبة له – سابيتجان الذي كان بالأمس فقط يخطب وهو يشرب الشباط وراء الفودكا عن الآلهة والتوجيه اللاسلكي للبشر محاولاً إدهاش أهل أم العواصف بمعلوماته، الذي لم يشأ اليوم أن يفتح فمه. مضحك ومؤلم حتى البكاء كان وضع قارانار العاصف المزين بسخافة بالغطاء السجادي ذي الشراشيب – لماذا وما الحاجة إلى هذا الآن؟ وهذا الملازم تانصيقبايف الذي لم يشأ أو خشي التحدث بلغته الأم – هل يستطيع أن يقدر تجهيز قارانار حق قدره؟ مضحك ومؤلم حتى البكاء بالنسبة ليديغاي كان وضع صهر قازانغاب المدن – التعيس الذي لم يتناول نقطة واحدة من الكحول وركب العربة التي كانت تخض طوال الطريق، وذلك لكي يكون بالقرب من جثمان المتوفى. والآن اقترب ووقف قربهم وهو يأمل – كما يبدو – أن يسمحوا لهم بالدخول إلى المقبرة. حتى وضع كلبه الأصهب جولبارس كان مضحكاً ومؤلماً حتى البكاء بالنسبة ليديغاي العاصف – لماذا ارتبط بهم بمحض إرادته ولماذا يقف منتظراً بتلهف متابعتهم السير؟ ما حاجة هذا الكلب بكل هذا؟ ربما يكون الكلب قد شعر سلفاً بأن حال صاحبه سيكون سيئاً، لذلك لازمه كي يكون بجانبه في هذه الساعة. في قمرات القيادة كان

يجلس السائقان الشابان كاليبيك وجوماغالي – ماذا سيقولان الآن وكيف سيفكران بعد كل هذا؟

مع ذلك أحس يديغاي الذي أهين وأزعج، أحس بشكل واضح كيف كانت تتصاعد في نفسه موجة الاستياء وكيف صار الدم يغلي ويفور في عروقه، وبما أنه يعرف نفسه ويعرف خطورة استسلامه للغضب، فقد حاول كبحه في داخله بقوة الإرادة. كلا، لا يحق له أن يفلت زمام نفسه. ولا يليق برجل كبير أن يغضب ويرفع صوته. هذا ما فكر به مطبقاً أسنانه وقد توترت عضلات وجه لكي لا تخرج من فمه كلمة أو حركة تشير إلى ما كان يفتعل في نفسه في تلك الساعة.

وكما توقع يديغاي، تحول حديث اديلباي الطويل مع رئيس الحرس فوراً إلى الاتجاه العقيم.

- لا أستطيع مساعدتكم بشيء. الدخول إلى أرض المنطقة ممنوع منعاً باتاً على الغرباء. – قالها الملازم بعد أن استمع إلى اديلباي الطويل.

- نحن لم نكن نعرف بهذا، أيها الرفيق الملازم، وإلا لما أتينا إلى هنا. لما طلبنا منكم ذلك. ولكن الآن بما أننا هنا أطلب من القيادة الأعلى أن يسمحوا لنا بدفن الرجل. ليس من المعقول أن نعيده إلى النقطة.

- لقد أعلمت رؤسائي وأخذت تعليمات بعدم السماح لأحد بالدخول مهما كانت الحجج.

- أية حجة هذه، رفيقنا الملازم؟ - امتعض اديلباي الطويل.

- وهل نحن بحاجة لاختراع الحجج؟. ولماذا؟ وما الذي لم نره بعد في منطقتكم؟ ولولا الدفن ما الذي كان سيجبرنا على قطع هذه المسافة؟

- أيها الرفيق الغريب، ها أنا اشرح لك ثانية. يمنع دخول أي إنسان.

وفجأة سمع صوت الصهر المدمن الذي كان صامتاً حتى الآن:

- ما معنى غريب، ومن هو الغريب؟ نحن غرباء؟ - كان يتكلم ووجهه المتعب الذي فقد نضارته يتلون بلون أحمر قان، بينما ازرقت شفتاه.

- بالضبط، ومنذ متى هذا؟. أيده اديلباي الطويل.

لم يرفع الصهر المدمن صوته، محاولاً عدم تجاوز الحد المسموح به فاكتفى بأن قال وهو يدرك أنه يتكلم الروسية بشكل سيء، لذا كان يحاول التمهل وتصحيح كلماته:

- هذه المقبرة في صاروزيكي لنا. ونحن، نحن شعب صاروزيكي، الذي يحق له أن يدفن هنا أهليته. عندما دُفِنَ هنا منذ زمن بعيد «نايمان انا» لم يعرف أحد أنْ هنا سيكون منطقة مغلقة.

فرد الملازم تانصيقبايف:

- أنا لا أنوي الدخول معكم في جدال. وأعلن لكم مرة أخرى باعتباري رئيس نوبة الحراسة الآن – لا يسمح ولن يسمح بالدخول إلى أراضي هذه المنطقة المحمية لأي إنسان كان ولاي سبب كان.

وساد الصمت. «ليتني أحتمل، وليتني لا أشتمه!» ولعن يديغاي العاصف نفسه ونظر نظرة خاطفة إلى السماء، فشاهد ثانية ذلك العقاب الذي يحلق في البعيد تحليقاً انسيابياً. وحسد ثانية هذا الطير القوي الهادئ وقرر أنه لا يجوز اختبار القدر أكثر من ذلك، بل يجب الانسحاب وعدم فرض النفس عنوة. وبعد أن نظر مرة أخرى إلى العقاب قال يديغاي:

- رفيقنا الملازم. نحن ذاهبون، ولكن قل للجنرال أم من هو الأعلى عندكم – هذا لا يجوز. فأنا كعسكري قديم أقول أن هذا غير صحيح.

- صحيح أو غير صحيح، أنا لا يحق لي مناقشة الأوامر العليا. ولكي تعلموا مستقبلاً فقد أمرت بأن أخبركم أن هذه المقبرة قيد الإزالة.

- انابيت؟ - دهش اديلباي الطويل.

- نعم، انابيت، إذا كانت تسمى هكذا.

- لماذا؟ وهل تؤذي هذه المقبرة أحداً؟ - قالها اديلباي الطويل ممتعضاً.

- سيقوم مكانها حي جديد.

- عجائب. –وفتح اديلباي الطويل ذراعيه –ألم تكفكم الأماكن الأخرى؟

- هذا ما ينص عليه المخطط.

- اسمع. من هو أبوك؟ - سأل يديغاي العاصف الملازم تانصيقبايف بإصرار.

استهجن ذلك بشدة:

- لم هذا السؤال؟ ما شأنك أنت بهذا؟

- شأني أنه عليك ألا تقول لنا ما كان يجب أن تقوله هناك حيث خططوا لإزالة مقبرتنا. أم أن آباءك لم يموتوا؟، أو أنك نفسك لن تموت أبداً؟

- هذا لا علاقة له بالقضية أبداً.

- حسن. تعال إذن نبحث في القضية. تعال إذن أيها الرفيق الملازم، وليصغ إلي أكبركم رتبة هنا. أنا أطالب بأن يسمح لنا بتقديم الشكوى إلى رئيسكم الأكبر. قل له أن المحارب القديم، أحد سكان صاروزيكي يديغاي جانغيلدين يريد أن يقول له كلمتين.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك. عندي تعليمات خاصة بطريقة التصرف.

- ماذا تستطيع إذن؟ - تدخل الصهر المدمن ثانية، وأضاف بلهجة يائسة: - الشرطة في السوق أحسن.

- كفى قلة أدب. – واستقام رئيس الحرس بقامته – كفى. أبعِدوا هذا الرجل عن الحاجز وأزيحوا الجرارات عن الطريق.

أمسك يديغاي واديلباي الطويل الصهر المدمن وسحباه باتجاه الجرارات بينما ظل هو يصرخ ملتفتاً إلى الخلف:

- ساغان جول دا جيتبيدي، ساغان جير داجيتبيدي، أوردين سيديدين أوزين[١]!

هنا تحرر سابيتجان الذي ظل طوال الوقت صامتاً وهو يتمشى بعيداً عنهم عابساً، قرر أن يثبت وجوده فانبرى في مواجهتهم:

- ماذا؟ عدتم من حيث أتيتم؟. هذا ما كان يجب أن يحدث. انابيت، لا شيء إلا انابيت، والآن كالكلاب المضروبة.

- من هم الكلاب المضروبة – اندفع نحوه الصهر المدمن إذ فقد رشده – إذا كان بيننا كلب فهو أنت، أيها الحقير. ما هو الفارق بين ذاك الذي يقف هناك وبينك؟. وما زلت تتباهى أنا رجل دولة. أنت لست رجلاً أبداً.

---

(١) لا حملتك الدروب ولا وسعتك الأرض. تفو عليك.

- أما أنت أيها السكير فأمسك لسانك. لو كنت مكانهم لزجرت بك، على كلماتك هذه، في مكان يحجب عنا حتى طيفك. ما هي فائدتك للمجتمع. أمثالك يجب أن يقضى عليهم.

ومع هذه الكلمات أدار سابيتجان ظهره وقال: تفو عليك وعلى من معك. وفجأة أظهر فاعلية غير منتظرة وصار يتأمر بصوت عال وكأنه السيد، متوجهاً بالأمر إلى السائقين:

- وأنتم، ما بالكم تدلون شفاهكم؟ شغلوا الجرارات. كما جئنا كذلك سنذهب، إلى أم الشيطان. هيا استدر. كفى. جننت مرة وسمعت كلام الآخرين.

أدار كاليبيك محرك الجرار وصار يدير العربة المقطورة باتجاه الخروج، وفي هذه الأثناء قفز الصهر المدمن إلى العربة وعاد ليشغل مكانه السابق قرب الراحل. أما جوماغالي فظل ينتظر حتى يبعد يديغاي العاصف جمله قارانار عن مجرفة الحفارة. لكن سابيتجان لم يكف عندما رأى هذا بل، على العكس، صار يستعجلهم:

- وأنت لماذا لم تشغل جرارك؟ هيا شغله. لا عليك. تراجع إلى الخلف. قال دفنه قال. من البداية كنت معترضاً، والآن كفى. هيا إلى البيت.

بينما ركب يديغاي العاصف على جمله – وكان يجب إناخته أولاً ثم الصعود إلى الرحال ومن ثم إنهاضه – كانت الجرارات قد سبقته: على طريق العودة، سائرة على آثارها السابقة نفسها. أسرعوا لدرجة أنهم لم ينتظروه فسابيتجان الذي كان جالساً في الجرار الأمامي كان يستعجلهم.

وفي السماء ما يزال يحلق دائراً نفس العقاب مراقباً من الأعلى الكلب الأصهب الذي أثار حفيظته لسبب ما بتصرفاته العابثة. وظل العقاب يلاحقه. لم يدرك لماذا لم يعد الكلب في أثر الجرارات عندما تحركت بل ظل بجانب الرجل صاحب الجمل، ظل ينتظر إلى أن ركب الرجل ثم ركض خلفه.

تحرك الرجال الراكبون في الجرارات وخلفهم الراكب على الجمل وفي أثره الكلب الأصهب يعدو قافزاً، تحركوا ثانية سائرين في صاروزيكي باتجاه منحدر مالاقومديتشاب، حيث يوجد في إحدى فجوات التربة على نتوء حافة

الجرف وكر العقاب. لو كان الوقت غير هذا الوقت لقلق العقاب ولأطلق زعقات التحذير، ولبقي بعيداً، لكن دون أن يحيد بنظره عن هؤلاء القادمين، ولسرع تحليقه منادياً صديقته التي كانت تبحث عن فريسة في أراضيها الشرعية المجاورة، وذلك كي تنضم إليه من باب الاحتياط لضرورة الدفاع عن الوكر إذا ما وجدت هذه الضرورة. لكن العقاب أبيض الذنب لم يقلق أبداً في هذه المرة – فصغاره رحلوا وهجروا الوكر منذ زمن. فالعقبان كهرمائية العيون محدبات الأنوف تقوى أجنحتها يوماً بعد يوم لتعيش حياة مستقلة، والآن أصبحت عندها أملاكها في منطقة صاروزيكي، وهم الآن لا يستقبلون العقاب الكبير استقبالاً ودياً عندما يذهب ليلقي بنظرة سريعة على بقاعهم...

راقب العقاب الناس الذين يسلكون طريق العودة بسبب اعتياده على رؤية كل ما يحدث ضمن حدود ممتلكاته. وما أثار فضوله بشكل خاص هو الكلب الصهب الأشعث الذي لا يفارق هؤلاء الناس. ما الذي يربطه بهم، ولماذا لا يبحث عن فريسته بنفسه، بل يركض هازّاً ذنبه وراء أولئك البشر المشغولين بأعمالهم؟ ما فائدته من هذه الحياة؟ ومما لفت انتباه العقاب أيضاً أجسام لامعة على صدر الراكب على الجمل. لهذا لاحظ العقاب فوراً أن الرجل على الجمل الذي يسير خلف الجرارات اتجه فجأة وبشكل حاد إلى الجانب وصار يسير بشكل منحرف على المنحدر محاولاً تجاوز الجرارات وقطع الطريق عليها إلى أن اجتازت الجرارات المنحدر. صار هذا الرجل يحث الجمل ليسير أسرع وأسرع ملوحاً بالسوط والأجسام اللامعة على صدره تقفز وترن والجمل يعدو بقوة مرسلاً قوائمه إلى مسافات أطول وأوسع والكلب الأصهب أطلق سيقانه للريح وراح يعدو خلفه..

استمر الحال هكذا بعض الوقت، إلى أن تجاوز الرجل الراكب على الجمل الجرارات ووقف في طريقها عند المدخل إلى وادي مالاقومديتشاب فتوقفت الجرارات أمامه:

- ماذا؟ ماذا حدث؟ مد سابيتجان رأسه من القمرة.

- لا شيء. أسكِتوا المحركات، - أمرهم يديغاي العاصف. – هناك حديث.

- أي حديث بعد؟ لا تؤخرنا. لقد شبعنا سفراً.

- الآن أنت تؤخرنا، لأننا نريد أن ندفنه هنا.

- كفاك هزءاً – ثارت ثائرة سابيتجان، فشد ربطة العنق التي تدلت كخرقة على رقبته. – أنا نفسي سأدفنه في النقطة. لا أريد كلاماً أكثر. كفى.

- اسمع، سابيتجان. هو أبوك، ولا جدال. ولكنك لست الوحيد في العالم. ومع ذلك اسمع. أنت رأيت ما حدث عند المحرس وسمعت. هذا ليس ذنب أي منا. ولكن فكر في شيء آخر. أين رأيت أنهم أعادوا الميت من الدفن إلى البيت؟ هذا لم يحدث قط. هذا عار سيخيم فوق رؤوسنا. هذا لم يحدث في أي يوم من الأيام.

- طظ على كل شيء. اعترض سابيتجان.

- الآن فقط تقول طظ. يمكن أن تقول ما تشاء في لحظة الانفعال. ولكن غداً ستخجل. فكر. عار لن يمحوه شيء. فالميت الذي يخرج من بيته ليدفن يجب ألا يعاد.

في هذه الأثناء خرج اديلباي الطويل من قمرة قيادة الحفارة ونزل الصهر المدمن من العربة المقطورة، كما اقترب أيضاً سائق الحفارة جوماغاي ليستكشف ماذا هناك. سد يديغاي العاصف وهو على ظهر قارانار الطريق عليهم وخاطبهم:

- استمعوا أيها الرجال. لا تقفوا ضد الأعراف الإنسانية. لا تقفوا ضد الطبيعة. لم يسبق أن أعيد الميت من المقبرة. فمن يؤخذ ليدفن يجب أن يدفن. لا يجوز غير ذلك. ها هو منحدر مالاقومديتشاب. هذه أيضاً أرضنا – صاروزيكي – هنا عند مالاقومديتشاب قالت نايمان أنا مناحتها العظيمة. أصغوا إلي، أصغوا إلى العجوز يديغاي. فليكن قبر قازانغاب هنا. وقبري ليكن هنا. إن شاء الله ستدفنونني أنتم. أتوسل إليكم من أجل هذا. والآن ما دام لدينا الوقت فسنواري المرحوم الثرى، هناك عند المنحدر تماماً.

نظر اديلباي الطويل إلى المكان الذي أشار إليه يديغاي وسأل جوماغالي:

- كيف جوماغالي؟ هل تصل حفارتك إلى هناك؟

- طبعاً تصل. ولم لا؟ من ذلك الطرف..

- انتظر أنت. من ذلك الطرف! أسألني أنا أولاً. –تدخل سابيتجان.

- ها نحن نسأل – أجاب جوماغالي. – هل سمعت ما قاله الرجل؟ ماذا تريد أكثر؟

- وأنا أقول كفى هزلاً. هذه سخرية. هيا إلى النقطة.

فقال له جوماغالي:

- إذا كنت تفكر بهذه فالسخرية ستكون فعلاً إذا ما أعدنا المرحوم من المدفن إلى البيت. فكر جيداً.

صمت الجميع... ثم أعلن جوماغالي:

- أنتم، افعلوا ما تشاؤون، أما أنا فسأذهب لحفر حفرة، حفرة عميقة ما دام الوقت يحتمل هذا فلن يكون بمقدور أحد أن يقوم بهذا في الظلام. وأنتم، كما تشاؤون.

واتجه جوماغالي إلى حفارته «بيلوروس» أدار محركها دون تباطؤ وناور بها بعض الشيء ثم صعد إلى مرتفع صغير ومنه إلى أعلى منحدر مالاقومديتشاب. وخلفه سار اديلباي الطويل وراءهما حث يديغاي العاصف جمله قارانار.

قال الصهير المدمن لسائق الجرار كاليبيك:

- إذا لم تذهب إلى هناك – وأشار إلى المنحدر فسأستلقي تحت الجرار. لا يكلفني هذا شيئاً –مع هذه الكلمات وقف أمام الجرار.

- ماذا؟، إلى أين نسير؟ - سأل كاليبيك سابيتجان.

- كلكم أنذال، كلكم كلاب. – شتم سابيتجان بصوت مسموع. – ما بالك تجلس، هيا شغل واتبعهم.

صار العقاب يراقب الآن كيف يتسلق الناس المنحدر. إحدى الآلتين صارت تهتز مرتجفة وهي تحفر التراب وتكومه بجانبها مثلما يكوم السولق التراب قرب الجحر. في أثناء ذلك اقترب الجرار من الخلف وهو يجر العربة

المقطورة. وفيه ما يزال يجلس إنسان وحيد بجانب جسم غريب لا يتحرك، ملفوف بالأبيض ومُلقىً وسط العربة. الكلب الأصهب الأشعث صار يتسكع حول الناس ولكنه كان يلازم الجمل أكثر ويستلقي عند أرجله.

فهم العقاب أن هؤلاء القادمون سيظلون على المنحدر طويلاً وهم يحفرون الأرض. فابتعد عنهم بطيران انسيابي، واتجه نحو المنطقة المغلقة راسماً دوائر واسعة فوق السهب، عاقداً العزم على القنص أثناء طريقه وفي الوقت نفسه – على إلقاء نظرة على ما يجري هناك في المطار الكوني.

ها هو ذا اليوم الثاني والتوتر يسود في ساحات المطار الكوني والعمل يجري دون انقطاع ليل نهار. كان المطار كله وكل أقسام الخدمة الخاصة الملحقة به والمناطق التابعة مضاءة في الليل بأنوار مئات المصابيح الموجهة الساطعة. كان الضوء على الأرض ليلاً أشد من ضوء النهار. عشرات السيارات الكبيرة والصغيرة والخاصة والعديد من العلماء والمهندسين كانوا جميعاً مشغولين بالتجهيز لعملية «الحزام» وتنفيذها.

كانت مضادات الأقمار الاصطناعية التي أعدت لتدمير الأجسام الطائرة في الفضاء منذ زمن تقف موجهة نحو الانطلاق على مدارج خاصة في المطار الكوني ولكنها بناء على اتفاقية او. س. ف – ٧ جمد استخدامها حتى قيام اتفاق خاص وكذلك الوسائل المماثلة في الجانب الأميركي. وها هي الآن تجد استخداماً جديداً لها بسبب البرنامج الطارئ لتنفيذ عملية «الحزام» بين الأجواء الفضائية. مثل هذه الصواريخ – الروبتات كانت جاهزة للانطلاق الموقوت ضمن عملية «الحزام»، في المطار الكوني الأميريكي نيفادا أيضاً.

حدد وقت الإطلاق في صاروزيكي الساعة الثامنة مساء. ففي الساعة الثامنة تماماً يجب أن تنطلق الصواريخ. يجب أن تنطلق بالتتابع وبفارق زمني مقداره دقيقة ونصف، إلى الفضاء الخارجي، تسعة صواريخ مضادة للأقمار الصناعية من صاروزيكي، مهمتها تشكيل حزام مستمر محيط بالكرة الأرضية باتجاه غرب – شرق موجه ضد اختراق الأجهزة الطائرة العائدة

للكوكب الآخر. صواريخ – روبتات نيفادا يفترض بها أن تشكل حزاماً آخر باتجاه شمال جنوب.

في الساعة الثالثة بعد الظهر بدأت العمل في مطار صاري – اوزيك – الكوني منظومة المراقبة قبل الانطلاق المسماة «الدقائق الخمس» فعلى كل شاشات ولوحات أقسام الخدمة المختلفة وكل القنوات كانت تلتمع – مرة كل خمس دقائق – شارة التذكير مرفقة بصوت مسجل: «بقي حتى الإطلاق أربع ساعات وخمس وخمسون دقيقة! بقي حتى الإطلاق أربع ساعات وخمسون دقيقة..» وقبل موعد الإطلاق بثلاث ساعات يجب أن تشغل منظومة «الدقيقة الواحدة».

خلال هذه المدة كانت المحطة المدارية «باريتيت» قد تمكنت من تغيير إحداثيات تواجدها في الفضاء وكذلك تغيرت في الوقت نفسه شيفرة قنوات الاتصال اللاسلكي لأجهزة المتن في المحطة وذلك من أجل الحيلولة دون أية إمكانية للاتصال برائدي الفضاء الموازيين ١-٢ و٢-١.

في هذه الأثناء كانت الشارات اللاسلكية التي يبثها رائداً الفضاء الموازيان ١-٢ و٢-١ تتدفق بلا انقطاع من الفضاء دون أية جدوى تماماً، كصوت في البرية. كانا يتوسلان طالبين عدم قطع الاتصال معهما. لم يعترضا على قرار «اوبتسينوبر» واقترحا الاستفاضة في دراسة قضية الاتصالات الممكنة مع الحضارة الصدر غابية، وذلك، طبعاً انطلاقاً من مصالح أهل الأرض بالدرجة الأولى. لم يصرا على إعادة اعتبارهما فوراً ووافقا على الانتظار والقيام بأي عمل يجعل من وجودهما على كوكب صدر الغابة خدمة لمصلحة العلاقات المتبادلة بين الكواكب ولكنهما اعتراضا على عملية «الحزام» التي اقرها الجانبان، اعترضا على ذلك العزل الذاتي المصيري الذي يؤدي، برأيهما إلى رتابة تاريخية وتكنولوجية حتمية في المجتمع البشري، قد يحتاج تجاوزها إلى آلاف السنين... لكن الوقت قد فات.. فلا أحد في الدنيا قادر على سماعهما ولم يكن أحد ليفترض أن في الفضاء الكوني أصوات تناديه باستمرار.

في هذه الفترة بدأت عملها في مطار صاري – اوزيك – ١ منظومة «الدقيقة» التي تحسب حساباً لا تراجع عنه اقتراب الإطلاق ضمن عملية «الحزام».

عاد العقاب، بعد أن قام بتحليقه الدوري، ليظهر فوق منحدر مالاقومديتشاب. كان الناس هناك منهمكين بعملهم – أكانوا يعملون بالرفوش. لقد كومت الحفارة كومة كبيرة من التراب، وها هي الآن تنزل مجرفتها في الحفرة العميقة لتجرف آخر وجبات التراب. وسرعان ما توقفت عن الاهتزاز وابتعدت جانباً وصار الناس يكملون الحفر في قعر الحفرة. الجمل كان ما يزال مكانه. لكن لا أثر للكلب الأصهب. أين اختفى؟ اقترب العقاب أكثر. ومع رسمه لدائرة انسيابية فوق المنحدر اكتشف أخيراً وهو يدير رأسه إلى اليمين واليسار أن الكلب الأصهب كان مضطجعاً تحت العربة، مستلقياً بكامل جسمه عند العجلات. ربما كان يرتاح، أو كان نائماً غير مكترث بالعقاب. كم مرة حلق اليوم فوقه ولكنه لم ينظر إلى السماء ولا مرة واحدة. لو كان سولقا لانتصب بجسمه كالعمود ولصار يتلفت حوله في البداية، ثم ينظر إلى الأعلى: أليس هناك خطر ما لكن الكلب تكيف مع الحياة قرب الناس، ولا يخاف شيئاً ولا يهتم بشيء وها هو الآن مستلق هناك. ثبت العقاب للحظة في مكانه متوتراً ثم قذف من تحت ذنبه دفقة بيضاء مخضرة انطلقت كالرصاصة باتجاه الكلب، وكأنه يقول: هذه عليك!

سقط شيء ما من الأعلى على كم يديغاي العاصف. لقد كان هذا الشيء ذرق الطير. من أين؟ ونفض يديغاي الذرق عن كمه ورفع رأسه إلى أعلى. «أبيض الذنب نفسه ثانية. كم مرة رأيته فوق رأسي؟، ما سبب هذا؟ ما أحسن حاله. يسبح ويتأرجح في الهواء». قطع عليه أفكاره صوت اديلباي الطويل من أسفل الحفرة:

- انظر، يديكيه. هذا يكفي أم نحفر أيضاً؟

وانحنى يديغاي متجهماً فوق حافة القبر:

- تنحى إلى تلك الزاوية. وأنت كاليبيك، اُخرُج الآن. شكراً لك. يبدو أن العمق كاف. ومع ذلك، اديلباي، يجب جعل الحفرة الجانبية أوسع، فليكن المكان فسيحاً.

أعطى يديغاي العاصف هذه التعليمات ثم أمسك بالإبريق الصغير المملوء بالماء وتنحى خلف الحفارة وتوضأ كما هو المفروض قبل الصلاة. وعندها هدأت نفسه وعادت إلى طبيعتها بعض الشيء - «مع أننا لم نستطع دفن قازانغاب في انابيت، ولكننا – رغم كل شيء – تجنبنا عاراً كبيراً: لم نعد بالميت إلى البيت دون دفن». لولا صموده وإصراره كيف كانت ستجري الأمور. الآن يجب التصرف بالوقت بشكل يستطيعون معه أن يعودوا إلى أم العواصف قبل حلول الظلام. في البيت ينتظرونهم، طبعاً وسيقلقهم تأخرهم، إذ إنهم وعدوهم بأن يعودوا في وقت لا يتجاوز السادسة حيث ستكون وليمة التأبين جاهزة. الوقت الآن هو الرابعة والنصف وبقي عليهم الدفن وطريق العودة في صاروزيكي. وهذا سيستغرق حتى في السير السريع حوالي الساعتين. ولكن لا يجوز أيضاً الإسراع بالدفن كيفما اتفق. في أسوأ الحالات سيقيمون حفل التأبين ليلاً. ليس باليد حيلة...

بعد الوضوء شعر يديغاي وكأنه مكلف بالقيام بهذا الطقس الأخير. سد الإبريق بغطائه وخرج من وراء الحفارة وعلى وجهه تعابير مهيبة وهو يمسح بيده لحيته وشاربيه.

- تعال يا سابيتجان ابن المرحوم العبد الفقير لربه قازانغاب وقف إلى يساري. وأنتم الأربعة احملوا الجثمان إلى حافة القبر ووجهوا رأسه نحو الغرب – كان يعلن هذا بصوت احتفالي. وعندما تم كل ما أمر به قال: - ولنتجه الآن جميعاً نحو مكة المكرمة. افتحوا أكفكم أمامكم وفكروا بالله، لكي يستمع إلى أفكارنا وكلماتنا في هذه الساعة.

لم يلتقط يديغاي – ويا للغرابة – من وراء ظهره أية تمتمة أو ضحك فسر لهذا، إذ إنَّه كان بإمكانهم أن يقولوا له: كفى أيها العجوز هذيانا، أي ملا مضحك أنت. تعال ندفن الميت بسرعة ونعود إلى البيت. والأكثر من ذلك أن

يديغاي تجرأ على الصلاة وقوفاً أثناء الدفن وليس جلوساً، إذ إنَّه سمع من العارفين أنهم في البلاد العربية – ومن هناك جاء الدين – يصلون في المقابر وقوفاً منتصبين بكل قامتهم. أكان الأمر كذلك، أم لا، المهم أن يديغاي كان يريد أن يكون رأسه أقرب ما يمكن من السماء.

ولكن، قبل أن يبدأ المراسم وبينما هو ينحني في البداية إلى اليمين واليسار ثم يحني رأسه للأرض وللسماء خشوعاً أمام الخالق تقديراً لخلقه العالم الدائم الأبدي الذي يظهر فيه الإنسان مصادفة ويختفي بينما يظل تناوب الليل والنهار كما هو، رأى يديغاي العاصف أمامه، مرة أخرى، العقاب أبيض الذنب وقد كان ذلك ينوي رسم دوائر متعاقبة في السماء مرفرفاً بجناحيه في الأعالي. لكن العقاب لم يشغله عن عزمه الداخلي بل، على العكس، ساعده في التركيز على الأفكار العلوية.

على حافة الحفرة الفاغرة الفم كان يتمدد أمامه على حمالة ملفوفاً بلباد أبيض المرحوم قازانغاب. ومع تلفظه بصوت خافت بكلمات الدفن المعدة سلفاً للجميع ولكل واحد، المعدة للجميع في كل العصور الآتية حتى نهاية الكون، هذه الكلمات التي تضمنت ما هو مقدر ومحتوم وواحد للجميع، ولكل إنسان أياً كان وفي أي عصر عاش، وهو الذي يحمل نفس درجة الحتمية بالنسبة لمن سيولد فيما بعد. مع نطقة بهذه الصيغ الشاملة لكل الحياة والتي أدركها الأنبياء وأوصوا بها حاول يديغاي العاصف إضافة أفكاره الخاصة الصادرة عن روحه وخبرته الشخصية إليها. فليس عبثاً عاش هذا الرجل على الأرض.

«وإذا كنت تسمع فعلاً، يا إلهي، صلاتي هذه التي أرددها من الكتب المحفوظة في آثار أجدادنا، فاسمعني أنا أيضاً. وأظن أن ذاك لا يعيق هذا».

ها نحن نقف هنا عند منحدر مالاقومد يتشاب عند قبر قازانغاب المكشوف، في مكان مقفر موحش لأننا لم نوفق إلى دفنه في المقبرة التي أوصى هو بدفنه فيها. والعقاب في السماء ينظر إلينا، ينظر كيف نقف واكفنا ممدودة ونحن نودع قازانغاب. فأعف عنا أيها العظيم إذا كنت موجوداً وتقبل

منا دفن عبدك قازانغاب. وارحمه إذا كان يستحق رحمتك وامنح روحه الراحة الأبدية. لقد حاولنا أن نفعل كل ما كان علينا عمله. والباقي عليك.

والآن بما أنني أتوجه إليك في هذه الساعة فاسمعني ما دمت حياً وقادراً على التفكير. الأمر واضح، فالناس لا يعرفون إلا أن يطلبوا منك: ارحمنا وساعدنا واحمنا. إنهم ينتظرون منك الكثير وفي كل الحالات إن كانوا على حق أم لم يكونوا على حق. فالقاتل يريد في أعماق نفسه أن تكون إلى جانبه، أما أنت فتصمت. وماذا ستقول، إننا بشر، ونظن – خاصة في لحظات الضيق – إنَّك موجود في السماوات فقط من أجل هذا. الوضع صعب وأنا أفهم. فطلباتنا لا تنتهي وأنت لوحدك. أنا لن أرجو شيئاً ولكنني أريد فقط أن أقول في هذه الساعة ما يدور في تفكيري.

يؤلمني جداً أن مقبرتنا المقدسة التي دفنت فيها نايمان أصبحت الآن ممنوعة علينا. لذلك أريد أنا أيضاً أن أدفن في هذا المكان على منحدر مالاقومد يتشاب حيث لمسته أقدامها. عسى أن يقدر لي أن أكون بجانب قازانغاب الذي نواريه الآن الثرى، وإذا كان صحيحاً أن الروح تعود بعد الموت لتسكن جسماً آخر، فلماذا أكون نملة. أريد أن أتحول إلى عقاب أبيض الذنب. لكي أطير مثله فوق صاروزيكي وانظر فلا أشبع من النظر من الأعلى إلى أرضي. وهذا كل شيء.

أما بشأن وصيتي، فأنا أوصي هؤلاء الشباب الذين جاؤوا معي إلى هنا. سأقول لهم: أنني أكلفهم بتنفيذ وصيتي: ادفنوني هنا. ولكنني لا أرى من يمكن أن يصلي علي. فهم لا يؤمنون بالله ولا يعرفون أية صلوات فلا أحد يعرف ولا يمكن لأحد أن يعرف إنْ كان الله موجوداً. البعض يقولون موجود والبعض يقولون لا. أريد أن أؤمن بوجودك في أفكاري وعندما أتوجه إليك بالصلوات فأنا عن طريقك أتوجه في الواقع إلى نفسي، فأنا في مثل هذه الساعة قادر على التفكير وكأنك أنت نفسك خالق الأفكار. هذه هي المسألة. أما هؤلاء الشباب فهم لا يفكرون بهذا ويسخرون من الصلاة. ماذا سيكون بمقدورهم أن يقولوا لأنفسهم وللآخرين في ساعة الموت العظيمة؟ أنني أشفق

عليهم، فكيف سيدركون جوهرهم البشري إذا كانوا يفتقرون إلى الطريق الذي يسمون بواسطته بأفكارهم إلى درجة أن أياً منهم قد يصبح إله فجأة. اغفر لي هذا التجديف. إذا لم يستطع الإنسان أن يرى في نفسه، بينه وبين ذاته، إلهاً يدافع عن الجميع كما يجب أن تدافع أنت عن الناس فأنت نفسك يا إلهي لن تعود موجوداً... وأنا لا أريدك أن تختفي دون أثر..

هذا هو كل قلقي وحزني. ولكن اعذرني إذا كنت مخطئاً. أنا إنسان بسيط، أفكر كما أستطيع. الآن سأقول آخر كلمات الصلاة المقدسة وبعدها نبدأ بالدفن، فباركنا في هذا العمل..

- آمين، - اختتم يديغاي العاصف صلاته، وبعد صمت قصير نظر إلى العقاب مرة أخرى بحسرة شديدة وأدار وجهه ناحية الشباب الواقفين خلفه والذين كان لتوه يعلن عن رأيه بهم لله جل جلاله. انتهى الحديث مع الله. كان يقف أمامه أولئك الخمسة الذين جاؤوا معه إلى هنا والذين عليهم الآن أن ينجزوا. أخيراً هذا الدفن الذي طال كثيراً.

- هكذا، - قال لهم متأملاً – لقد قلت نيابة عنكم ما يجب أن يقال في الصلاة. والآن لنبدأ عملنا.

نزع يديغاي العاصف سترته بما عليها من الأوسمة ورماها جانباً ثم نزل إلى أسفل الحفرة، وقد ساعده في ذلك اديلباي الطويل. بقي سابيتجان باعتباره ابن المتوفى جانباً معرباً عن حزنه برأس منحن، ورفع أولئك الثلاثة كاليبيك وجوماغالي والصهر المدمن اللفة البادية وفيها الجثمان عن الحمالة وانزلوها إلى القبر على يدي يديغاي واديلباي الطويل.

ها قد حلت ساعة الفراق – ففكر يديغاي العاصف وهو يضع قازانغاب في مثواه الأخير في قاع قبره – اِعذرنا لأننا تأخرنا في مواراتك الثرى. ظللنا ننقلك إلى هنا وهناك يوماً بكامله. ولكن هذا ما حصل. ليس ذنبنا أننا لم ندفنك في انابيت. ولكن لا تظن أنني سأترك الأمر يمر ببساطة. سأصل إلى حيث يجب. لن أسكت ما دمت حياً. سأقول لهم! ارتح أنت في مكانك. الأرض

عظيمة وشاسعة أما مكانك الذي لم يتجاوز العشرة فيرشوكات[١]، أترى، قد صادف أن يكون هنا. ولكنك لن تكون هنا وحدك. قريباً سأستقر أنا هنا يا قازانغاب. انتظرني قليلاً ولا تشك بهذا. إذا لم تصبنا أية مصيبة وإذا مت ميتة عادية سآتي إلى هنا وسنكون معاً من جديد، ونتحول إلى تراب في أرض صاروزيكي لكننا لن نعرف هذا. فالمرء قادر على المعركة ما دام حياً فقط. ولهذا أتحدث إليك وأقصد في الواقع نفسي. فأنت لم تعد كما كنت. وهكذا سنرحل نحن من الوجود إلى الفناء. أما القطارات فستظل تجري في صاروزيكي وسيأتي آخرون ليحلوا محلنا..

هنا لم يصمد العجوز يديغاي فتشنج باكياً – كل ما كان خلال سنوات طويلة من حياتهما في نقطة أم العواصف، وكل هذا الزمن الذي يبدو طويلاً، كل المصائب والمآسي والأفراح، كل هذا احتوته بضع كلمات وداع وعدة دقائق دفن. ما أكثر وما أقل ما قدر للإنسان!

- أتسمعني، اديلباي؟ - قال يديغاي وهو يلتصق كتفاً إلى كتف باديلباي في الحفرة الضيقة. – ادفني هنا لكي أكون بقربه، وهكذا ضعني على الأرض بيديك، كما نفعل نحن الآن لكي أرتاح في مضجعي. هل تعدني؟

- كفى، يديكيه. سنتكلم فيما بعد. اخرج الآن لترى وجه ربك وأنا سأنهي العمل هنا بنفسي. اطمئن يا يديكيه. اخرج ولا تعذب نفسك.

خرج يديغاي العاصف من قعر الحفرة وهو يمسح التراب عن وجهه الرطب، إذ مدوا له أيديهم من الأعلى فخرج إلى السطح زاحفاً وهو يبكي وتمتم ببعض كلمات الاستياء. فأحضر كاليبيك أبريق الماء كي يغسل العجوز يديه ووجهه.

بعد ذلك ألقى كل منهم حفنة من التراب وبدؤوا بردم القبر من الجهة التي تأتي منها الريح. عملوا أولاً بالرفش، ثم جلس جوماغالي وراء مقود

---

(١) فيرشوك: وحدة قياس تساوي ٤،٤ سم.

الحفارة وصار يرفع التراب بمجرفتها، ثم عادوا ليقيموا فوق القبر كومة من التراب بالرفوش.

مازال العقاب أبيض الذيل يحوم فوقهم ويراقب من وراء غيمة الغبار المتصاعد على منحدر مالاقومديتشاب. ولاحظ حيوية متميزة عندهم عندما بدأت تقوم مكان الحفرة تلة من التراب، بينما نهض في هذه الأثناء من مكانه الكلب الذي كان مضجعاً تحت العربة وصار يدور الآن حول الناس. ماذا كان يريد؟. الجمل الكبير المزين بغطاء ذي شراشيب وحده ظل كالسابق يمضغ ما في فمه وهو يحرك فكيه برتابة وهدوء.

يبدو أن هؤلاء يستعدون للرحيل. ولكن لا ها هو أحدهم، وهو صاحب الجمل يمد كفيه أمامه، وكذلك فعل الآخرون.

لم يعد الوقت كافياً. نظر يديغاي العاصف نظرة طويلة دؤوبة إلى الجميع وقال:

- لقد انتهت المهمة. هل كان قازانغاب إنساناً جيداً؟

فأجابوه:

- نعم، كان جيداً.

- هل ظل مديناً لأحد؟ هذا ابنه، فليتحمل دين أبيه.

صمت الجميع. ثم ارتفع صوت كاليبيك ليقول نيابة عنهم:

- لا. لم يترك وراءه أي دين.

- في هذه الحالة، ماذا ستقول يا سابيتجان أين قازانغاب؟ - توجه يديغاي بالكلام إلى سابيتجان.

فأجاب باختصار:

- شكراً لكم جميعاً.

- إذن فلنتحرك إلى البيت. – أعلن ذلك جوماغالي.

لكن يديغاي العاصف أوقفه:

- لحظة. كلمة واحدة. أنا هنا أكبركم سناً. وعندي رجاء لكم جميعاً. إذا حدث لي مثل هذا فادفنوني هنا، جنباً إلى جنب مع قازانغاب. أتسمعون؟ هذه وصيتي. هكذا افهموها.

- لا أحد يعرف يا يديكيه ماذا سيحدث وكيف. لم التفكير بهذا سلفاً – أعرب كاليبيك عن شكوكه.

- رغم كل شيء – أصر يديغاي – علي أن أقول لكم وعليكم أن تنفذوا وعندما تحل الساعة اذكروا أنني أوصيت مثل هذه الوصية.

- ما هي وصاياك العظيمة الأخرى؟ هات يديغاي قل لنا. – قال ادیلباي الطويل مازحاً، محاولاً تمييع الموقف.

- وأنت، لا تضحك. – قال يديغاي غاضباً – أنا أتكلم بجد.

- سنذكر ذلك يا يديكيه. – هدأه اديلباي الطويل. - اذا حصل هذا فنتصرف كما تشاء. كن واثقاً.

- هكذا يتكلم الرجال. – تمتم يديغاي برضى.

بدأت الجرارات تلتف كي تهبط عن المنحدر، وسار يديغاي العاصف بجانب سابيتجان وهو يجر قارانار من مقوده إلى أن هبطت الجرارات إلى الأسفل. فهو يريد أن يتحدث معه على انفراد عن شيء كان يثير قلقه بشدة.

- اسمع يا سابيتجان، انتهت الآن مشاغلنا، وعندي معك حديث. ماذا ستفعل الآن بمقبرتنا انابيت؟ - قال هذا بلهجة المستفهم.

- كيف... ماذا سنفعل؟ لا حاجة لأن نتعب رؤوسنا. المخطط مخطط. سيزيلونها حسب المخطط. هذه هي القصة كلها.

أنا لا أتكلم عن هذا. بهذا الشكل، بإمكاننا أن نبصق على أي شيء. ها أنت ولدت وترعرعت هنا. علمك أبوك، الذي دفناه لوحده اليوم في هذا السهب المكشوف. والعزاء الوحيد أنه دفن في أرضه. أنت إنسان متعلم وتعمل في مركز الناحية، قادر، والحمد لله، على التحدث إلى أي كان. قرأت كتباً كثيرة...

فقاطعه سابيتجان:

- المهم في كل هذا؟

- المهم هو أنني أريد منك أن تساعدني في الكلام، وأن أذهب وإياك معاً قبل أن يفوت الأوان، ودون تأجيل، إلى القيادة المحلية. وليكن غداً. ألا يوجد في هذه المدينة رئيس؟ لا يجوز أن يدرسوا مدفن انابيت فهو تاريخ كامل.

- كل هذا مجرد حكايات قديمة. أفهم ذلك يا يديكيه. هنا يقررون مسائل عالمية فضائية، أما نحن فسنذهب لنشتكي بشأن مقبرة. من الذي سيهتم بها؟ هذا بالنسبة لهم سخافة. وعلى كل حال لن يسمحوا لنا بالدخول إلى هناك.

- إذا لم نذهب فلن يسمحوا. وإذا طالبنا فسيسمحون. وإن لم يسمحوا، فالرئيس نفسه قد يأتي لمقابلتنا. فهو ليس جبلاً حتى لا يتحرك من مكانه.

وألقى سابيتجان على يديغاي نظرة غاضبة.

- دع عنك أيها العجوز هذه القضية الفارغة، ولا تعتمد علي. لا شأن لي بذلك.

- قل هذا من الأول، فينتهي الحديث. لا تحك لي الحكايات.

- وكيف كنت تظن؟ هل تظن أنني سأركض معك؟ ولماذا؟ عندي أسرة وأطفال وعمل. لماذا أبوّل بعكس الريح؟ لكي تأتي مخابرة هاتفية فيركلونني على مؤخرتي؟ لا، شكراً.

- شكرك مردود عليك – قالها يديغاي العاصف وأضاف بحنق: - يركلونك على مؤخرتك! إذن أنت تعيش من أجل مؤخرتك فقط.

- وماذا كنت تظن؟. «من أنت؟ لا أحد» - هذا أمر بسيط بالنسبة لك. أما نحن فنعيش من أجل مؤخرتنا ليكون الطعم في فمنا أحلى.

- فعلاً. في السابق كانوا يخافون على رؤوسهم، أما الآن فيخافون على مؤخراتهم.

- افهمها كما تشاء. ولا تبحث فيّ عن مجنون.

- واضح. انتهى الحديث. – قطع يديغاي العاصف الكلام – ستحضر التأبين وبعد ذلك، لن نلتقي أبداً، إن قدر الله.

فقال سابيتجان مستاء:

- حسبما تسير الأمور.

وهكذا افترقا. وقف السائقون يشغلون محركاتهم وينتظرون يديغاي العاصف حتى يمتطي جمله، لكنه قال لهم مباشرة أن لا يتأخروا، وأن يسرعوا في السير قدر الإمكان. فالناس هناك ينتظرونهم من أجل التأبين، أما هو فسيسير وحيداً لأن كل الطرق مناسبة بالنسبة له وهو على ظهر جمله.

غادرت الجرارات، بينما ظل هو واقفاً يقرر ماذا سيفعل بعد هذا.

ها هو الآن وحيد تماماً وسط صاروزيكي، إذا لم تعتبر الكلب الأمين جولبارس الذي اندفع في البداية يجري خلف الجرارات، ثم عاد عندما أدرك أن صاحبه لا يرافقهم في طريقهم. لكن يديغاي لم يعره أي انتباه. فهو ما كان لينتبه، حتى لو ذهب الكلب إلى البيت. إنَّهُ الآن مشغول عن كل هذا. لم تكن الدنيا لطيفة معه، ولا شيء يمكن أن يخمد النار المشتعلة في داخله أو أن يخفف من هذا الشعور بالألم والقهر الذي اجتاحه بعد حديثه مع سابيتجان. وانفتحت في داخله دوامة من الألم الذي لا يخبو وكأنها فجوة نافذة أو شرخ لا يمر منه إلا البرد والظلام. ندم يديغاي العاصف ندماً شديداً لأنه عبثاً فتح هذا الحديث وعبثاً ألقى بكلماته على الأرض. وهل سابيتجان هو ذلك الإنسان الجدير بأن يلجأ إليه الإنسان طلباً للمشورة أو للمساعدة؟ كان يأمل يديغاي منه خيراً إذ فكر أنه إنسان متعلم ومن السهل عليه أن يجد لغة مشتركة مع من هم مثله. ولكن ما الفائدة مما تعلمه في الجامعات والدورات المختلفة؟ ربما علموه كي يكون كما هو الآن. ربما يوجد في مكان ما إنسان ثاقب النظر، كالشيطان، فعل كل ما بوسعه كي يجعل من سابيتجان وليس أي إنسان آخر. فسابيتجان نفسه كان يتحدث ويتكلم بشتى الأشكال عن خرافة «التوجيه اللاسلكي للإنسان»، كان يقول: سيأتي ذلك الزمن، وماذا سيحدث لو صار ذلك الإنسان الخفي القادر على كل شيء يوجهه هو بالراديو...

وكلما أكثر العجوز من التفكير بهذا ازداد غضباً وقادته الأفكار إلى طريق مسدود.

- أنت مسلوب، مسلوب حقيقي! – همس في سره، حاقداً على سابيتجان ومشفقاً عليه.

لكنه لم ينو أن يستسلم لما حدث، فقد أدرك أن عليه فعل شيء ما، أن عليه اتخاذ أية خطوة كانت كي لا يركع. فقد أدرك يديغاي العاصف أنه إذا تراجع سيكون ذلك هزيمة بالنسبة له، ومع إحساسه بضرورة القيام بشيء ما يختلف عن الأحداث اليومية المحسوسة، فإنه ما يزال غير قادر على إعلان ما يريد فعله بالضبط، ومن أين سيبدأ وكيف يجب أن يخطو كي تصل أفكاره وشكواه بشأن انابيت إلى مسامع أولئك الذين يقدرون فعلاً على تغيير الأمر. لو تصل يا يديغاي إليهم وتتخذ بعض الإجراءات وتقنعهم... لكن كيف التوصل إلى هذا؟ إلى أين يتجه؟ ماذا يفعل؟.

من خلال أفكاره الثقيلة هذه صار يديغاي يتلفت إلى جانبيه وهو يجلس على ظهر جمله قارانار. السهب الصامت حوله وظلال ما قبل المساء تتسلل إلى ما تحت مرتفعال مالاقومديتشاب الرملية. منذ مدة طويلة اختفت الجرارات بعيداً ولم يعد يسمع صوتها. لقد ذهب الشباب. أما آخر من كان يعرف ويحتفظ في ذاكرته بتاريخ صاروزيكي وهو العجوز قازانغاب، فإنه يستلقي الآن على المنحدر تحت هضبة صغيرة أقيمت لتوها فوق قبر وحيد وسط هذا السهب المترامي الأطراف. صار يديغاي يتخيل كيف ستدرس وتنبسط وتستوي هذه الهضبة الصغيرة وتتلون بلون شيح صاروزيكي، وكيف سيكون من الصعب، وبل من المستحيل تمييزها في هذا المكان. هذا ما سيحدث فلا أحد سيعيش أكثر من الأرض ولا أحد سيتجاوزها...

تثاقلت الشمس عند نهاية النهار، هابطة تحت وطأة ثقلها مقتربة من خط الأفق أكثر وأكثر. كان نور هذا المشعل الراحل يتغير من دقيقة إلى دقيقة. وفي جوف المغيب كان يولد الظلام دون أن يلحظ ساكباً زرقة الأصيل على الفضاء المنار بنور ذهبي.

فكر يديغاي العاصف ودرس الموقف وقرر العودة إلى الحاجز القائم عند مدخل المنطقة، إذ لم يهتد إلى طريقة أخرى. والآن بعد أن انتهى الدفن

وبما أنه غير مرتبط بأحد فإنه قادر على الاعتماد على نفسه بقدر ما تكفيه قواه التي منحته إياها الطبيعة وخبرته، وبإمكانه أن يسمح لنفسه بأن يضغط على خوفه وشعوره بالمخاطرة بالشكل الذي يراه ضرورياً. كان يريد أن يضطر في البداية قسم الحراسة إلى اصطحابه، وليكن تحت الحراب، إلى الرئيس الكبير أو أن يضطر ذلك الرئيس – إذا لزم الأمر – للحضور إلى الحاجز والإصغاء إليه، إلى يديغاي العاصف. عندها سيقول له في وجهه كل شيء...

رتب كل هذا في ذهنه وقرر يديغاي العاصف أن يتصرف دون إبطاء، وكان ينوي أن يصنع من حادث دفن قازانغاب المؤسف حجة لكل ذلك. وقرر أن يظهر تصميماً شديداً عند الحاجز وأن يظل يطالب بضرورة تحقيق ما يريد إلى أن يصغي إليه صاحب المنصب الرفيع وليس تانصيقبايف هذا...

وعلى هذا عقد العزم.

- تاوباكيل[1]: إذا كان للكلب صاحب فللذئب الله! – استجمع قواه وضرب قارانار متوجهاً به نحو الحاجز.

خلال هذا الوقت غابت الشمس وهجم الظلام مسرعاً، وعندما صار قريباً من المنطقة كان الجو قد أظلم تماماً. لم يبق أمامه إلا نصف كيلو متر حتى الحاجز، وأنوار المحرس صارت بادية بوضوح. قبل أن يصل إلى المحرس أسرع يديغاي ونزل عن الجمل. فالجمل لا ضرورة له في هذا العمل ولماذا يحتفظ بهذا العبء؟ كما أن الرئيس قد يرفض التحدث إليه ويقول به «انقلع أنت وجملك. من أين أتيتني. لن أقابلك». وقد لا يدخله إلى مكتبه. إلا أن المهم أن يديغاي لم يكن يعلم إلى ما سينتهي تدبيره هذا، وهل سينتظر النتيجة طويلاً. لذلك فضل أن يتقدم وحيداً وأن يترك قارانار مربوطاً في السهب. فليرع كما يطيب له.

- ابق أنت هنا الآن، وأنا سأذهب وأحاول، ولنر ما سيحدث.

---

(١) تاوباكيل فليكن ما يكون.

- تمتم بهذه الكلمات متوجهاً إلى قارانار، ولكنه قالها – على الأغلب – من أجل الثقة بالذات. ومع ذلك اضطر إلى اناخة الجمل على الأرض لأنه كان عليه أن يتناول من المخلاة حبلاً ويجهزه.

أثناء معالجة يديغاي للحبل كانت تسود في الجو سكينة لا حدود لها لدرجة أنه كان يسمع صوت تنفسه وصوت أزيز بعض الحشرات في الهواء، وفوق رأسه كانت تلتمع أعداد هائلة من النجوم ظهرت فجأة في السماء الصافية. كان الهدوء عظيماً وكأن شيئاً ما سيحدث...

لقد أثار هذا الهدوء العادي بالنسبة لصاروزيكي، حتى لدى الكلب جولبارس، نوعاً من الحذر المتوتر، إذ صار يعوي لسبب ما. فما الذي يمكن أن يعجبه في هذه السكينة؟

- أما زلت تتطنط بين رجلي. – أعرب يديغاي عن استيائه ثم فكر: أين سأذهب بالكلب؟ وأمضى بعض الوقت من التفكير وهو يعالج الحبال بيديه، ماذا سيفعل بالكلب؟ واضح أن الكلب لن يتــركه. يطرده؟ لن يذهب. لا يليق به أن يذهب ليطلب ما يريد والكلب معه. فإذا لم يصرحوا فإنهم سيضحكون، سيقولون: جاء العجوز يدافع عن الحق وليس معه أحد سوى كلب. إذن من الأفضل أن أكون من غير الكلب. وقرر أن يربطه بمقوده الطويل إلى رحل الجمل. فليكونا، الجمل والكلب، معاً في مربط واحد، إلى أن يبتعد عنهما. وهكذا نادى الكلب: «جولبارس، جولبارس، تعال إلى هنا» وانحنى كي يلف الحبل على رقبته. وهنا، في هذه اللحظة حدث شيء ما في الهواء. تحرك شيء ما في الفراغ يرافقه هدير بركاني متصاعد. وبالقرب منه، في مكان قريب جداً، في منطقة المطار الكوني انطلق إلى السماء عمود من اللهب المشع الرهيب. ارتد يديغاي العاصف إلى الخلف فزعاً، بينما انتصب الجمل من مكانه وهو يزعق... أما الكلب فقد اندفع خائفاً إلى أقدام الرجل.

كان هذا أول صاروخ – روبت قتالي من عملية «الحزام» الواقية ينطلق إلى الفضاء الخارجي. كانت الساعة في صاروزيكي الثامنة مساء بالضبط. وفي إثر الصاروخ الأول انطلق الصاروخ الثاني، وبعده الثالث

وتلاها آخر وآخر... كانت الصواريخ تبتعد في الفضاء لتقيم حول الكرة الأرضية مخفراً دائماً، كي لا يتغير شيء من أحوال الأرض.

وهوت السماء على رأسه وانشقت عن كرات من النار والدخان... فهربت هذه المخلوقات البسيطة – الإنسان والجمل والكلب، وقد فقدت رشدها، صاروا يركضون في مكانهم وقد لفهم الهلع، صاروا يركضون وهم يخافون أن يبتعد أحدهم عن الآخر. صاروا يركضون في السهب واللهب الناري الجبار يضيء عليهم بلا شفقة...

ولكن مهما ركضوا فإن ركضهم كان عدواً في المكان، لأن كل انفجار جديد كان يصب عليهم من الأعلى نار ضوء شامل وهدير مدمر من حولهم...

وبينما هم يركضون – الإنسان والجمل والكلب، دون أن يلتفتوا إلى الوراء خيل ليديغاي فجأة أن الطير الأبيض الذي تكون ذات يوم من منديل نايمان أنا الأبيض عندما كانت تسقط عن رحل ناقتها بعد أن اخترق جسمها سهم ابنها المسلوب، قد ظهر فجأة بجانبه من مكان مجهول... صار الطير الأبيض يطير مسرعاً بالقرب من الرجل، وهو يناديه وسط هذا الهدير والنور الساطع:

- ابن من أنت، ما هو اسمك؟ تذكر اسمك. أبوك دونينباي، دونينباي، دونينباي، دونينباي، دونينباي، دونينباي...

وظل صوته يتردد طويلاً في الظلام المطبق.

بعد بضعة أيام جاءت من قيزيل – أوردا إلى أم العواصف ابنتا يديغاي ساوليه وشرابات مع زوجيهما وأبنائهما، بعد أن استلموا برقية بوفاة شيخ صاروزيكي قازانغاب. جاءوا ليؤبنوه وليعربوا عن حزنهم، وفي الوقت نفسه ليزوروا والديهم ليوم أو يومين، فرب ضارة نافعة.

عندما نزلوا من القطار وقفوا جميعاً عند عتبة بيت يديغاي. لم يكن الوالد في البيت، لكن اوقوبالا هبت لاستقبالهم وصارت تعانقهم وهي تبكي وتقبلهم إذ لم تسعها الفرحة بأحفادها، وصارت تتمتم.

- الحمد له يا رب، يا إلهي. كم سيفرح أبوكم. حسن أنكم أتيتم، حسن أنكم تجمعتم كلكم وجئتم. كم سيفرح أبوكم.

- أين هو الوالد. –سألت شرابات؟

- سيعود مع المساء. منذ الصباح سافر إلى صندوق البريد، إلى مدير الناحية. عنده هناك أعمال. سأحدثكم فيما بعد. لماذا تقفون هكذا؟ ادخلوا هذا بيتكم، يا أبنائي...

كانت القطارات في هذه النواحي تسير من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق...

وعلى جانبي الطريق الحديدية كانت تمتد في هذه النواحي مساحات صحراوية شاسعة –صاري اوزيكي والأراضي الوسطى من السهوب الصفراء.

تشولبون – آتا كانون الأول ١٩٧٩ – آذار ١٩٨٠

الطبعة الثانية / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الرواية العالمية

تتميز الحلقة الواحدة والعشرون من سلسلة (روايات عالمية) بتمركزها حول محور (العمل) الذي قامت عليه الحضارة الصناعية عند نقطة انطلاقها أو حول تعريف الإنسان بأنه (كائن عامل) وهي حكمة قديمة ما تزال صحيحة على الخصوص لدى الأمم المتخلفة التي أغراها الفكر النظري فتبنّته في شكله الأسوأ وأسقطت العمل الذي حفظها من الاندثار. ولهذا ينطلق المؤلف من بلده ليستعيد في شخص البطل ماضي بلاده بأبعاده الأسطورية والواقعية فيعيد مواطنيه إلى تقاليدهم الأولى القائمة على العمل ويوجههم نحو العمل في إطار الحضارة الصناعية.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٣٠٠ ل.س أو ما يعادلها